

نور في الظلام

Nur Na Escuridao

رواية

Romance

تأليف سليم ميغل

Autor Salim Miguel

ترجمها الى العربية

يوسف المسمار

Tradutor: Youssef Mousmar

الاهداء

الى الشقيق العزيز جورج الذي كان يعرف هذه القصة ولكنه لم
ينتظر ان يقرأها في رواية ،

الى روح الصديق أنطوان عويس ،

الى إيغلي ،

والى الصديقين:

روبرتو خطيب الذي جعل رواية " نور في الظلام " قابلة للصدور

و يوسف المسمار الذي قام بترجمتها الى العربية

سليم ميغال

(أ)

نبذة عن حياة الكاتب

وُلد سليم ميغال في بلدة كفر صارون الكورة-لبنان في 30 كانون الثاني عام 1924 ، وهو الابن الأكبر لسبعة أولاد ليوسف يعقوب ميغال من مواليد (كفر صارون 1897) وتمينة عطية ميغال من مواليد (أميون 1903). وصلت أسرة يوسف المؤلفة من الوالدين وصبيّ هو سليم وفتاتين وشقيق الوالدة الى البرازيل في عام 1927.

سليم ميغال صحفي وكاتب وكان أيضاً صاحب مكتبة ودار نشر . حصل في العام 1999 على جائزة أفضل رواية لهذا العام وهي رواية " نور في الظلام " ، من رابطة نقاد الفن في سان باولو – البرازيل ، كما حصل على جائزة (ظافاري – بوربون) على الكتاب نفسه خلال التظاهرة الأدبية في مدينة (باسو فوندو) في ولاية ريو غراندي دو سول . وحصل كذلك على جائزة (جوكا باتو) كرجل الفكر لعام 2001 من الاتحاد البرازيلي للكتاب والأدباء .

في عام 2002 نال الدكتوراة الفخرية من الجامعة الاتحادية الفدرالية في ولاية (سانتا كاتارينا) . وحصل على جائزة (ماشادو دي أسيس) من الأكاديمية البرازيلية للأدب عن مجموعة أعمال صدرت في عام 2009 . صدر له 31 كتاباً منشوراً تنوعت موضوعاتها بين القصة القصيرة ، والرواية ، والبيان ، والنقد الأدبي .

(ب)

من هذه الكتب : الكهولة ، وقصص أخرى (1951)،موت الملازم
وأموات آخرون وقصص صغيرة (1979)، صوت تحت الماء
(رواية-1984)، أول نيسان وحكايات (1994) ، الاعترافات
المبكرة (رواية-1998)، نور في الظلام (رواية-1999)، ماري
نوستروم(رواية-2004)، طعم الجوع وقصص قصيرة (2007)
،ذكرياتي مع الكتاب وملامح أدبية (2008) ، يوميات مع روبرت
(رواية-2008) ، تجديد الطفولة (رواية – 2011) .

الطبعة الأولى بالعربية 2013

صدر الكتاب بالعربية عن

دار سائر المشرق للنشر والتوزيع

Obra publicada com o apoio do ministério da cultura do Brasil

e fundação bibliotica nacional brasileira

تم نشر هذا المؤلف بالعربية بدعم من وزارة الثقافة

البرازيلية ومؤسسة المكتبة العامة الوطنية في البرازيل

نور

الليل يلقي بظلمته في الثامن عشر من شهر أيار من العام 1927 على رصيف مرفأ ماوا في ولاية الريو دي جانيرو – البرازيل ، وعائلة مؤلفة من ستة اشخاص حائرة لاتعرف الى اين تتجه في ذلك الليل : ثلاثة كبار راشدين أب، وأم، وخال في العشرين من العمر تقريبا ، وثلاثة أطفال : طفلتان وصبي ، اصغرهم لم يبلغ ستة أشهر ، وأكبرهم لا يتجاوز الثلاث سنوات الا قليلا .

وبعد مرور كثير من السنين تدب الشيخوخة في الأب و يصبح كهلاً كبير السن يحب ان يتذكر ويكرر بالحاح أن يردد الكلمة الأولى التي تعلمها بالبرتغالية والتي وجهت اليه ، والتي سجلها في ذاكرته بشكل مباشر ، وهي كلمة (لوز) ومعناها في العربية نور . انه يصمت . يفكر . يُركّز . يشرد ليتمكن من العثور على ما يريد . الذاكرة الناشطة تتراجع يسعى لأنقاذ الماضي واستعادته من اعماق الزمان . يخترق ظلمة الهاوية وقد صار زمن اليوم بالنسبة اليه أمساً ماضياً .

الوالد يرتب نفسه ويجلس على كرسي من القش المجدل . يقضي جالسا عليها الآن معظم ساعات يومه . بيده مذياع صغير (راديو) على البطارية يضعه على أذنه ، ويرفع صوت الراديو ليتمكن من سماعه ، يعطي انتباهه الكامل لنشرة الأخبار القادمة . لقد بدأت النشرة . يطلب السكوت . لم يمر وقت طويل حتى يغيّر محطة المذياع وينتقل الى محطة أخرى . وبعد تقديم التعليقات كان يفرح

أو يغضب بحسب ما تسره او تغضبه التعليقات بعض المرات يقول:
 حسناً . جيد . يبدو ان هناك امكانية لتحقيق حل سلمي .ولكن في
 جنوب أفريقيا يفعل التمييز العنصري فعله . يصيح مرة أخرى : أين
 يمكن ان تجدوا هذا ؟ غير معقول . غير معقول مشيراً الى كل ما
 يحصل في البرازيل ، مرددا :ارتفاع تكاليف المعيشة . يتشدقون
 بالأرض الصالحة للزراعة ويستوردون حتى الذرة . تغيير السياسة
 النقدية لسعر الصرف . لا أحد يستطيع تحمل ذلك .حادث سير جديد
 على طريق ب.ر. 101. انها الحالة عينها ولا شيء غير ذلك كما
 هو في كل جزء من العالم . حرب في فيتنام . يا لها من ضربة قوية
 يتلقاها الأميركيون !انني أشفق لحال اولئك الجنود المأمورين .

قتال أيضا بين اليهود والعرب في منطقة الشرق الأوسط ، وجميعنا
 نحن ساميون .حصار تفرضه الولايات المتحدة الأميركية على كوبا . يا
 للعار ! عملاق ضد جاره الصغير الذي لا يملك من القوة الا ما يملكه
 قزم في مواجهة عملاق . بعض الأحيان يستمع الى مقاطع من
 الموسيقى مركزاً على مقطع واحد دون غيره من المقاطع الموسيقية
 التي يستسيغها انتباهه . يطلب من الحاضرين ان يستمعوا اليه . انه
 المغني سيرجيو ريكاردو الذي يذكرني بموسيقى الأرض - والأرض
 يمكن أن تكون أرض البرازيل أو أرض لبنان البعيدة . ينسى انه ابلغ
 فعلا والده ان سيرجيو ريكاردو هو الأسم المستعار لجوان لطفي اي
 حنا لطفي السوري الأصل .

الآن ينظر الى اولاده من خلال الضباب الذي يطمس الرؤيا ،
 والكنائين ، والأقارب ، والأصدقاء ، والى جميع الموجودين من

الزائرين , ويتلفظ بكلمات عربية . يقول : ذهب . لقد حانت ساعة الذهاب الى حيث زوجته : تمينة . ان الذكريات تخنقني . ويردد

ويردد ، ويردد : نور ، نور . انه تائه في عالم من ضباب . يعود باستمرار وللمرة الألف الى تردداد نفس القصة ، بشكل متجدد ومثير بالنسبة له . ولكن بعض الأحيان يضمنها محتويات أخرى ، الا انها دائما بنفس البداية التي تتناول : " في تلك الليلة ، في يوم 18 أيار من عام 1927 ، وعلى رصيف مرفأ ماوا في مدينة الريو دي جانيرو في البرازيل . "

لقد وصلوا للتو الى رصيف المرفأ . (أي الأسرة) انهم يشعرون بالتعب ، فهم مرهقون ، ضائعون ، محاصرون في وسط الضجيج الحاد ، حيث تختلط الأصوات بالضحكات والقهقهات والصراخات والنداءات والشتائم وبكاءات الفرح ، وتمتمات وتأوهات الخيبة ، والإسئلة الكثيرة بلغات شتى كالإيطالية ، والألمانية ، والفرنسية والإنكليزية باستثناء اللغة العربية التي لم يتسن لنا سماعها في تلك الزحمة الخانقة .

انهم محصورون ومحجوزون في وسط أناس آخرينلا يعرفونهم

ولا يعرفون الإتجاه الذي ينبغي ان يتخذوه ، ولا المصير الذي ينتظرهم . يتلفتون حائرين وانظارهم شاردة باتجاه البيوت والحانات والقوارب الصغيرة ، والسفن الراسية التي تتمايل

قليلاً ، والأعمدة وعواميد الإضاءة ، والناس الذين يروحون ويجيئون ، ويدخلون ويخرجون مع أخذ الحيطه لكي لا تبللهم

المياه التي تضرب رصيف الميناء وأطراف السفن كما لو أنها نداءات تختلط بضجيج الناس. انهم بحاجة ماسة الى الخروج من هذه الحيرة واتخاذ قرار .

في تلك الليلة الخريفية الحارة من ذلك العام حيث كانت تهب النسيمات الخفيفة التي كانت تحمل رائحة الهواء المالح التي

تختلط بروائح أخرى يصعب تعيينها ومعرفتها. فضلا عن الاحساس المتزايد بالارتخاء الممزوج بالرهبة والانتظار والفضول وفتور العزيمة. العائلة تلتئم حول بعضها البعض اكثر فأكثر. وكل فرد يتكئ على غيره ويلوذ به . الطفل الصغير يشكو دون ان تفارقه كلمة : " أمي " . ممسكاً بيد أمه مردداً : " أمي أمي " ، والطفلة الأكبر سناً بقليل تطلب حضان عمها . والطفلة الأصغر تبكي وتئن بدون توقف. والوالد ضائع لا يدري ماذا يفعل ، ولا يعرف الى من يتوجه ، وممن يطلب العون .

الأب يغرق في صمته ويشرد مستذكراً زوجته تمينة وخواطره تراوده، ولسان حاله يقول : كم كانت الحياة تكون أجمل لو انها كانت معه زوجته في هذه الأوقات العصيبة لتشد من أزره وتساعدته وتقوي من عزيمته . عيونته تغرق في دموعه من الحزن على فقدته زوجته باكراً . انه الموت الظالم الحقود . و ليس لأنه لا يريد رعاية اولاده وقد اتعبوه . انه لا يشكو من شيء من هذا القبيل بل لأنهما كانا زوجين متحابين متحدين. وعلى الرغم من ان زمنا غير يسير قد مر على فراقهما ، ولكنه ما يزال حتى اليوم لا يستطيع ان يتقبل ما حدث لهما ، لأن زوجته تمينة تركته ورحلت باكراً جداً . لذلك يقول

ويردد : " لقد رحلت قبل الأوان يا تمينة ، وتركتني وحيدا في هذا العالم . فأنا من كان عليه أن يرحل عن هذا العالم قبلكِ بسبب سوء صحتي،ولستِ أنتِ .كم كانت صحتكِ جيدة وتمتعين بعافية تامة! ولكن المرض الفجائي اللعين هو الذي عجلَّ برحيلكِ ووفاتك في ثلاثة أيام . "

نعم – نعم . ان تمينة كان بإمكانها ان تساعد على استعادة الماضي واسترجاع ذكرياته فيتذكر أكثر وأكثر . لقد كانت ذكية وحساسة . كانت هادئة وحازمة ، وصاحبة قرار . لكن ما العمل حيث لا وفاء في الدنيا ؟ حيث لا هوادة فيها ؟.

ومن جديد يصمت الأب . ينظر الى الشارع المقابل . يريد ان يعدّ السيارات المارة أمامه . الرؤية دائما تكون أضعف في هذه الساعة الداكنة من النهار حيث تزداد حركة المرور . انه يتلوى على كرسيه الهزاز امام النافذة، ويتأرجح في نفس الوقت بين حاضره وماضيه . أنه يريد أن يستقر في مكانه . يريد أن يجعل الذين يستمعون اليه شركاءه في كل شيء فيرتجفون ويهتزون لارتجافاته واهتزازاته . يريدهم أن يعيشوا كل ما عاشه هو من الاحداث . كل ما تريده نفسه يريحه ويريد ان يستمر الى الابد . يريد أن يكون الشارع الذي امامه هو المرفأ ، ومحل الدهشة ، والجمود والارتباك ، وحركة السير ، والسيارات والزوارق على صفحة الماء . الوالد سوف يصل للتو ، لا ، انه ليس هناك . لم يصل باكرا في ذلك المساء الى شارع : ريو برانكو رقم 84 في مدينة فلوريانوبوليس . ولكن لابد من الانتظار مرة أخرى ومن مساء آخر على رصيف مرفأ ساحة : ماوا وداشما

في 18 ايار من نفس العام 1927 ، والمسكن الجديد الذي يجب ان يتكيفوا معه ، و عليهم ان يتعلموا محبة الآخرين ويوفقوا بين مفهومين من مفاهيم العالم والحياة.

انه غارق في بقايا ذكرياته , يتحرك متراوفا بين الامام والوراء ، ويريد من الجميع ان يتابعه في رحلته ، في توفقه

واندفاعه الى خسارة نفسه من اجل ان يجدها ، شارحا من جديد . ولكن المرأة , زوجة يوسف ، الحبيبة تمينة ، تتحول اليه وتجذبه بكم قمبصه قائلة له : " والآن ، بربك ، بالله ماذا علينا ان نفعل الآن ؟ ") وقد تعود يوسف فيما بعد مثل الآخرين ان يُسمى (بجوزي) وان يقبل هذا الاسم على مضض الذي كان يبدو له غريبا ، وبنظره يشير الى شخص آخر وليس الى الزوج يوسف او الحبيب يوسف) . انهم مشتاقون ويشدهم الحنين الى السفينة التي أقلتهم ، الى الملجأ الذي حملهم في الايام التي كانت تبدو بلا نهاية ما بين سماء وسماء ، وبحر وبحر ، ومياه ومياه ، وريح وريح ، وزبد وزبد ، وما زالوا حتى الآن يشعرون انهم يتأرجحون وانهم موجودون وغير موجودين على ارض رخوة وغير مستقرة .

من الضروري والحالة هذه ان يتخذوا قراراً ويتخلصوا من تلك الحيرة . بكاء الطفلة في حضن خالها يزداد ويقوى ، والطفل الاكبر سناً يفلت من يد تمينة ، ويوسف يركض خلفه ليمسك بيده . الطفلة الأخرى بدورها لا تهدأ وصعبة المراس ربما كان ذلك بسبب الجوع ، أو بسبب العطش ، وربما بسبب النعس، وربما بسبب الخوف . ولكن من من هؤلاء الأشخاص الذين يمرون أمامه ؟ ألم يكن خائفاً ؟

شقيق الأم يمسك بيد الطفلة ويحضنها في حضنه ، وهو الشقيق الآخر المتعاطف معهم الذي لم يتردد في مرافقتهم تلك الرحلة المضطربة الى الجانب الآخر من العالم . يبدو حائرا ، فالسفرة كانت الى جهة مجهولة المصير وحتى الآن هي اكثر من ذلك ليس لها نهاية ، حتى ولا نهاية متوقعة .

الأب يعاود الامساك بخيط سرد رواية ، وهذه هي تقنيته الخاصة به التي تعود الى اساطير وحكايات أجداده القدماء الرائعة والتي سمعها او قرأها في ما مضى . وبدون مقدمات يعود الى ساحة ماوا ، الظلمة تشتد ، ورصيف المرفأ يفرغ من الناس شيئا فشيئا ، الوقت ينقضي والساعات تكرر بطيئة بالتنقيط، دقيقة بعد دقيقة كنقط من الزيت المتساقط بصعوبة عبر الوقت . انهم يفقدون امكانية التركيز على اي شيء ، وتضعف لديهم قوة العقل بحيث لا يقوون مجتمعين على التفكير بوضوح ، ويبحثون عن حل كملجأ يلوذون به دون ان يعرفوا اي موقف يتعين اتخاذه ويمكن ان يلجأون اليه.

هناك جلست تلك العائلة الآتية من بلاد بعيدة حائرة مرتبكة . اما الأب فراح يتساءل : من أين أنت كل تلك الشجاعة على المخاطرة ؟ وخاصة على هذه المخاطرة التي قمنا بها ؟ اننا لانجد من نلتجى اليه ، ولا الى أين ينبغي علينا أن نتوجه.

يتساءل أفراد الأسرة: هل ما قمنا به كان خيرا أم كان شرا؟ وهل فعلنا حسنا أم فعلنا سيئا ؟ وتعانق تمينة أطفالها وهي متوجهة الى زوجها قائلة : "يوسف ، حبيبي : ماذا علينا أن نقرر عندما نصل ؟ "

ويجيبها الزوج بقدرية هي علامة بارزة من مزايا النفسية الشرقية : " ليكن ما يكون." أي ما سيكون فهو كائن .

تتوجه بعدها تمينة الى شقيقها حنا (وهو ايضا يتغير اسمه فيما بعد ويصبح : (جوان) وتقول له : قل لي ألم يكن من الأفضل أن نترث ومنتظر فترة أطول في بلادنا ؟ ، أو في مرسيليا ونفكر قليلا ؟" يهز شقيقها حنا رأسه فقط من غير أن يجيب على أسئلتها . يصمت قليلا ، ثم يبدأ بطمأننتها ، ويحاول تهدئة الأطفال الذين كانوا يبكون . يوسف ينظر الى البعيد ويجول في خاطره . ويقول في نفسه أنه لم يكن من الحسن أن يجيبها بتلك العبارة : "ليكن ما يكون" اذ لا يمكن الاستمرار والبقاء في تلك الساحة ساحة ماوا التي كانت تفرغ من الناس المارة شيئا فشيئا ، وبدأ ظهور وجوه اخرى من الناس تثير الريبة والشبهة في الأمكنة المحيطة .

الأب يتوقف عن الكلام , ومرة أخرى يطلب من الجميع الصمت . لقد حانت ساعة موعد الأخبار . وفي المكان نفسه، وفي اليوم نفسه ، ومرة أخرى ؟ لا يهم ! ومرة أخرى على الجميع ان لا يتكلم أحد منهم . فقط هو وحده الذي يحق له ان يعلق على خبر أو خبرين . الجنغو يتوجه نحو الناس المتواجدين في الساح . المجموعة مرتبكة ويمكن ان يحصل اي شيء من التشوش وسوء التفاهم ، فالساحة تضج بالعسكريين ورجال الاعمال وموظفي المصارف وغيرهم وغيرهم من الناس ...

ومرة أخرى ينقطع حبل سرده ولكنه يعود ليعانق الازمنة البعيدة في مرات ومرات ، وفي مناسبات مختلفة ومدن مختلفة ايضاً ، متطرقاً الى مدن مختلفة مثل : بيغواسو ، وفلورينوبولس ، وريو دي جانيرو ، في نفس الحبكة ، ونفس الشبكة التي تتناول وتشرك الآباء والأسرة حيث ستكون البداية عند بدء صدمة الوصول والنزول الى رصيف الميناء .

لقد أصبح اكبر سناً ، وأكثر إنحناء ، وأكثر متعباً ، وأكثر صعوبة على التنفس . الأب ليس في غرفته ولا في منزله في مدينة فلوريانوبولس ، ولا على كرسيه بالقرب من النافذة حيث كل شيء بالنسبة اليه مألوف وحميم وعائلي . ثمة عامل آخر هو البيئة ، انه الان في مكان آخر يتوكأ على عصاه ويمسك بمذياع (راديو) صغير ويتنقل بصعوبة، اما في شقة ابنه الواقعة في شارع بايزندو ، او في شقة أخرى مثلها في الطابق الثالث الهاديء في شارع سينادور اوزيبو ، وكلا الشقتان في نفس حي فلانغو .

انه يتنقل بصعوبة بارزة من شقة الى أخرى . ينادي حفيده ، ويطلب الماء . ينادي كنته ، وينادي حماة ابنه . انه يريد التحدث مع اي كان . يجلس الى جوار النافذة متنهداً . وشعاع الشمس في هذا الصباح الشتائي يدخل غرفته ويستقر بوضوح على وجهه . انه يريد ولا يرغب ان يشاهد ويسمع العجقة والضوضاء الشديدة التي ترتفع في الشارع . لكنه ويريد ان يعرف أي شيء او يسمع أي صوت في اشارة .

الأب يذهب الى مدينة ريو دي جانيرو لقضاء بضعة أيام هرباً من شتاء قارس في مدينة فلوريانوبولس ومن المطر والريح العاصف الجنوبي كما وصفه الشاعر كروز إي سوزا بالريح الهوجاء التي تسمى بالريح القاتلة للشيخ المسن العجوز .

لا يكاد يصل الى ريو دي جانيرو حتى يفكر بالعودة الى منزله او ما يمكن تسميته بمأواه في شارع أفينيدا ريو برنكو في مدينة فلوريانوبولس ، فهو يسأل للتو عن الطقس ويجيب نفسه: "لقد تحسن الطقس هناك اليس كذلك ؟ لقد سمعت ذلك في الراديو . انني اعرف . لقد تحسن الطقس عيّنوا لي موعد العودة . عيّنوا لي موعد العودة الى بيتي . أريد أن أعود " . يجيبه ابنه : " ما هذا الذي تقوله يا والدي ؟ انك لم تكد تصل حتى تفكر بالعودة ، اليس هذا البيت هو بيتك أيضاً ؟ قل لي ياأبي ما هو الشيء او العمل المهم الذي تريد أن تقوم به هناك ؟ " .

يجيب الأب : " ولدي ، ابني ، انا أعرف ذلك . ولكن أريد أن تفهني أنت ، وأن تفهم ما بي " . وعندما كانوا يلحون عليه في البقاء ، يصبح الأب أكثر عنادا وتصلباً وعصبياً ويدفع كرسيه ، كعلامة احتجاج ، الى جوار النافذة . ويضرب بعصاه بقوة على الأرض ويروح يغني بعض الأغاني بالعربية ، ويترك الراديو جانباً ، ويتمتم بعض الكلمات بشكل غير مفهوم ، أو يردد قصيدة من قصائد الشاعر عمر الخيام ، وبشكل خاص قصيدة : " جنّت الى العالم ولا أدري لماذا أتيت ، ولا من أين أتيت ، كما تجري المياه المتتابعة ، وأترك العالم وأخرج منه كالريح ، كشيء تافه بلا قيمة ، و لا أعرف الى أين يكون هبوبها أبدا . "

وهكذا يأخذ بملاحظة الناس من حوله مردداً ببطء وبصوت خفيف بعض المقاطع من الشعر .

ويأتي الأب وابنه للتو بعد الصلاة من الكنيسة الأرثوذكسية الواقعة في شارع أفينيدا غومس فرييري ، وهي الكنيسة التي يصر ويشدد بشكل حاسم على الذهاب إليها بمجرد وصوله الى مدينة ريو دي جانيرو . وفي الكنيسة يستغرق في حديث مطول مع المطران ، حيث يحيط بهما أصدقاء جدد وبعض أبناء منطقتهم من المهاجرين ، وربما من أقاربه المهاجرين أيضاً . وبعد قليل يكتشف في النهاية خصوصاً أن القادمين من بلد صغير كلبنان أن الجميع يصبحون أقرباء عاجلاً أو آجلاً . وهذا هو الواقع الذي لا شك فيه . فالجميع يتناوبون الحديث فيما بينهم ويتساءلون ، ويستفهمون . فهذا يسأل أحدهم ويقول : ألسنت أنت من عائلة عطية ؟ آه ! لقد حذرت . وزوجتك ليست قريبة أو لاد عمي الذين لهم ابن عم له قرابة بعيدة بها وكانوا يسكنون في منطقة قريبة من بلدة أميون ؟ وهي قرية أصغر من أميون ؟ والأب ، نعم ، لا أتذكره بشكل أكيد ، وزوجتي المرحومة تمينة كانت من عائلة عطية من أميون وهي عائلة معروفة ومحترمة . أنا من بلدة كفرسورون المجاورة لأميون وهي قرية أصغر من أميون أيضاً . والأقارب في البرازيل ؟ لا أعرف اذا كان لتمينة أقارب في البرازيل . يمكن أن يكون لها أقارب في البرازيل . أغلب أقاربها في الولايات المتحدة الأميركية . والدها في الأرجنتين .

وأنت يا يوسف أو (يا جوزي حسب السائل الفضولي الذي يريد أن يعرف أكثر عن الأقارب) من أي عائلة أنت ؟ آه !

نعم . قل لي ، واشرح لي جيداً يا صديقي ، وهل كان مشروعك اللقاء بالأقارب والشبائن ؟ وكيف حصل وانتهى بك المطاف ووصلت الى البرازيل وأصبحت شهرتك ميغال ؟

الحقيقة لا أعرف ولكن بالنسبة للبرازيل نعم فقد كان هناك ما هو غير متوقع في طرابلس ، فأختي الموجودة في ماجي ، وأخي الآخر الموجود في الشمال هما سبب مجيئي الى البرازيل . أما بالنسبة لإسم الشهرة ميغال فلا أعرف شيء عن ذلك . ربما بالنسبة لجواز السفر الفرنسي ، ميشال وربما لصعوبة اللفظ بالبرتغالية . فاسم الشهرة أصبح في البرازيل ميغال . وذلك أسرع من تحويل اسم يوسف الى جوزي . أو زي غرينغو . وهكذا بقي اسم يوسف غريباً لمدة طويلة حتى استقر في النهاية على اسم جوزي . وقد قال احد السائلين أن الأمر في الولايات يختلف عن البرازيل والتكبير شائع واسهل ، اذ سرعان ما يكتسب اسما اميركياً .

اما في البرازيل فالمألوف هو التخلي عن الاسماء الاكثر تعقيداً والاسم يصبح في اكثر الاحيان اسم الشهرة .

انها محادثات طويلة وتشتمل على شيء من الغموض والتشويش فيختلط العربي بالبرتغالي أو لا هذه اللغة ولا تلك فالمجموعة تتكلم لغة معكرونية فيما بينها . الجميع يحيطون بالوالد ، وكل شخص يستعين بذاكرته ويتحدث ويروي بعض الحوادث الصغيرة التي

حصلت اثناء الرحلة ، متحدثا عن متعة اللحظات الدرامية التي مرّ بها ، ومرت عليه ، او مبتسما (حتى يخفي مشاعر التأثر الذي عاناه) ، راويا اللحظات الاولى والتكيف الصعب مع البيئة الجديدة والعادات والتقاليد المختلفة . تارة يروي ذكرياته كما لو كان لا يزال يعيش في البلد الام ، وتارة يروي عن البيئة الجديدة والمشاهد الخلابة المتنوعة والمتعددة في المدينة التي يعيش فيها أو كان يعيش ، أو يفكر في العيش فيها . ودائما لا ينسى تجارة البيع الجوال . وهل يوجد أحد استطاع ان ينجو من مهنة البيع والتجول في الشوارع والقرى ؟

الإبن ، بدوره ، بدأ يحضر ندوة الاحاديث , وهمّه معرفة المزيد ، ولكنه كان يشعر بالحرج والانزعاج عندما كانوا يشكون . لقد جاء من لبنان حيث بدأ بتعلم اللغة العربية وهو اليوم لا يفهم اية جملة من لغة اجداده باستثناء كلمة (صديق) التي يستعملها عندما يجيب على سؤال لا يفهم فحواه . ولكن عند الالاح تستعمل جملة (ياالله حبيبي) والحقيقة انه من المستحيل ان ينسى الانسان كل ما تعلمه في صغره ، لأن ما تعلمه في الصغر يبقى مخزنا في داخل أعماقنا . فعندما نسأل ما هو بيت ؟ فالجواب هو في فكرة مبهمة . وهذه الكلمة ليست صعبة ، ولكن عند المخاطرة في الجواب فالجميع كانوا يتضحكون ويصفقون . ولكن بعض الظرفاء يتدخل ويقول : " فقط هذا ؟ اليس غير ذلك ؟ "

وهكذا تراه غارقا في التفكير ، ومتسائلا كيف ان كل شيء هنا غريب . ولذلك يحترق ويتساءل أيضا ويسأل : " أهذا او غير هذا ؟ ما هو

الصحيح ؟ حتى يضحك الجميع ، ويروح أحدهم يمزح ، ويقارن بين كلمة (بيت) وكلمة (بيض) ، واذا كانت كلمة بيت تعني بالبرتغالية (كازا) وكلمة بيض تعني (أوفو) ، فان كلمة بيض لا تترك ان تكون بيت فرخ الصوص . يقول : " لقد كنت احيانا اشعر بالغربة والخفة عندما يبدأون بالتحدث بالعربية عندما يصل مهاجر جديد لا يعرف شيئا من اللغة البرتغالية ، ففجأة يرون ان الافضل ان يتحدثوا باللغة الاصلية فأصير حبيس السمع وأكتفي بسماع جميع الاصوت التي يتلفظ بها الاخرون محاولا التقاط بعض الكلمات ، بينما المعنى العام الحقيقي كان يهرب مني ، وكان من الصعب علي ان افهم الجمل والعبارات المتداولة ومعانيها . فاذا كانت كلمة بكاء (شورو) سهلة ، فان كلمة " يُحدّث " تعلق في الحنجرة ، ويهرب معناها بالكامل ، حتى ان الوالد يقول : " انه عنيد ، عنيد ورأسه راس يابس . "

وفي طريق العودة الى الشقة يُصرّ الوالد على البدء من جديد بالتعلم . فالأوان لم يفت بعد ، ومهما طال الزمن ، فان باب التعلم والعلم لم يُقفل أبداً . وقد قال لي المطران انه مستعد لتعليمك ، ويكفيك ساعة درس في الاسبوع لتتعلم اللغة ، وقد بدأت دروسك بشكل جيّد ، والعلم لا يضر أحداً ، ولا يمكن أن يؤذي أحداً ، ولا أريد ان نعود الى الجدل في الأمر كما حصل في المرة الأخيرة . الأب ملحاح ويصر على تعليم ابنه اللغة ويقول له : " ان كل لغة تساوي شخصا وتعلم لغتين يعني انك تساوي شخصين . والذي تتعلمه في صغرك لا يمكن أن تنساه وستحمله الى كبرك ويرافقك في حياتك . لا تنظر الى الأخطاء وعلى عدم القدرة على الكتابة بشكل غير واضح ولا تهتم ، فهذا شيء عادي في بداية التعلم وكذلك يحصل حتى في كتابة

البرتغالي . وابق معنا يا ولدي ،فقريباً ومن دون ان يمر وقت طويل تستطيع تعلم اللغة العربية والتكلم بها بكل سهولة . لقد بدأت بشكل جيد وقريباً تستطيع ان تقرأ وتكتب وتفهم " . من المحال اقناع الوالد بأن الأمر صعب ويمكن نسيان بعض ما يتعلمه الانسان لأي سبب . لقد تعلم بعض الكلمات في البيت ويحفظها بطريقة عفوية ككلمة: (زبرا) قضيب الذكر و (زبرا بطيزا) وهي كلمات لا تمت الى الحشمة بصلة كما انه من غير المستحسن ترجمتها . هو يذهب فقط الى الكنيسة بمرافقة والده وعندما يسأله المطران لماذا لا تأتي مع الأقارب ؟ ، فيقول لوالده : لماذا لا يأتي الآخرون ليتعلموا ؟ لماذا عليّ انا فقط أن أتعلم ؟

مرددا في سره لماذا عليّ ان أرافق يوسف الى الكنيسة ؟

(الأب الذي صار اسمه جوزي في البرازيل يعود في الكنيسة الى أصله ، ويصبح يوسف ، وينادونه يا يوسف) .

كانت هذه اللقاءات تحصل حصل على الأكثر مرتين او ثلاث مرات في السنة في شارع أول آذار أوشارع الجمارك أي شارع (بريميرو دي مارسو) و شارع (ألفانديغا) حيث يلتقي المهاجرون ، وتتردد العبارات من مثل : " يجب ان لا نتنكر للأصل الذي ننتمي اليه . نحن بحاجة ان نعرف تاريخ أرضنا الغنية بالأحداث بأشياء كثيرة . نحن بحاجة الى الاشتراك في اجتماعات الجالية . يجب ان نتكامل . يجب ان نشترك بنادي جبل لبنان . يجب ويجب ... "

ان المطلوب من الوالد ان يقوم بثلاث زيارات أخرى الى معقل تجارة اللبنانيين والسوريين في مركز مدينة ريو دي جانييرو ، وخاصة

الشوارع التي يشير اليها المطران حيث توجد المحلات التجارية الكبيرة والصغيرة ، وهناك يذهب الى مطعم الكبة والصفحة، ويشرب العرق ويسأل اذا كان الزعتر قد وصل من لبنان ويشترى عدة علب من زيت الزيتون ، كما يأكل بعض قطع الحلوى المشبعة بالدهن التي تقزز النفس ، دون ان ينسى زيارة ابن بلده الذي استقبله بكل ترحاب في ساحة ماوا ، والذي يجلس صامتاً هادئاً يراقب المراكب ، والحانات (البارات) ، والبيوت ، والمارة . وكذلك زيارة منزل الشقيقة في منطقة ماجي ، والقيام برحلة في القطار نفسه متذكراً أول مرة وصل فيها الى هذه البلاد واكتشاف هذه المنطقة من الأرض . لقد كبر أولاد الشقيقة ، وواحدة من بناتها تزوجت مع شخص ايطالي وهو محدث لبق حيث يمضي وقتاً طويلاً معه في احاديث مطولة تتناول جميع الشؤون : اولا بما يتعلق بالمستجدات والأمور الجديدة ، وأخبار آخر ساعة في لبنان ، والانباء الحديثة ، ثم السؤال عن ذلك الشقيق من شمال لبنان والذي لا يعرف شيئاً عنه أبدا ولم يحدثه أحداً أنه التقى به أو أحد يعرفه مكانه.

الأب يقول : ان والدي كان هنا وقد سألت عنه كثيرا تارة بسم ميغال ، وتارة باسم (جهانهر) ولكن لا جواب ولا خبر. أما الشقيقة فانها تهز رأسها بما يدل على اليأس ملحاً على شقيقها يوسف أو جوزي البقاء عندها عدة أيام ، وهي لا تفهم حتى الآن ما هي الاسباب التي دفعتهم الى ان يذهبوا بعيداً عنها . لماذا لم يبقوا في مدينة ريو دي جانييرو ، هذه المدينة التي تكيفوا معها منذ اللحظة الأولى التي وصلوا اليها؟ لو أقاموا في هذه المدينة لكانوا استقروا وكان لهم اليوم محل تجاري مستقر بدلاً من هذه التجارة الجواله والبيع والتعب في

الطرقات والأحياء والقرى النائبة وكانوا الان يمتلكون بيتا يسكنون فيه بالقرب من محلهم التجاري، في منطقة معينة في مدينة ماجي ، او تيريزوبولس أو بيتروبولس ، أو حتى في مدينة ريو دي جانييرو بالذات .انه يردد: "لا شك ان الأيام الاولى والبداية تكون دائما صعبة " ، ولكن ما هو معنى هذا التفكير الجنوني الذي ادى بهم الى الانتقال الى ولاية سانتا كاتارينا ؟

ما كادت الاسرة تصل مساء من مدينة ماجي: الأب، والابن ، وحماة الابن ، وأولاد الأبن .حتى كان رأس الاب في حال من التشوش والأضطراب تتقاذفه اشياء كثيرة مربكة ، فهو لم يكد يصل الى منزل شقيقته حتى تركه وذهب الى منزل ابنه في مدينة الريو دي جانييرو ، ولم يكد يدخل منزل ابنه حتى تركه وذهب الى منزل أحد ابناء وطنه من المهاجرين . يطلب الأب كأساً من الماء . يرشف من الكأس رشقات صغيرة. يتنفس عميقاً ثم يرغب في تناول فنجاناً من القهوة. الجميع يجلسون ، فهم بحاجة الى قسط من الراحة . ثم تبدأ الاحاديث عن الكنيسة . عن زيارة ابناء الوطن المهاجرين ، عن قضاء اليومين في منزل الشقيقة. لقد جلبوا معهم ذكريات مرة وذكريات حلوة . ذكريات منها ما هو جديد ومنها ما هو قديم. الاب في حديثه يطفو على سطح الأشياء ، يتردد، لا يستقر على رأي ، يقفز من موضوع الى آخر، ومن آخر الى آخر ايضا وأيضاً ، يعرف ولا يعرف ماذا يريد ، ومن جديد يعود الى عاداته القديمة في تكرار سرد ما تعود عليه والتي تعود الى سني حياته الطفولية ورواية الاساطير الخرافية والوهمية الرائعة التي كان يسمعها في طفولته. وفجأة تتشابك وتتداخل الأشياء لديه فيعود الى شرح الأمور التي أصبحت أكثر من معروفة

لدى الجميع، ولكن بأسلوب وأشكال أخرى في السرد، وتركيب العبارات التي يتقنها الاب والتي تشبه مسلسل رواية " ألف ليلة وليلة ". ان لديه دائما توابل وبهارات جديدة تجعل من سرده لطيفاً على الذوق . فجأة يخرج من شقة ابنه كما يحصل له في مدينة فلوريانوبولس تائها على غير هدى، لكنه حاضر داخل عالمه بمبحر مع افكاره . تارة يتقدم ،وتارة يتوقف أو يتراجع ، وتارة ينقبض ، واخرى ينطلق ، ثم يعود الى الشرح قائلاً : يجب ان نكسر الجمود ، من المستحيل أن نبقى ونستمر على ما نحن عليه في ساحة ماوا . يأخذ رشفة أخرى من الماء ويتمتم بصوت خافت، ثم يرفع صوته ويقول : أمامنا يوجد سيارة أجرة قريبة . سائقها زنجي وهي سيارة جيّدة وهو ينتظر الركاب . هيا بنا الى هناك . لقد أوماً بيده . ثم أوماً وأوماً . ابنه البكر يبدو عليه الخجل . يمسك بساق أمه . يراقب بمزيد من الدهشة والفضول . يتقدم من والده سائلاً مستفهماً : ألا يوجد في بلادك يا أبي أناس ملونون ؟ السائق يضحك ويهز رأسه مع توجيه أصابعه باتجاههم ثم يشير الى السيارة ان هيا تفضلوا .

الآن الحركة خفيفة ومتقطعة ، والليل يطبق على الجميع ، وحركة تلاطم الموج مستمرة ، ورائحة البحر تنبعث وتقوى وهي التي كان يرافقها دائماً . الشعور السائد انها تختلط مع كل شيء . مع التنشق، مع الملابس، مع الطعام ، بالجسم والروح . الأب يتأنيء، يحول وجهه الى زوجته ثم الى قريبه ويقرر مناديا السائق بايماءة منه ، وفورا يلبي السائق الطلب كما لو انه كان بانتظار ذلك منهم . وبيده التي تمسك بدفتر صغير يشير الوالد الى صفحة في الدفتر كتب عليها بعض الكلمات يطلب منه قراءتها . يحاول الرجل قراءتها ومعرفة ما

فيها ويجهد نفسه لقراءتها في تلك الظلمة. وبينما الأب والأسرة بكاملها في انتباه شديد لما سيأتي يسمعون جميعا الكلمة السحرية : (لوز) أي ضوء أو نور . لم يفهم الأب ما يريد السائق ان يقوله . وعبثا يردد الرجل بصوت أعلى ، وأعلى : لوز . لوز أي : ضوء . ويتغضن وجهه ويحك رأسه ثم ينفرج وجهه عن ابتسامة تظهر اسنانه بشكل كامل ويخرج من جيبه علبة كبريت (الأم تتمتم) ويشعل عود الثقاب ويردد مشيرا الى خفقان اللهب : بسرعة . ضوء . عود الثقاب يكاد ينطفئ . أشعل عود آخر . وبتشديد يكرر نفس العبارة : لوز أي ضوء . قبل كل شيء (لوز) ضوء . وعندئذ فقط يفهم الأب الكلمة التي يستحيل نسيانها وتنتفتح ابواب جديدة أمامه على العالم الجديد ويهز برأسه . يبتسم السائق مرة أخرى ويقول : (لوز) ضوء . ويردد بعده الوالد ايضا : (لوز) مضيئاً كلمة نور . إلا ان ذلك لم يجد نفعاً ، فالسائق لم يستطع تخمين وقراءة ما هو مكتوب بل يحتاج الى ضوء أقوى ووضوح أكثر . لذلك يأخذ الدفتر من يد الأب . ويشير اليهم ان يتبعوه فيتبعه الجميع ويسيروا الى ان يصلوا الى عمود إضاءة . الإضاءة كانت خفيفة لكنها كانت على الأقل دائمة .

الآن يستطيع رؤية ماكتب على عجل ، وعيون السائق تحقق وتتابع بانتباه كامل ما هو مكتوب على الورقة وتكتشف بصعوبة المكتوب ، ثم تتحرك شفتا السائق بابتسامة وبهزة ويرفع رأسه راضيا بما توصل اليه . لقد استطاع ان يحل الرموز ويقرأ كل ماكتب ، ثم ينظر الى الأب والى الأم والى بقية افراد تلك العائلة المترقبين . يبتسم ويعطي ايماءة برأسه وتتسع ابتسامته . نعم ، نعم انه الآن يعرف . لقد فهم وله تجربة كبيرة في هذا المضمرة . وليست المرة الأولى التي يواجه فيها مثل هذا الوضع . فقد اعتاد على مواجهة اوضاع مماثلة .

وأما عمود الاضاءة استطاع الطرفان ان يتفاهما بلغة الاشارات والحركات . فالوالد تفهم واهتز فرحا ، والسائق بدوره لوّح للجميع انه يعرف اين يقع العنوان . يعرف الشارع فهو ليس ببعيد . يشد الاب ويدعو افراد الأسرة الذين ما زالوا منتظرين بجانب امتعتهم يراقبون والدهم والسائق الى السيارة التي اكتظت بهم وانطلقت السيارة بافراد الأسرة باتجاه العنوان المقصود .

الفصل الثاني مأوى

رحلة قصيرة

وحتى من دون ان يكون مفهوما ، فان السائق لم يتعب من الكلام ، والكلمات تخرج من فمه متدفقة ، متتابعة مصحوبة بحركات واسعة حتى ان يداه تفلتان مقود السيارة وتتركان السيارة تسير دون التحكم في توجيهها ، كما ان رأسه يتحرك من جهة الى اخرى ، وصوته يلعلع عالياً ، ويظهر انه غير قلق ولا مرتبك في كل ما يبدر منه . لا شيء مما يقوله مفهوم . انه لا يكثرث لشيء ، بل يتابع سيره دون توقف ، وحديثه كله موجه الى الوالد الذي كان ابنه البكر الى جانبه . وكذلك كان يوجه كلامه الى الشخصين الراشدين اللذين كانا يجلسان على المقعد الخلفي وفي حضن كل منهما طفل . وبالإضافة الى حديثه مع الجميع كان ايضا يتحدث مع نفسه . انه يعمل منذ زمن طويل كسائق في ساحة (ميدان) ماوا .

وقد أدى خدمات نقل الركاب الى معظم النقاط المختلفة من المدينة والى خارج المدينة ، كما حمل في سيارته مئات الاشخاص من جنسيات واصول مختلفة ، ويتلفظ بكلمات من لغات عديدة اسبانية، انكليزية ، فرنسية والمانية ويخلطها فيما بينها محاولا شرح ما يريد دون تعب ، ولكن كل ذلك كان يذهب سدى . يردد بعض الكلمات او العبارات بالانكليزية مثل : رجل ، كيف حالك ؟ وبالاسبانية مثل : انت تعرف البرازيل ؟ وبالفرنسية مثل كلمة : البلاد . اخيرا تضحك الوالدة وتقول لجميع الاولاد : هل فهتم شيئا مما يقول خصوصا بالانكليزية الغريبة التي يتكلمها ويخلطها مع كلمات برتغالية ككلمات : واحد يوم . واحد بلد جميل . واحد طفل .

واحد أرض طيبة .ولكن لم يكن لها الشجاعة الكافية لتفصح اكثر من ذلك .

السيارة تتوقف ، والسائق يشير بيده الى مبنى صغير ، ثم يعطي اشارة معناها ان العنوان هو هنا . وينزل الوالد من السيارة ويدخل المبنى وهو موزع نفسيا بين الأمل والخشية ، بينما بقية افراد العائلة بقوا ينتظرون في السيارة، فين حين أخذت الوالدة تهمس وتتمتم، وتصلي ، وتعبط طفلتها في حضنها . وعلى الرغم من انه لم يمض على نزول الوالد من السيارة ودخوله المبنى اكثر من دقيقة إلا أن الزمن يبدو وكأنه توقف .

الجميع يأملون ان يكون العنوان في هذا المكان ، ويتمنون ان يكون الشخص المطلوب موجودا في البيت ، ولم ينتقل الى مكان آخر ، ولم يكن ميتا ولا مفقودا . نعم انهم يتمنون ان يكون هو نفسه الشخص المعروف والذي يعرفه احد معارفهم في البلاد قبل هجرته ، والذي زودهم بعنوانه ، اصرروا على يوسف قبل ان يغادر البلاد ويتجه الى الولايات المتحدة البرازيلية : " خذ العنوان معك يا يوسف . خذك لعلك تحتاجه انه لا يضر و ربما يساعدك " . لقد حمل العنوان في دفتره الصغير وكاد ينساه . لكنه كان يعرف انه قد يحتاجه فيما بعد . اليس محط رحاله الاخير سيكون في البرازيل ؟

في النهاية كانت لحظة سعيدة ودخل الوالد برفقة السائق الى المبنى يفتشون عن العنوان الذي كتبه الوالد بشكل خربشة بحروف برتغالية . وبعد نصف دزينة من الطرقات على باب العنوان الذي بيدهم سمعوا صوتا قويا ولكنه بلكنة تدل على انه من المهاجرين قائلًا : اسبيرا . باسينسيا . ستو ديسير . أي انتظروا . صبرا . انا نازل . وكل هذه الكلمات قيلت بلغة برتغالية مكسرة . الوالد لا يفهم معنى هذه الكلمات ، ولكن عن طريق السائق ونبرة الصوت ، وتخمين معنى ما سمع فقد حزر معنى هذه الكلمات . وبدأ يسمع ايضا وقع خطوات من

الداخل وهذا هو علامة جيدة لهذه الاسرة تبشر بلحظة الفرغ .
 وبتقديره يبدو ان هذا العنوان قد يكون هو نفس العنوان الذي يبحثون
 عنه لكن في زحمة المحادثة مع صاحب المنزل بدأت التسؤلات : هل
 قرأ السائق العنوان وعرف مكانه بالضبط ؟ الا يمكن ان يكون هذا
 السائق غير شريف ومن اصحاب السوابق ؟ وهل العنوان صحيح ام
 غير صحيح ؟ الا يمكن ان يكون هذا الشخص الذي يفاشون عنه ؟ ألا يحتمل
 من أحد معارف السائق ولبس الشخص الذي يفاشون عنه ؟ ألا يحتمل
 أن يكون الشخص المطلوب قد انتقل من هذا المكان ولم يعد موجودا
 فيه ؟ وهل كان يسكن هنا فعلاً ؟

لكن السائق واثق من انه اتى الى العنوان الصحيح . وليست هذه
 الاسره هي الأولى من المهاجرين الذين قام بخدمة نقلهم في سيارته .
 لا ينكر يوسف انه لا يزال متوتراً . وربما تذكر قصص اجداده
 الذين جاؤا الى هذه البلاد كعبيد في عنابر السفن . وهؤلاء لماذا جاؤا
 وعن أي شيء يبحثون ؟

توقفت الخطى خلف الباب . وفتح امامهما الباب شخص ضخم الجسم
 ، وأطل برأسه الى الأمام سائلاً : من الطارق في هذه الساعة ؟
 فأجابه السائق الذي كان في المقدمة مع اشارة بيده الى الرجل الذي
 كان الى جانبه ببضع كلمات .

مع هذا ، لم يتأكد صاحب البيت من هوية الطارق سوى انه رأى
 أمامه زنجياً ضخماً ، والى جانبه شخص آخر ، وخلفهما سيارة
 متوقفة وفيها مجموعة اشخاص .

وسرعان ما يتقدم الوالد حالا ويعرف عن نفسه ، وبدون الحاجة الى
 مطولات في الشرح ، فان الرجل هو نفسه الذي كان يتوقع ان يلتقي
 به . وكانت هذه اللحظة التي تعارفا فيها اكثر من مجرد تعارف ،
 انها كانت خشبة الخلاص ، وعلا الصياح : الله أكبر .

لقد كانت لحظة رائعة ومدهشة ، ثم بدأت الأسئلة والأجوبة السريعة
 وراح كل شيء في رأس الوالد يتشابك ويختلط . انه يصيح وينادي

زوجته : تمينة تمينة . والرجل الآخر يصيح في نفس الوقت الى داخل البيت ولكن ليس باللغة البرتغالية بل باللغة العربية : يا مره يا امرأة . انزلي سريعاً . انهم من ابناء بلدنا . لقد جاؤا من البلاد وصلوا للتو الآن . تعالي وانظري . لقد جاؤا باخبار من نسيب .

من حبيبنا . من حبيب ابن عم الاستاذ . من الكورة . ويقول ويشدد على الوالد ان ينادي أسرته من السيارة . مرددا . مكررا : تفضل ادخل . تفضلوا ادخلوا . لكن الوالد يقاوم ويظل مترددا لأن ليس هذا ما يريد . انه يريد أن يساعده ويدله على نزل او فندق رخيص قريب من أحد ابناء بلده اذا امكن ليقيم فيه ليلة واحدة وربما يومين او ثلاثة أيام ، ومن ثم يشير عليه ويرشده الى ما يجب فعله حتى يتمكن من معرفة مكان سكن شقيقته . ان ما يريده الآن هو فقط أن يرتاح قليلا ، وبعد ذلك يريد ان يذهب للقاء شقيقته سعدى التي تقيم في مدينة (ماجى) . (ماغ) (ماغى) انه يعرف اين تقع ماجى . ومن ثم يريد ان يلتقي بأخيه المقيم في الشمال ، ولكن الشمال كلمة أكثر غموضا ، ففي أي مكان من الشمال ؟

الرجل مصمم على استضافتهم ولا يرضى ابدا الذهاب الى فندق ، وهو يشدد على ان يدخلوا منزله ، وقد اعطى اشارة الى الذين ما زالوا في السيارة حتى ينزلوا منها ، والسائق لا يفهم شيئا مما يتحدثون به . كل الاشياء فيما بينهم ايماءات وعبارات وحركات كبيرة . الثلاثة يتجهون الى السيارة . الوالد يطلب من الأم النزول من السيارة ، ويطلب ايضا من الجميع الخروج من السيارة . وكذلك انزال الحقائب ووضعها امام باب المبنى يبدأ العناق والتحيات بين الجميع . يدفعون الأجرة للسائق فيستلم المبلغ ويقلع بسيارته بسرعة مخلفة صريحا قويا وتخفي عن الأنظار .

يتكاثر بعدها الناس والمستقبلون ، وتتكرر العناقات والقبلات ، والأسئلة والأجوبة والأحاديث التي كانت تبدو بدون نهايات ، ويستمررون طوال ذلك الليل يتسامرون ويتحدثون حتى مطلع النهار

وبداية يوم آخر، وبعد ذلك يدخلون الى المبنى ويقفلون الباب وراءهم .
وتمر بعد ذلك سنوات وسنوات في مسيرة حياتي، ويغادر والدي
الحياة تاركاً لي سجلاً من ذكريات باللغة العربية ، وهذا بعض ما ورد
فيه :

" ... وفتح الباب رجل موجهاً لي هذا السؤال باللغة العربية :
ماذا ترغب ؟ فأجبتة : أريد من فضلك أن تدلني على نزل يمكن ان
أقضي فيه هذه الليلة ، لأننا وصلنا اليوم من السفر ولا نعرف لغة هذه
البلاد .

قال : من أي بلاد أنت وما هو اسمك ؟ أجبتة أنا من بلدتك وأحد
أقاربك وقبل ان أقول اسمي ، عانقني الرجل بحرارة عارمة وعبطني
قائلاً : مرحباً بك . ادخل ، ادخل ، أنت في بيتك . فقلت له اسمح لي
يا قريبي فانا لست وحدي . لقد أتيت مع أسرتي .
قال : وأين هي أسرتك الآن ؟ قلت : انها في تلك السيارة هناك .
عندها نادى السائق وقال له : تقدم بسيارتك حتى مدخل الباب .
وامام المدخل نزل الجميع من السيارة وبدأ التعارف فقدمت له
زوجتي وأولادي وابن حمي . بعدها دفع قريبينا أجرة السيارة وأمر
السائق بالانصراف ، ورحب بنا ودخلنا جميعاً الى منزله ونادى على
زوجته وابنائها وكان لقاء تعرف بين العائلايت . ، فرحبت بنا أسرتة
أيضاً أجمل ترحيب .

الفصل الثالث

الحظ

ما ان دخلت الأم تمينه المبنى وهي تحمل طفلتها حتى تذكرت ضياع الأسرة في مدينة ريو دي جانييرو . فمجرد الذكرى كانت كافية ليرتعث قلبها مما حصل لهم . فالحالة التي مروا بها هي فوق التصور . فهم لم يعرفوا فيها الى اين يتجهون ، ولا كيف يتفاهمون مع الناس ، ولا بأية طريقة يكتشفون كيفية الوصول الى فندق بإمكانياتهم المادية المحدودة والضيقة ، ولا سعر صرف العملة في هذا البلد ، وكم سيستغرق من الوقت حتى يكتشفوا اين تقيم أخت زوجها أو أخيه اذا كان ممكنا اكتشاف اماكن اقامتهم . ليس لديها سوى فكرة غامضة عن مكان اقامة شقيقة زوجها وكذلك شقيقه . الشقيق يبدو حتى بغير اسم . الجميع يشيرون اليه : بالشقيق الذي يقيم في الشمال .

أما أخت الزوج فيقولون انها تقيم في منطقة ريو دي جانييرو في بلدة أو قرية أو شيء من هذا القبيل ماجي أو ماغي . عاد يوسف الى البحث في دفتره الذي كتب فيه باللغتين العربية والبرتغالية والذي بدا كمعجز لا تفك رموزه ، بل هو من نوع افتح يا سمس . للأسف لا يوجد فيه عنوان أو انهم لم يعثروا فيه على العنوان . كيف اختفى العنوان من الدفتر ؟ الأسم ضائع وكذلك كلمة ضائعة في خضم من الملاحظات المتناثرة في الدفتر . فقط كلمة ماجي هي الكافية . فلربما يدخل علينا أحد من ابناء البلاد ويعرف شيئاً عن أخت يوسف حالياً باعتبار أن الأخ يقيم في الشمال . فما هو شمال هذا البلد ؟ وماذا يعني ؟ كرمى لله أين يقع هذا الشمال ؟ لقد اختفى في هكذا شمال . ما هو اتساع هذه البلاد ، وحجم شمال البلاد ؟ وفي اية بقعة بالضبط ؟ واسم الشارع ؟ ورقم المنزل ؟ لم يكن لديهم اية فكرة عن كل ذلك . انهم يخمنون اتساع وحجم هذه

هذه البلاد بالمقارنة مع مساحة ارض لبنان . انها مغالطة كبيرة . لقد كان لبنان هو مقياس المقارنة الذي اعتمده .

لقد تم ايواء الأطفال في غرفة النوم ، أما الأب والأم وشقيقها فما زالو في صالة الاستقبال ، الذين هم محل فضول العائلة التي لجأوا اليها فاستقبلتهم وآوتهم ، يريدون المزيد والمزيد من المعلومات والأخبار ، بينما هم يسيطر عليهم النعاس والتعب ويغلب عليهم الشرود ويريدون ان يناموا . انهم مابين اليقظة والغفوة والغفو واليقظة .. وخلال الحديث تشرذ الأم وتحملها خواطر مقلقة فنتساءل في نفسها : ترى ماذا كان سيحصل لنا لو أن يوسف اضاع او لم يتذكر عنوان هذا الرجل الذي كان مسجلا في دفتره بإلهام من الله ؟ كيف كانت حالنا لو ان ابن وطننا هذا لم يكن من أقربائنا ولم يكن خدوماً لطيفاً ؟ أو لم يتواجد في بيته ساعة وصولنا الى هنا ؟، أو لو كان قد انتقل من منزله الى مكان آخر ؟ ، أو أنه كان قد فارق الحياة ؟ ان من حسن حظنا انه كان موجودا في منزله وقد استقبلنا احسن استقبال . كان بالامكان ان يكون في منزله ولا يستقبلنا بتلك الحفاوة . في النهاية يمكن القول ان الانسان كائن لا يمكن التكهن مسبقا بما يمكن ان يتصرف . أما الرجل الذي استقبل يوسف وعائلته يعود الى الاستياء والغضب كلما عاد يوسف الى الحديث عن البحث عن فندق مجاور لينتقل اليه . كان الرجل كلما سمع كلمة الفندق يلتفت الى زوجته غاضبا قائلا : اسمعي يا لطيفة ، ولا بشكل من الاشكال يمكن الذهاب الى فندق . نجيب يردد بغضب : فقط هذا هو الناقص ان تبيتوا في فندق . أين يمكن ان يحصل هذا ؟ ستبقون هنا معنا حتى نفتش ونلقى سعدى . في بيتنا مكان يتسع للجميع . دعونا نتحدث بموضوع آخر . دعونا نشبع شوقنا وحنيننا . تكلموا عن بلادنا ، عن الأصحاب ، عن الأصدقاء ، عن الأقارب . نريد أن نعرف عن الجديد. عن آخر الأخبار . تعود الأم الى الشرود مع أحلام اليقظة ، والى أخبار الشهر السابق عندما غادروا لبنان ، ورحلتهم الى مدينة

مرسيليا حيث شاهدوا ما لم يتوقعوه ، وتأخرهم هناك غير المتوقع ،
ولكن ذلك كان بالنسبة للحاضرين أخباراً جديدة طازجة
عن أمس ، وعم الماضي ، وعن الآن . أما اليوم فأنتم ضيوفنا ومعنا
ولا نريدكم أن تتذكروا تعب السفر . نعم غدا يمكنكم ذلك .
غدا سادعو آخرين من أبناء وطننا ، وهم ايضا يريدون المزيد من
الأخبار عن البلاد ، وأعدكم أننا خلال الايام القادمة سوف نعرف
شيئاً عن سعدى وسوف نجدها . يقول الرجل : نعم ، انا لست متأكدا
من انها لا تزال تسكن في مدينة ماجي ، ولا أعرفها شخصيا ، ولكن
أصدقائي يعرفون . ان نسيب يسكن في مكان قريب من هنا . هو
يعمل كبائع متجول . وجورج هو صاحب محل تجاري يقع في الشارع
المجاور ، وسعدى تشتري بضائعها من محله . غدا نستفسر عنها
دون ان ننسى ان غدا قد اصبح ماضيا . وتستمر الأسئلة : حدثونا عن
الكورة عن عمي زرزور ، هل هو على ما يرام ؟ لم يتعب الرجل
من الإلحاح والسؤال ، عندما لم يطرح هو الاسئلة ، فان زوجته
هي التي كانت تتولى المهمة . كانت المرأة تشرذد لكن الاسماء
والاسماء والاقارب تعود الى الذاكرة الآن ، وكذلك الاصحاب
المعروفون وغير المعروفين يغربون اذا قال الأب أو الأم : لا . هذا
لا أعرفه لا . فتتسع العيون وترتفع الأيدي الى الأعلى . ويتلفتون
الى بعضهم البعض وتأتي تفسيرات أخرى ما أمكن بتوضيح بعض
الشيء او لا شيء واضح . لقد كادوا يقضون الليل بكامله دون ان
يشعروا كيف كان يمر . الآن الوالد يترأس اللقاء ، وقريبه يطلب ادنا
ويذهب لمرافقة الأولاد ، ولكن الأقارب يتجاهلون التعب ولا يعيرون
انتباهاً لذلك .

الفصل الرابع التعارف

من المستحيل النوم بما فيه الكفاية واسترداد القوى والتعافي من التعب . فالعواطف الجياشة والتوقعات المنتظرة كانت الغالبة . فمن الصباح الباكر كانت الحركة تملأ أرجاء المنزل وكذلك الضوضاء وأصوات المحادثات غير المفهومة بتلك اللغة الغريبة ، كما ان الغرفة التي خصصت وبشكل غير متوقع لحنا والأطفال قد تحولت الى غرفة طعام .

وفي اليوم الاول للوصول ، فان الوالد استعجل الخروج بعد الظهر من المنزل وقال حنا هيا بنا نخرج . فسأل المضيف باهتمام كلي : الى أين ؟ فأجابته : لنتعرف قليلاً على المدينة . هيا نخرج . لا شك ان الخروج سيكون جيداً . وهو أفضل من أن نخرج لوحدها . رافقهم المضيف الذي هو ابن بلدهم في خروجهم ، وذهبوا جميعاً الى رصيف ساحة ماوا وكلهم انتباه واهتمام بحركة الميناء حيث كانت السفن تصل وترسو وكذلك سفن اخرى تقلع وتغادر ، وبعد ذلك توجهوا الى مركز وسط المدينة وهم مأخوذون بمنظر الريودي جانبيروا التي لم يكن لديهم اية فكرة او معرفة عنها . ركبوا الترام وسار بهم حتى وصلوا الى شاطي فلامينغو حيث كانت امواج البحر تلتطم بالبيوت . وهناك بدا ترام آخر في مواجهتهم الا انه كان في الاتجاه المعاكس فتحولوا عنه وذهب في سبيله . وهنا قال المضيف : اننا الآن نسير في اتجاه سانتا تيريزا . واخذ يشرح ماذا يعني ذلك أي أن فوق هناك مكان مشرف يطل على المدينة وعلى الشريط الساحلي والتلال والوديان . كما راح يفسر ما تعنيه مدينة الريو وما تمثل ، فهي عاصمة الجمهورية وتحضن

خصوصيات الشعب البرازيلي الاعراق المختلطة ، والاصوات والنكهات والعادات والاعراف . ففي هذه المدينة يوجد كل شيء . مشهد من جميع البلدان يتشكل من كل انحاء العالم.

دخلوا احد الحوانيت حيث تناولوا مشروب العرق البرازيلي اي (بنغا برازيلية) وتناولوا بعض المقبلات وكان عليه ان يشرح ويوضح لهم ما هو هذا المشروب الروحي الحاد راغبا منهم ان يرددوا معه كلمة (بنغا) المشروب المستخرج من قصب السكر وكذلك يطلق على المشروب (كانينيا) أي عصير قصب السكر الروحية (روم) . لم يكن هناك شيء مشابه لما يوجد في لبنان كان يمكن ان يكون افضل .كن هناك نوع من مشروب العرق ، لكنه بدون مسحة لون الحليب التي تظهر عند اختلاط العرق بالماء ، ولكنه يحدث التأثير نفسه للذي لا يريد ان يتوقف عن الشراب . ومع تناول شراب العرق البرازيلي بدأت اولى دروس اللغة البرتغالية والتعرف الى البرازيل . وعندما كان الجميع على اهبة الخروج من الحانة دخل احدهم وطلب كأسا من شراب العرق لتناوله ، ولكنه قبل ان يتناول منه اية قطرة رمى شفة منه على الارض ثم اخذ يشرب . وهنا كان على ابن البلد ان يوضح سبب ذلك الطقس الذي يعني ان اول شفة من المشروب هي للقديس .

اما الدرس الآخر فكان حول الاسلوب العربي في التجارة مع نمط المجادلة والتباكي والمساومة كقاعدة للحصول على اخفض الاسعار بحيث اصبحت هذه الطريقة شعبية مشهورة مثل أكل الكبة ثم تدرج ذلك الاسلوب حتى اصبح راسخا في عادات وتقاليد البلاد .

واثناء تجول الجماعة حملهم مسيرهم الى دخول محل تجاري يخص احد ابناء بلادهم من المهاجرين الى البرازيل . وفي هذا المحل سمعوا لأول مرة عبارة لم يتأخروا كثيرا عن استعمالها وهي : (جورا - براديسوس - فريغيز - مي - فندي - باراتو) (وهو كلام برازيلي لكنه

مكسر ويشيه كلام اي شخص اجنبي لا يحسن لغة الوطن الجديد كما حصل للأرمن عندما هاجروا الى لبنان وبعض الدول العربية) ومعنى هذا الكلام : (أقسم بالله يا رجل اني ابيع بسعر زهيد) . قال الرجل انه يعرف بلدة أميون فهي بلدة لطيفة وجميلة ولم يكن يعرف بلدة كفرسارون التي تقع على مقربة من اميون ولم يكن له اي فضول لمعرفةتها . لقد قيل انها لا شيء مما ازعج الوالد لأنه كان غيورا على بلد مسقط رأسه.واكمل الرجل كلامه قائلا : مدينة الريو جميلة اليس كذلك ؟

لا شئئ مثلها في العالم . انها تغري وفي الاغراء آلاف الايحاءات وهذا ما شاهدته حتى الآن ، فينبغي ان تشاهد شاطيء (كوباكابانا) الجديد ، والسباحين ، والليالي ، والحانات .

في ثاني يوم من الوصول قال الوالد يوسف لشقيق زوجته حنا ان عليهما ان يخاطرا في هذه الساعة التي عليهما ان يغتتماها ويخرجا وحيدين دون ان يرافقهما احد ، ولم يقبلا اية نصائح وقائية على الرغم من احتمال تعرضهما للخطر او للضياع ، وقد ردا الحجة بأنه لا ينبغي ان يحصل لهما اكثر مما يمكن حصوله في لبنان . لقد سلكا نفس الطريق الذي سلكاه في اليوم السابق ، وذلك كي يعتادا عليه في المستقبل ، وذهبا سيرا على الاقدام الى ساحة ماوا وهما مأخوذين بنزتهما دون ان ينتبها جيدا الى الطريق الصحيح ، ودخلا في منعطف ، وراحا يمشيان تارة ، ويتوقفان تارة أخرى ، ويراقبان حركة سير السيارات والمارة . بعد ذلك ركبا الباص الذي حملهما الى نهاية خط وقوفه . ثم انتظرا باصا آخر واستقلاه في العودة ولكنهما نزلا منه قبل المحطة الأخيرة ، وهناك شاهدا كنيسة تخص غير مذهبهما فذهبا اليها وكان بابها مفتوحا فدخلا اليها ووجداها خالية في تلك الساعة ، فذهلا بفخامتها وروعة رسومها ، وتمنيا لو يعرفان اذا كان يوجد في المدينة كنيسة ارثوذكسية ليذهبا اليها . ثم تركا الكنيسة وخرجا وذهبا الى حانوت قريب ودخلاه هربا من الحر

الشديد و اشارا الى قنينة مشروب العرق (بنغا) و طلبا بالاضافة الى كأس البنغا أقرص من الكبة ولكن لم تكن الكبة متوفرة في تلك الساعة . كان تشغيل المحل (غارسون) لم يكن يعرف ان الكبة هي مأكول، فأشارا باصابعهما الى كتلة كروية كانت امامه في الواجهة ، فاعطاهما قطعتين . انه طعم سمك وليس كبة . ولشد ما كانا جائعين أكلا القطعتين بنهم ، وأحبا ان يجربا نوعا جديدا ، فأشارا الى نوع آخر و طلبا قطعتين كان طعمهما غريبا عليهما فسألا الغرسون ما هذا؟ قال لهما ببطء : با - مو - نا . بامونا . بامونا . لم يفهما شيئا . لكنهما اجتهدا لترديد الاسم ولفظا معاً في نفس الوقت (بامونا) . فضحك عامل البار (الغارسون) مشيراً اليهما وكذلك زبائن الحانوت برؤوسهم وضحكوا جميعاً . لم يفهم يوسف وحننا لماذا ضحك الزبائن هذا الضحك ولكنه عرف فيما بعد ان الكلمة تحمل معنيين .

دفعنا الحساب وخرجا . وكان صاحبهما الذي نزلنا في ضيافته قد بدل لهما النقود التي حملها من لبنان بمبلغ الف ريال .
ومرة اخرى يغامر ان ويصعدان الى باص آخر ، ولكن هذه المرة الى مكان أكثر بعداً وليس في ضواحي ساحة (ماوا) وسينيلانديا ووسط المدينة . لقد ذهبنا حتى ساحة (لارغو دي ماشادو) ، وكذلك (فلامينغو) و شاطيء (كوباكابانا) حيث الامواج تتلاطم على رصيف الطريق مصحوبة برائحة البحر . وعلى الشاطيء اخذا يسيران ويسيران بحيث بدا الشط وكأن ليس له نهاية ، فتوقفا وجلسا تعبين على شاطيء البحر مأخوذين ومنجذبين بزرقته الواسعة الممزوجة بالاخضرار ، ولمعان رمال الشاطيء ، يراقبان بعض السباحين والمارة .

وخلال هذا الوقت القصير فقد حفظوا نصف دزينة من الكلمات مثل (فافور) من فضلك ، و شكرا (أوبريغلدو) وهي كلمات كانوا يسمعونها باستمرار من اكثر الناس فيلفظون أوبريغادو بريغادو

وغيرها مثل (بونيتو) جميل و كم يساوي (كوستار كوانتو) وكيف حالك (كومو ستا) . وبعد ان ساروا قليلا على رمال الشاطيء ، ادركوا فجأة انهم أضاعوا الطريق ولم يعرفوا اين أصبحوا الآن . وبدؤوا يتساءلون : في أية جهة يقع منزل ابن بلدهم ؟ أي باص ينبغي ان يركبوا فيه ؟ هل هم يسيرون في الطريق الصحيح ؟ أم أنهم ابتعدوا كثيرا عن المكان الذي يجب العودة اليه ؟ ان نصف الدزينة من الكلمات التي حفظوها لا تكفي لطلب المساعدة وارشادهم الى المنزل الذي يريدون الذهاب اليه . ما العمل ؟ مرة أخرى تسعفهم المفكرة او الدفتر الصغير الى العنوان عندما وصلوا الى جانب سيارة أجرة .

لقد امضوا في منزل ابن بلدهم ما يقارب ثلاثة أيام كانت كافية لانتشار الخبر بوصولهم من لبنان . فقد انتشر الخبر في الشوارع وفي جميع انحاء الحي بين ابناء بلدهم من المهاجرين ، وصار الناس يأتون من أحياء أبعد للتعرف عليهم والسؤال عن اقاربهم في (مكسونا) البعيدة المقصود الكورة . فالمواصلات صعبة . واحد يقول : لقد كتبت وارسلت عدة رسائل ولكن لم استلم أي جواب ، وآخر يقول أريد ان أكتب ولكن ليس لدي الوقت الكافي ، و يسألون : من اين حضرتكم ؟

أه – أه من كفر سارون ؟ أم من أميون ؟. وفي الحال تخيب آمالهم لأنهم ليسوا من هاتين المدينتين . والنهاية ان لبنان صغير . ان يوسف يعرفه كله . فمدينة أميون هي أصغر حتى من مدينة (ماجى) الصغيرة . الجميع يريدون ان يعرف الاخبار وبامكانهم ان يعرفوا ، ويجب ان يعرفوا الاخبار حتى عن الاشخاص الذين يسكنون في المزارع النائية . لقد قيل ان ابن عم ابن عم احدهم يسكن في أميون . وهل تعرف اسكندر ؟ فيكون الجواب : اعتقد انه ابن عم ابن عم ، ويبدأ بأوصافه : انه كان . لا لا ما كان . ويشدد النقاش . البعض يقبل بالحديث ، وآخرون يتمتمون أو يتذمرون وينزعجون عندما يسمعون

اخبار سلبية ، ويعترضون بالقول : من المستحيل عدم معرفة او تجاهل أسرة أو عائلة منصور ! كيف لم تعرفوا وتسمعوا بابن عمي جبران ؟

كان البعض يستفسرون ويسألون عن سيطرة الحكم التركي . متى ستسقط تلك الامبراطورية العثمانية اللعينة ؟ وكانوا يندهشون عندما يسمعون ان الامبراطورية العثمانية قد سقطت وانهارت ، وان الفرنسيين اليوم يسيطرون على قطعة تسمى لبنان ، والانكليز على سورية . فيضعون أيديهم على رؤوسهم منذهلين من هذه الاخبار ويروحون يسألون : متى حصل ذلك ؟ وكيف ؟ ولماذا حصل ؟ اننا لا نعرف شيئاً عن ذلك . وكان الوالد يوسف يشرح لهم ويوضح انه حصل كل ذلك بعد حرب 1914 ، ويحدثهم عن شخصية لورانس الاسطورية . ذلك المغامر الذي كان يجيد اللغة العربية كعربي حقيقي ، وقد تظاهر انه صديق العرب ويريد ان يقاتل معهم ضد الاتراك ، وكان يلوح و يرفع شعار الحرية . انه لم يكن يتكلم العربية وحسب ، بل كان يعرف اللهجات العربية ، وتاريخ العرب ، والماضي البعيد ، والاساطير ، والتقاليد العربية . لقد كان مدهشاً ومسيطرًا . لقد اجتاز الصحراء ماشياً على اقدامه ثم اختفى بعدها دون ان يترك تفسيراً لذلك .

فقط البعض كانوا يؤيدون كلام يوسف ويزيدون بعض المعلومات، عن الزامية تعلم اللغة الفرنسية ، وتغيير العادات والتقاليد . فينتفض بعضهم ويسأل : لماذا لم نخبرونا قبلاً ؟ ولماذا تصرحون بذلك فقط الآن ؟ فيجيب أحد الحاضرين بسؤال: وهل وجه لنا هذا السؤال أحد ؟ فجأة يبدأ النقاش بالبرتغالية وينسون أن القادمين حديثاً من الوطن لا يعرفون هذه اللغة . واثناء هذا النقاش ، فان الوالد الذي تعلم بعض الكلمات البرتغالية بدأ بتمريرها الى الآخرين الذين لا يعرفونها . وتأخذ الأم بالضحك لدى سماعها كلمة (بنغا) ، وللتخفيف من حدة النقاش وترطيب الجو يبدأ يوسف بكلمة لوز، ويوضح كيف توصل

الى كلمة نور التي كانت اول كلمة اكتشف معناها في البرازيل .
وهنا بدأ صاحب المنزل والحاضرين باعطائه اول درس حين
وضعوا ماء في كأس ثم قالوا له : هذا (كوبو) أي كأس ، وأشار
الى يده قائلاً : هذه (ماون) أي يد ، وأشار الى الماء وقال : هذه (
أغوا) أي ماء ، وخبط بيده على الطاولة وقال هذه (ميزا) أي
طاولة ، وأشار الى صديق كان موجودا وقال : هذا (أميغو) أي
صديق ، وأخذ يوضح له ويشرح معنى بعض الكلمات .
وقد اكد الجميع على حسن حظ الوالد الذي صادف رجلا شريفا وهو
السائق الزنجي البشوش والنبيه، والذي كان فوق ذلك يجيد القراءة فلو
صادف رجلا غيره بدون ضمير لربما ذهب بهم بعيدا وسلبهم كل ما
حملوه معم وتركهم في مكان نائي ومهجور. فيتدخل آخر ليقول :
اتركوا ذلك جانبا، وتفضلوا الى بيتنا ، فهو قريب من هنا ، هيا بنا
من فضلكم ، فان زوجتي لا تستطيع الخروج بسبب المرض.
انني اشدد واتمنى ان نذهب جميعا الآن الى منزلنا وهناك نكمل حديثنا
بلغتنا العربية دون تدخلات، لأننا هنا بقصد او بدون قصد ، فانا
مجبورون ان نخلط الحديث بالعربية والبرتغالية لوجود برازيليين
بيننا . وقريبا قريبا عندما تتعلم البرتغالية يصبح الامر عليك مألوفا .
لقد جاء لزيارتهم الناس من كل الشوارع القريبة التي يسيطر فيها
مهاجرون عرب مع أصدقاء لهم : من شوارع ألفانديغا ، وبريميرو
دي مارسو ، وروزاريو ، وأدجسينسيا ، حتى من ابعد الأطراف .
جاؤا ليستقبلوا القادمين الجدد من الوطن ويرحبون بهم ويضعون
انفسهم تحت التصرف ، ويتمنون لهم النجاح ، ويطلبون بعض
المعلومات . ويصيحون : بالله ، يا حبيبي . أقاربي نسيوني ؟ الم
يرسلوا لي شيئا ؟ ولا قصاصة ورقة ؟ ولا قليلا من الزعتر ؟ ولا
علبة زيت ؟ ولا قليلا من الزيتون اللذيذ ؟ والتمر ! أه كم هو لذيذ !
لقد قالوا لي في الرسالة الاخيرة التي استلمتها ان طلبي سيصل مع
اول مسافر يتوجه الى هنا .

ويعود الوالد والأم الى اعادة التوضيح مرة اخرى انهم لم يكونوا قادرين على جلب اي شيء معهم ، وان الشخص المذكور الذي تتحدث عنه لا نعرفه . وأقصى ما نستطيعه هو ان نسرد لكم أخبار عن الوضع في لبنان ، والصعوبات هناك ، وبحث الشباب عن بلاد أخرى يستطيعون العيش فيها .
في سيرة حياة الوالد يوسف يقول :

" في صباح الغد يريد قريبي معرفة المزيد من أخبار الوطن . وبعد الفطور ، دعاني للذهاب برفقته الى مكتب البريد والتلغراف حيث ارسلت برقية الى شقيقتي . وطلبت منه ان يذهب معي الى مكتب الجمارك لجلب الحقيبة التي تركتها هناك في المخزن ."
بدأت الطريق تتوضح أمام الأسرة ، وفي الأيام الثلاثة الماضية في مدينة الريو دي جانييرو حاول الرجل القريب الذي استقبل الأسرة وهو ذو خبرة واسعة ان يوضح لأفراد الأسرة حقيقة الواقع البرازيلي .

وقد بدأ توضيحه عن البرازيل باكرا خلال خروجهم من المنزل ونزهتهم التي كانت سيرا على الاقدام في شوارع المدينة . فكان يحدثهم عن اللحظة التي كانت تمر بها البلاد . يتوقف . يتراجع . يرى انه تسرع . من الضروري قبل كل شيء ان يكون لديه فكرة عامة عن البرازيل . عن اتساع أرض البلاد . عن المناطق والمدن المختلفة . عن الاستعمار . عن المهاجرين . هذا يسهل الامور على يوسف كثيرا عندما يريد ان يعرف كيف يحصل على الاخبار ويتصل بشقيقه في شمال البلاد . اي ، أي شمال . وأين يقع الشمال . وفي أي موقع من الشمال . وهذا هو السؤال الاول الذي يواجهه والذي لا علم له بالاجابة عليه . ولا يعرف كيف يجيب عليه . من الصعب اعطاء جواب منطقي مقنع على ذلك . فهل يجوز ان يقيس بلاد شاسعة كالبرازيل على بلد كلبنان ؟ ابسط واسهل طريقة ان يعرف ان الريو دي جانييرو وحدها فقط تساوي عدة مرات لبنان .

الدرس مستمر ، ويوسف محب للاستطلاع ومتعطش ال المزيد من المعرفة . قريبه يشرح له صعوبة المرحلة العصبية التي تمر بها البلاد . يحاول ان يشرح له عن حكومة أرتور بيرناردس والازمات التي تمر بها وحالة الطواريء . يتحدث عن واشنطن لويس – هادفا بذلك الى ان يتفهم الوالد ان البلاد تحت حكم دائم استثنائي أوليغارشي . ودائما حول محور سان باولو وولاية ميناس جيرايس المسمى قهوة بحليب .

كيف يمكن توضيح كل ذلك ؟ و حرب كوباكابانا القوية ال 18 ؟ والأربع سنوات من دعم بريستيس في تنظيف وتكنيس البرازيل ؟ لقد بدأت الهممة في الجنوب ، والجنوب يقع بالقرب من الأرجنتين حيث يقيم والد الأم تمينة كما علم من تمينه . مما يجعل من الصعب الوصول الى هناك . ولكن من يدري لربما يمكن الوصول يوما الى هناك . انه صعب اليس كذلك ؟ فالمكان ليس قريبا من مدينة الريو . فالبرازيل بلد كبير والاماكن ليست قريبة من بعضها . ويمكن تكوين فكرة عندما نعرف بعد المسافات الشاسعة التي تفصل بيننا وبين الشمال حيث يقيم او يمكن ان يقيم شقيقه يوسف . باستثناء الحركة التي بقودها جوتوليو فاركس في الجنوب ، لا يمكن التنبؤ بما سوف يحدث في المستقبل . كان الوالد يستوعب كل شيء ، حتى الكلمات العابرة وغير الدقيقة كان يربطها ببعضها ليتوصل فيما بعد الى فهم محتواها .

الفصل الخامس الناس

في غضون ذلك ، تصل البرقية الى وجهها تاي شقيقته ادون ان يمضي وقت طويل على ارسالها . هكذا يجري تفصيل عرضي في رسالة الوالد : " في اليوم الثالث جاءت اختي لرؤيتنا واخذتنا الى بيتها . فرحتها كانت لاتوصف عندما التقت بنا . فبلتني بحرارة وقبلت زوجتي و أطفالي . جلست لوضع ثواني ثم قامت وعادت الى عناقنا وتقبيلنا من جديديا لها من شقيقة حنونة وحساسة ومحبة !

وضبنا أغراضنا وحوائبنا، وشكرنا اصحاب المنزل الذين استقبلونا بالترحاب مقدرين ما فعلوه معنا ، وودعناهم ثم ذهبنا برفقة الشقيقة الى محطة القطار واتجهنا مباشرة الى مركز شراء تذاكر السفر " .

لم تصدق سعدى ما تراه امام عيونها . انه مستحيل . انه حلم . انه معجزة . انها لم تكد تستلم الرسالة التي تقول ان شقيقها سيغادر لبنان برفقة عائلته الى الولايات المتحدة حتى رآته امامها . فضقاء تمينة كتتوا قد وجهوا له طلبا بذلك . ما هي الدوافع والاسباب ؟ سيكون لديهم الوقت الكافي لإيضاح كل ذلك عندما يصلون الى مدينة ماجي .

ها هم داخل القطار . وصاحبنا الذي استقبلهم في منزله رافقهم الى المحطة . انه يودعه ويطلب منهم بشوق ان لا يطيلوا الغياب ويعودوا قريبا . من يدري ربما يعودوا ليستقروا ويعملوا في مدينة الريودي جانبيرو باعتبار ان فرص العمل والتجارة هي اوفر في هذه المدينة . نعم . الكل كان يفعل ذلك أو يبدأون بفعل ذلك بغض النظر عن المهن التي كانوا يمارسونها في بلدهم الام . وربما بدؤوا بالتجارة المتجولة . وقد اصبحت عادة مألوفة ان يبدأ المهاجرون الجدد كبائعين جوالين .

ومن يدري ؟. قد يساعدهم الحظ وينتقلون الى تجارة اكبر . بقي في الظل ينتظر القطار وهو يقلع . كان يسير في المحطة تارة ويتوقف تارة . كان يفكر بحالة يوسف . ويقول في نفسه ان بإمكان يوسف ان يفتح مدرسة عربية . فالمهاجرون يرغبون جدا ان يعلموا ابناءهم اللغة العربية .

القطار يغادر المحطة . تزداد سرعته . يلوحون بأيديهم الى مودعهم . القطار يبدو صغيرا ثم يختفي عن النظر . تبدو جميع المقاعد في القطار مشغولة تقريبا .

القطار كان يبدو صورة مصغرة عن البرازيل ابتداء من الالبسة الضيقة ، الى الانوف المرتفعة والأصوات المتشابهة في ايقاعها حتى العمال المتواضعين وملابس الجينز المجددة ، والبعض كان ينتعل خفا زهيد السعر ، وآخرون كانوا حفاة بدون أحذية . كما ان البعض كانوا يستعملون قبعات من القش . الناس كانوا في القطار من جميع الألوان من البيض والزنجار والشقر والحنطيين والسمر شبابا وكهولا . كبارا وصغارا ، رجالا ونساء . يتحادثون ويتفاهمون بلهجات مختلفة . بعضهم كان صامتا لا يجيب على ما يوجه اليه من أسئلة ، وآخرون كانوا كثيري الكلام ثرثارين يتحدثون ويضحكون . يمر بينهم بائع الحلويات . يتوجه نحو سعدى ويسألها اذا كانت تعرف الذين حولها مشيرا بحركاته وايماءاته وعباراته اي الذين كانوا معها فتحدثت معه وتلفتت الى شقسقها وزوجته وتقول لهما ان هذا الشاب فضولي ويريد ان يعرف كل شيء عنكم ، وقد أترتم فضوله . كما انه ليس الفضولي الوحيد .

ولم بمض وقت طويل حتى بدأ القطار يغادر وسط مدينة الريو دي جانييرو ، وبدأ المشهد يتغير بدخولهم الأحياء الفقيرة حيث الأكواخ والطرقات الرديئة المليئة بالتعساء الذين يشبه منظرهم الناس الفقراء الذين كانوا معهم في القطار وليس الذين يدل منظرهم على الثراء .

الثراء . ولم يمض ايضا طويل من الوقت حتى توقف القطار وأخذ الناس يصعدون اليه .

لقد كانت تلك الأسرة الغريبة تلفت أنظار الجميع بسبب لباسها وبسبب الكلمات غير المفهومة او اللغة الغريبة التي كانت تتكلم بها وكذلك بسبب سلوكها وانكماشها . كانت هذه الأسرة تحتل مقعدين للجلوس ، ولا يأبه أفرادها لأحد ، وسعدى لا تتدخل في شيء . كان أفراد الأسرة يجلسون وجمع من في القطار يراقبونهم ، ويتفحصون حركاتهم .

مبتدئين بالنظر الى الوالد يوسف والوالدة تمينه والخال حنا الذين كانوا يسعون الى تهدئه الأطفال ، وفي نفس الوقت كانت نظراتهم دائما باتجاه راكبين من ركاب القطار : شاب وشابة ويظهر انهم زوجين كانا يجلسان أمام الأسرة يتلاطفان ويتعانقان كأنهما وحدهما ولا أحد من حولهما . والى جانبهما كانت امرأة عجوز تبتسم لشقيقة الوالد سعدى ولرجل آخر كان يدخل سيارته تبغ لف ويقرأ صحيفة .

كما كانت تبتسم للطفل الذي كان يركض في الممر داخل القطار ويبادلها الابتسامة دون ان يجيبها على أسئلتها او كلامها الذي توجهه اليه تاركا حركاته تترجم . لقد لاحظ الجميع من خلال اللهجة انها تريد ان تعرف من اين هم قادمون ؟ والى أين هم يتجهون الآن ؟

يتحرك الوالد يوسف ويجهد نفسه بإشارات وايماءات ويدق على صدره ويقول بالعربية " عربي " فتخرج الكلمة من فمه مشخبطة يصعب فهمها لمن كان حوله . ومرة أخرى يقوم الوالد بحركات و اشارات تدل على انه لم يفهم شيئا من كلام تلك العجوز .

بعدها تبدأ سعدى وتمينه بحديث ودردشة مع بعضهما ، أما الوالد فيظهر عليه الخجل والانزعاج ويطاب من سعدى لكي تنقذه من هذا الاحراج . فتقوم سعدى بالمهمة وبكلمات بسيطة وعبارة قصيرة تكتفي بها العجوز وتميل برأسها وتتمتم ايضا بكلمات تقول فيها انها قد مرت بهذه الحالة عندما غادرت بلادها اسبانيا وأنت الى هذه البلاد، ثم تغمض عينيها وبعد ذلك تغفو وتبدأ بالشخير .

تعود الأسرة الى الحديث فيما بينها بنهم . سعدى تريد ان تعرف اكثر
واكثر ، ويوسف يجيب على أسئلتها . تمينة تعطي ثديها لطفلتها
الصغرى وتبدأ بارضاعها . الأب يضع طفلة الوسطى في حضنه
بينما يحاول حنا تهدئة الطفل الأكبر . والطفل ابن الثلاث سنوات يريد
ان يقفز . لا يتوقف عن الحركة . يفلت من بين يدي خالته ويركض
في الممر داخل القطار الذي كان يهتز في سيره . يمر القطار أمام
البحر . تتوجه الانظار الى النافذة . ينظرون الى البيوت ،
والطرق ، والأشجار ، والناس ، والعربات التي تجرها الثيران
والخيول . يبدو من داخل القطار جميع الأشياء تتراكم . اليس كذلك
؟ وهل القطار هو الذي يركض وحده ؟ انه خداع بصري . الآن
يستطيع حنا خال الطفل ادراك والامساك بابن شقيقته . يجذبه اليه ثم
يهدأ بينما الجميع من المسافرين ينظرون اليه وبرايقونه . يجتاز
القطار المنازل ويقطع طريق السكة ثم يختفي عن أعين الناس في
الطرق .

الآن يمر القطار في طريق خال من المنازل ويبدأ في الصعود . وبعد
ان يتوقف في محطتين ويتابع سيره يخف الهواء ويصبح اكثر
برودة ، لكنه هواء لطيف منعش وليس كالهواء الحار الذي كان قبل
الصعود في المنخفض . فقد تبدلت موجة الحرارة الحارة بأخرى
باردة ولطيفة .

ان الصعود الى بلدة ماجي تثير في النفس الموحيات . فلا يتعب
المرء من رؤية المشاهد الرائعة . فأكواع الطريق حادة مغلقة حتى ان
بعض عربات القطار تختفي عن أعين المسافرين والناس . الاشجار
كبيرة وضخمة . والمياه المتساقطة من الأعلى الى الأسفل بالكاد
يلاحظها الناظر ، والطريق تستمر في الصعود ، والقطار يتلوى فوق
الطريق الملتوي والمتعرجة . ولا يتعب الانسان من رؤية الاشياء
الغريبة . أو الأصح ان نقول ان الشيء الحيد الغريب ، كانت أسرة
يوسف .

ان اهتزاز القطار يذكر بأمواج البحر . كانوا نائمين والنفس يسيطر عليهم . لقد استيقظوا ويريدون ان يعرفوا كم من الوقت مضى عليهم وهم هنا ؟ قالت سعدى . ما زال امامنا القليل من الوقت للوصول . ما هذا الشلال الذي يظهر هناك ؟ كم هو رائع وجميل !
القطار يبدأ بتخفيف سيره . هل يوجد هنا محطة جديدة ؟
لا . اننا نقرب من مدينة ماجي .

تبدو تمينة مضطربة . انها تفكر . كيف سيستقبلونهم أقاربهم ؟
سعدى تقول : حسناً . لقد عرفت لبنان منذ كنت طفلة . آه ! كيف يمر الوقت ! لقد نسيت أشياء وأشياء . والآن فجأة ارى نفسي في ذروة التذكر . حتى الان لم يتطرقوا لأيّ موضوع . و هل تعرف سعدى عنوان شقيقها في الشمال ؟ وهل يمكن معرفة مكانه ومقابلته ؟ وبعد ذلك ؟ واذا لم يحصل هذا ، فهل سيستمرون في البحث عنه كما يفعل الغجر ؟ وفي أي اتجاه ؟ الشمال ؟ أو الجنوب ؟ الم يقال له ان يذهب الى الجنوب بالقرب من الارجنتين ؟

وفي الارجنتين فهل من السهل العثور على والده الذي لا يعرف مكان وجوده ؟ وبعد ذلك ؟ وبعد ذلك ؟ المستقبل . المجهول .
الآن لقد فقدناهم في أكثر من زاوية . من يدري أخيراً .
مرحلة جديدة تبدأ .

لنتركهم الآن ، فالقطار يقترب من محطة ماجي .
لنرجع خطوة الى الوراء في الوقت المناسب .

الفصل السادس

المحبة

أخيرا تمكنت تمينة ويوسف من ان يتغلبان على جميع العقبات والصعوبات . ومرة أخرى كما في كل مرة ، فان المحبة تظل هي الأقوى ، وتنتصر على كل شيء . تلك المحبة التي تستيقظ فجأة وتستعيد الذكريات التي تعود الى الزمن الذي كانت فيه ابنة احد عشر عاماً وكان هو في الرابعة عشر من عمره ولم تستطع كل الاعتراضات والخلافات التي كانت بين كلا اسرتيهما من أن تحقق شيئاً ، وبقيت دون جدوى .

نلاحظ في مذكرات يوسف الذاتية ما خطه قلمه في اللقاء الأول الذي يقول فيه ما يلي :

" لقد تركت أصدقائي وألعاب تسليتي وركضت الى المنزل القريب من المكان الذي كنت ألعب فيه . ولما وصلت الى الباب الأمامي رأيت بجانبه امرأتين واقفتين وبينهما فتاة صغيرة بيدها رسالة كانت تقرؤها بكل نبضات قلبها .

توقفت ورحت أصغي الى قراءتها الواضحة والناعمة حيث كان ذلك الصوت ينساب في مسامعي ، فأحس كما لو أن تياراً كهربائياً يتغلغل في كل انحاء جسمي . لقد انتابني شعور كبير بالعطف والود ، ودقات قلبي راحت تتسارع و كلما أمعنت في القراءة وكلما تسلل صوتها الى سمعي كانت تزداد نبضاتي وخفقات قلبي .

فتاة رقيقة ، سمراء البشرة . عسلية العينين يشع منهما نور الذكاء ،
 وشعر كستنائي ناعم يتدلى على كتفيها ويغطي ظهرها حتى الخصر
 والجمال كان يتوهج ويطفح من وجهها الذي يحمله عنق ناعم يشبه
 عنق غزال لطيف ."

يكثف يوسف جهده في ممارسة عمله ولديه فقط فكرة ثابتة هي ان
 يتحد بتمينة ، وهذا ليس بالأمر السهل . وفضلاً عن المشاكل الأسرية
 ، فان هناك مشاكل أخرى مثل : عدم الاستقرار في البلاد وصعوبات
 الحصول على العمل و القلق الذي يسود ، والخطط التي لم يكتب لها
 النجاح في مساعيه . انها العقبات الكثيرة التي يجب التغلب عليها ،
 وكذلك العراقيل التي يجب تخطيها .

1923 هو عام الزواج .

الآن يجب ان يستقر يوسف ويريح رأسه . انه يجتهد اكثر ويضاعف
 جهوده في العمل أو البحث عن عمل . وتمينة تشجعه وتساعده بكل ما
 تستطيع . لم يمض وقت طويل ولم يطل العام 1924 حتى اصبحت
 الأسرة ثلاثة و عليه ان يقوم بأود ثلاثة اشخاص . والحياة التي لم تكن
 سهلة تصير في كل يوم أكثر صعوبة . ويوسف اللجوج وعديم
 الصبر صار يققزمن عمل الى آخر دون ان يستقر على عمل .
 يتشاجر مع أرباب العمل . لا يتقبل أوامر . ويفتعل سوء التفاهم .
 يحاول ان ينجح لكنه لا يصل الى أي تحسن ملموس . تمينة تساعده
 بكل ما تقدر عليه ، ولكن ذلك كله يذهب سدى . يتجنبان الشكوى أمام
 الأقارب . وهؤلاء الأقارب ليسوا بأحسن حال منهما . تمينة امرأة
 قوية وحاسمة لا تريد ان تعطي سببا لأقاربها ولا لأقارب زوجها

للتدخل في حياتهما لكي لا تستمر التلميحات والهمسات التي يمكن ان يطلقها بعضهم مثل : " ألم أقل لكم ؟ " و " لا يمكن النجاح بهذا الأسلوب " و " كما ترون انهم عنيدون " . " لافائدة "

في هذا الجو من عدم الاستقرار ، تخطر على بال تمينة خاطرة ، فتتجراً وتنقلها الى زوجها يوسف وتسعى جاهدة لكي يتقبلها وتلح على زوجها ان يقبلها . ان لها اشقاء في الولايات المتحدة الأمريكية وقد كتبت لهم تستوضح اذا كانت الحالة عندهم جيدة وممتازة ويمكنهم المساعدة .

يتردد يوسف في القبول . يخاف ان يغامر ويترك ارضه وناسه .
تمينة تلح وتلح وتقول بطريقتها اللطيفة والحازمة : أي مستقبل لنا هنا يا حبيبي ؟ ليس بالنسبة لنا فقط ولكن ايضا لأطفالنا ؟ كيف سيكون المستقبل ؟
والامكانات ؟
يا تمينه ؟ الآن ليس فقط الزوج ، ولكن ايضا الاقرباء ، والأصدقاء والمعارف والأصحاب ، والجالية . مستلزمات السفر من الأموال للأيام الأولى حتى التكيف ، وحتى الشعور بنوع من الاستقرار و حصول المعرفة الاولية للتواصل وبداية العمل . هل يستطيع يوسف أن يجد عملاً ؟ وما هو هذا العمل ؟ وأي سوق عمل سيتوفر له هناك في المهجر ؟

وتستمر تمينة في محاولة اقناعه ولا تكف عن ذلك أبداً . وجوابه دائماً جاهز . وهي دائماً تلح . ومنذ تلك اللحظة التي تبادلا فيها النظرات كانت تخطط لكل شيء ليس فقط للزواج ، فهي لا يمكن أن

تتزوج غيره ، بل كانت تخطط لقطع جذور الارتباط بمسقط الرأس والرحيل .

و ذات يوم يقتنع يوسف ، ولكن ليس بكل ما قالتة . لكنه غير قادر على مقاومة الحاحها . هو يتوجه الى مدينة طرابلس للعمل على القيام بالاجراءات القانونية اللازمة واعداد اوراق السفر . ليس سهلاً . لا شيء سهل . ولكنه بعد دفعه وتشجيعه من قبل زوجته ، وبعد اقتناعه بكلامها ، فانه لا يزال يتعرض لعراقيل جديدة .

الفصل السابع

الأسم

بأية طريقة يُختار الأسم ؟ ما هو الخيار الذي يبرر اختيار ذلك ؟
متى ينشأ قرار الاختيار ؟ أثناء المغازلة أو التودد ؟ خلال الخطوبة
؟ عند معرفة الحمل ؟ بطلب من الأم ؟ بطلب من الأب ؟ بضغط
من الأسرة ؟ باقتراح من الأقارب والأصدقاء ؟ بالتوافق ؟ بالإستعانة
ببعض الكتب التي توضح وترشد ؟ بلحظة تاريخ وساعة الولادة ؟
بشهر الولادة ؟ بالاعتماد على الأبراج ؟ بعلم التنجيم ؟ باتباع
الخرافات ؟ بالاعتماد على يوم مقدس ؟ ماذا يعني اسم من الأسماء ؟
ومتى يتفق وينطبق الاسم على الشخص ؟ لماذا اذن استعمال الأسماء
المستعارة ؟ وهل تعني استعارة الأسماء عدم الرضى عن الأسماء
المختارة قبلاً ؟ وهل هناك أي تأثير للإسم على حياة الشخص ؟
وهل من المفيد ان يترك قرار التسمية الى الشخص نفسه ؟ يمكن
طرح جميع الأسئلة المتقدمة وأكثر من ذلك بكثير في محاولة لشرح
تسمية المولود الأول للزوجين . كما يمكن اضافة مركبات أخرى
وعددا من الحروف والمقاطع لتركيب الأسم ، ومعناه ، وجذره ،
والهواجس الكامنة وراء ذلك وأيضا الأحلام . ولم تطل فترة
الزواج حتى شعرت الزوجة بالحمل وانها اصبحت أما وعليها ان
تختار للمولود الجديد اسما ، ففاتحت زوجها يوسف بذلك مستشارة
اياها بالنسبة لاسم مولودهما ، فوافق على رأيها قائلا انه ليس هناك اي

مبرر لعدم انتقاء الاسم ، ويمكن ان يستوحيا اسما شائعا يتقبله الجميع وليس اسهل من تقبل اسم جورج بالنسبة الى المنطقة التي يعيشان فيها ، وهو اسم تقليدي شائع وتتقبله جميع الأسر تقريبا . ولكنهما لن يكتفيا بولد واحد . وسيكون لديهما الوقت الكافي لتسمية جورج فيما بعد . وهذا ما اتفقا عليه واخذا يبلغان جميع العائلات بقرارهما المتعلق بتسمية المولود القادم . وبالفعل فان عددا كبيرا من معارفهما راوا يهذه التسمية شيئا عادياً .

على كل حال ، فان للأم أسبابها الخاصة في اعطاء اسم لطفلها البكر باعتبار ان هذا الاسم يعود الى زمن بعيد وشائع في هذه الأسرة . أختير هذا الاسم للطفل الذكر ، ولكن ماذا يؤكد لتمينه ان المولود الجديد سيكون ذكراً ؟ وحين كانت تسأل : واذا كان المولود أنثى فماذا ستفعل ؟ كانت تلوي برأسها وتقول انها لا تفكر بهذا ، وانها متأكدة انه سيكون صبيا وليس صبية . وعندما تسأل من جديد : وان لم يكن كذلك فماذا تفعلين ؟ كانت تجيب ايضا وتضحك بارتياح : عند الولادة يكون اختيار الاسم .

وتأتي عشية الولادة ، والأم بأصعب حالاتها ، وتتحرك بصعوبة كبيرة وبقلق وغم . تشعر بالألم ، والجنين يتحرك في داخلها . ويصل يوسف وهي في هذه الحال ، فتحس ان عنده كلام يريد ان يقوله . وبالفعل انه يريد ان يقول شيئا ، ولكن لا يعرف كيف يقوله . انه لا يريد از عاجها ، ولكنه يجلس الى جانبها ويمرر يديه على وجهها وشعرها ويعانقها بلطف ، ويضع رأسه على بطنها المنتفخ ليتحسس حركة الطفل . يفكر ثم يستدير برأسه دون ان ينظر اليها ويقول :

تمينه . مستحيل . وهنا تمينة تشعر بالاضطراب وعدم الارتياح ،
ولكن تتوقع ما سوف يأتي ثم تسأل : مستحيل؟

ماذا يا حبيبي ؟ ما هو المستحيل ؟ يأخذ يوسف نفساً ويهديء من
روعه ثم يقول : الحلم نفسه . يعاودني من جديد . انه نفس الحلم دائماً
لم يتركني . هل تتذكرين ذلك منذ بداية الحمل ؟ ليس من اليوم ولا
من أمس . انه منذ وقت طويل . لقد كان منذ البداية انه شيء لا يثبت
بين عدم الدقة والايجاز . انه سر فقط يكون بين الزوجين . لا يريد ان
يبوح به . يفضل تجنب ذكره حتى في الاحاديث من يوم لآخر . حلم
أو كابوس . شعور بالضيق . كرب . يستيقظ يوسف أحياناً في
منتصف الليل ولا يستطيع بعدها ان يغفو . يتقلب على الفراش ويتقلب
لا يعود الى الحديث مع زوجته بشأن ذلك الحلم لكي لا يزعجها . لا
يوجد تفسير منطقي لذلك على الرغم من ان الاتجاه يميل الى التعمق
في تصوف روحاني غامض هو من ارث اجداده .

يتمتع يوسف بعقل نير . يقرأ ويدرس كثيراً . يسعى الى المزيد من
المعلومات والمعارف . يتساءل عن الكائن الانساني ومصيره .
سؤال لا يفارقه ابداً لا في حالة الحلم ولا في حالة يقظته . وحتى لو
انقضت أيام أو أسابيع أو شهور دون رؤية ذلك الحلم ، فإن ذلك
الهاجس يظل معه ، وفي داخله يضغط عليه ويجلده . أما تمينة الفطنة
والنابهة ، فقد كانت تلاحظ عدم ارتياح زوجها وقلقه . انها تذكر جيداً
المرّة الأولى عندما قال لها عن غير قصد تقريباً في لحظة هذيان
خجول كمن يتفوه ويفضح شيئاً ليس من المناسب ولا من الواجب
التفوه به : تمينة . ايتها المرأة . اصغي اليّ بانتباه . ساعديني .

ينبغي أن أفصح لك . لقد حلمت بحلم غريب . لا أستطيع ان احتفظ به لوحيدى . ينبغي ان تشاركينى بالاطلاع عليه لىبقى سراً بيننا ، وعلينا ان نتخذ معاً قراراً بشأنه . وهناترتعب المرأة وتقلق عندما تسمع نبرة صوت زوجها ، وملامح وجهه ، وارتعاش فى جميع أنحاء جسمه أمامها . ولكنها تقترب منه برباطة جأش، وتعانقه بحنان ، وتقول له : قل لى . افصح . هيا خفف عن نفسك . ينبغي ان لا يكون بيننا أى شىء غامض . اليس هذا ما اتفقنا عليه منذ البداية ؟ ايه ؟

الكلمات تتدفق الآن كالنافورة . والانفراج المشترك وتبادل الراى يحل محل الشك . يبدأ بسرد ما حصل له قائلاً : استلقيت ذات يوم ونمت بشكل سيء ، فظهر لى فى المنام رجل كهل . كهل جداً . كبير الحجم أجهله ، لكن يبدو انى تعرفت اليه من قبل . منذ زمن بعيد . كان يطفو فى الهواء . يقترب منى . يثبت نفسه ثم يهبط ويجلس الى جانبى . يردد نفس الكلمات من دون تغيير فاصلة او كلمة . يتكلم بنفس النبرة ، ويبدأ بالهمس والتمتمة قبل ان يستقر . ثم يأتى بصوت علوى مخيف جذاب لا اعرف كيف أصفه يقول لى : اسمع جيداً . لا تنس . انتم لا تستطيعون ان تعطوا المولود الفادم الاسم الذى اخترتموه . أنا أضمن لكم انه سيكون مولودكم صبياً جميلاً ، قوياً ، معافى . لكن اذا لم تسمه بالاسم الذى حددته لكم، فإن مآسى عضال ستصيب الجميع ، وخاصة الطفل . فهو سوف لا يتمتع بصحة جيدة فى حياته ، وهذا هو المكتوب الذى لا مفر منه . انسوا انطونيو ولا داعى لإعطاء تفسيرات لأحد بهذا الخصوص . الأب يتنفس الصعداء ويأخذ وقتاً من الراحة . يتنفس ثم يعانق زوجته . يقبلها . يداعب

بطنها بيده . يداعب او يدغدغ ولده الذي يتهيأ للخروج الى الدنيا بكل حرص وانتباه . الولادة تقترب . لم يبق الا بضعة ايام او ساعات . من يدري ! يتنهد . يحرق بزوجه تمينة بذهول . انه يتقبل القرار بالفعل . يعود ويردد الأب : قبل ان يتوارى ذلك الرجل الكهل قال مكررا ان الاسم الذي ينبغي ان نطلقه على المولود يؤكد انه سيكون طفلاً ذكراً ، وفي صحة جيدة . وهكذا تم بالفعل .

وفي مفكرة الوالد ، وتحت عنوان الاسم الفعلي يسجل الحدث كما يلي : " اعتقد ان من يقرأ هذا سوف يتهمني بالكذب أو المبالغة . ولكنني أعود وأقسم بكل ما هو مقدس أن كل ذلك حصل فعلاً بهذا الشكل بالضبط . "

بعد ثلاثة أشهر من زفافنا، وفي يوم عطلة بعد تناول طعام الغداء ، وضعت وسادتي على حصيرة في وسط البيت واستلقيت عليها لارتاح قليلاً ، فغفوت وتغلب علي النوم فنمت ورحت أحلم . حلمت برجل كهل كبير تظهر عليه ملامح الوقار يدخل منزلي . طويل القامة أنيق . يبدو انه في سن الثمانين أو اكثر . متوهج الوجه كأنه فتى في عز شبابه . لحيته بيضاء كبياض ثلج لبنان . هيأته كانت هيئة قديس . ناداني باسمي قائلاً :

يوسف

ماذا ترغب يا سيدي ؟

زوجتك حامل ، وستلد ولداً وستناديه باسم سليم .

وبعد صمت قليل عاود وقال :

لا تنس . سمّي الطفل وناديه باسم سليم .

وعندما هم بالخروج ، عاد وكرر الأمر عليّ ، فشعرت اني استنشق رائحة البخور تعبق في الهواء .

وعندما استيقظت من نومي ، قصصت على زوجني ذلك الحلم فضحكت وقالت لي انه مجرد حلم .

وبعد يومين من رؤية ذلك الحلم رويت ايضا قصة الحلم لجاري اسكندر وقلت له: دعونا ننتظر لنرى ما اذا كان ذلك سيتحقق فعلاً .

الفصل الثامن

المجهول

مهما ألح الأبناء على معرفة أول لقاء تم بين الآباء ، لا يتوصلون أبدا الى معرفة دقيقة لما حصل بالضبط بين الآبوين . أقصى ما يصرحون به الآباء للأبناء ان ذلك لا يزال باكرا جدا على ابنائهم . ولعل سر ذلك انهم يرغبون باحتفاظ هذا السر لأنفسهم ، وربما يحتفظون بالسر خجلا من ابنائهم ، وربما يحتفظون به لأنه السر الذي يعبر عن العلاقة الأكثر حميمية في حياتهم . وهكذا نحن . انه السر الشخصي غير القابل للانتقال حتى اننا لانسمح لأولادنا بمشاركة الاطلاع عليه . وكلما فتح الموضوع ، نجد انفسنا مضطرين الى قلب الصفحة وتغييره الى موضوع آخر . فقط بعد زمن طويل ، وبعد ان يكون الأبوان قد رحلا عن هذه الدنيا ، فان سيرة الأب الذاتية تأتي لتروي أصول قصة ذلك الحب الخالد ، وتكشف عن تلك المشاعر الخفية .

في كل مرة تخرج الأم ، فانها تضحك ، وتحاول الإلتفاف على المشكلة وتقول : كنت جالسة بهدوء في زاوية من زوايا بلدتي في أميون لا أذكر أو في كفرسارون عندما وجدني يوسف هناك . لا ادري ما كان يفعله في ارضه هناك . وهناك تبادلنا النظرات البسيطة وقال لي انا تمينة: الله معك . لقد ظهرت لي ذات يوم ولم ارك بعدها ومنذ تلك اللحظة لم يعد يهنأ لي بال . حتى... حتى صرت تعنين كل شيء في حياتي . صرت تعنين النضالات ، والصعوبات ، والمشاركة

في سراء الحياة وضرائها . قال هذا ثم صمت وصمتت هي ايضا .
وتسمر ا في نظراتهما بكل حنو وعطف . ثم تحولا عن الموضوع . لكن
حبا كبيرا وساحقا استمر في جوانيتهما الى الأبد .

الأبناء لم يتعبوا من سماع الروايات المختلفة من الطرفين عندما كانوا
يستفردون كل واحد منهما على حدا . أخيرا سلّموا بالأمر الواقع
باعتبار انها ليست مختلفة كثيرا . لقد كانا يجيبان دائما بلهجة
ممزوجة بعدم الرضى والمزاح والجدية .

الآن ، وقد توافق كلاهما لم يعد مهم ما كان يقال من أن عائلة الأم لم
تكن موافقة على الزواج وتعتبر انها عائلة تقليدية ولها تقاليدها ولا
يجوز ان توافق على زوج فقير لابنتها . ولكن الزمن يتغير ، والحالة
الاقتصادية ايضا تتغير ، والاخوة يهاجرون الى الارجننتين ويختفون
هناك وتضيع اخبارهم . ويتبين بعد ذلك ان بعض الروايات لم تكن
صحيحة . فيوسف كان يملك منزلاً صغيراً مبنيا من الحجارة وكذلك
قطعة أرض وربما بعض الماعز . والحقيقة ان المصائر تتلاقى وما
هو مكتوب لا مفر منه . والاثنان ثبتا على هدف ان يتوحدا ويعيشان
حياة واحدة ، ولم يدخر يوسف أي جهد في سبيل تحقيق هدف الاتحاد
العائلي مع حبيبته تمينة كلما كان ممكنا . كان دائما كلما سنحت له
الفرصة يتوجه الى بلدة أميون القريبة . فالبعيد يصير للمحب قريبا .
أليس الحب هو الذي يجعل المسافات البعيدة قريبة ؟ والأمكنة البعيدة
تصبح قريبة جداً عند رغبة رؤية المحبوبة ؟ . وكذلك ايضا فان تمينة
كانت تختلق الأعذار لتذهب الى حيث يمكنها لقاء الحبيب العزيز .

مهما كان اللقاء بالسر سرا ، ومهما استمر النضال من اجل الاتحاد بالحبيب غير المعروف ، فانه لا بد من ان ياتي يوم تنكشف فيه الأمور، ويصبح السر معروفا ، واللقاءات تصبح غير مجهولة والبرهان على ذلك هو ما نراه الآن من حياة الحبيين المشتركة ومعهما اطفالهما ، والبحث عن أرض جديدة ، وتذليل العقبات التي تعترضهما بكل شجاعة وجرأة.فالحبيبان انتصرا على كل الصعوبات وتزوجا ، ولم يتاخر الوقت حتى أطل ابنهما البكر وتبعه فتاتان . وبعدها انتقلت الأسرة الى البرازيل .

انها قصة حب مماثلة لآلاف القصص التي حدثت من قبل وسوف تحدث فيما بعد . قديمة جدا قديمة ، ودائما وابدأ هي جديدة . حبيبان شابان يثابران ويذلان جميع الحواجز ويتزوجان . طبعاً هناك اناس من طرفي الشاب والفتاة لم يكونا موافقين ولا يريدون حصول مثل هذا الزواج . لذلك كانوا يرددون دائماً وفي كل مناسبة وخصوصاً عندما تتكاثر الصعوبات " لقد حذرنا ولكنهما لم يعيرا انتباها لتحذيرنا " . انه جنون وحماسة الشباب الذين لم يسمعوا لنصائح شيوخهم الكبار " . لكن الملاحظة التي يمكن استخلاصها هي ان هؤلاء الناس لم يكونوا يريدون ان يتم هذا الزواج . اما من جهة اهل الفتاة ، فانهم كانوا يرون انه ليس اهلاً بها ولا يستحق ان يتزوج منها . كان عليها ان تتزوج من غيره شخصاً يليق بها اي ان تتزوج من شخص آخر يكون أفضل منه . واما من جهة الشاب فأقاربه كانوا لا يريدونها لسبب إنتقادها لهم، وكذلك لأنهم كانوا يريدون ان يتزوج

من غيرها ممن يرغبون . أما المعارضون الآخرون فكانوا يعتقدون الأمور لكي لا يتم الزواج : أما من ناحية الأم ، فان اشقاءها الصغار الذين كانت تعتني بهم ، فان الخطة هي ان يهاجر الجميع الى الولايات المتحدة الأميركية للالتقاء بأقربائهم هناك . و أما من ناحية الأب ، فانه بالإضافة الى انهم كانوا يريدون ان يتزوج من قريبة لهم تسكن بجواره ، فانهم يريدون ان يبقى بالقرب من أسرته للعمل والمساعدة وتحمل أعباء مصاريف المنزل والقيام بمهمة قراءة رسائل الأسرة وكتابة البطاقات باعتباره الوحيد من بين ابناء العائلة الذي يجيد الكتابة والقراءة والحساب .

الواقع ان الأزمة ، والصعوبات منتشرة في جميع انحاء لبنان ، وفرص العمل نادرة ، والوظائف معدومة . والزوج يذهب للبحث عن عمل . أي عمل باعتبار ان ليس لديه أي اختصاص . أما الزوجة فتبقى في المنزل تدبر شؤونه ، وتعتني بأشقائها الصغار . لم يكن يوسف صاحب عمل مستقر . كان يعمل كمساعد بناء ، ومدرس بديل عند قضاء الحاجة ، ومساعد الخوري ، ويقوم برعاية الماعز ، عمل في معصرة زيت صغيرة ، وفي هذ المعصرة انتشرت شهرته كعامل مشاكس . لا يتحمل اي كلمة يحس فيها اهانة . دمه حار وسريع الانفعال . تكفي أقل مناقشة مع رب العمل حتى يهجم بسكينه مهددا متوعدا . والنتيجة انه كان يصرف من عمله مباشرة ويخسر حقوقه المترتبة له عند رب العمل ، وينتشر خبر طرده من عمله بسرعة في انحاء الحي ، ويصل بسرعة الى بلدة أميون . وفوق ذلك يعم خبر نقاشه وجداله مع المطران الذي كان يدين له ببعض المال .

كان القول الشائع هو : " مسكينة تمينة . لقد حذرناها سابقاً . انها عنيدة . كانت تستحق أفضل زوج . انها امرأة موهوبة نابغة ولكنها عنيدة " . كانت تمينة لا توافق على كل هذه الاقوال التي تنساب الى مسمعها ، بل على العكس كانت تحب حبيبها العنيد اكثر واكثر . لم يستسلم يوسف لكل الصعوبات بل يعود الى العمل عند احد معارقه القدامى ليعمل في الترميم ، ثم يعمل في رعاية الماعز تارة ، وفي التدريس تارة أخرى .

ان تمينة ذات العيون الكبيرة الحاملة ، والشعور المرهف ، والصوت الناعم الحلو ، وصاحبة القرارات الحازمة كانت افضل من يتولى ادارة شؤون الأسرة . لقد بدأت بمهمة العمل للخروج من المأزق الذي تعيشه . وهي تتذكر الآن الدعوة التي استلمتها من اشقائها الذين يقيمون في الولايات المتحدة الأميركية حيث كانت و قضت بعض الوقت هناك . هي تعرف انه اذا لم يكن أخوتها هناك أثرياء ، فإن وضعهم مستقر وأحوالهم المادية جيدة . لذلك استشارت زوجها بطريقة لطيفة حين قالت له : " حبيبي يوسف ما رأيك لو كتبت لأخوتي ؟ " فلم يبدي أي حماس ، ورفض وبعد ذلك قال : ان ذلك يعني ان نترك أرضنا وقرينتنا وأهلنا و نبدأ من جديد في عالم لانعرف شيئاً عنه ، ونصبح بعدها غرباء في بلاد غريبة . ولكن الوضع أخذ يتعدأ أكثر ، والصعوبات أخذت تزداد ، والبطالة سيدة الموقف ، وعداء الناس له يحيط به وهو ذو الطباع الحادة التي تنفجر بسرعة وتجعل حياته أشد تعقيداً مرة أخرى تعاود تمينة الحديث معه وتلح

عليه ان يوافقها ، فهناك ظروف العمل أوفر ، واشقاؤها بدون شك سيساعدونه في الحصول على عمل افضل ، وقد كتبت لهم تستشيرهم وكان جوابهم ايجابياً . وأشاروا عليه بالسفر بأسرع فرصة ممكنة ، وقالوا ايضا ان أي شاب يرغب في العمل هنا ، فان فرص النجاح والتوفيق كبيرة جدا والمستقبل واعد له ولأولاده في الولايات المتحدة والشيء الوحيد الذي لا ينقص هنا هو العمل .

مع كل هذا الكلام المشجع لا يزال يوسف متردداً ، ويرد على زوجته بالأمثال المستعارة فيقول لها : تمينة ، يا امرأة، هل تعرفين قصة الحكيمين اللذين كانا يتناقشان نقاشاً حاداً ؟ قال أحدهما للآخر: لا تبق جامدا . هيا خاطر . انهض . فيجيبه الآخر: كيف ؟ أهكذا تكون المخاطرة ؟ اريد برهانا على صحتها . والبرهان ان تنهض برجل واحدة ثم تضعها على الأرض . بعد ذلك انهض بالرجل الثانية ثم ضعها على الأرض . وهكذا تسير رويدا رويدا. أما ان ترفع الرجلين دفعة واحدة فلا مهرب من السقوط. و الحقيقة انني اذا اردت اني امشي الى الأمام عليّ ان ابدأ برفع رجلي الأولى ثم أثبتها في الأرض وبعد ذلك ارفع الرجل الثانية . لا أريد أن ارفع الرجلين دفعة واحدة وأتعرض للسقوط .

يعودان مرة أخرى الى استشارة الأقرباء والأصدقاء والمعارف فيحتران بين الآراء المشجعة والمثبطة للعزيمة ، فابن العم نعمون نجح في وقت قصير . ارسل لأسرته الدعوة وسافرت الى قربه . يملك بيتا وسيارة وارضيا . ويملك ايضا محلا تجاريا يبيع فيه

اشياء متنوعة . ويضيف آخر ان ابنة عمه سميرة والجميع يذكرونها ،
لم تكن تعرف أحدا . هي الآن ثرية وترسل دائما الأموال الى أهلها .
فقط لا يسافر الى هناك الا الذي لا يريد . ويقول رجل آخر
معارضاً : مسكين عمي ، فهو بعد سنوات طويلة من التنقل من
منطقة الى أخرى وأخرى ، عاد الى الوطن بدون شيء . لا يملك
شيئاً . يشكو من كل شيء . حتى انه لم يكن يملك من المال تكاليف
بطاقة السفر . لقد أرسلناها له من هنا . ثلاث سنوات مرت ، ونحن
الآن في العام 1927 . لقد كبرت الأسرة ، وتم اتخاذ القرار بالسفر .
وكما ان اشقاء تمينة في الولايات المتحدة ، فان شقيقة وشقيق يوسف
يقيمون في البرازيل وهي بلاد شاسعة وموارد وامكانيات غير
متناهية . شقيقته في بلدة ماجي في ولاية ريو دي جانييرو ، وشقيقه
في شمال البرازيل . الشمال الذي لا يعرف عنه شيئاً . ويذكر ان
والدته في بعض المرات ذكرت ان والدها هو ايضا في اميركا
الجنوبية في الارجننتين في بلدة ريو كوارتو لايعرفون اذا كانت
قريبة من حدود البرازيل ام بعيدة . هذا ليس مهما الآن . المهم ان
القرار بدأ يصبح يوما بعد يوم أكثر الحاحاً وواقعية . فالوضع في البلد
صار لا يطاق . انه المكتوب الذي لا مهرب منه . لقد وقع الاختيار
على السفر الى الولايات المتحدة . هناك مشكلة أخرى ، فالحصة
المسموح بها قد استنفدت وعليهم ان يغامروا ويذهبوا عن طريق
الكسيك تهريباً . لا مهرب من الصبر . لقد كانت تمينة في الولايات
المتحدة وتعرف الكثيرين من ابناء الوطن الذين يعملون على تسهيل
امور السفر . أشقاؤها يلحون عليهم لكي يذهبوا الى الولايات المتحدة

وهم مستعدون لإستقبالهم ويقولون لشقيقتهم تمينة ان أوضاعهم هي افضل بكثير من اوضاع اشقاء يوسف في البرازيل .أما الوالد في الأرجنتين فلا أحد يعرف عنه شيء ولا أين يوجد .

لقد بدأت الاستعدادات للسفر ، وبدأ حصر الموارد اللازمة من المتوفر ، وتكاليف السفر ،والمال اللازم الذي يحتاجونه عندما يصلون . طلبوا مساعدة مالية من الأقارب . تمينة تطلب مساعدة اشقائها وتقول كل شيء عندما نصل الى الولايات المتحدة سيصير سهلاً . ويوسف يكتب الى شقيقته في ريو دي جانييرو يعلمها بخبر السفر . العام 1927 وجميع افراد الأسرة على اهبة الاستعداد للقيام بالمغامرة التي سينزرون بعدها في تلك البلاد الجديدة .

الفصل التاسع الرحيل

القرار الذي اخذ بصفة دائمة هو قرار السفر والهجرة . ومن المستحيل البقاء في لبنان . وجميع محاولات الأقارب والأصدقاء والاصحاب لم تنفع في ثنيهم عن قرارهم . وجميع التحذيرات التي قدمت لهم ، وتقديم امثلة على من سبقهم والتي تقول بانهم سيرجعون الى بلادهم بخيبة أمل ، ومرارة قلب ، اشد فقراً فارغى الأيدي والجيوب ويعودون بأمراض غريبة ، وكل النصائح جميعها باءت بالفشل .

جميع المحاولات كانت عبثا وكانوا يدفعون الحجة بأخبار الآخرين الذين نجحوا وأثروا وكانوا سعداء في حياتهم . كان يوسف منذ مدة طويلة يتابع معاملات السفر وتديير جميع الاوراق والمستندات اللازمة في الوقت الذي كانت فيه تمينة تنتظر ولادة مولودها الآخر، فهو المولود الثالث خلال اربع سنوات من زواجهما ، وتهتم ببعض الحوائج ، فتحتفظ بالأشياء التي تريد أخذها معها في سفرها ، وتوزع ما ليس لها به حاجة ، وتبيع ما تستطيع بيعه لتأمين مبلغا اضافيا يعينهم في البلد الجديد .

في هذه الاثناء يصل يوسف الى البيت مضطربا منزعجا ويرتمي على المقعد وبادية عليه علامات الانهيار مُخْبأً وجهه بين يديه ، فتتوقف تمينة عما كانت تقوم به من عمل وتقترب من زوجها بقلق مستفهمة عما حصل مع زوجها ، فيقول لها ان تاشيرة السفر الى المكسيك قد رفضت . ففي المرة الأولى وخلال فحص العيون تبين ان نظره ليس سليما للسفر وأشار عليه الطبيب بالعالجة ووصف له الدواء والقطرة المناسبة ، لكنه بعد اجراء فحص العيون مرتين او ثلاثة ظهر تحسن بسيط ولكنه غير كافي . استمر بالعلاج وباستعمال الوصفات الطبية . لا مفر الآن من صرف النظر عن

هذا السفر .ففحص العيون كان دقيقاً للغاية ، ولا فائدة من المخاطرة كما لا يمكن السفر الى المكسيك . وهنا يصيب الأم الذهول ، لقد رتبت كل شيء وهيات كل شيء .لايمكن ان تستسلم. تناقش زوجها وتقول يجب ان نجد مخرجاً . لا بد من فعل شيء . يجيئها زوجها بأنه التقى رجلا هناك يريد الهجرة وقال له ان الأمر سهل ويمكن ان يسافر الى أميركا الجنوبية ، الى البرازيل . فالبرازيل بحاجة الى مزيد من الناس المهاجرين ولا تشترط كل هذه التعقيدات والمتطلبات . فتجيبه تمينة : اذن حلت مشكلتنا . لدينا خياران : اشقاءك في البرازيل ووالدي في الأرجنتين . يوسف يتردد ويقول : كل شيء نصيب . من يدري أن كل هذا الذي يحصل معنا من أجل البقاء في أرضنا ؟سوف نتخلص من هذه الصعوبات . لا توجد جنة على الأرض . قد يكون تأخير سفرنا علامة ما . تمينة لا توافق على افكار زوجها . عنيدة . ترفض السلبيات . تجادل . تحب الكفاح . لديها دائما جواب على كل شيء . تقنع زوجها برأيها . يقرر ان السفر الى البرازيل . يعود يوسف الى مدينة طرابلس . كل عقدة لها حل . لا شيء يتغير في تحويل أوراق السفر تقريبا .السفينة القادمة قد تتأخر قليلاً ، وهذا ما يريدونه لأن هذا التأخير يعطيهم الوقت الكافي لولادة مولودهم الجديد .

في شهر كانون الأول تكون ولادة طفلتهم الثانية . ومن المهم الانتظار حتى تتعافى تمينة وتصبح قادرة على تحمل مشقات السفر . لقد تحدد موعد اقلاع السفينة ، وكل شيء جاهز ، من اوراق ومستندات وأمتعة ، وقرار ثابت . فاذا بقي الأقارب على عدم موافقتهم ، فعليهم الآن ان يتخلوا عن هذه الفكرة الجنوبية . فقد أصبحت فكرة لا قيمة لها . حتى ان يوسف الذي كان مترددا وتسيطر عليه الشكوك بنجاح مشروع السفر ، فقد حسم أمره ولم يعد يريد التفريط بهذا السفر والحلم بالذهاب الى البرازيل على الرغم من أن لديه فكرة غامضة عن الرازيل بسبب ندرة رسائل شقيقته التي تقيم هناك .

وفي مفكرة يوسف الخاصة التي لا توضح لنا الا القليل نقرأ هذا المقطع : " الى أي بلد هي نية السفر؟
الجواب هو : الى المكسيك."

ان الدخول الى ذلك البلد هو صعب جداً على أي شخص لديه مشكلة في عيونه . ويجب الاعتراف حتى ان الذي يتمكن من الوصول الى هناك لا بد من اعادة فحصه رسمياً مرة أخرى من قبل طبيب حكومي . فاذا اكتشف الطبيب بعد التشخيص انه يوجد مرض في العيون وخصوصاً التهاب في العينين ، فان دخوله الى المكسيك يكون ممنوعاً من قبل الحكومة ويعاد على متن السفينة نفسها التي حملته الى هناك .

والحقيقة ان الغاية من السفر الى المكسيك ليست البقاء في المكسيك ، ولكن الغاية هي الانتقال الى الولايات المتحدة الاميركية فيما بعد ولا يجوز التصريح بذلك . الحل اذا هو البرازيل ، خصوصاً وان جميع الأوراق والمستندات اللازمة للسفر هي جاهزة في طرابلس حيث يقع الميناء القريب من بلدة كفرسارون . فالسفينة تبحر من بيروت وتوجه الى المحطة الأولى في الاسكندرية ، ووداع الأقارب والأصدقاء سيتم على النحو التالي :
"الأقارب والأصدقاء الذين عرفوا بموعد يوم وساعة السفر تجمعوا للمشاركة في وداع يوسف وعائلته ."

أه ! كم هي لحظة مهيبة لحظة الوداع ! وذلك عندما يقول الانسان وداعاً لعائلته ، لأقاربه ، لأصدقائه ، لجيرانه ، للبيوت ، للأرض ، للحجارة ، للسماء ، للماء ، ولكل من وما يشعر بحنان نحوه ، ولكل ما يربطه بطفولته وشبابه . حيث ولد ، وكبر ، وتفتح وكان دائماً يتمتع عيونه بتلك المناظر ، وتعشق نفسه تنشق ذلك النسيم . انها ساعة مذهلة ومدهشة من الحزن الكبير .
لقد انقضى اكثر من ستين دقيقة ولا كلمة تسمع فيها سوى كلمة الوداع . الوداع .

فالعيون المرهقة الزائغة لاتستطيع حبس دموعها التي تتدحرج على الوجنات ، والقلوب الحزينة تخفق خفقان اليأس . وما يكاد افراد الأسرة يتوجهون الى السفينة حتى تتحرك المناديل البيضاء وترتفع ملوحة بالوداع . فيرفع يوسف منديله ويلوح به للمودعين قائلاً وقلبه ينعصر : " الوداع . الوداع . الله يكون معنا ويوفقنا لنجتمع بكم مرة أخرى . "

كان شهر نيسان الذي اقلعت فيهم السفينة حاملة على متنها يوسف وتمينة اللذين تسمرت عيونهما على منظر أرض الوطن في الوقت الذي كانت السفينة تبتعد رويدا رويدا عن الشاطيء . أما حنا فكان يهتم بابن اخته البكر ، والطفلتان الصغيرتان كانتا في أحضان والديهما يوسف وتمينة .

ونفتح مفكرة يوسف لنقرا كصف يصف مشاعره لحظة المغادرة فيكتب ما يلي : " لقد تثبت نظرنا في التحديق بمنظر الجبال، من خلال الدموع التي شاببت عيوننا ، حتى اختفت عن ناظرنا ، وهيمنت علينا مرارة الرحيل عن بلادنا . وأبحرت السفينة بسرعة حتى وجدنا أنفسنا ، وبعناية الله ، ما بين البحر والسماء . ومع هبوط الليل يتقدم منا بحار فرنسي ويتكلم الى جانب الفرنسية معنا بالعربية : هيا الى تناول العشاء "

وحتى ميناء الاسكندرية كانت الرحلة هادئة ، ولكن الرحلة لم تنته هنا ، بل تخلل الرحلة في الطريق الى مرسيليا بعض الانزعاج الذي تسببه التيارات البحرية . وعند الوصول الى مرفأ مرسيليا نزل من الباخرة جميع الركاب ونقلوا الى فندق هناك تملكه شركة النقل البحري . وعند وصولهم الى الفندق كانت المفاجأة المزعجة وغير السارة عندما سمعوا من المدير بالعربية ، وهو من بلدة جبيل بالخبر المفاجأة يقول :

" أهلاً وسهلاً بكم . لكن نصيكم هو ان تبقوا عشرة أيام هنا . فلو كنتم وصلتكم قبل بضع ساعات من الآن لأكملتم سفركم اليوم . "

كيف ذلك ؟

لقد غادرت السفينة التي تذهب الى أميركا الجنوبية منذ ساعتين فقط ،
وعليكم ان تنتظروا السفينة القادمة . وهذا لن يتحقق قبل عشرة أيام .
ولكن لا تقلقوا فلن تدفعوا أي فرق في التكاليف لأن النفقات ستتحملها
الشركة . " وأبلغ الجميع أن السفينة التي سوف تكمل رحلتهم
وتحملهم الى البرازيل هي سفينة إيطالية وتحمل أسم " فورموزا " .
والحقيقة انه قد حصل فرق . نعم لقد كان الخبر مصدر ازعاج ،
والبقاء عشرة ايام في ايطاليا هو بحد ذاته ازعاج يضاف الى الرحلة
التي كانت كلها ازعاجات . أما يوسف وتمينة فإنهما لن ينسيا أبدا تلك
الأيام التي قضوها في مرسيليا . انهما فقط خلطا ما بين التواريخ
والحوادث والمشاهد الطارئة .

الفصل العاشر

الخيار

إذا كانت المعطيات لا تترك منفذاً للشك ، وإذا كانت مذكرات الوالد في مفكرته الذاتية التي عنوانها " حياتي " هي حقيقة سارية خلال عقود ، فإنها انتجت نسخة أخرى انطبعت في أذهان أبنائه . وهذا هو الشيء الذي يسود ويبقى في نهاية المطاف، ويكتسب امتيازات الحقيقة ، ويرفض ان يسلم بالواقع الصحيح في التاريخ ، وداخل كيان الأسرة .

فبالإيمان الذي لا يقبل الشك بالقضاء والقدر والتصوف يردد الوالد ما جرى له عندما يتذكر الأيام التي قضاها في مرسيليا ويقول : " نحن نحاول ، والمصير المكتوب هو الذي يغلب " فما حصل معنا من عرقلات وتعقيدات بما في ذلك الإلتهاب الذي اصاب عيون شقيق زوجته حنا كان لخير ، كما ان كل الأشياء غير السارة التي كانت تحدث كانت تدعو الى الصحة وعدم فقد الايمان ، ولم تسبب الا خسارة القليل امما يمتلكون " .

ويسجل يوسف في مفكرته بشكل دقيق ما يلي : " لقد تركنا أوراقنا ومستنداتنا مع مدير الشركة الذي استدعاني بعد وصولنا بثلاثة أيام قال لي : لقد دقت في المستندات فلم أجدها موافقة . فأنت اولاً كانت رحلتك الى المكسيك والآن انت ذاهب الى البرازيل . فشرحت له ما حصل معي عند طبيب العيون في طرابلس وكيف حولت الرحلة الى البرازيل بناء على اقتراح الاصدقاء .

قال : لقد ارتكبوا خطأ يا صديقي معك ، وانصحك بتجدد أوراقك هنا والا لا تستطيع ان تسافر .

قلت : حسناً افعل ما تراه مناسباً . "لذلك قمنا باتخاذ الترتيبات والاجراءات من اجل الوثائق الجديدة التي تم انجازها خلال يومين. طلبت مني الشركة لانجاز المعاملات مبلغ 400 فرنك وكنتم انا املك مبلغ 600 فرنك ، فبقي معي فقط مبلغ 200 فرنك .

بعدها بدأت أفكر بما يتوجب عليّ ان افعل . وكيف يجب ان اتصرف عندما نصل الى البلد الغريب الجديد ونحن لا نجد لغة البلاد ولا الى اين نذهب . وهل نستطيع اللقاء بأقاربنا هناك فوراً ؟ او من يدري هل يكونون الأقارب قادرين على مساعدتنا أم لا ؟. وهل هذا المبلغ الزهيد الذي املكه يكفينا بعض الوقت ؟ قالت لي زوجتي : لا تقلق سأرسل مباشرة برقية الى شقيقي في الولايات المتحدة أخبره فيها عما حصل معنا وأطلب منه ان يرسل لنا أي مبلغ من المال يتمكن منه .

قلت لها : ولا بأية طريقة أقبل ذلك ان الله وحده هو الذي يعيننا . قالت : لا . سأكتب الى شقيقي . تعال معي لنتكلم مع المدير . ذهبنا الى مكتب المدير وشرحنا له الوضع كما هو ، فطلب منا الاسم وعنوان الشخص المعني ، فارسل البرقية . وبعد عشرة أيام وصلنا الجواب مرفقا بمبلغ ألف فرنك 1000 فرنك . في هذه الاثناء ابلغتنا الشركة ان السفينة قد وصلت ، وعلينا ان نكون مسنعين للسفر في اليوم الذي يلي . أي غداً . وفي الساعة الخامسة من بعد ظهر 30 نيسان من عام 1927 صعدنا الى السفينة وكانت سفينة ضخمة وصل عدد ركابها الى 2000 مسافراً من جميع الاجناس ، فأبحرت بنا متجهة الى اميركا الجنوبية . "

هذه الحلقة التي كانت واضحة جداً بقيت طي الكتمان لعدة عقود كما ان الدوافع لذلك لا تزال مجهولة ، واعلانها كان بروايات مختلفة ، لكنه لم يكن كذلك في الجوهر .

هيا نتعرف عليها : السفينة تغادر تاركة الأسرة في مرسيليا . والحلم بالوصول الى اميركا الشمالية يتبخر . وبالرغم من الحاح الأم ومناشدتها السلطات ، فان الجواب كان نفسه : نتفهم مأساتكم والازعاج الذي تسبب لكم ، لكننا نأسف لذلك ، ولكن القانون هو القانون . بإمكانهم مواصلة الرحلة بدون شقيقها حنا . فالإلتهاب في عيونه يمنعه من مواصلة السفر . لم يتعبوا من تكرار الإلحاح

والترجي . ولكن القانون هو القانون . انهم يشعرون الآن انهم هم وليسوا هم . ماذا يفعلون ؟ موظفون خدمة المراقبة متنبهون ومنتبهون . وبدون شفائه الكامل لا يسمح له بالسفر والأفضل ان لا يسافر . الآخرون يستطيعون مواصلة الرحلة أما هو فلا . لكن تمينة يستحيل ان تتخلى عن شقيقه وتتركه وحيداً ليضيع في مرسيليا الذي كان على أهبة الاستعداد لمرافقتهم . كذلك الوالد من نفس رأي تمينة يقول : اما ان نساغر معا ونواصل رحلتنا واما ان نبقى جميعنا هنا .

كان نزولهم في فندق بالقرب من الميناء ، وبالكاد كانوا يستطيعون التفاهم مع موظفي الفندق . الوالد يحاول على مضض التفاهم معهم بقليل من اللغة الفرنسية الذي يعرفه ، والأم تحاول التفاهم معهم بلغتها الإنكليزية الركيكة . وأحياناً كان يلتقي ببعض الأشخاص الذين يتكلمون العربية فيرتاح لذلك ، ومن هؤلاء السيدة حنان التي كانت تعرف العربية فيقابلها بكل ابتهاج وسرور ومصافحة ، وكانت فرحته حين تطل وتقول له : كيفك ؟ مبسوط ؟ فيجيبها بالقول : مبسوط ان شاء الله . وحين تسأله : هل كل شيء يرضيك هنا ؟ كان يجيب : وكيف يمكن أن أكون راضيا وأنا بعيد عن أرضي ؟

ويروحوون يتحدثون ويتناقشون ويستوضحون بعض المعلومات فكل واحد منهم يعيش في عزلة ، يبحثون عن خيارات أخرى . كانت

هجرتهم محاولة لكسب لقمة العيش ولو كان الكسب قليلاً ،فانه يساعد الى حد ما . وفي اكثر الاحيان كان المهجر لا يكسب شيئاً .

كل شيء يساعد ولو كان قليلا . التوجيه، النصيحة ، العناية ، وبعض الأحيان كلمة بسيطة ككلمة انتبه كانت تساعد . الكل يعد بالعودة الى الوطن ولكن نادرا ما كانوا يعودون . وفي انتهاء الحديث يودعون بعضهم بعبارة : مع السلامة . كانوا يرتاحون بعض الراحة الى الاستعلامات التي تصدر عن الخدمة الطبية ان العلاج ينبغي ان لا يستغرق وقتا طويلاً ، والمهم ان لا يكون المرض ساريا ومعديا . والسهل ان يكون التهابا بسيطا ومحدودا يمكن معالجته بسهولة وسرعة ، ولكنكم تعرفون ان القوانين البحرية هي قوانين صارمة وهي تكون اشد صرامة عندما تكون الأمراض قوية ومتحكمة في العيون . وتعاقب اصحاب السفن المخالفة بقسوة عندما لا يحترمون القوانين والتحذيرات ، وخصوصا ربان السفينة والضباط الذين يعملون في البحر وكذلك الذين يعملون على الارض . ويقول أحد المسؤولين في الشركة للمسافرين الذي يخضعون للعلاج : نحن نأسف لكل ما يجري معكم ونتفهم ونقدر مأساتكم ولكننا لا نستطيع فعل شيء للتخفيف عنكم، وبالأحرى لا نفهم الأسباب التي حالت دون مواصلة الأسرة المؤلفة من الأب والأم وثلاثة أطفال صغار رحلتها . أما حنا فكان بإمكانه ان يتابع الرحلة بعدكم ويلحق بكم في وقت لاحق على متن سفينة أخرى الى نفس الميناء الذي تذهبون اليه ، وفي نفس الشركة التي تسافرون بواسطتها ، وبحديث لطيف مع الشركة لا يخسر بطاقة سفره . لكن كل هذه التطمينات لم تكن لتتفع بل كان حواب الأسرة دائما : مستحيل . لا يمكن ان يتخلوا عن مرافقة حنا وهو شقيق تمينة . كيف يتركونه في مرسيليا ؟ وماذا سيحصل اذا تركوه هناك ؟ وهل يتركوه وهو شاب صغير دون ان يكونبرفقته

أحد ؟ . فهو خال الأطفال الذي لا يتركهم لحظة ولا يغمض عينه عن متابعتهم ومراقبتهم . غادرت

السفينة وبقوا هم في مرسيليا في الفندق ، وبدأت الأيام تمر ، ونادرا ما كانوا يذهبون لرؤية الميناء القريب الذي كان يعج بالسفن القادمة والمغادرة . يذهبون الى السوق بكل حذر لشراء بعض الحاجات من حليب وخبز وجبنة وفاكهة وزجاجة من النبيذ .

يقتصدون في مصاريفهم الى الحد الأقصى . يحضرون طعامهم في نفس الغرفة التي ينامون فيها في الفندق وهم ستة اشخاص . يعدون من وقت لآخر نقودهم التي بقيت معهم ويحسبون الوقت الذي ينبغي عليهم ان يتحملوه حتى وصول السفينة القادمة . والأم تمنية تكتب الى شقيقها في الولايات المتحدة تقص عليه ما جرى لهم والإزعاج والوقت العسير الذي يمرون به ، وتطلب منه المساعدة . ربما يعينهم من جديد ويرسله بعض المال . ولكن كم من الوقت يمضي حتى يصلهم الجواب ؟ لم يطل الوقت حتى تحسنت حالة حنا . واصبح في حالة لا بأس بها تقريبا . الآن لا شيء سوى الانتظار . ولكن الانتظار كلما طال ، أصبح لا يطاق . يعدون ثم يعودون يعدون ما بقي معهم من نقود تنقص يوما بعد يوم . الى متى يأتيهم الجواب الذي هم على أحر من الجمر لاستلامه بالتأكيد لم يكن تأخر الجواب لعدم استعداد اقاربه لإرساله ولكن السبب يكمن في صعوبة الاتصالات . الأب يسأل هل وصلت اية رسالة لنا ؟ يقال له ان تلغرافا وصل . فيذهب الى الميناء للإستيضاح . لكنه يعود محبطاً وعلامات الحزن على وجهه فيقول لزوجته : ان السفينة التي ستذهب الى المكسيك لم يحدد لها تاريخ لوصولها حتى الآن ولا يتوقعون اي تاريخ لوصولها . ولكن هل الاتصالات من المكسيك لنقلهم الى الولايات المتحدة لا تزال قائمة وسارية المفعول ؟ انهم لا يستطيعون

الانتظار على هذه الحالة من الشك . وحتى لو وصلت المساعدة المالية ، فانها ستصرف لتسديد الديون المترتبة للفندق . وفي هذه الحالة وفي غضون هذا الوقت فماذا عليهم ان يفعلوا لتأمين مصاريف الطعام ؟

اجتمعت الأسرة وبدأوا بالتداول وتبادل الآراء . وطرح السؤال التالي : وماذا لو رجعنا الى لبنان ؟ فوراً يجيب أحدهم بكلمة : لا . لا يمكن ، ولا يوجد اجماع على ذلك . ويستحيل ان نعطي هذا الفرع مجاناً لأقاربنا ليشتمتوا بنا . فقد كانوا يعارضون هذا السفر ، وقد انتقدوا كثيراً ، وقالوا ان هذا السفر هو هراء ولا معنى له ولماذا هذه الهجرة ؟ واذا كنتم تعتقدون ان الحالة سوف تتحسن في العالم الجديد فهذا من الأوهام . وقد سردوا الأمثلة الكثيرة على فشل الكثيرين من الذين هاجروا امثال ابن العم اسكندر الذي عاد بعد سنوات وحالته المادية أسوأ مما كانت قبلاً ويحمل أمراض غريبة . وطلبوا منا البقاء في أرضنا ، والوضع لا بد من أن يتحسن ويصير افضل مما هو عليه . ومن يملك قطعة أرض هنا أفضل من لا شيء . ومن يعمل في أرضه يمكنه أن يحصل قوته وقوت عياله ، ويمكنكم ان تنظروا كيف ان ذلك البستان من النخيل يعطي ثمر التمر اللذيذ والعنب والتفاح وكثير من المواد الغذائية بالإضافة الى تربية الماعز الذي يعطي الحليب واللحم . ويوسف كان بإمكانه ان يحصل على عمل او وظيفة ثابتة ، ويتوقف عن القفز من عمل الى آخر . كان يوسف في سن تدعوه الى الإستقرار والعناية باطفاله . صحيح انه لم يكن اختصاصياً في عمل أو مهنة ، لكنه كان ماهراً في كثير من النشاطات . كان بإمكانه ان يستمر بتدريس محو الأمية في الليل ، وفي النهار كان بإمكانه ان يعمل في مصنع صغير . بينما تمينة المرأة الذكية والموهوبة هي بالفعل ربة منزل اقتصادية تقوم برعاية اطفالها

ويمكنها فوق ذلك ان تساعد في عمل الخياطة فهي خياطة ماهرة ، ويمكن ايضا ان تعطي دروسا خصوصية وتشكل حلقة من الأقارب والأصدقاء تعلمهم القراءة والكتابة وتكسب بعض المال . ثم يقبلون الحجة في مداولاتهم ونقاشهم : لا فائدة من هذه الافكار . لقد غادرنا من دون أي دعم وعلينا ان ان نكون حازمين في قرارنا ، ويبدأون باعطاء الأمثلة عن الأشخاص الذين نجحوا في هجرتهم وحالفهم الحظ كمثل أشقاء تمينة الذين ذهبوا الى الولايات المتحدة بدون أي عون أو دعم وكانت حالتهم كمثل حالتنا و الان هم مستقرون في الولايت المتحدة الاميركانية وأصحاب محلات تجارية وبيوت واعمال مستقرة ومضمونون في اعمالهم ولم يتعرضوا لصعوبات قوية في حصولهم على بطاقات الإقامة الدائمة ، وقد تعهدوا في رسالتهم ان يقدموا كل المساعدة لشقيقتهم وشقيقهم وصهرهم من اللحظة التي يصلون فيها وحتى استقرارهم وتأمين عملهم في البلاد الجديدة . والشقيقة تمينة لا تتعب من تكرار القول ان اخوتي مستعدون لكل الاحتمالات وتقديم العون لأسرتنا . ولا تنسوا انني كنت هناك عندهم، ورأيت كل شيء بنفسي . يوسف يمكنه ان يعلم اللغة العربية لأطفالهم ولكثير من الناس من ابناء الجالية الذين لا يريدون ان يقطعوا صلاتهم بالوطن الأم ، واذا لم يكن يوسف مرتاحا لذلك ولم يكسب ما فيه الكفاية والرضى ، فالبلاد واسعة والاعمال كثيرة . أما شقيقي حنا فبإمكانه ان يعمل مع اشقائه دون قلق ولا خوف . لا تقلقوا ولا تخافوا من أي شيء . فقرارنا نهائي ودخولنا الى البلاد الجديدة مضمون . وسوف تصل الأسرة الى المكسيك مثل الكثير من الناس الذين يصلون الى هناك . وكل شيء ضمن حدود التوقعات ، والإتصال ساري كما هو مرسوم وسيستقبلنا شخص في المكسيك عند وصولنا ، وتخرج من جيبها ورقة كتب عليها اسم الشخص الذي سيستقبلهم على ارض المكسيك ساعة الوصول ، واسمه بابلو حبيب

يدل على انه من ابناء بلادنا ويتكلم العربية ولديه خبرة في عملية نقلنا الى الولايات المتحدة الاميركانية ، ولا يوجد صعوبات كبيرة في عملية التهريب الى الناحية الأخرى من الحدود حيث يكون في انتظارنا أحد أشقائي . لاتهتموا بما ليس متوقعا . ولعدة مرات ، كانت تحصل هذه المداولات والنقشات في مرسيليا حتى استقر يوسف على رأي ان لا تراجع ابدا وقال بشكل حازم : لا يمكننا ان نتراجع ولا يمكن ان اعطي سببا لأي شخص بأن يشمت بنا ، لا من الأقارب ولا من الأصدقاء وسأجابهم جميعا ولم تكذ تسمع تمينة هذا الكلام حتى أغرورقت عيونها بالبكاء ، بينما اخذ حنا يبكي ويقول انا السبب كما لو انه هو نفسه الذي كان سبب مرض العيون والإلتهاب . واخذ يكرر النظر الى عيونه في المرآة . لكن الشيء المفرح هو ان الإحمرار في عينيه بدأ بالتناقص ، وبدأت حالته تتحسن شيئا فشيئا . وبدأت دموعه تقل واخذ يقول: لو انني أخفيت مرض عيوني ولكن اللو لا تفيد أبدا . فالواقع الملموس لا يمكن اخفاؤه وكلمة " اذا " لا تنفع ، ولا يمكن تجاهل ذلك بأبة طريقة من الطرق .

فجأة لمعت في خاطر الوالد يوسف ومضة عندما بدأ اليأس يكاد يقوض كل داخلية ، فتذكر مفكرته الصغيرة التي كان يدون عليها العناوين ، وكان أحيانا يتساءل : صحيح أن هكذا فجأة أو أن عاملاً داخلياً من شأنه ان يؤدي الى عودة الذكريات الى سطح الذاكرة ؟ من يدري ان المحادثة مع عربي ذكر البرازيل أو مع البقال صاحب الدكان الذي ذكر البن البرازيلي لا تفيد بشيء ولا تفتح امامنا نافذة مهمة نحن بحاجة لها تؤدي الى طريقة لمعرفة ما نحن بحاجة اليه في الوقت الراهن ؟ الصحيح ان يفتح المفكرة وبدأ يفتش فيها على عجل فوق نظره على كلمات بالعربية مخربطة غير مفهومة بشكل

جلي ويظهر انها كلمات برتغالية كتبت باحرف عربية ، قرأها (فارينيا ماجيكا) ، وخطر بباله ان هذه الكلمة قد تكون مكان سكن شقيقته سعدى . بدأ يهجيء الأحرف كالتالي : (ماغ - ما - غي - ما - جي) ، وبالنسبة للأب فلحروف (ما - غي - ما - جي -) و ريو دي جانييرو ، برازيل لا تعني شي بالنسبة لتعيين الموقع او المكان . انه فقط مجرد اشارة للتذكير اين تعيش الشقيقة . والحقيقة هنا لا يذكر العنوان كاملاً ، ولو ذكر العنوان بشكل واضح لكان فيه خشبة خلاص . فكلمة ماجي لاتعطي فكرة واضحة . والبرازيل بلد استوائي كبير ورائع يسكنه خليط من الهنود والزنوج ومزيج من العروق المختلفة . انه بلد واسع جداً وغريب وغامض وغني ويقولون ان موارده كثيرة حتى ان العمل بالأشجار يعطي مالاً . وقد كان يستلم من شقيقته رسائل ، لكنها لم تعرف بالضبط في اي وقت ستتوجه وتغامر للعثور على شقيقها في شمال البرازيل ، وقد حاولت ان تعرف عنوانه او شيئاً عنه ولكن ذلك كان بدون جدوى .

ويلتفت الأب الى زوجته والى شقيقها ثم يدفع دفتر مفكرته الذي يمكن ان يكون وسيلة سحرية تفتح امامه ابواب عالم جديد . ويقول لهم كما لو انه يكتشف او اكتشث المخرج الذي يفتش عنه : اني ارى الحل للمأزق الذي نحن فيه هو البرازيل والبرازيل هو وحده هو الذي يحل المشكلة . لماذا لا نذهب الى البرازيل ؟ والأفضل ان نسافر الى البرازيل دون ان نعرف من الآن ما سوف يجري . وهناك وعندما نصل نفكر ونتعرف الى الخطوات الضرورية التي يجب اتخاذها . لنرى ما اذا كانت هناك سفينة راسية في الميناء وستتوجه الى البرازيل قريباً ، ولنعرف ما اذا كان بإمكاننا الحصول على تأشيرة سفر الى البرازيل . ومتى ستنتقل السفينة الى البرازيل . وهناك نعرف اذا كانت (ماجى) قريبة من الميناء او بعيدة . ولنحسب النقود

التي معنا لنعرف اذا كانت تكفي لشراء تذاكر السفر وبعض النفقات الطارئة . لكن تقبل هذا المشروع لم يكن منتظراً . حنا بقي صامتاً وبعيدا عن النقاش بين شقيقته وزوجها وخائفاً من ان يعقد الأمور أكثر باعتبار انه المسؤول عن تاخر السفر بسبب التهاب عينيه . هنا ترد تمينة على زوجها وتقول : لنتنظر قليلاً . والمعونة التي طلبناها من أشقائي سوف لا تتأخر في الوصول . أريد أن أذهب الى حيث يمكن أن التقى بأشقائي . اريد قليلاً من الأمان عندالوصول فالحلم هو الوصول الى الولايات المتحدة حيث أخوتي هناك . يمكننا الإنتظار قليلاً يا يوسف . يا حبيبي . كرمى الله . النقود التي بحوزتنا تكفينا لمدة اسبوعين وحتى ثلاثة اسابيع نفقات فندق وطعام . لماذا هذا التسرع ؟ ماالذي نعرفه عن البرازيل ؟ ...

يقاطع يوسف زوجته قائلاً : لا . حسب حساباتي ارى ان الرسالة التي ارسلناها لم تصل بعد . والتلغراف الذي أرسلناه أظن أنه ضاع او يمكن ان يضيع . فأني جواب ننتظر؟ . والنقود التي يمكن ان تصلنا ليست أكيدة . نحن لا نعرف بالضبط حالة أخوتك المالية . ولنفرض انهم ارسلوا لنا مساعدة مالية ، فنحن لا نعرف كم من الوقت سيستغرق ذلك ، واذا انفقنا كل ما معنا الآن قبل ان تصل المساعدة فماذا نعمل ؟ من المستحيل ان نقتصد أكثر . وليكن معلوما لك ان أغراضك الشخصية الخاصة سيحجزها الفندق ويحتفظ بها حتى نتمكن من دفع المستحقات التي ستترتب علينا له . لا . ليس لنا من وسيلة أولاً للخروج من المأزق الا بسفينة تنقلنا الى البرازيل ، وثانياً : ان ما معنا من النقود يكفي لدفع تذاكر السفر ، وثالثاً : الحصول على تأشيرة الدخول الى البرازيل . وفي البرازيل هناك شقيقتي سوف ترحب بنا وتستقبلنا بالمودة ، وكذلك هناك أيضاً شقيقتي الذي لا أعرف عنوانه.أما شقيقتي فسوف التقى بها . نعم سألتقي بها

بالتأكيد . وقد كنت اتكلم من كفرسارون مع شقيقي الذي هو في شمال
 البرازيل بواسطة الهاتف . وبالطبع هو قريب من بلدة ماجي حيث
 تقيم شقيقتي ، انها تعرف اقامته ويتراسلان ويزور بعضهما بعضا
 باستمرار . الله أكبر يا امرأة . يا تمينة . يوجد الآن سفينة في الميناء
 وستوجه قريبا الى البرازيل . انه مكتوب لنا هذا المصير . انه
 مكتوب . النقود التي نملكها تكفي لدفع تذاكر السفر ويبقى معنا مبلغاً
 لا بأس به لنفقاتنا في الفترة الأولى من وصولنا الى البرازيل حتى
 نلتقي بشقيقتي هناك في بلدة ماجي ويعانق يوسف زوجته تمينة
 بحرارة على الموافقة ويقول بحماس : هيا الى القنصلية البرازيلية
 لنطلب سمة الدخول ونحصل عليها . ففي الواقع عندنا اقارب في
 البرازيل ، شقيقتي وشقيقي سيساعدوننا هناك . لن نتأخر بعد اليوم
 . سنكون قريبا في البرازيل وهذا هو قدرنا ومكتوب لنا . والحقيقة انه
 لا خيار عقلائي ومناسب لنا غير هذا الخيار للخروج من مازقنا .
 الآن الثلاثة جميعهم يتحمسون ويأملون ان يجري كل شيء على ما
 يرام بحيث يحصلون على سمات الدخول الى البرازيل بسهولة
 وبأقصر وقت ممكن . نعم . ان وجود شقيقة مقيمة بشكل دائم في
 البرازيل هو في الحقيقة عامل مشجع ومطمئن ويسهل على العائلة
 المهاجرة كثيرا من الصعوبات ، ولقد سمع الوالد انه لا قيود على
 الدخول الى هذا البلد الكبير الواسع ، والذي فيه مساحات كبيرة
 وكثيرة غير مأهولة . هو بحاجة الى أيدي عاملة كثيرة للعمل في
 الحقول ، والمدن ، وداخل البلاد . بلد غني وفيه امكانيات كبيرة للعمل
 وخصوصا للذين يرغبون في بدء حياة جديدة وجديون ولا يخافون
 من العمل . وتلك الارض الشاسعة يصعب تقديرها ومن المستحيل
 مقارنتها مع ارض مساحتها كمساحة ارض لبنان . ويبقى الأمل كبيرا
 ليوسف من انه سيلتقي بسهولة وبدون صعوبات ليس مع شقيقته
 سعدى المقيمة في بلدة ماجي ، بل ايضا مع شقيقه الذي اختفى مع

الريح ولا يعرفون شيئاً عنه باستثناء انه هاجر الى البرازيل وانقطعت أخباره ولا يعرف مكان اقامته . وعلى الرغم من قبول تمينة القرار بالذهاب الى البرازيل ، فانها بقيت متأرجحة وغير مطمئنة باعتبار انها كانت مصممة على قناعتها من اجل الالتقاء بأشقائها ، وكل شيء كان مدروسا بالتفصيل وممنهجاً ومبرمجاً حتى مغامرة الدخول الى المكسيك ، وعليها الآن ان تقوم بدراسة وافية وتقييمها وتفحص كل شيء من جديد لتترتب الأمور في رأسها بشكل يحملها على الاقتناع . زوجها يوسف في الواقع كان مصيباً ، وليس للأسرة مخرج آخر . والانتظار لا يخلو كونه مخاطرة غير مضمونة النتائج . والى متى يجب على هذه الأسرة ان تنتظر في مرسيليا ؟ نعم . كان يوسف على حق . فقط البرازيل هي المخرج . هيا بنا الى البرازيل .

مع انه لم يكن من الصعب الحصول على تأشيرات الدخول الى البرازيل على جوازات السفر ، فان الوالدة تمينة ، وفي صخب الاستعدادات الاخيرة عاشت في حلم تبدو معه كأنها تحمل كل الهموم التي كانت تحملها اثناء الاعداد للسفر عندما كانت في لبنان . ففي العمق ما يزال عندها بقية من أمل ، على الرغم من شراء التذاكر ، انها سوف تستلم رسالة من أشقائها يخبرونها

فيها عن ارسال المال . فالإلتهاب اختفى من عيون شقيقها حنا ولذلك تتوجه الى زوجها وتقول له : يمكننا الاستئناف بمشروعنا الأول حبيبي يوسف ، فهو اكثر ضماناً لنا . لكنها تعرف ان لا عودة عن السفر الى البرازيل وعليها ان ترضخ للأمر الواقع ، وان تقبل بالمصير المكتوب . فكل شيء في حياتها كان يسير في هذا الاتجاه . واثناء السفر كانت عواطفها تجيش وتود ان تبكي ، وربما كانت تبكي خفية دون ان يراها أحد . وقد كانت تبكي في الخفاء بعد وصولها الى

مدينة الريو، وكانت تبكي ايضا في بلدة ماجي . وكانت تلوم نفسها لأنها لم تصبر وتقاوم قليلاً قبل ان تتوجه الى البرازيل . من يدري ؟ ربما يعود الحلم الى التحقيق . فقد كانت وهي تحضر الحقائق للسفر تهدس في داخلها ما هو المانع من ان تكون البرازيل محطة للتوجه منها الى الولايات المتحدة الاميركية لرؤية اشقائها ؟ . لقد رضيت بالرحلة الى البرازيل ، لكنها لم تكن مقتنعة . هل هذا هو المكتوب ؟ أم المصير الذي لا مهرب منه؟ او اننا نستطيع ان نصنع مستقبلنا بكتابة توجه جديد ؟ كان الشهر شهر نيسان عندما غادروا مرسيليا .

الفصل الحادي عشر المعكرونة

انقضت ايام القلق والحيرة وعدم الارتياح ، والقرار المتخذ اصبح نهائيا ، وهاهم يصعدون الى السفينة الايطالية فورموزا للإبحار . السفينة تتحرك للخروج من مرفأ مرسيليا بهدوء . كان يوسف هادئاً ، جياش العاطفة ، قلقاً يتابع بنظراته تمينة وطفلتها الصغرى في حضنها ، وحنان كان بدوره يراقب الطفلين الآخرين . ولم يمض وقت طويل حتى انعدمت رؤية الميناء وانحجب عن النظر . مرسيليا ابتعدت عنهم ولم تعد تبدو الا كبقعة صغيرة من غمام . الأسرة بدأت تستعد للإستلقاء والارتياح . السفينة بدأت تنفث ، و تتأرجح ، وتزيد من سرعتها . ولم تمض سوى لحظات خاطفة كالسحر حتى تشعر ، تمينة المأخوذة بالدهشة في هذه الرحلة ، بالغثيان والدوار ، فيقول لها يوسف (صار أسمه الآن جوزي) مداعباً : يا للسخرية يا تمينة ما هذا الذي أصابك ؟ انك بالكاد تصعدين الى السفينة . تبدئين بالغثيان وانت ما زالت بعيدة عن البحر الكبير ؟ اتركي هذا الى وقت لاحق . لطعام المعكرونة . عندها تضحك تمينة محرجة لكنها في حالة من التأزم مجيبة : ماذا يمكنني أن أفعل ؟ وماذا تريدني أني أقول اذا طلب مني الكلام وانا في هذه الحالة وهذا الشعور ؟ ليست الرحلة في البحر سببا لتجعل المرء يحس بدافع للتقيؤ . وتقول له : يظهر انك هنا وحتى هذا الوقت ما زلت أقوى مني . الليلة مؤاتية ومناسبة للراحة والانشراح ، والذكريات . والوالد يبدأ بالحديث ويقص على الأسرة المجتمعة في تلك الليلة على متن السفينة نصائحه ويقول ان على الاولاد عندما يكبر ويشيخ كل من الوالد والوالد ان لا يزجوهما . اما الوالدة تمينة فأنها تريد ان تجلس على مقعد لتأخذ قسطا من الراحة بعد عناء يوم من الكد .

لا فرق ان يكون في الصالة او المطبخ . تجلس وتسترخي وتنظر
بعيونها الى البعيد ، ونمضي بسرد ذكرياتها .
يقاطعها الوالد ويتدخل في الحديث لاضافة بعض المعلومات او
لتصحيح بعض الروايات . مضيفا ايضا بعض الاضافات ويدخل
بعض المزاح والنكتة كأن يقول لزوجته : هذه القصة ليست صحيحة
يا تمينة . أية مخيلة هذه يا امرأة ؟

أما اللغة البرتغالية فكانت دائما حاضرة في الحديث ولو انها كانت
لغة ركيكة . الوالد والوالدة اصبحا يعرفان القراءة والكتابة بلغة البلد
الذي سيصلان اليه وان كانت بدائية ، ومن المحتمل انهما سيظلان
يواجهان صعوبات في بعض كلمات هذه اللغة حتى نهاية حياتهما
كالكلمات التالية : (بريزنتي ، بوركريا ، باراتو ،) وهي خلط بين
حروف الباء العربية وحرف ال " بي " البرتغالية او الفرنسية او
الإنكليزية . وعبارات أخرى مثل : (جورا برا فريغيز) وهي ان
يحف او يقسم يمينا للزبائن . وخلط عبارات عربية مع برتغالية .
واكثر الاحيان لا يؤدي هذا الخلط او المزج الى اية عبارة او جملة
مفيدة . كاستعمال مثلا كلمة : (بيت كازا) . فكلمة (بيت) بالعربية
تعني كلمة (كازا) بالبرتغالية . و احيانا ينسون ما يريدون قوله في
العربية ولا يجدون ما يريدون قوله في البرتغالية كما حصل لتمينة
الآن التي تحتاج ان تتذكر شيئا من مرسيليا لكنها لا تستطيع . وهكذا
تضحك وتحني رأسها ثم تتوقف عن الكلام . فهي تنسى نفسها كما
تنسى ما تريد البحث عنه . انها تنظر الى الاشياء التي امامها بشرود
دون ان تراها . تتطلع الى الصحون والملاعق والشوكات والطاولات
والدخان المتصاعد من الفرن على الحطب وتذهب نظراتها الى بعض
اوراق النباتات الموجودة على ظهر السفينة وتسرح نظراتها في
ظلمة الليل من دون رؤية لكل ما هو امامها . ولا تحس في ذلك الليل

على ظهر السفينة الا بخشخشة اوراق بعض النباتات التي تحركها نسائم باردة تتزايد. فلا يحس الانسان فيها الا بالليل والنسيم والبحر. وتستمر هذه الحالة لأيام وأيام ولشهر تقريبا . وبابتسامة منعشة تجدد الحيوية ، تقول تمينة : ان الوالد يمزح معكم . نعم انها رحلة هادئة سلسة مع العلم ان السفر في البحر له مخاطره ، وتهديد الاعصار يخيف احيانا ، والامواج المتلاطمة تقلق ، والحياة على ظهر السفينة ليست مريحة كما ينبغي ، والأسرة غير مريحة . ثم تقول : لا ادري ما اذا كان هناك فرق بين سفينة وأخرى . لقد قال الوالد ان هذه السفينة هي الأكبر وتتسع لعدد يناهز الفي مسافر . ومقسمة الى درجات : درجة أولى وثانية وثالثة . لا ادري اذا كانت هذه الدرجات موجودة ام لا . ولا اريد ان ادخل في هذه التفاصيل . وتشد صحيفة كانت بيد الوالد يقرأها وتناديه : يوزي . كلمة جديدة تستعملها خليط من كلمتين يوسف وجوزي.(يوسف العربية وجوزي البرتغالية .) . فيشكو يوسف ويقول : لا أعرف يا تمينة اتركيني أقرأ الصحيفة . انا اعرف اننا اشترينا تذاكر بسعر مخفض ولم يكن لنا خيار غير هذا . لا أريد ان أعود الى ذكرى لا طائل منها . الذكرى الطيبة لا تنسى ابداً . اتركيني أقرأ يا امرأة .

كان الطعام في السفينة دائما هو نفسه : المعكرونة . معكرونة صباحاً ، ومعكرونة طعام الغداء ، والمعكرونة ايضا لتناول وجبة العصر وكذلك معكرونة طعام العشاء . وبدل الفاكهة او الحلوى كانت المعكرونة . والمعكرونة ايضا كانت تقدم كدواء وكمقبلات لفتح الشهية . والمعكرونة كانت تقدم بطرق عديدة ومختلفة ، ومع التوابل المتنوعة ، ولكن بنفس الطعم سواء كانت مع الجبنة او مع السجق او مع الصلابة او مع الدجاج او مع السمك او مع اللحم او مع الثوم او مع الخضار او مع الزيتون او مع الشيطان. ودائما دائما كان الطعام في السفينة هو المعكرونة .مما جعل الوالدة لسنوات وسنوات

لا تستطيع ان تتذكر او تسمع بكلمة معكرونة ، وحين كانت تسمع بكلمة معكرونة يصيبها التهوع وتنقرز نفسها وتريد ان تنقياً .
والحقيقة ان ما حصل معها بالنسبة للمعكرونة شيء لا يمكن تفسيره حين نجد ان كراهية المعكرونة انتقلت بالوراثة منها الى اطفالها .
مرة أخرى تبتمس تمينة ، وتمسح الدموع من عينيها ، وتغرق في الماضي ، ثم تلتفت الى زوجها وتسال : حبيبي يوسف (ولا مرة استعملت الكلمة البرازيلية كيريدو ، فقط تستعمل كلمة حبيبي) ماذا حدث بالفعل حتى أتينا الى البرازيل ؟ لا أستطيع أن أتذكر . يبدو ان هفوات واشياء غير مفهومة سيطرت عليها كما لو انها غيمة كثيفة .
المعكرونة أطبقت عليها وغطتها ومنعتها من الخروج من هذا الحصار المطبق . كانت غيمة لزجة او سحابة من المعكرونة تتقطر عليها وتجتاحها من كل الاتجاهات ، مما ترك أثره على الأسرة بأكملها ، والأقارب ، والأصحاب ، والأصدقاء بشكل بقي الى زمن طويل يرافق حياتها كما لو انه علامة طالع او علامة هوية طبعتها بطابعها ، والطبق الاعتراضي على طاولة ميغيز . خصوصا لأنه الطبق الأقل كلفة في الأوقات الأشد حاجة والأكبر صعوبة حيث كان الطعام الدائم العدس والأرز المزخرف بالبصل المقلي في صحن كبير والمعروف بالمجدرة بالعربية . والذي تقززت نفوس الأطفال منه حتى انهم صاروا يطلقن على كل طعام لا يستسيغونه : مجدرة .
يدندن الوالد ويترك الصحيفة ويكرر تدمره ويقول : ان هذه المرأة تمينة تبالغ كثيراً جداً . لم يكن الأمر هكذا . حتى ان المعكرونة كانت لذيذة ، واعدادها كان جيداً وهذا الطبق هو ماركة مميزة للمأكولات الإيطالية ، وقد انتشر هذا الطبق في جميع انحاء العالم ، كما حدث في وقت لاحق مع مأكول الكبة العربية ، ومأكول السمك (باكاليو) البرتغالي ، ومأكول الإيزين الألماني ، ومأكول الفاصوليا السوداء أي (الفيجوادا) البرازيلي . الآن الوالد يتوجه بكلامه الى

زوجته بشيء من العصبية ويقول : لماذا لا تذكرين يا تمينة الأشياء الأخرى ؟ أم أنك لا تريدين أن تتذكري ما حصل في السفينة من أشياء جميلة ؟ ، فتجيبه نعم لا أتذكر ولا أستطيع ان اتذكر اي شيء حين تجتاحني ذكريات المعكرونة . كل شيء يختفي من ذاكرتي . اني أحب أن أكون على متن السفين ولكن بدون تلك السحابة المعكرونية اللزجة . أريد أن أرى الأمواج ، والغيوم ، والسحاب ، وأكثر من ذلك أريد أن أراقب الأطفال ، وشقيقي حنا . كل شيء يختفي دفعة واحدة كلما خطرت على بالي تلك المعكرونة الطرية واللزجة . اما الوالد يوسف ، فاكثر ما يزعجه تذكر داكار . كان الجو حاراً جداً . لم يروا معالم المدينة كما يجب . أصيب طفله البكر بمرض الحمى وارتفعت حرارته واستمرت الحمى حتى بعد مغادرة السفينة ميناء داكار . مدينة بسيطة ولكن لم يكونوا فكرة كاملة عنها او أقل فكرة التقوا ببائع متجول زنجي ابتسم لهم وعرض عليهم بعض الاشياء الزهيدة الثمن للذكرى والح عليهم بالايماءات والاشارات لشراء بعضها مع حركات و عبارات تفيد انه مستعد لتخفيض ثمنها وانها اشياء جيدة وممتازة وردد عليهم بعض الكلمات بالعربية والفرنسية ولغات أخرى . لقد مروا بلحظات عصبية بالنسبة لمرض طفلهم وخافوا على حياته من تلك الحمى . كان عليهم ان يستدعوا الطبيب المقيم على متن السفينة كمالاذ أخير متذكرين الأيام الماضية مع الاطباء وما جرى لهم من فحوص ومعاودة فحوص جديدة . الخلاص هو ، الآن ، في الوصول الى البرزيل ، وربما تتحسن حالة الطفل الصحية ويشفى من الحمى .

لقد عاين الطبيب طفلهم اكثر من مرة ، وطمأنهم بانه لا يوجد اية دلائل على ان هناك خطرا كبيرا على الطفل ، وفهموا منه على ان قلق الأبوين على الطفل هو شيء طبيعي . وكان عليهم ان يستدعوه من قبل ، ويمكن ان يكون ما حصل له ليس بسبب الجو الحار ، وربما يكون من ماء ملوثة بسبب نزولهم الى مدينة داكار

وتنقلهم في شوارعها . قالوا له انهم لم يتنقلوا الا قليلا في الشارع . ويمكن ان يكون حصل ذلك بسبب اكل بعض الفاكهة . بالتأكيد لم يقرأوا التعليمات التحذيرية عندما نزلوا الى داكار . لكن كيف ينبغي عليهم أن يقرأوا اذ لم تكن مكتوبة بالعربية ؟ وحتى لو كانت مكتوبة بالعربية ، فانهم لم يولوا اهتماماً بذلك . يمكن ان تكون هذه الحمى ناتجة عن حساسية . كان يدل على معدته ، وضعف جسمه يعود الى الايام الصعبة في مرسيليا والى الايام الطويلة على التي قضاها على متن السفينة اثناء الرحلة . والأطفال ، عادة ، يكونون أكثر حساسية كما انهم يتعافون بسهولة أكبر . يكفي ان يتناولوا الدواء المناسب حتى ينهضوا بسرعة ويباشروا الركض واللعب . كانوا يتفاهمون بواسطة ايماءات و اشارات بالعربية والفرنسية والانكليزية مع الطبيب الذي كان يتمتع بخبرة واسعة بسبب رحلاته التي لا تعد ، والذي كان يعاين ويطبب مسافرين من جنسيات مختلفة ، فهو يتحدث الايطالية وسافر الى العديد من الدول ، ويحسن التفاهم بأكثر من لغة وقد خدم ايضا كمترجم . هو مرح دائما ، ودائما على استعداد لتقديم خدماته للذين يحتاجون اليها . لقد عرف لبنان ، وكان في مرفأ بيروت ، ويقول انها مدينة جميلة وكذلك مر في طرابلس . عندما دخل الى الكيبين ليعاين الطفل المريض حتى رأسه ليتمكن من الدخول . وضع يده بلطف على وجه الطفل ، وأخذ حرارته قائلاً للطفل بالعربية : كيفك ؟ مب - سوط ؟ مبسوط ؟ وقال للأبوين : سلام عليكم ايضا بالعربية . فقال يوسف : ياه . الله أكبر الطبيب يعرف ايضا افريقيا . كان يعمل هناك . بعرف ايضا فرنسا . ليس فقط مرسيليا بل انه يعرف باريس ايضا . وكذلك تعرف على الولايات المتحدة . لم يتعرف على البرازيل بعد . فقط يعرف الموانئ البرازيلية مثل ميناء ريسيفي ، وميناء سلفادور ، وميناء ريو دي جانييرو . قال ان عنده فكرة عن البرازيل ، لكن بحسب الرسائل التي من أقربائه الذي

يقيمون في البرازيل قال : أريد أن أزور البرازيل ، ولكن من المستحيل في هذه الرحلة . لأن السفينة ستكمل رحلتها الى الأرجنتين وفي الأرجنتين سأبقى هناك بضعة أيام . ربما أزور البرازيل في المرة القادمة ، من يدري، فقط للتعرف على البرازيل . لا أحب أن أبقى مدة طويلة على اليابسة في مكان واحد . دائما في سفر . بعد ان انتهى من فحص الطفل ومعاينته سألوه كم يريد من النقود؟ هز برأسه فقط أنه لا يريد شيئاَ فهذا يدخل ضمن العقد الذي ابرمه مع الشركة . فقط يريد أن تتحسن حالة الطفل الصحية ويتعافى . فهو أب لطفل بعمر هذا الطفل . لا يراه الا قليلاَ . لم يتعرف عليه جيدا الا عندما صار يمشي، ويريد ان يركض ، ويطلب الطعام ويريد ان يبيّن لأبويه انه يحب ان يتركاه ينهض ليتنفس الهواء النقي . والآن يطلب الطبيب من الوالدين ان يتركا طفلهما ينهض ويتنفس الهواء النقي لأن ذلك يساعد على التعافي والشفاء نعم في البداية سيشعر بالضعف . وهذا شيء طبيعي ، ولكن الطفل أقدر على استعادة عافيته من الكبير . وبالفعل لم يمض وقت حتى نهض وبدأ يلعب ويطلب الطعام ، ويتمشى على سطح السفينة ، ويشاهد الأمواج ، ولكن دائما الى جانبه أحد لمراقبته خصوصا خاله الذي يهتم به ويمسح بيده على رأسه الصغير . الطفل الآن في السنة الثالثة من عمره ، وأفكاره لا تزال مشوبة بالغموض مع بعض الشيء من الوضوح مما يجعله ينسى الاشياء فجأة مثل رغوة الموجه البيضاء التي ترتفع وتهبط . الآن اصبح الطفل راشداً ويسمع ويطيع كلام أمه . فهل يتذكر شكل ذلك الطبيب الحقيقي الذي كان يعاينه ويعالجه ، او يتذكر الحديث مع أمه التي لا تستطيع ان تفصل أو تفرق بين الطبيب والمعكرونة ، وسفينة المعكرونة ، وبحر المعكرونة نفسه .

الفصل الثاني عشر الخوف

الوقت وقت العصر ويميل الى العشية تقريبا. الارض تكبر، وتتقدم ، وتقرب . يبدأ المرأ بملاحظة اتساع الشواطئ، وكذلك يرى الطيور ترفرف بأجنحتها فوق السفينة . ومياه البحر تبدو زرقاء تميل الى الاخضرار، وتتموج ذهاباً واياباً، وتصبح قاتمة ، والمرتفعات والمنخفضات من الاراضي تتداخل في الغسق . ويظهر أمامنا أبنية صغيرة بأشكال مختلفة تشبه خضرة الشجر ملونة بألوان الورد لا تلبس ان تختفي وتختبيء بسرعة تحت هبوط الظلام . لا أحد من المسافرين يستطيع ان يثبت على رأي ، بل الجميع يظنون أن كل ما يبدو أمامهم يدل على انهم واصلون الى جزيرة . أليس كذلك ؟ ولم يمضي طويلا من الوقت حتى بدأت السفينة ترسو . انتشر الركاب على سطح السفينة يراقبون حركة مناورتها وهي ترسو . راح البحارة يصيحون ، ويعطون التوجيهات . المسافرين بدأوا يضعون أغراضهم التي يحملونها بأيديهم الى جانبهم . الأمهات يبحثن عن أطفالهن . الزوجات الى جانب أزواجهن . والأصدقاء مع أصدقائهم الذين رافقوهم في رحلة طويلة دامت شهرا تقريبا . والمتفرجون يراقبون من على الأرض وجوه المسافرين الذين لا تظهر وجوههم بشكل واضح . يقتربون من السفينة ويحدقون في وجوه الركاب ، ثم يختفون في الظلام عند سماع بعض المعلومات . يحاول يوسف ان يستفهم من بعض الركاب عن هذا الميناء ويتساءل : هل معقول ان هذا المكان هو البرازيل ؟ لا يبدو ان هذا المكان هو البرازيل . ليس عندهم أي فكرة عن البلد الذي يتوجهون اليه ، والمعلومات التي لديهم ليست دقيقة ، وكل ما لديهم هو أفكار ومعلومات غامضة . فقط يعرفون ان اراضي البرازيل شاسعة وغنية وخصبة ، وأي شيء يزرع فيها يدر

كثيراً ، ويعرفون ايضاً ان فيها زوج وهنود وسكانها متنوعون
ومن اجناس متعددة ، ومن جميع الاتنيات والأعراق، وفيها مساحات
واسعة فارغة ، وفيها فرص كبيرة لمن يريد ان يعمل باجتهد .
والأمثلة كثيرة على ذلك . الارتجاف في الشفاه بادية ملامحه
بوضوح ، والعيون ترغرغ بالدموع ، وتمينة لا تتعب من التحديق
والنظر الى الارض. تتذكر لحظات القلق والتوتر ، والتوقع ،
والتأخير غير المنتظر الذي حصل في مرسيليا ومرض طفلها ، ثم
تلقت الى زوجها وتساءل : هل سننزل الى الارض في هذا الليل ؟
تخيل اننا الآن على الارض ولا نعرف الى أين نتجه . عليهم ان
ينتظروا حتى ينزل الجميع ويسمعوا توجيهات السلطات المدنية
والأمنية التي ينبغي ان تنادي المهاجرين باسمائهم وتدعوهم للإطلاع
على اوراقهم ووثائقهم وفحص ما اذا كانت الأوراق والمستندات
صادرة بحسب الاصول النظامية ، والتحقق من صحتها قبل اجراء
الفحص الصحي من أجل الموافقة على الإقامة في البرازيل. يهمس
يوسف قائلاً ويقول أن ذلك يستغرق عدة ايام ، والمدة غير مؤكدة وقد
تستغرق اكثر من اربعين يوماً ، ثم يقول ان عليه ان يبقى متنبهاً حتى
لا يخسر دوره عندما ينادونه باسمه . ان يوسف وأسرته لا يعرفون
شيئاً عن البرازيل : لا العادات ولا التقاليد ، ولا اللغة . ولنتصور
أنه يوجد شخص آخر يحمل نفس اسم يوسف أو انهم سينادون باسم
الشهرة ميشال ، فماذا ستكون النتيجة ؟ أول خيبة أمل حصلت
هي انه لا يسمح بالنزول في الليل وفقاً للقوانين ولا يمكن مغادرة
السفينة . عليه الانتظار على متن السفينة حت صباح الغد .
الخوف الذي اعتراه هو من كل نوع . والقلق لا يفارقه ، وسوف
يستمر قلقاً خلال الاربعين يوماً القادمة وهي المدة المقررة لاتخاذ
قرار الإقامة من قبل السلطات ، وهذا ما سمعوه من مواطنيهم الذين
سبقوهم واتوا الى هذه الارض قبلهم .

ولكن ماذا يفعلون للإتصال بالشقيقة سعدى ؟ وكذلك ماذا يفعلون للتفاهم مع المسؤولين الذين ينبغي ان يستجوبوهم في دائرة الرقابة ؟ تمييزه تفهم بعض الكلمات بالانكليزية والروسية . يوسف يعرف بعض الكلمات الفرنسية بشكل بدائي ويرفض ان يتلفظ بها . فهل سيجدون من يتفاهم معهم ؟ وهل ما يعرفونه من غير اللغات كاف لحصول التفاهم ؟ وهل سيتوقفون بشخص يتكلم العربية فيكون فرحهم بذلك كبيراً وقد سمعوا من أناس كثيرين بان في هذه البلاد كثير من الذين يتكلمون العربية ؟ لكن الخوف الكبير كان غير ذلك . كان الخوف من موضوع حنا ، مع ان حنا قد شفي من الالتهاب في عينيه . وبقي السؤال : واذا لم يكن حنا قد شفي من الإلتهاب بعد ؟ فما العمل ؟

أطل الصباح ، وبدأ الركاب بالنزول ومغادرة السفينة . وما كان يحصل هو زحمة برج بابل الحقيقية ، واللغات المختلفة بدأت تتقاطع وتتشابك ، وسماع الكلمات الغريبة تجتاح الاسماع ، وكذلك ايضا اللهجات وايقاعات الكلام والعبارات المختلفة لا يمكن تحديد معانيها . من أين أتى اصحابها الذين وصلوا للتو والى أين يتجهون ؟ كيف يفعلون ليتفاهموا مع سكان البلاد اذا لم يتوفر لهم المترجمون ؟ وهل تكفي الاوراق والمستندات في أيدي المسافرين لقبولهم وعدم خلق اشكالات لهم ؟ واذا كان قد حصل أي خطأ او التباس في الاوراق في طرابلس أو بيروت أو مرسيليا ، فما العمل ؟ وهل جوازات السفر سليمة بعد ذلك الالتهاب الذي حصل بالنسبة لتحويل السفر من الولايات المتحدة الى البرازيل؟ تشد تمييزه زوجها بكمه وتقول له : انظر يا يوسف محبة الله . انظر هناك من جديد . يوسف يهدئها ويخرج من جيبه أوراق السفر والجوازات ويعود لقراءة المکتوب فيها بالعربية والفرنسية ، ويبحث عما اذا كان فيها شيئاً مسجلاً بالبرتغالية . يبدو له ان لا شيء بالبرتغالية . فقط يجد العبارة قنصلية البرازيل في مرسيليا والموافقة على تأشيرة الدخول الى البرازيل تحت الرقم 397 الصادرة بتاريخ 14 / 04 / 1927 . وحتى هذه

اللحظة لا تتمكن الوالدة تمينه من الحفاظ على هدوئها لأن تائها او جيشان عاطفتها لا يترك انفعالها بل دائما تعود الى ما مر معها في سنوات ولحظات التوتر والقلق بأثر رجعي فيشتد توترها ويتكثف . الكل يتحرك ، والمسافرون ينتظرون على سطح الباخرة . واذا بالتعليمات تصدر بالنزول ومغادرة السفينة . بدأ الركاب بالوصول الى رصيف الميناء وراحت الوجوه الغريبة من الناس تحيط بالمسافرين وتقدم لهم أشياء وأشياء غير معروفة من الحلّي والحلوى والمشروبات والاطعمة الغريبة ذات الرائحة القوية . الاطفال يكون ويتمسكون بتتورة والدتهم تمينه . يوسف يسعى جاهدا يبحث عن أي شخص ليساعده . وحنا يحمل ابنة أخته . نعم ، نعم ، تكرر الام تمينه تريد ابعاد الخوف والتوتر كما لو أن أحداً يريد طرد ذبابة تصر على ملاحقته ولا تعطيه فرصة للتخلص منها . انها تريد استئصال هذا الغشاء السميك من الخوف الذي يحيط بها . نعم ، نعم ، انهم يتبادلون الطمأننة لكي لا يتركوا الرهبة تتسرب الى نفوسهم ، ولا يخشون أي طارئ ، فكل شيء سيكون على ما يرام . يحاول يوسف ان لا يدع الشك يتسلل الى تمينه فيقول لها : من الآن وصاعدا نحن في عالم البرازيل الجديد والرائع . ونجاحنا في هذه البلاد أكيد مكرراً : " كل شيء سيكون على ما يرام " . لكن الوالدة تمينه لم تكن مقتنعة على الرغم من كل المحاولات التطمينية لها وتظاهرها بالفرح . وفي العمق ، فان يوسف وحنا ينتابهم نفس شعورها وتفكيرها ، ويتساءلون في داخلهم : لماذا اتوا الى هذه البلاد ؟ وماذا سيفعلون هنا ؟ وكيف سيتصرفون هنا عندما يكون مصيرهم غير ذلك ؟ ولكن من يقرر المصير ؟ لقد كتب علينا ذلك ؟ لماذا غامرنا وخاطرنا ؟ ألم يكن بإمكاننا المقاومة والاصرار على التريث والانتظار ولو قليلاً من الوقت حتى ولو كانت الكلفة اكثر بقليل ؟ لماذا هذا القرار الذي اتخذناه وتركنا بلدتنا الحبية ؟ لماذا لم نبق في ارضنا وبين اهلنا واحبائنا ونواجه الصعوبات معاً ؟ ومن هو الذي

يعيش ولا يتعرض للصعوبات ؟ وهنا من يضمن لنا ان حياتنا ستكون من دون صعوبات ؟ تمينة تضغط على فكرها وتريد التركيز على الحاضر . فمع المخاوف والهزات التي تعرضت لها تمينة ، يمر الوقت عليها بطيئاً و غليظاً دون ان تفصح ليوسف عن كل ما ينتابها ، بل هي لا تتخلى عن أي جزء من الزمن الذي مضى . وهناك موضوع آخر اكثر واقعية وهو:

ماذا لو ردت الموافقة على تأشيرة الدخول التي حصلوا عليها في مرسليليا ؟ وماذا اذا لم يكن شقيقها حنا قد شفي من الالتهاب بشكل كامل في عينيه ؟ وماذا يفعلون اذا كانت دائرة التفتيش الصحي هنا أكثر تشددا من الفحوصات السابقة وبادوا يقولون : نأسف لعدم الموافقة لأنكم تعرفون أن موضوع مرض العيون ومشكلة الرؤية شيء جدي ولا يمكن الموافقة على بقائكم في البرازيل، بل عليكم مواصلة رحلتكم ؟ والى أين سنذهب ونتابع سفرنا ؟ وماذا نفعل اذا قالوا لنا عليكم بالعودة الى ميناء البلد الذي جنتم منه ؟ طرابلس ، أو بيروت ، أو مرسليليا ؟ العودة الى أين ؟ الى أي ميناء اذا لم يبق معنا أي مال ؟ اذا لم يكن بإمكاننا تصور أية وسيلة أخرى ؟ اذا كان مبلغ ألف الفرنك (1000) الذي أرسله شقيقي قد اختفى ؟ اذا كانت كل الابواب مغلقة ، مقفلة ولا يمكن استبدالها ؟ إن تمينه تشعر بالقلق . الوقت يمتد . يفقد منطقه ويكتسب بعداً آخر لا حصر له . لم يمض من الوقت ولا يوم واحد . ومع هذا كله هي قلقة لأن زوجها يوسف لم ينادى بعد لتقديم أوراق سفرهم المكتوبة باللغتين العربية والفرنسية ، وذلك من أجل تحويل الاوراق على التدقيق الروتيني . وفوق ذلك هي مضطربة حتى لو انتهى تدقيق الاوراق ، لأن هناك عملية التفاهم مع المسؤولين هي ايضا صعبة وليس لديهم سوى تقديم أنفسهم بواسطة الایماءات والاشارات وكلمة فرنسية من هنا وكلمة انكليزية من هناك ، وكذلك ايضا ، فان السماح لهم بالخروج واطلاق سراحهم يقتضي التكلم مع يوسف ، ومع تمينه ، ومع حنا ، ومع الاطفال الثلاثة .

وبعد التحرير المبارك والخروج لا بد من ايجاد قارب او وسيلة للذهاب الى ساحة ماوا .

والآن ؟ لا يزال المزيد من المغامرة حتى الوصول والالتقاء بشقيقة زوجها يوسف . ثم ، لا يزال امام الاسرة حياة التخبط كما اليهود التائهين . يجب ان تستمر الاسرة في مغامرتها لتتمكن من الاستقرار . ومن ثم عليها ضبط النفس بحيث لا تجعل الآخرين يلاحظون أي انقباض أو توتر . وتكرر تمينه دائما بعض اشعار الخيام الشاعر الذي يردد يوسف دائما اشعاره التي تقول : " أطلب الفهم . تعقل وكن هادئاً . استخدم كامل العقل . أي رداء كنت ترتديه عندما جنّت الى هذا العالم ؟ أية ثروة سوف تحملها معك عندما ترحل الى العالم الآخر ؟ " علينا أن نقول كما يقولون دائماً : نحن شباب . ولدينا صحة . وقرارنا ينبغي أن يكون اللاعودة . اذن لماذا هذه الافكار تخيفني ؟ في مفكرة الوالد الخاصة نلاحظ انه يعتمد تسجيل بادرة او مصادفة ترافقهم منذ اللحظة التي سعدوا الى سفينة فورموزا وهي : " رن جرس تناول طعام الغذاء . فكرت بزوجتي مع الجوع . الحمد لله أنها ستتناول الطعام وبالتالي سيتغذى الطفل . جلسنا الى المائدة . وعندما كانت تقدم لنا وجبة الطعام كانت تقول ان قابليتها متقرزة وتصاب بحالة من الاشمئزاز - طعام السفينة وصل الى جوارنا قبل الوصول الى طاولتنا . لا أقدر على هضم هذا الطعام: معكرونة ، معكرونة ، فقط معكرونة . - ولكن يجب ان تأكلي . من أجلك ومن أجل طفلتنا . حاولت ابتلاع القليل من الطعام ثم نهضت وتركت الطاولة غير راضية . " كان الوقت متأخراً بعد الظهر عندما أطلق سراحهم ، وتركوا جزيرة الورود . القارب كان بانتظارهم . سار قليلا من الوقت ورسا على رصيف ساحة ماوا . (براسا ماوا)

الفصل الثالث عشر

البائع المتجول

بعد أمسيات الشتاء الطويلة التي عاشتها الأسرة في مدينة فلوريانوبولس، وفي المنزل المستأجر في ساحة "15 نوفمبر" أو في مزرعة اسبانيا في شارع "لاسيردا كوتينييو"، ثم في منزلهم الخاص فيما بعد الذي اشتروه في "ريو برانكو" حيث توفيت الوالدة، بعد تلك الأمسيات وبعد وفاة الزوجة أصبح الوالد وحيدا وبحاجة الى رفيق يخفف عنه وطأة الوحدة، فكانت الذكريات هي التي تملأ ذلك الفراغ. فعاش مع ذكرياته التي لم يكن بحاجة الى استئثارها بل يكفيه ان يرى حركة يد، او لفتة، أو خطوة غير متوقعة أو لحن يشبه الموسيقى والأغنية العربية، أو عبارة تائهة حتى يتحول ذلك كله الى سيل عارم يجتاح كل وجوده، فيترك مذياعه الصغير (راديو ترانزستر) ويروح يردد شعر حافظ: "تعالى لنعشق ونشرب على ضفاف النهر، لنغرق في كؤوسنا الملل الذي يرتابنا، فعمر الحياة لا يدوم اكثر من عمر زهرة، هي أيام قليلة غالية التي نعيشها لا تتجاوز العشرة، والتي يربطها ذلك الرباط الذهبي من البسمة، اذن هي تلك الأيام العشرة من المسرة." وينتظر بعد ذلك احداً يعلق على كلامه دون ان يسمع صوتاً، ولأن الصمت يستمر، فانه يردد شعر آخر لسعاده:

"ان البستاني الطيب يصيبه الجزع والاضطراب عندما تهب العواصف بشجرات النخيل، وان المزارع الجشع يرغب في الحصاد من دون ان يبذر البذور" يهز ويحني رأسه ثم يقول: "يجب أن أصغي الى صوت الحياة، الى صخب الحياة. اسمعوا الى ما يقول الخيام وفكروا به: كن سعيداً لحظةً لأن الحياة يا صديقي هي مجرد هذه اللحظة." يطلق العنان لتدفق الذاكرة. وما ان ينته من تجاوز قضية حتى ينتقل الى أخرى، ولا يكاد ينتقل الى القضية الأخرى حتى ينسحب منها الى غيرها وهكذا دواليك. دائماً يترك

شيئاً الى الوقت اللاحق لتشكل هذه الأشياء المتروكة قضية أكبر. وفي نهاية المطاف تتحول كلها وتصبح ملحمة تخص الأسرة . يردد دائماً : هذه كلمة شاردة في الهواء . هذا صوت فجائي . هنا نغم جديد . هذه زيارة تحمل لنا اخباراً . استلمت رسالة من الكورة . كل شيء على حاله في ارض الوطن . هذا مقطع مقتطف من كتاب ينبغي قراءته . هذه مجلة بالعربية (وأحياناً عربية وفرنسية) أنت من لبنان . هذه هي جريدة من جرائد الجالية تصدر في سان باولو، وهذا مقطع كتاب بالبرتغالية . وفجأة يختفي الوالد من بين أولاده ، ومن ثم يختفي من بين أحفاده . يتكلم مع نفسه، ومع الجميع كما لو كانوا جميعاً الى جانبه حاضرين . انه حريص على أن لا ينسى شيئاً رغبة في التذكر وسرد الذكريات دائماً . الماضي يشده بشكل دائم ولا يستطيع الفكاك منه . ان كلمة : (ماسكاتي) على سبيل المثال ، ومعناها بائع متجول لها قوة سحرية تجعله يعود بالذاكرة الى مدينة ماجي بغض النظر عما يريده ، ولا يهم اذا كان يريد او لا يريد ، ان يكون او ما يرغب أن يكون ، كما لا تهتم الأحلام ، والآمال ، والتطلعات ، والأوهام . عندما يصل اللبنانيون والسوريون ، والعرب بصفة عامة ، يبدأون حياتهم هنا بالتجارة الجواله كبائعين متجولين يحملون بضاعتهم على أكتافهم ويتنقلون من مكان الى آخر ، ومن قرية الى قرية . يبتسمون لزبائنهم ويخلطون ما بين كلمة (تروسا وتروشا) التي تكتب بنفس الطريقة في اللغة البرتغالية حيث تعني الأولى جلب والثانية تعني العتال أو الغبي، ولا يفهمون الفرق الا فيما بعد . فإذاً سارت الأمور على خير ما يرام للبائع المتجول ، وتحسنت أحواله تخلص من كلمة (تروشا) التي تعني العتال أو الغبي . لا يمضي زمن طويل حتى يشتري المهاجر اللبناني او السوري حصانا وعربة ويبدأ بتوسيع تجارته ونقل بضاعته بواسطة العربة ويترك نهائياً مهنة العتالة وحمل البضائع على أكتافه . ثم ينتقل من التجارة الجواله على العربة الى تجارة اكثر استقراراً

حين يستأجر بنكة صغيرة أو بوابة يبيع فيها بضائعه . ومن بعدها تتطور تجارته الى دكان أكبر والى محل أوسع وأكبر لبيع المنسوجات أو الإلبسة ، ويطوّر تجارته الى ان تصل الى معمل صغير . لكن الأجيال الجديدة التي تأتي بعد ذلك تنسى ، ولا تعرف شيئاً عن تضحيات الآباء والأمهات الذين أتوا الى هذه البلاد ، ولم يكن لهم فيها نسيب أو قريب معين . وهناك الآخرون الذين لم يحالفهم الحظ، والخاسرون ، والذين يركضون وراء اللهو ويظلون فقراء حتى تختفي وتمحى آثارهم وأخبارهم . الشهرة تصيب القلائل من المغامرين الناجحين في حياتهم وتجارتهم الذين جمعوا الثروات الطائلة في هذه الأرض الطيبة . واذا كانت الخسارة أو الفشل يسبب الازدراء فإن النجاح يؤدي الى الشهرة . يتوقف الوالد يوسف قليلاً ثم يتساءل : هل الثروة تجلب السعادة ؟ أم لا ؟ ان افضل شيء هو الانجاز الشخصي والاعتماد على النفس لكي يصل الانسان الى ما يريد .

يتحرك الوالد ذهاباً واياباً . انه يصل للتو الى ماجي ، ويستقبله نسيبه زوج شقيقته وأولادها وأبناء وطنه الذين هاجروا قبله . لقد نزلوا في منزل شقيقته ولكنهم لا يعرفون الى أية مدة من الزمن سيقيمون في منزلها . لأيام ، او أسابيع ، او شهور . أو حتى يتقنون الحد الأدنى من اللغة البرتغالية ، او على الأقل بعض الكلمات والعبارات حتى ولو كانت ريفية بدائية وبعض الكلمات مثل كلمة رخيص التي تعني بالبرتغالية (باراتينيو) ليستعملوها في تجارتهم الجواله . او مثل عبارة (جورا بور ديوس) اقسام بالله . او كلمات (فريغيز ، وفريغيزا) وتعنيان زبون أو زبونة . والحقيقة ان التعامل مع النساء هو أسهل بكثير من التعامل مع الرجال . كان عندما يعرض بضاعته يقول انظري يا سيدة هذه بضاعة رخيصة . المسي هذا النسيج . انه ناعم . رخيص . واذا طلب احد الزبائن حسماً وتخفيضاً للسعر كان

يقول : اني أخسر يا سنيور او يا سنيورا. أي يا سيد أو يا سيدة . كانت الأيام الأولى فقط للتعلم ، لم يتأخر. حمل بضاعته على كتفه . كان يستقل الباص في بعض الأماكن ، وفي أماكن أخرى كان يسير على قدميه وهو يحمل بضاعته . وفي بعض الأيام كان برفقة بعض مواطنيه . اما الكلمات التي كان يستعملها في تجارته وعلاقته مع الزبائن فكانت كلمات بسيطة ، ولغة مكسرة مخربطة ويحاول جهده ان يكون مفهوما ليتمكن من بيع بعض الأغراض ، ليحصل على بعض الأرباح التي تساعد على نفقات العائلة . ويحاول ان تكون له الخبرة ومعرفة المنتجات المطلوبة لمواصلة تجارته . يشتري من محلات مواطنيه المهاجرين على أساس أن يبيع ويدفع فيما بعد البيع في وقت لاحق عندما يكون ذلك ممكناً . وكان بعد مضي ايام وأسابيع من السير على أقدامه يشعر بالتعب والارهاق ، كما ان الغبار في الطرقات كان يتسرب الى كل انحاء جسمه فيدب فيه اليأس والانحطاط الجسدي خصوصاً عندما لا يساعده الحظ ويكون البيع غير موفق . ذات يوم يعود يوسف من سفرته حزينا كئيباً الى منزل شقيقته، ويجتمع بزوجته ويقول لها : ما العمل يا تمينه ؟ وماذا ينبغي علينا ان نفعل ؟ فتجيبه بصبر قائلة : صبرا يا رجل لقد كنا نعرف ان الأمور لن تمر بسهولة ، وعلينا ان نستمر بمواجهة كل الصعوبات . يلنفت يوسف الى شقيقته ويقول لها : ليس لدي أية طريقة يا سعدى أسلكها ، ولكني من ناحية أخرى لا أرى مخرجاً لما نحن فيه من ضيق . فتجيبه سعدى مخففة عنه : اصبر قليلا يا أخي . اعطي الأمور بعض الوقت . وتشرح له عن الصعوبات التي تعرضت لها وكانت وحيدة . ولحسن الحظ فقد ذهبت تلك الضائقة ، وتعطيه أمثلة عن ابناء وطنها الذين نجحوا في اعمالهم وتغلبوا على الكثير من المصاعب . وهنا يرد عليها يوسف ويقول : لكن الحظ السعيد هو الذي حالف اولئك فنجحوا في تجارتهم .

هذه الفلسفة ، قليلا ، ما تهم الأبناء . والحديث عن الهجرة والصعوبات التي واجهها الأباء لا تعنيهم ، وهذا الملخص عن تاريخ الهجرة يكاد يشمل الغالبية العظمى من المهاجرين . الأبناء يصرون ويلحون على معرفة اكثر لحياة الأب والأم وكيف عالجوا المشاكل المستجدة ، وكيف كانت حياة الأم في المساندة ، وكيف كيّفت حياتها مع الواقع الجديد في الوطن الجديد ، وكيف كانت الأيام الأولى لوصولهم الى مدينة ماجي ، وكيف تمكنوا من تعلم اللغة البرتغالية الجديدة لكي تمكنهم من التفاهم وفهم الناس في علاقاتهم اثناء خروجهم الى العمل . ، وكم من الوقت استغرق حتى تمكنوا من اعداد البضائع المنوعة للقيام بأول عملية بيع ، ولماذا هذا التبدل المفاجيء الذي حمل الأسرة على الانتقال الى ولاية سانتا كاتارينا ؟ . هنا يطلب الوالد التريث والقليل من الوقت . ويطلب ايضا كأساً من الماء ثم يطلب فنجانا من القهوة . يتنهد . يأخذ نفسا ويتنفس . يتحرك قليلاً . لقد توقف عن التدخين منذ وقت بسيط . يشعر بضيق نفس . لا يزال يحتفظ بعلبة التبغ المدورة التي كان قد سحقها حتى بعد توقفه عن التدخين . يفكر بقشور عرائيس الذرة لإعداد السجاير التي تلف لفاً بتلك القشور كطقس اعتاد عليه واعتاد على اشعال سيجارته ونفث النفخة الأولى من السجارة حيث يتصاعد الدخان وينبعث بشكل لولبي ثم يتبعثر . هو يعترف ان ذلك كان انتحاراً لكن جسمه كان بحاجة الى نيكوتين بعد ان أدمن على التدخين ما يقارب نصف قرن . لكن الوالد وعد أبنائه وأقاربه وأصدقاءه انه سيتوقف عن التدخين سواء أمره الطبيب بالتوقف أم لم يأمره . وقد وفى بوعده وتوقف . نحن الآن في نهاية شهر أيار سنة 1927 تقريباً . الأسرة تعيش في ماجي . سعدى لا تتعب من متابعة الأخبار والحصول على كل المعلومات التي تتعلق بلبنان . انها تريد ان تعرف كيف تعرف يوسف على تمينه ، ومن تكون أسرتها لأن لديها فكرة صغيرة عنها وغامضة . تريد معلومات أكيدة تفصيلية . تريد أن تتأكد .

الوالد يمزح . جزء من المسؤولية يقع عليك يا سعدى، وجزء يقع عليها . تسأله : كيف ؟

عندما سألت سعدى شقيقها يوسف ذلك السؤال ، يسرد يوسف في مفكرته الحوار المباشر بينه وبين شقيقته كما يلي :

" - ابنة من تكون زوجتك ؟

- كيف لا تعرفين من هي وابنة من تكون وانت كنت السبب في سعادتي ؟ لقد كنت انت من تتدخل لأحصل على هذه الرفيقة المخلصة . هذه الجوهرة الثمينة . هذه الزوجة المثالية . - ولكني تركتك يا أخي طفلاً صغيراً ، فكيف يمكن أن أكون سبباً لسعادتك ؟

- اسمعي اذاً . هل تذكرين رفيق سفرك عندما أتيت الى هنا والزميل الذي اهتم بك في مرسيليا عندما ضللكم احد المرافقين الآخرين ؟

- نعم بالطبع .

- حسناً . ان زوجتي هي بالضبط ابنة رفيقك بالضبط الذي قدم لك المساعدة في تلك الرحلة . "

بعد ان استنفذت الاخبار ، أخذت العائلة تستعرض الخيارات الواجب اتخاذها وتحسب ما تبقى معها من المال . تفكر تمينه ببيع بعض ما معها من المجوهرات التي ورثتها عن أسرتها ، بينما يوسف يطلب منها بأن تتريث وتنتظر بعد تلك الرحلة المليئة بالمتاعب . سعدى وزوجها يتعهدان ويبيدان استعداداتهما لمساعدة أسرة يوسف . الإقامة في منزل شقيقها يوسف ليست مثالية ولكن يمكن الإقامة والبقاء في هذا المنزل حتى يتوضح الوضع أكثر . يوسف وزوجته يساعدان في المصاريف اليومية . يوسف يريد ان يتعلم البرتغالية بأسرع وقت ممكن ليتمكن من الخروج من البيت والابتداء بالعمل . تمينه تساعد في المطبخ وتدبير المنزل وتنظيفه ورعاية الأطفال .

يوسف يلح على تعلم البرتغالية بأسرع وقت وتعلم واتقان الاشياء الاساسية ليتمكن هو وحنا شقيق زوجته من المباشرة بالعمل

والتجارة الجواله . التعلم السريع صاخب ومخربط لا يمكن الاطمئنان اليه . يتمتع يوسف وتمينه بامكانية سهولة التعلم ، فهو يعرف شيئاً من اللغة الفرنسية بينما هي تعرف اشياء من الغتين الانكليزية والروسية . علاوة على ذلك ، فانهما في المناسبات العديدة ، وعندما يكون هناك حاجة أكبر يستعملان اللغة العالمية التي تتناول الاشارات وحركات الأيدي والاصابع وتعابير الوجه والعلامات الرمزية والضرب الناعم على الذراعين والكتفين والكتابة على قصاصات الورق وحركات عند عرض القماش والنسيج فضلا عن السعر الظاهر الى جانب كل منتج لتسهيل التواصل مع الزبائن . وفوق ذلك يمدحان جودة القماش ويشدانه طولاً وعرضاً لاطهار نوعيته الممتازة كما يشدان بعض الخيوط من القماش لتأييد ثنائهما على القماش . ويكرران كلمة (باراتا) أي رخيصة . وكانا قبلاً يلفظان الكلمة مقطعة مثل: با - را - تا) بسبب بداية تعلم البرتغالية حتى تمكنوا من نطقها بشكل كامل (باراتا) الى ان تمكنوا اخيراً من نطق (باراتو) اي رخيص . والجدير بالذكر ان كلمة (باراتا) تعني صرصور. الا اذا استعملت في الجملة بصفة المؤنس فتعني رخيصة اي بخسة الثمن . وكانوا يشددون ايضاً على حلف اليمين ان البضاعة رخيصة . والقسم بالله انها رخيصة ولا يوجد ارخص منها . والربح قليل . ويطلبون من الزبائن المساعدة وشراء اي شيء من البضاعة المعروضة ، وان الشاري لن يندم ابداً على شرائه اي شيء منهم لأنها بضاعة جيّدة ورخيصة . وانهم يقبلون ثمن البضاعة غير النقود ايضاً . وبامكان المشتري ان يدفع القيمة مثلاً مواد غذائية او طيور وحيوانات داجنة وفواكه وخضروات ،ويمكن ان يأخذوا ثمنها فيما بعد وليس الآن . المهم ان يبيعوا بضائعهم بأية طريقة .

الأطفال يطلبون من الوالد ان يحدثهم عن أولى جولاته التجارية وكيف كانت ؟ فيجيب يوسف على أسئلتهم بدون ان تأخير بعد ان قام بعدة تجولات في عدة أماكن أولى وثانية وثالثة وجولات كثيرة

أخرى . فالجولة التجارية الأولى كانت الى مدينة بيتربوليس القريبة برفقة أحد أنسبائه الذي يتقن أسرار المهنة في الوقت الذي لم يكن قد عرف شيئاً عن اصول هذه التجارة الجواله ، ولكنه كان يحب ان يتعرف على طريقة عمل البائع المتجول من مكان الى آخر كما كان يحب ان يتعرف على الناس الذين لا يعرفهم وعلى المناطق التي لا تزال مجهولة بالنسبة له . ويريد أيضا تعلم أفضل طريقة للتعامل مع الناس . وقد تعلم كيف يصل الى البيوت ويطرق على الأبواب ويحييهم ويعرض عليهم بضاعته ويسال عن مشروبهم الكحولي ويطلب فنجاناً من القهوة . وقد شرح لأطفاله كيف كان عليه ان يتصرف ، وكيف أن كل بلد له انماطه وتقاليده . كانوا يسألون عن الجنسية والأسلاف ومشاكل التكيف في البلد الجديد، وقد تعلم ان لا يعطيهم مباشرة السعر الحقيقي للسلعة ، بل يطلب سعراً على ومن بعدها يبدأ بالتخفيض والمساومة . والمساومة تعتبر جزءاً مهماً من اللعبة التجارية القديمة التي تعود الى اعماق التاريخ ، وتهيمن على معظم التجار المفاوضين والمساومين الذين يتحدرون من الأصول الفينيقية . التجار الممتازون والمميزون المشهورون . أولئك التجار الذين جابوا في الماضي البعيد البحار السبعة .

وأهم من البيع في الجولة الأولى ، كان الاندفاع للتعرف على البيئة والعادات والتقاليد المتجذرة في المجتمع ، وملاحظة الطريقة التي كان الأنسباء يقومون بها لتسويق بضاعتهم . ولما كان يوسف جديداً في المكان ولا يعرف شيئاً عنه وبعامل حب استطلاع فکان يدعوهم الى القيام بجولة للتعرف على المدينة ويقول : ألا تريدون ان تعرفونا على المدينة ؟ لقد تجول مع أقاربه في مدينة بيتربوليس للتعرف على معالمها ، لكنه كان يرغب بمعرفة أين كان يسكن الامبراطور .

ذهبوا لزيارة المتحف الامبراطوري حيث تمتعوا بمشاهدة المعروضات والمحفوظات التي تشكل جزءاً من تاريخ البلاد . أما في الجولة الثانية التي قام بها ، فقد كانت في أحياء مدينة ماجي .

صعدوا الى بلدة تيريزوبوليس بعد أن مروا في طريق جولتهم بمجموعة من السكان الفقراء على عكس بلدة بيتروبوليس . بالرغم من هذا فقد كانت القدرة على الشراء في بلدة تيريزوبوليس أقوى واكبر باعتبار ان الأثرياء الجدد من الريودي جانبيرو قد اشترروا اراضي ومنازل لقضاء عطلة نهاية الأسبوع . كان نسيب يوسف يبقى على مسافة لا بأس بها بعيدا عنه ويترك يوسف يغامر وحيدا في عملية البيع . وكلما تعرض يوسف الى أية صعوبة او ارباك كان يقترب نسيبه منه لمساعدته والقيام بمهمة التوضيح للزبون المشتري . وقد كان الدرس الأول درسا سهلاً مع عدد من الفقراء ، ولم يتطلب الأمر تدخل نسيبه في الموضوع . لم يمض اكثر من ثلاثة أشهر حتى تمكن يوسف من الوصول الى حالة كافية تجعله قادرا على التفاهم مع الناس دون الحاجة الى مساعدة أقربائه أو أصدقائه ، وأصبح بإمكانه ان يغامر ببضاعته المنوعة وبجولاته وحيدا او بمرافقة شقيق زوجته حنا . لقد كان يوسف بالاضافة الى تعلمه الدروس الأولى بمرافقة أنسبائه، يخرج وحيدا في شوارع بلد ماجي ويتحدث مع كل من يصادفه في الشارع كما يسجل بعض العبارات . يتكهن أو يخمن بعض الكلمات التي لا يعرفها والتي تنفعه ، وكان عندما يسمع كلمة يرددها على لسانه مرات ومرات حتى يلفظها بشكل افضل ويعرف معناها ويحفظها عن ظهر قلب . كان دائما يقلب صفحات جريدة البرازيل (جورنال دي برازيل) . ويصل الى معرفة بعض الكلمات عن طريق الصور والرسوم . فاذا رأى صورة حصان مثلاً كان يحاول ان يعرف الكلمة التي تعني حصان . كانت تمينه عندما ترافقه تجعله غاضبا ومتوتراً من الاشياء بحيث يغيب عن باله المعنى الصحيح لأسهل كلمة ، فينادي أصحابه لمساعدته وكانوا أغلبيتهم بسطاء لا يعرفون القراءة والكتابة في اللغتين العربية والبرتغالية ، ولا تنجو من ذلك الا شقيقته

سعدى . ولأن غالبية ابناء وطنه كانوا أميين فقد كان عليه وعلى زوجته تميّنه ان يلبوا الجميع في قراءة الرسائل التي تصل من لبنان وكتابة الرسائل الجوابية التي تذهب الى الأبناء والأقرباء في لبنان .

دائماً كان يوسف وحنا يجولان معا مترافقين ومغامرين في تجارتهما الجواله في مدينة نونافريبورغو حيث الجو الألماني هناك . ويصلان ايضاً الى منطقة حقول وريف ماكاي حيث المزارع تتمايل امام الريح ، وحقول قصب السكر الخضراء بروائح نسيمها الطيب فتعود اليهم ذكريات سكون البحر الهاديء والمتماوج حيث قضوا الأيام والأيام ، والأسابيع والأسابيع أو الشهور ولا يريدون أن يتذكروا أكثر من ذلك . ويمتد الوقت ، والذكريات تأتي وتذهب ، وينقطع خيط من خيوط الذكريات ويربطها خيط آخر ، وتتشعب الخيوط وتطفو على السطح فيفيض حنين يوسف فيمسح دموعه . لا يريد ان يكشف عما به من احاسيس وعواطف عميقة تهيمن عليه . يتوقف . ثم يستأنف السير . ليس في الأمر منطق ولا ترابط منطقي واضح فيما يحصل له . فقط مجرد حالة داخلية عميقة وحقيقية تنتابه احياناً بشكل سريالي فوق طبيعي ، ووهمي ، وخيالي .

مرة أخرى يذهب يوسف الى مدينة نونافريبورغو ، ولكنه هذه المرة يذهب وحيدا حيث يلتقى بامرأة المانية يعرض عليها ما معه من الالبسة والانسجة ، وهي لا تختلف عنه في معرفتها للغة البرتغالية . وفي اللحظة التي تتم فيها العملية التجارية بينهما ويبيعهما بعض ما لديد من البضاعة، يصل زوج المرأة الالمانية الذي كان يجيد البرتغالية أفضل منهما بقليل فيتعرف عليه ويتفاهمان بشكل أفضل من تفاهمه مع زوجته فيدعوه الالمني الى الحديقة الخلفية من منزله المزروعة بالأشجار المختلفة ، وبدأ الحديث بينهما وعن وصولهما الى البرازيل ومشاكل التكيف والاعتیاد على الحياة الجديدة في هذا البلد وقد تمكن يوسف بصعوبة من فهم ان الرجل عنده المام بالزراعة

ويعمل بها ، ويسعى الى الحصول على ارض خصبة لزراعتها . قال ليوسف انه كان محظوظا بعد وصوله الى البرازيل ، ولا يشكو من هذه الناحية أبداً ، فهنا يوجد سهول خصبة ويمكن العمل في الزراعة التي يحبها ويتقنها . عند هذا الحد بدأ يوسف يضيع في الحديث ولا يفهم كل الأشياء التي كان يحدثه بها الألماني الى أن اشار بيده الى فرع من شجرة موز كانت في الحديقة ، وحيث كان عليها قرد يقفز من جهة الى أخرى مكشر الوجه ، لكنه كان يبدو لطيفا وأليفا ومعتاد على رؤية الناس دون خوف . تقدم الألماني من شجرة الموز وقطف بعض الموز الأخضر ، فتقدم منه القرد والتقط الموز دون ان يترك صاحبه يقبض عليه ، بل قفز برشاقة الى الجانب الآخر حاملاً بيديه الموز وتسلق الى فرع آخر أعلى ، وبدأ بازالة القشر ورميه فوق رأسي الرجلين اللذين راحا يضحكان ويهددان في الوقت الذي بدأ فيه بأكل الموز دون ان يكثر لتهديدهما .

ترك الألماني واكمل رحلته وسار في الطريق لبحث عن زبون آخر ليبيعه بعض الأغراض . سمع نداء فتحول عن الطريق ليلبي طلب المنادي . ربما يشتري منه بعض الأشياء . لكنه أثناء دخوله في طريق فرعية أضاع الطريق الأساسي الذي يعرفه وقد بدأ الوقت يميل الى الغروب . اكتشف انه لم يعد في منطقة نوبا فريبورغو . لقد وصل الى منطقة غير معروفة بالنسبة له في محلة بايشادا فلوميننسي . لقد نسي المكان وأصبح الوقت ليلاً وسيطر عليه التعب ، وهو الآن يعود الى البيت وحيدا لأن حنا أيضا رغب كذلك أن يغامر ويبيع بضاعته وحده بدون مساعدة أحد . يشعر يوسف بتعب شديد جسدي ونفسي ، فقد مضى عليه عدة أيام ولم يستطع بيع شيئا تقريبا .

الحقيبة التي يحملها على ظهره ثقيلة مما جعل ظهره وعموده الفقري يتقوس من ثقل الوزن . يشعر بألم في كتفه وفي قدمه التي جرحت ولم يلتئم الجرح بعد . كما يشعر بألم يطات ويكدر حواسه ويدفعه الى الجلوس على حافة الشارع ونسيان كل شيء .

وبينما هو جالس على حافة الطريق أبصر أمامه بصيصا من النور فوقف وتوجه نحو ذلك النور فاذا هو أمام بيت صغير في تلك المحلة

يقرب منه بخطى مرتبكة ويطرق الباب ، فيسمع صوتا من الداخل يقول : من الطارق ؟ ينعد لسانه وتهرب الكلمات منه ، ويشعر كأن في حلقه غصة . لقد نسي القليل الذي يعرف من اللغة . يطرق الباب من جديد فيفتح الباب ويظهر من الداخل رجل ضخم قوي وببده بندقية ويصوبه باتجاه يوسف . ينظر يوسف الى الرجل الذي ظهر بوجهه القوي وشاربه الكثيف وامارات العدوان . لكن في وجهه أخايد تدل على انه يعمل في الأرض ، وتدل عيونه ايضا على انه فضولي يريد ان يعرف من الطارق على بابه في هذا الوقت من الليل ، واضعا اصبعه على زناد سلاحه الجاهز لتجنب اي أذى . لهجته لا تدل على انه من المنطقة ، وهو بالأكيد ليس برازيلي . ويوسف في نفس الوقت خائف متهيب يحاول ان يتكهن او يكتشف هوية ذلك الرجل . هل هو عربي ؟ بالتأكيد لا . ربما اسباتي ؟ ومن يدري قد يكون برتغالي ؟ يقف الرجلان وجها لوجه للحظات دون ان يتكلما . كل واحد يحاول تقييم الآخر . في هذه الأثناء يستشعر الرجل بفطرته أن لاخطر ، فينزل فورا بندقيته الى الأسفل ويدع يوسف للدخول ، فيدخل يوسف بدون خشية ويعود له صوته . يريد ان يوضح ما حصل معه ، ولماذا أتى الى هذا البيت .

لم يعد بحاجة الى شرح أو توضيح . كان في داخل الغرفة مصباح نفطي يلمع .

وهكذا يبيت ليلته في هذا المكان تاركا حقيبته المليئة بالبضائع الى يوم غد . وتاركا حديث التجارة والبيع الى يوم آخر . انه الآن يريد الراحة . يريد ان ينام في أية زاوية . لقد نسي حتى الجوع . لكن صاحب البيت لم يكن قد تناول طعام العشاء بعد . ينادي زوجته

ويطلب منها ان تضع على الطاولة صحنًا آخر ويدعو يوسف لتناول الطعام . يلح عليه ويصر ان يشاركهم في العشاء ويقول : يجب ان

ترافقنا وتتناول معنا الطعام . لم يتأخر عن قبول الدعوة ويجلس الى الطاولة ، فيشعر عندها بالجوع . كان طعام العشاء مؤلف من الخبز المصنوع في البيت والفاصوليا السوداء والأرز واللحم المشوي بالإضافة الى الماء والمشروب غير المنتظر العرق البرازيلي (بينغا) . ويظهر ان التعب الشديد كان بسبب الجوع . كان يوسف يمضغ الطعام بنهم ولا يتوقف عن الشرب ويرافقه صاحب البيت . قنينة عرق بينغا وراء قنينة دون توقف ، ولقمة وراء لقمة للمرافقة .

انتهى يوسف من تناول العشاء ، ولوّح بيده بأنه اكتفى وقال : الطعام كان جيدا ، وأقسم بالله ان اللحم كان لذيذا . ابتسم صاحب البيت وبقي صامتا ثم التفت الى زوجته التي لم تنطق بكلمة طيلة الوقت . بعد ان انتهى تناول العشاء ، حمل صاحب البيت بيده المصباح النفطي ودعا يوسف الى مرافقته الى الحديقة الخلفية من المنزل ليطلعها على ما عنده . لم يصدق ما رأى . لقد أصيب بهلوسة . قال في نفسه : هذا هو الذي يمكن ان يكون فقط . طلب من صاحب البيت ان يتقدم ويقرب بالمصباح ليتأكد أكثر . نعم هذا هو الشيء الذي شك فيه . لا مجال للشك بعد هذا الذي رأى . لا يستطيع بعد هذا ان يسيطر على نفسه من التقيؤ ، فانفجر تقيؤه بشكل فجائي ودون رادع واستفرغ كل شيء . مال الى الجانب الآخر لكي لا تتسخ ملابسه متجنباً في الوقت ذاته ان لا يصيب التقيؤ صاحب البيت . أي انذهال حدث ولا يمكن تفسير حدوثه !

يهدأ يوسف قليلا ثم يتوجه الى من حوله ويقول بالإنكليزي (سوري) أي أسف . يحاول تغيير الموضوع ، ولكن من كان الى جانبه ولم يكن

على معرفة بالقصة يسأل : لماذا القيء ؟ ما سبب هذا التكرر
والانزعاج اذا كان قد أحب الطعام وأكل بتلك الشهية؟
بعد بعض من الصمت ، وعلى امل ان يتكرر السؤال يستجيب كما في
فيلم هتشوك ويجيب : لقد رأيت هنا وواجهت أمامي القرد الذي رأيت
في نونافريبورغو ينظر اليّ ويقطّب مكشّرا . والحقيقة انني لم اكن
في حياتي قد أكلت أو علمت انه يمكن أن أكل لحم قرد .

الفصل الرابع عشر الإنتباه

لا . لا شيء ينفع على الرغم من جميع الجهود التي تبذل ،
والمساعدات التي تقدم من قبل الأندباء والأقارب وكذلك التوجيهات
والارشادات المتنوعة ، بل ظلت هذه التجارة الجواله بدون نتيجة
تقريباً . ولم تثمر كل المحاولات التي كانت تشير الى التركيز على
المنتجات والبضائع الأفضل قبولاً ، والمناطق التي تتوفر فيها أكثر
امكانيات تصريف وبيع المنتجات ، ووجود الزبائن المحتملين الذين
بامكانهم الشراء وقبول تلك البضائع .

يوجد الكثير من المهاجرين هنا وهناك من جنسيات مختلفة ، وكل
مهاجر له طريقته الخاصة في العمل ، وله بسلوكولوجية خاصة في
التعامل، ويجب معرفة الطريقة التي يمكن بواسطتها الوصول اليهم
والتفاهم معهم . فالمهاجر الألماني له طريقته المباشرة ويجب
التعامل معه بشكل مباشر ، والايطالي كما البرتغالي والاسباني لهم
طريقتهم اللطيفة المهذبة ، واليهودي والعربي لا يستغنون عن طلب
الحسومات وتخفيض الثمن . احيانا كثيرة يخرج الوالد يوسف وشقيق
زوجته حنا معا للبيع ، وحيانا ينفصلان في الطريق ويأخذ كل
منهما ناحية خاصة ويتفقان على الإلتقاء في مكان محدد سلفا
معروف لديهما . وفي مكان اللقاء يقبليمان معا ما تمكن من بيعه
كل واحد منهما ، وما بقي معهما من البضاعة وما بيع منها . وحين
يكشفان ان مع أحدهما بضاعة لم ينفذ منها شيء وبقيت على حالها
ولم يبق مع الآخر منها أي شيء ، كان الذي لم يتوفق في بيعها
يمررها الى الآخر .

في البداية كان التفاهم مع الزبائن صعبا للغاية . كانا يتعاملان
بالاشارات والحركات . وكانا يستقبلان بعين الريبة ويقال للواحد
منهما : انه تركي آخر جديد مع التوافه من الخروضات . وبعد

مضي فترة من الزمن بدأ اتقان فن التجارة ، وبدأت المساومة مع
الابتساة اللطيفة . جميع الزبائن يريدون حسومات تقريبا . ولم
يمض وقت طويل حتى بدأ الزبائن يفهمون ماذا يعني عندما يعرض
احدهما شيئا مرتفع الثمن فيقولون له : هذا غالي جدا ايها التركي
اللص (توركو) كانوا في البرازيل يسمون السوري او اللبناني
بالتركو لأن الجميع هاجرو بجوازات تركية فكانوا يردون على
الاهانة بالقول : تركو . لا . انا عربي من لبنان . كارو . لا .
(يخلطون ما بين كلمة كارو التي تعني سيارة وكلمة كارو التي
تعني غالي الثمن) بل رخيص جدا . مع القسم بالله انها رخيصة
والقماش جيّد . انظر . امسك . تأكد من أنه لا يتقلص . يمكن غسله
بسهولة . ليس فيه عيب . متين وقوي ويتحمل مثل الحمار .
عندما يعودان من رحلتهم التجارية يقدمان حسابا الى الممولين .
يدفعان ثمن ما تمكنا من بيعه ويعيدان الأغراض التي لم يوفقا في
بيعها . انهما يعرفان الآن ما يجب ان يأخذا معهما في المرة القادمة
وغالبا ما يسجلا معهما طلبيات كأن يطلب أحدهم من الزبائن حذاء
نمرة 41 ، وأخرى تريد قطعة قماش ملونة من اجل خياطة فستان
وثالثة تطلب أي شيء جيد ورخيص ، ورابعة تقول لأحدهما : هل
من الممكن ان تجلب لي ملاعق وشوكات وسكين كبيرة ؟ الخ .
ولا يوم من الأيام كان مدخولما كبيرا ، بل كان كافيا مع بعض
الارباح القليلة ، علما ان المصروف كان في الحد الأدنى ، ومع هذا
فكان التوفير بعض القروش القليلة . والحلم دائما هو الحصول على
محل كبير أو دكان في المستقبل . مع ذلك ، كان الوالد يوسف غير
مرتاح لهذه التجارة المتجولة في الطرقات والأحياء طوال النهار .
اما حنا فقد كان دائم الشكوى ، ودائم الحنين الى قريته في الكورة
ولا يتعب من الحديث عنها . فهو لم يهاجر من أجل هذا الذي يعانيه
. لا يعرف لماذا جاء الى هذه البلاد . دائما يشكو امام شقيقته تمينه
ويقول لها: كان عليكم ان تتركوني هناك في قريتي،

وكان بإمكانني بعد ذلك أن الحق بكم الى الولايات المتحدة أو ابقى في أميون ، وكان اكثر من الجميع شكوى وتذمر . فتجيبه شقيقته: " الآن نحن هنا وعلينا ان نتحمل وكفى . ربما في المستقبل نستأنف العودة الى مشروعنا الأول . نحن بحاجة الآن الى اتخاذ قرار . لا يمكننا ان نستمر الى أجل غير مسمى في الاعتماد والاتكال على انسابنا هنا حتى ولو لم يصلوا الى الشكوى والتذمر من وجودنا عندهم " .

كان يصل يوسف الى البيت تعباً ، متكدرا ، وغير سعيد ليس فقط بسبب المشي طوال النهار ، ولا بسبب الصعوبات غير المتوقعة والمنتظرة ، بل بسبب استنفاده كل طاقته ووجوده في كفاح لا طائل منه ولا نفع .

استمر يوسف على تلك الحال مدة طويلة حائرا تعسا الى ان ذات يوم وبينما كان مستلقيا على السرير يتقلب بدون انقطاع من الأرق وعدم القدرة على النوم ، نادى زوجته قائلاً: " لقد تذكرت يا تمينة . لدي أقارب في ولاية سانتا كاتارينا . انهم أولاد عمي سلوم و امين هل تتذكرينهم ؟ ربما أذهب الى هناك . لماذا لا نذهب الى هناك ؟ لا . لا اعتقد ان المنطقة بعيدة . فبعد كل ما جرى لنا وما حصل معنا ، وكل ما واجهناه ، لا شيء يمكن ان يكون بعيدا . علي ان اتنبه واتخذ خياراً . من يدري ؟ ربما المصير يريدنا ان نواصل سيرنا الى هناك . من يدري ؟ ربما يأتينا من هناك جواب " .

في اليوم التالي سأل شقيقته سعدى : هل عندك فكرة يا سعدى اين تقع سانتا كاتارينا ؟ حتى انه يعرف اسم عاصمتها فلورينوبوليس . ثم سأل أقاربه الذين أكدوا له انها تقع في الجنوب ، وهي بالقرب من الأرجنتين . هنا قال يوسف لزوجته تمينه : كما ترين يا تمينه في كل مرة نسير باتجاه المنطقة الموجود فيها والدك . من يدري ؟ " الفكرة الجديدة لم تغادره وهو لم يتخل عنها لفترة طويلة . أخيرا

اتخذت العائلة القرار . الوالد يوسف يهتم بالموضوع . يكتب الى أبناء عمومته في سانتا كاتارينا . وعلى الرغم من أن ليس لديه عنوان في سانتا كاتارينا ، فقد فكر في نفسه وتذكر العاصمة فلوريانوبوليس وحمله تصوره على ان المدينة ليست كبيرة ، وربما كانت بحجم أميون أو ماجي أو أكبر بقليل أو أصغر بقليل حيث جميع السكان يعرفون بعضهم بعضا ، او يجب ان يعرفوا . ولا خوف من المغامرة ، وأسوأ ما يمكن ان يحصل هو أن الرسالة لا تصل الى صاحبها الموجهة اليه أو انه لايرد جواب عليها . الرسالة وصلت . وكان الجواب : نعم . نعم . سيأتي ابن عمه بكل فرح وسرور ويستقبله ويسمع الأخبار عن الأقارب والأهل والبلاد . سوف يساعده ابناء عمه ، وسانتا كاتارينا ولاية واعدة وفيها فرص عمل جيدة للراغبين في العمل ، وهذه الولاية فاتحة أبوابها للمهاجرين الذين غالبيتهم العظمى من الألمان، وكثير من الإيطاليين وبعض العرب واليونانيين . ويمكنه ان يقيم في منزل أحد أبناء عمه ويعمل هناك . يمكنه ان ينتقل الى هذه الولاية ويشغل في فلوريانوبوليس والمناطق المحيطة بها ، وفي البداية يمكنه ان يبدأ بالتجارة الجواله كبائع متجول . وهل من مكان ليس لهذ التجارة ؟

الفصل الخامس عشر سوء التفاهم

بعد نقاشات مطولة ، ومحادثات ، ومشاورات ، وموافقة الأم تمينة ، وعدم موافقة الشقيقة سعدى ، وشكوك حنا ، قرر الوالد يوسف القيام بالسفر، وتكلم مع نسيب له يقيم في مدينة الريو دي جانييرو بان يشتري له بطاقة سفر وجهتها الى مدينة فلوريانوبوليس .

ها هم في ساحة ماوا ، أسرة يوسف وشقيقته سعدى ، على رصيف الميناء في أواخر العام 1927 . يوسف في وداع الجميع يشرح لهم اسباب سفره الى فلوريانوبوليس . يصعد الى المركب . المركب يتحرك ويبدأ بالابتعاد رويدا رويدا عن الشاطيء . يوسف يحدق بالشاطيء بفضول غريب وهو يبتعد عن الميناء في خليج غوانابارا . المركب يتجه الى ناحية الجنوب ، ويوسف يسير على سطحه تراوده تلك الذكريات ذكريات مغادرته الوطن ووصوله الى مرسيليا ، ومغادرة مرسيليا ووصوله الى البرزيل . ثم يتبادل الكلام مع بعض المسافرين بسهولة أكثر من قبل وبكلمات قصيرة وبرتغالية مكسرة وبنبرة حلقة تميز بها المهاجرون العرب ، وأحيانا يشعر بصعوبة في اتمام الجملة حيث تغيب بعض الكلمات عن موضعها ولا تؤدي المعنى المطلوب . يترجم فكره العربي الى اللغة البرتغالية ويكمل ما يعجز عن ترجمته بالحركات والاشارات وبعض العلامات . وحين يقرأ كان ينسى جزءا مهما مما يقرأه .

المحطة الأولى في رحلته الجديدة كان في ميناء مدينة السانتوس وهو ميناء أكبر من ميناء الريو دي جانييرو حيث ترسو فيه البواخر الكبيرة الضخمة لتحميل البضائع او تفريغها . وقد قال أحدهم أن هذه الولاية هي أكبر ولاية في البلاد من وجهة السلطة السياسية والثروة

والاقتصاد ، وهي معقل المهاجرين الذين غالبيتهم من الايطاليين ، وكذلك من جنسيات أخرى وخاصة العرب الذين يسيطرون على تجارة قوية .

الحركة قوية على سلم الباخرة . أناس ينزلون ، وآخرون يصعدون . الباخرة لم تتأخر في هذه المحطة . تستأنف رحلتها من جديد ، ودائماً في موازاة الشاطيء . الطقس جميل يساعد على الابحار ، وتستمر السفينة في رحلتها الى ان تصل الى المحطة الثانية في ميناء باراناغوا - ولاية بارانا . في هذا الميناء يطل بحار على المسافرين وهو من الذين سافروا الى انحاء أخرى من العالم قال بأنه يعرف مدينة طرابلس يوضح للمسافرين ان الباخرة اصبحت بالقرب من مدينة سان فرنسيسكو في ولاية سانتا كاتارينا حيث تأتي بعدها مدينة تحمل اسم ايتاجايي وتواصل رحلتا الى ميناء فلوريانوبوليس .

الباخرة ترسو في ميناء فلوريانوبوليس ، وأقارب يوسف ينتظرونه في الميناء . لقد استقبلوه بالترحاب . الأيام الأولى من وصوله كانت كما حصل له عندما وصل الى مدينة ماجي . ابناء عمه وابناء وطنه يطرحون عليه نفس الأسئلة . الجميع أتوا لرؤيته وللسلام عليه والترحيب به وسؤاله عن البلاد والاخبار ، وأكثرهم يدعونهم لزيارتهم ، ويدعونهم ايضا لتناول الطعام عندهم ، ويدعونهم بأكل الكبة ، والصفحة ، والملفوف . في اليوم الثاني لوصوله الى فلوريانوبوليس ، رافقه أقاربه للإستمتاع برؤية العمل الرائع الآخذ في المدينة وهو الجسر العملاق من الحديد والفولاذ الذي دشن منذ وقت قريب والذي يبلغ طوله أكثر من 800 مترا (ثمانمئة مترا) وهذا الجسر هو أكثر من ضروري يصل البر بجزيرة سانتا كاتارينا حيث توجد العاصمة فلوريانوبوليس المطلة على المحيط الأطلسي .

والجدير بالذكر ان حاكم الولاية هيرسيليو لوز الذي كان عنده

الشجاعة الكافية للأمر ببناء هذا الجسر توفي قبل ان يراه منجزا لذلك سمّي هذ الجسر باسمه : جسر هيرسيليو لوز .

الوالد يوسف يريد الآن معلومات وافية عن هذه الولاية وامكانيات العمل هنا ، خصوصا لشخص مثله ليس عنده أي اختصاص ، ولكن عنده المؤهلات المختلفة . يريد ان يعرف ماذا يمكنه ان يفعل هنا . انه مستعد لأي عمل ناهيك عن العمل في التجارة المتجولة . أقاربه يضحكون من كلامه ويمزحون ثم يقولون له : ألم تفكر بوسيلة أخرى ؟ يجيبهم : في البداية على الأقل ، ثم من يدري بعدها ما ذا يحص ؟ (الجالية هنا صغيرة تتألف من نصف دزينة من الأسر) بدووا جميعهم بآعين متجولين وعملوا في التجارة . لا يشتكون من شيء . بعضهم أصحاب أملاك و ثروة وبعضهم اصحاب منازل جيدة وجميلة كالمنزل الذي استضافه . والجميع موفقون في أعمالهم ويرسلون المال الى ابنائهم الذين يدرسون في مدارس الريودي جانبيرو ، وكوريتيبيا ، وبورتوألغري . لا أحد منهم يفكر بالعودة الى لبنان . نعم يشعرون بالحنين والشوق ، ولكنهم يريدون الذهاب الى وطنهم فقط للترفيه والسياحة .

يذهب برفقة انسبائه الى المركز الصغير للمدينة ، ويجلس معهم تحت شجرة تين في ساحة 15 نوفمبر . يندهش يوسف لمنظر حافلات الترمواي التي تجرها الحمير ، وعربات الخيل للتي يركبها المتنزهون . يرافق ابناء عمه الى منطقة ميرامار والسوق العمومي حيث القوارب الملأى بالأسماك الطازجة . اما الأسماك التي لم يتم بيعها في فترة ما قبل الظهر ، توزع على الفقراء والمساكين قسم منها يرمى لعدم صلاحيته . القوارب تستمر بالوصول الى هذا المكان محملة بأنواع كثيرة من المولد الغذائية بالإضافة الى العربات والشاحنات الكثيرة التي تعبر الجسر حاملة شتى المنتجات .

كلما وصل الى مكان توجهه ، وتعرف على أحد من ابناء بلاده ، توجه الدعوة الى يوسف بالقول : الا تريد الذهاب الى بيغواسو ؟ يدعوهم قائلاً : هيا بنا الى بيغواسو . أخي ابراهيم يعيش هناك . زار مع اقاربه في هذه المدينة أسرتين او ثلاثة أسر لبنانية تعمل في التجارة . التقى بأبناء عمومة آخرين ، وآخرين من ابناء بلاده . كان من المستحيل ان يتخيل او يتصور ما يخبئه له المستقبل في هذا الشارع الوحيد في المدينة الذي ينتقل فيه مع ابناء عمومته ، ويراقب المنازل القليلة ، ويتوقف امام النهر الصغير الذي يمر عبر المدينة ، ويحرق باهتمام بساحة هذه البلدة وكنيستها والبيت الخشبي الكبير ، والمنزل الذي نزل فيه عند ابن عمه ابراهيم . انه لا يستطيع حتى الآن ان يتخذ قراراً .

ذات يوم فكر ان الأفضل ان يعود الى الريو دي جانييروا ، ويرجع ويتابع عمله كبائع متجول ، ومن ثم يعمل على فتح دكان او بسطة صغيرة يبيع فيها ما يتمكن منه من البضائع المتنوعة وذلك بالقرب من شقيقته سعدى في مدينة ماجي او ضواحيها . وفي يوم آخر يفكر تفكيراً مختلفاً ويقول في نفسه : ماذا يضر لو أرسلت لأسرتي كي تلحق بي الى هنا ؟ من يدري ربما يكون النجاح هنا ؟

يستشير بعض الأقارب وأبناء بلده ، فيشيطرون عليه بأن يدعو عائلته ويأتي بها الى هذه البلدة وهم مستعدون لمساعدته ، ويقولون له : ادع أسرتك الى هنا ولن تندم . انتقل بأسرتك يا يوسف الى هنا فالأعمال كثيرة وسوف نقدم لك كل مساعدة وكل دعم في البداية حتى تقف على قدميك وتستقر الأمور . ان أقاربه هنا يحتاجونه أيضا ، فهم جميعهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون . انهم يحتاجونه ليكتبوا الى اقاربهم في الوطن ، وليتلقوا اخبار ذويهم هناك في بلدة أميون . يرددون فيما بينهم ان يوسف انسان ذكي ، يقرأ ويكتب . انه امكانية جيدة . فهو صار يقرأ ويكتب بالبرتغالية بالرغم من انه لم يمض على وصوله الى البرازيل الا وقت قليل .

انه يصير على العودة الى الريو دي جانييروا ويرسل تلغرافاً بهذا الخصوص .

مرة أخرى يقع له ما لم يكن في الحسبان . يظهر ان كل ما هو غير متوقع يهيمن على مسيرة حياة هذه الأسرة . ومع كل محاولات يوسف وجهوده ، لا يتمكن من حل رموز وتوضيح ما يحصل له من أمور معقدة ولا معرفة أسبابها . انه لا يدري كيف فسرت برقيته التي كتبها بالبرتغالية الى زوجته في ماجي بشأن عودته الى ماجي ، اذ انه وهو يفكر بمغادرة فلوريانوبوليس والسفر الى الريو دي جانييروا ، وصلت أسرته الى حيث هو الآن في فلورينوبوليس . وهذا الأمر غير المنتظر أحال من جديد من ان تسافر العائلة الى الولايات المتحدة . انه أمر لا يمكن توضيحه ولا يمكن تفسيره ولا معرفة كيفية حصوله ، مما جعل الإقامة والبقاء في ولاية سانتا كاتارينا أمراً نهائياً . انه شيء مكتوب ، والمكتوب لا مهرب منه .

الفصل السادس عشر غرينغو(الغريب)

أحببت المحاولة الأولى من قبل الجالية الألمانية لاقامة مركز استيطاني الماني في ولاية سانتا كاتارينا (الذي تمكن من أن يؤتي ثماره فيما بعد بعد عدة سنوات في وادي إيتاجايي وذلك مع الدكتور هيرمان بلوميناو) في سان بيدرو دي الكانترا حيث ظهر مهاجرون يصارعون ويعملون من اجل البقاء على قيد الحياة في حراثة الأرض، وأعمال الزراعة ، وتربية البقر والطيور من أجل انتاج الحليب والأجبان ومنتجات الدواجن . وهذا المركز كان نادرا مايتصل بمدينة سان جوزي مركز القضاء وبشكل أقل كان اتصاله بمدينة فلوريانوبوليس عاصمة الولاية .

كان السفر الى مركز القضاء أو العاصمة يعتبر مغامرة . فالتصميم على السفر الى تلك المدن يجب الاستعداد له جيداً وتسبقه نقاشات واستشارات وتقييمات ، ولا يكون الا من اجل حل بعض المشاكل ، او تخليص معاملات أو القيام باعمال تجارية عالقة . كانوا يحملون بعض الطلبات التجارية من الأقارب والأصدقاء لإيصالها الى بعض الزبائن . وكلما ذهب احدهم في مهمة الى تلك المدن كان يقول : انا مسافر الآن ولن أعود قريبا لأن سفري الآن هو الى تلك المدينة ، ويضيف الى قوله المتقدم الى محدثه ان في المرة القادمة الأخرى سيذهب غيره مكانه . والى ذلك المكان النائي حيث توجد مدينة صغيرة اسمها سان (بيدرو دي الكانتارا)مضى على تأسيسها ما يقارب المئة عام انتقلت عائلة ميغال واستقرت هناك . اما لماذا اختيار هذا المكان، والاستقرار فيه ،فالجواب لا يزال مثيرا للجدل. وعلى الرغم من جميع التوضيحات من الأهل عن هذا الاختيار ، وعلى الرغم من جميع المحاولات والتحريات التي قام بها الابناء

لمعرفة الاسباب لاختيار تلك الارض البعيدة للاقامة فيها ، فانهم لم يتمكنوا من ايجاد سبب منطقي مقبول ومرضي لذلك . ما هي اسباب ذلك الاختيار؟ كيف علم يوسف بتلك الارض النائية وبتلك البلدة الضائعة في ذلك المكان المخفي ؟ هل لأن هناك لا يوجد محل تجاري لأحد من ابناء وطنه ؟ أم لأن دكاكين الألمان التجارية الموجودة هناك لم تكن مرضية ؟ أو هل اشار عليه أحد ونصحه لينتقل ويعمل هناك ؟ ربما .

في مفكرته وسيرته الذاتية يسجل الوالد يوسف بشكل موجز ما يلي :

" كان منزلي يقع بالقرب من الكنيسة المحلية التي كانت تحت الإنشاء . وغالبية سكان المدينة الذين يصلون الى 90% كانوا من أصل ألماني ، والقليلون منهم كانوا يتكلمون البرتغالية . كان ورعين صادقين ، خالصي الإيمان ومطيعين طاعة عمياء للموجه الديني".

بدأ يوسف كبائع متجول . كان يمر من منطقة سانتو أماروا دا إمبيراتريس الى منطقة بون ريتيرو ثم يذهب صعودا الى سان جواكين ، ويتجه نزولاً الى سان بيدرو دي ألكانترا ، وكل شيء كان هادئاً وأماناً بالنسبة له . فالشعب هنا شعب مجتهد ، والجميع منصرفون الى أعمالهم . وقبل أن يرجع الى مدينة فلوريانوبوليس كان يمر في طريقه على منطقة القديس يوسف (سان - جوزي) حيث يقيم فيها عدد لا بأس به من سكان الأكواخ من القش . العمل هو نفسه الذي كان يقوم به في مدينة ماجي . كان يحصل على البضائع والسلع من الأنسباء والأقرباء وأبناء بلاده ، والمحاسبة ودفع ثمن البضاعة كانت تتم لاحقاً بعد بيع البضاعة . يدفع ثمن ما باعه من السلع، ويرد السلع التي لم يستطع بيعها الى أصحابها . يجلب معه الى المدينة طلبات جديدة ، وطلبات متنوعة كما كان يحصل معه في الريو دي جانييرو . نفس الاسلوب ونفس الطريقة التي مارسها في الريو . دائماً على لسانه لفظة باراتو أي رخيص .

فهذه الزبونة تقول له : اجلب لي معك يا سيد زي أي جوزي قطعة من القماش ، وأخرى تطلب شيئاً جميلاً لأن عندها حفل خطبة أو زفاف . وزبون آخر يحتاج بعض الأدوات من مثل مجرفة أو قدوم أو منجل أو مطرقة ، والبعض يطلب منه : هل تستطيع ان تجلب لي معك سكر أبيض أو ملح أو كاز ؟ ومع ان طلب مادة الكاز كان متعباً بالنسبة له ، لكنه دائماً يجيب بأنه مستعد لجلب كل ما يريد زبائنه ، وكان دائماً يعدم بجلب ما يحتاجونه او ارساله بواسطة الشاحنات او وسائل النقل الأخرى التي تأتي من المدينة الى هنا . والواقع ان الحاجة هي التي دفعته الى القيام بكل هذه الأعمال والى هذه التجارة الجواله المتعبة .

بعد فترة من مزاولته تجارة البائع المتجول (ماسكاتي) بدأت تنضج عنده فكرة التمرکز والاستقرار في عمله في مكان ثابت . لماذا لا يكون استقراره في بلدة سان بيدرو دي ألكانتارا ؟ ففي هذه البلدة يوجد تجار ، وبامكانه ان يعمل هنا . لكن الممولين له كانوا من ابناء جاليته من اقارب واصحاب . بدأ يستمزج آراءهم ويشاورهم على الانتقال والاستقرار والعمل في بلدة سان بيدرو فشجعوه كثيراً على ذلك باعتبار ان مبيعاته فيها ، وهم سيستمرون في مساعدته وتقديم العون له ، وقد أصبح يعرف الكثيرين من سكانها ، وصارت له صداقات في البلدة مما دفعه الى اتخاذ القرار بالانتقال اليها .

استأجر منزلاً بسهولة ، وانتقلت أسرته الى البلدة الجديدة . الأسرة سكنت في الجهة الخلفية من البيت ، وفي الواجهة أعد مكاناً لفتح دكان بسيطة لعرض بضاعته للبيع . كان في دكانه أشياء من اصناف مختلفة . بعض السلع من كل نوع . وكلما نقص نوع من الاصناف الموجودة في الدكان ، كان يوسف يؤمنها بسرعة من محلات ابناء جاليته المتواجدين في المدينة .

كانت البداية واعدة . الوالدة تمينه تقول ليوسف مازحة : لقد أصبحت يا يوسف تاجرة جيدة . يجيبه يوسف ضاحكاً : الحاجة

يا تمينه تجبر الانسان على التعلم . ومع كل الصعوبات التي كانوا يمرون بها ، فانه تمكن من التفاهم مع الناس هناك بلغة هي مزيج من العربية والالمانية والبرتغالية . وعلى الرغم من ان الكلمات العربية المستعملة كانت أقل من غيرها ، الا ان الطلبات كانت مزيج من هذه اللغات جميعها . وعندما يدخل أحد الى دكانه ويستعمل كلمات برتغالية والمانية ، كان يدخل آخر ويقول له : كيفك ؟ بدلا من (كومو فاي ؟) ثم يطلب شيئا مستعملا كلمات اللغات الثلاث . مثل : اعطني ليتر حليب .

لم يمض وقت طويل على يوسف في محله التجاري الجديد في هذه البلدة حتى أصبح معروفا من الجميع . وبدلا من مناداته بيوسف صار معروفا باسم (جوزيف) وتكيف مع البيئة الجديدة ، وصار الكثيرون من العائلات الألمانية يأتون الى محله مع أطفالهم للتحديث مع جوزيف وشراء بعض السلع ، وتبديل سلع بسلع أخرى ، ويتبادلون الحديث معه ويريدون أن يعرفوا أكثر وأكثر عن لبنان ، وطريقة الحياة في لبنان ، وأين يقع ، ويريدون ان يعرفوا شيئا عن أميون وكفرسارون ، وكيف وصل الى البرازيل ، وخاصة الى هذه البلدة المنسية سان بيدرو دي الكانتارا ؟ فيجيبهم مازحا ضاحكا : بنفس الطريقة التي أتيت فيها أنتم من ألمانيا الى هنا . فيقول أحدهم : أنا لا . جدي هو الذي جاء الى هنا . فيسأله يوسف : وجدك من أين جاء اليس من المانيا ؟ فيجيبه الألماني : جاء من هامبورغ . فيقول يوسف : وأنا اتيت بنفس الطريقة التي أتى فيها جدك . بدأ يتحقق حلم الجماعة في هذه البلدة ببناء الكنيسة في البلدة ، وبدأ العمل بالأساسات واشادة الأعمدة . لم يتأخر يوسف عن المساعدة المالية لبناء الكنيسة الى جانب المساعدة في البناء ، فقد كان معلم عمار وبامكانه تقديم العون . لقد بدأ النجاح يحالف الأسرة وبدأت أبواب الحظ والتوفيق تنفتح أمام يوسف وأسرته في واسط عام

لقد كان اختيار هذه البلدة هو الخيار الأفضل . بدأ المستقبل يبتسم أمام يوسف وتمينة ، وفي هذه الأيام الهنيئة تأتي تمينة وتبشر يوسف بأنها حامل في بداية عام 1929 ، وبهذا المولود يزداد عدد أفراد الأسرة مولود عربي - برازيلي أو الأصح برازيلي - عربي . لا بد من ارسال الخبر الى الأهل في لبنان ، والى أشقاء تمينة في الولايات المتحدة ، بالإضافة الى ارسال خبر الى شقيقة يوسف سعدى في مدينة ماجي وكذلك ارسال خبر الى أولاد العم في مدينة فلوريانوبوليس .

فجأة ، وبدون أي تفسير ، وبدون منطلق واضح ، وبغير أي ظاهرة واضحة من شأنها أن تبرر التحريض الذي انفجر ضده في البلدة ، وقيل له ان مجموعة من تجار البلدة لا يعرف عددهم اثنان او ثلاثة او أربعة أو نصف دزينة او أكثر ذهبوا الى الكنيسة وقدموا شكوى الى الكاهن الخوري قائلين له : ان هذا الغريب . التركو . وصل أمس الى هذه البلدة وجذب جميع زبائننا ، وأضر بنا ، دون ان يتذكروا انهم جميع مثل يوسف مهاجرين الى هذه البلاد أو ابناء واحفاد مهاجرين . وهكذا بدأ الناس يسمونه بالتركو . بالغرینغو . وبدأت مقاطعة محله . لكن اكثر ما زاد حزنه وأثر فيه واصابه بخيبة امل هو عندما علم بخطبة الكاهن في قداس يوم الأحد الذي اشتكى من المصلين ورواد الكنيسة جميعا وقال لهم : لقد اخطأتم كثيرا . فبدلاً من ان تذهبوا وتشتروا من محلات ابناء جاليتكم ووطنكم ، فانكم تذهبون الى محل هذا الرجل الغريب . بالغرینغو . بعد تلك الخطبة انقطع الزبائن عن دخول محله التجتري وبدأت المقاطعة القوية لمحل يوسف .

لأول مرة يسمع يوسف هذا النعت (بالغرینغو) الى جانب النعت (بالتركو) مما جعله يغضب ويصاب بالخيبة دون ان يجد تفسيراً منطقياً لكل ما حصل ، وتأخذه الأفكار الى البعيد فيقول : ألم يكفنا

ما عانينا من حكم التسلط التركي خلال التاريخ الطويل ؟ ثم يستدرك ويلتفت الى زوجته تمينه وشقيقها حنا ويقول : لا شك ان لكلمة (تركو) سببها المنطقي لأن تركيا كانت تسيطر على بلادنا لعدة قرون طويلة . أما اليوم فلا أرى أي تفسير لهذه الكلمة الأخرى . لماذا ينعوتونني (غرينغو) يا تمينه ؟ غرينغو تعني الغريب . وبين يوم وآخر أصبح محل يوسف خاليا من الزبائن ، واختفى جميع أصدقاء الدردشة الذين كانوا لا يغيبون يوما عنه . ولم يعد يأتي الى محله الا القليل من الناس عندما لا يجدون ما يريدونه في محلات أبناء جاليتهم من السلع ، ويكونون في حاجة ماسة اليه وباستعجال ، او اذا كانوا لا يستطيعون الشراء نقدا . واذا اتوا الى محل يوسف كانوا يتحاشون ان لا يراهم أحد من أبناء قومهم خوفا وحياء من ان تصل أخبارهم الى الكاهن . يطلبون المعذرة من يوسف ويرجون ان يكون دخولهم الى محله سرا قائلين له : انت تعرف الأحوال يا زي غرينغو واحيانا يقولون :يا زي توركو. ويضيفون : ليس لدينا شيء ضدك . واسعارك ارخص الأسعار ، وبضاعتك نوعية جيدة وافضل الأنواع وأنت تعاملنا أحسن معاملة وعندما لا نجد طلبنا عندك ، كنت توفره لنا باسرع وقت ممكن ، وكذلك تبيعنا ما نريد ديننا لندفع فيما بعد ، وكنت تتحمل لندفع لك عند موسم الحصاد ، وكنت تقبل منا المقايضة وبدل النقود كنت تقبل من منا أي شيء من منتوجاتنا ومحاصيلنا الزراعية ، لكن الكاهن لجلاج ودائما يتمتم ويكثر من الكلام مما يجعلنا غير قادرين على المجيء باستمرار الى هنا .

وضع يوسف يصبح أصعب وأصعب. الديون تتراكم والحالة لا تطاق حتى الايجار بدأ يتأخر ، وتتراكم المدفوعات . لا حل قريب لما وصل اليه . الذهاب الى الكاهن والتحدث معه وطلب تفسير لما حصل والشرح له ان الجميع هم مهاجرون ومتساوون لا يقدم ولا

يؤخر . والحديث عن الجهود التي بذلها لبناء الكنيسة والمساعدات المالية التي قدمها حتى تحقق بناء الكنيسة ، وجهود زوجته تمينه ليل نهار في مساعدة نساء البلدة وتقديم كل معونة لهن . كل هذه الامور اصبحت عديمة الفائدة . ومن لحظة الى أخرى أصبح شقيق زوجته حنا (جوان) رفيقا غير مرضي وشريكا غير مرغوب فيه مع العلم انهما من نفس العمر . فقد كانا يتنزهان معا ، ويعملان شريكين ، ويدردشان معا ، ويتناولان المقبلات معا ويعملان لاشادة الكنيسة معا ، وساهما مساهمة فعالة في بناء الكنيسة حتى وصلا الى يوم أصبحا منبوزين من الكاهن والجميع . حتى ان الكاهن طلب منهما علانية ان لا يعودان الى العمل في الكنيسة ، ولا يوجد أي حاجة لمجهودهما فيها ولا يريد بعد اليوم خدماتهما .

العام 1928 يشارف على نهايته ، وتمينه حامل والحالة اصبحت صعبة جدا . والحاجة ملحة للانتقال من هذه البلدة الى مكان آخر . ولكن لا بد من الانتظار حتى الولادة . فالمولود القادم أول برازيلي في الأسرة وموعد الولادة في شهر شباط 1929 . الولادة كانت طبيعية ، والمولود قوي وسليم ، والاسم الذي اختير له اسم جورج وهو تقليد في الأسر العربية .

ما ان شعرت الوالدة تمينه انها أصبحت بحالة جيدة بعد الولادة ويمكنها ان تستأنف مهامها اليومية بحالة طبيعية ، حتى سارعت الى متابعة عملها في المحل التجاري ، لينصرف يوسف الى البحث عن منطقة أخرى من اجل تأمين محل تجاري آخر ينتقل اليه بعد ان ضاقت السبل امامه في هذه البلدة . أما شقيق زوجته حنا الذي وجد نفسه في هذه الاثناء مشمئزا ، خائبا وبدون أفق واضح امامه أخذ يفكر بما يجب عليه القيام به من العمل ، ويفكر بالوجهة التي ينبغي عليه ان يتوجهها للخلاص من الحالة التي وصل اليها . انه يريد

تغييراً جذرياً في حياته وبأقصى سرعة . لكنه لا يدري الى أين
يتجه ، ولا ماذا يفعل . وهل سيظل الجميع يرتحلون من مكان الى
آخر كالغجر ؟ وهل هذا هو المصير الذي كتب لهم ؟ أم انها لعنة
كتبت عليهم ؟

الفصل السابع عشر

طيره

الاضطراب وعدم الهدوء يسيطران على الهرة طيره ، فتحاول وتحاول بذل جهودها دون ان تتمكن من فهم ما يحدث .ومع انها منذ صغرها تعيش في المنزل وقد اصبحت تشكل جزءاً من الأسرة، ومندمجة فيها ، وتفهمها وتعرف لغة التواصل معها ، فانها تشعر بالحيرة والارتباك .

اما أتيلادا ، فانها فطنة ذكية تفهم بالإشارة ، وبمجرد ان يتلفظ والدها بكلمة نية فهي تفهم فوراً انه يعني لحم ني .واذا قال نخية ، فهي تعرف انها لحمة مطبوخة . انها تشعر برائحة شيء غير مألوف . تذهب الى والدتها تمينه حيث اعتادت على دلال والدتها المألوف، لكنها تفاجأ بشيء غير عادي ، فتبحث عن الابن الاكبر الذي كانت دائماً تذهب معه الى اللعب والتنزه في احياء المنطقة حيث كانوا يذهبون الى الساحة القريبة التي تقع خلف المنزل فيركضون ويتقلبون على العشب الناعم اللطيف . ومع انها كانت تحاول دائماً ارباكه وازعاجه ،الا انه لا يعيرها اي اهتمام ولا يتأثر لذلك . تذهب بعدها الى حيث تلعب الفتيات اللواتي ما كانت تراها باستثناء الطفل الصغير سعيد ابن الشهور القليلة ، والذي لا يستطيع التحرك من مكانه عندما تقترب منه . والذي لا يفهم شيئاً مما يدور حوله . فقط يريد ان يأكل أو يهز بذراعيه أو يبكي او يضحك أو ينام . الهرة طيرة تستمر في حركتها وتنقلها في المنزل . تخرج الى امام المنزل وتصل حتى الطريق الترابية حيث كل شيء هاديء في هذه الساعة ولا يوجد اية حركة مشاة ثم تعود الى المنزل مستغربة ما يحصل فيه على غير العادة . فأغراض البيت ليست كما كانت في اماكنها ، بل اكثر الأشياء على أرض الغرفة ، وبعضها توضع في صناديق مقللة ، وكذلك الملابس توضع في الحقائب وتقلل ايضاً .

الوالد يوسف يقول باصرار مصدرا أوامره : هيا هيا . اننا لا نملك الكثير من الوقت . الوقت ضيق . يجب ان ننهي عملنا بسرعة يا كسالى . ضعوا هذه الاشياء هنا . لا تضعوها هناك . افعلوا كما افعل . بهذه الطريقة . انتبهوا . افعلوا هكذا يا تمينه . تمينه تشكو منه وتقول : كفى يا يوسف . خفف من الكلام . اتركني أفعل بهدوء ما اراه مناسباً . لا تتدخل بعلمي . تدعو الاطفال الصغار لمغادرة المنزل الى الخارج . تقول بعصبية وغضب : لا تتدخلوا وتربكونا اذا كنتم لا تستطيعون المساعدة . اذهبوا والعبوا خارج البيت . الوالد يوسف يؤكد على طلب تمينه ويقول لها : والله يا تمينه ان الاطفال يخرطون كل شيء . وهذا الولد الكبير ليبقى مع اخوته الصغار القاصرين ويرعاهم على الاقل بدل ان ان يبقى هنا . وكذلك الهرة طيره يجب ان نجد لها مخرجا ونتخلص منها بطريقة ما . تجيب تمينه : لا . ليس اليوم . نجد لها طريقة فيما بعد . طيره تلاحظ . تشعر ان شيئاً جديداً يحصل . تحاول ان تفهم . انها تشعر منذ بضعة أيام بحركة غريبة . فوضى في المنزل . أغراض على الأرض وأغراض توضع . ملابس هنا واخرى هناك . اناس يدخلون وآخرون يخرجون . بعض الاصحاب يتدخلون و يقترحون ويبدون المشورة . واحد يقول يا سيد جوزيف : الأفضل هنا . لا لا . هنا لا . الأفضل هناك . وآخر يقول : اسمحوا لي أن أساعدكم . انني متأسف جداً على رحيلكم . أنها الحياة مليئة بالصعوبات والأوقات العصبية . وثالث يقول : لقد مررت ايضا بمثل هذه الصعوبات ، ولكنها فرجت ، وتحسنت الأحوال . لا بد من الصبر . حتى السيدة جوانا تهز برأسها وتحك بشعرها الأبيض وتتدخل وتقول : يا سيدة تمينه ، انتبهي للكؤوس . من الضروري ان تضعي ورق في داخل الكؤوس وتلفيها بالورق ايضاً وتضعي ملابس بين الكأس والآخر وبين الفنجان والفنجان ، والا لن يصل

معك شيء سالما وستعرض الكؤوس والفناجين للكسر . ثم تضيف السيدة جوانا وهي صاحبة المنزل الذي استأجره يوسف في هذه البلدة وتقول : انني آسفة وحزينة على ذهابكم يا سيدة تمينه ، ليس من أجل ايجار البيت ، فهناك كثيرون يريدون استئجاره ، ولكن من أجل حسن جوارك ، فقد كنت الجارة الطيبة واللطيفة . لقد كانت علاقتنا طيبة منذ البداية ، ولا يمكن ان ننسى تلك الايام الجميلة التي مرت ، والصدقة التي توطدت بيننا فكأننا نعرف بعضنا منذ زمن بعيد .

سوف اشعر بالحنين لك بعد هذا الانتقال . ثم تغير الموضوع وتقول : هل تعرفي يا تمينه انني استلمت رسالة من ريجيس ؟ تعالي لأقص عليك الاخبار . انه يسأل عنكم ويهديكم السلام ويذكركم بكل خير .

ثم تغير من جديد الحديث وتقول :

للأسف يا سيدة تمينه انكم ترحلون الآن عنا ولم يمض عليكم في هذه البلدة الا القليل من الوقت .

الوقت يميل الى المساء ، والغسق يلون الأفق بالاحمرار . وعمل التوضيب وترتيب الحقائب في تقدم . انه يوم عادي كبقية الأيام وأمسية كسائر الأمسيات . لكن آخر هذا اليوم لم يكن عاديا بسبب هذا الانتقال والمبيت الأخير في هذا البيت ، وتناول آخر وجبة عشاء سريعة فيه غير المتوقعة .

الاطفال لم يهدأوا ، وكذلك الهرة طيره . فدوى اكبر اخوتها تسأل أمها : هل سنذهب اليوم يا أمي ؟ تجيبها الأم : لا . تعالي . وهدد الطفلة الأخرى تريد لعبتها ، فهي لا تستطيع النوم بدون ان تكون معها الدمية . فهل وضبت الدمية مع الاغراض التي وضعت في الصناديق أو الحقائب ؟ وما العمل الآن ؟ وأين هي لعبة الطفلة ؟

الطفل البكر خرج من المنزل مع شقيقه جورج الذي هو اول طفل برازيلي في الأسرة ليلاعبه ويتنزه معه قليلاً ، ثم يعود الآن برفقة الطفل الذي تلتخ وجهه وملابسه ويداه بالطين والوحل الاحمر بحذر لأنه يعرف ان والده ووالدته سوف يشكوان منه ومن

تصرفاته وقد يؤدي ذلك الى تلقيه عدة صقعات من والده . لقد خرج مع شقيقه الصغير وراح يلعب بالوحوول محاولا خلق بعض التماثيل او الدمى والاشكال الاسطورية من حيوانات وهمية وشخصيات خيالية . وحين يرى الوالد يوسف ما حصل لولدي الملطخين بالوحوول يصيح ويقول : قسما بالله يا تمينه ان هذا الولد لا يتعلم ولا بأي حال من الأحوال . لا فائدة من ذلك . لقد بلغ سن العمر الذ يستطيع معه ان يساعدنا . لا أريد مساعدته منه ولكن ينبغي ان يتوقف عن كل ما يبعث الى الارباك والازعاج على الاقل . ابعدني هذا الطفل من امامي . نظفيه من الوحول ابعديه عني قبل ان أصفعه . انه لم يتعلم . لم يكفه ما فعلت به في تلك المرة . عندما كان يوسف يوبخ ولده البكر ، كان هذا يرتجف من الخوف ويتذكر كل ما حصل معه سابقا من ضيق التنفس والدواء والحمى التي لازمته لأكثر من اسبوع وأوجاع المعدة وصداع الرأس وكيف وصف له الصيدلي زيت كبد السمك المقدد الذي ذهب والده يبحث عنه في بلدة بيغواسو ، والذي تناوله لأكثر من يومين بالرغم من طعمه الرهيب الذي يثير البصاق والتقيؤ ، والذي قالت عنه الوالدة تمينه انه يدهور وبسيء الى الصحة أكثر مما يحسنها . بينما الوالد يوسف كان يقول : انه ليس سما . انه دواء يساعد على الشفاء بأسرع وقت . كان الوالد يصيح بولده ليأتي اليه ويأخذ الدواء بينما الطفل يتقدم خطوة ويتراجع خطوتين من خوفه من ذلك الدواء الكريه . واحيانا كان يهرب عندما يتمكن من ذلك مما جعل والده يحبسه في الغرفة ويقفل عليه الباب حتى يطيع الأوامر ويتناول الدواء . وكان يضطر من اجل معالجته ان يستمر على هذه الحال عدة ايام حسب ما تقتضيه الحالة .

ان ما يهم الولد كان فقط اللعب مع اترابه والجري في الملاعب والحقول ، والصعود والهبوط والتشقلب على التراب او الأعشاب والمسير تحت الأشجار المورقة الملتفة ، واللقاءات مع مروض

الخيول الهندي شوكرو، والسباحة في الأنهار ومرافقة الهرة طيرة التي اعتادت على خربشة الباب اثناء الدخول والخروج. الاصدقاء يمعنون ويصرون على اثارها . ويهمه ايضا حضور الالعب النارية والمفرقات كما يحب رؤية ومراقبة الأسماك المتنوعة من جميع الالوان والاشكال والتي تظهر في ماء النهر ثم تغطس وتختفي عن النظر لتظهر بعد ذلك على ضفة مياه النهر لتلتقط بعض بقايا الاطعمة بينما يحاول بعض الاطفال التقاط تلك الاسماك الصغيرة ، وكذلك تقفط طيرة الى الماء وتسبح محاولة التقاط ما تقدر عليه من الاسماك ثم تعود مسرعة الى الضفة لتسلم ما التقتطه الى احد افراد الاسرة. هذا ما يتخيله الآن الصبي المحبوس في البيت ، ويمر في مخيلته في الوقت الذي يظهر فيه الوالد يوسف في الباب مهتدا متوعدا بينما هو يلوذ بأمه متمسكا بها في حين ان الاطفال الآخرين يراقبون ما يجري من بعيد . اخيرا وبعد غضب الوالد يوسف يعرض على ابنه صفقة مفادها ان يتفقا على ان تتناول الدواء لمدة يومين ، فاذا لم يؤد ذلك الى نتيجة فبامكانه ان يتوقف عن تناوله . يقول له : اذا وعدتني بذلك ، فاني اخلي سبيلك واجعلك تخرج من البيت .فما رأيك ؟هل تعدني بذلك ؟ أجب على سؤالي . الولد يلوي برأسه ويتردد . يفكر ثم يتردد . ثم يجيب فجأة ويعطي وعدا بانه سيحترم الاتفاق . اذن بامكانك الخروج يقول الوالد اذا وعدت واحترمت الاتفاق . تلمع عيون الابن من السرور . يكرر الأب قائلاً لابنه : أجب . هل وافقت على عرضي وتعديني ؟ اخيرا يجيب الابن بالايجاب ويعد بان يتناول الدواء ولكن بشرط ان يسمحوا له بتناول الدواء وحده ، ولا يريد ان يكون الى جانبه أحد يراقبه . ثم يكرر الوعد بذلك . عندها تهز الوالدة رأسها وتوميء الى زوجها كي يقبل ، فيوافق الزوج يوسف على شرط ابنه ويقول : نعم . نعم . نسمح لك بتناول الدواء وحدك . هيا ياتمينه أنتي بالدواء

حالاً وخرج الجميع من العرفة ليفسحوا له بتناول جرعة الدواء وحده . حاول الابن تناول جرعة الدواء . أبدى جهداً لتناوله . أقفل أنفه . من المستحيل تناول هذا الدواء . طعمه كريه . رائحته غريبة . مذاقه حاد حتى لونه مزعج . انه دواء يثير التقرز والتهوع والدوخة والتعذيب . عندها لم ير مخرجا من هذه الحالة سوى فتح النافذة وبصق جرعة الدواء ورمىها في الخارج واغلاق النافذة بطريقة سريعة لكي لا يشك به أحد . لكن الوالد شك من هذه السرعة التي تناول فيه ابنه الدواء واشتبه بالأمر فقال له: افتح فمك وأرني لسانك وقرب وجهه من فم ابنه ونظر اليه جيدا ثم شم رائحة فمه فاكتشف ان ابنه لم يتناول الدواء فصاح بزوجته تمينه وقبض على ذراعي ابنه بشدة وصاح بزوجته تمينه وقال :

تعالى الى هنا بسرعة وانظري هذا الطفل المائع الشيطاني ماذا هيا وماذا فعل . انه يريد ان يغشنا ويخدعنا ، ويعتقد اننا أغبياء وسذج . قولي لي ماذا ينبغي أن أفعل معه ؟ انه لم يتناول اي شيء من الدواء . يريد ان يضحك علينا ويستغشمننا . توقف يوسف قليلاً ثم ذهب الى شباك الغرفة فوجد بعض قطرات الدواء تسيل على الجدار وتتساقط على الأرض ، فانفجر غاضبا مرعداً وفي حالة غيظ عارم . وقال : هه . انتظر لأريك ، وقبض على عنقه بشدة ثم صفعه صفقة قوية وخبطه على قفاه ثم خرج من الغرفة وترك الوالدة تمينه مذعورة تتولى أمره ، ثم عاد ومعه مسدس وكأس ماء مع زجاجة الدواء وملعقة الدواء . ذعرت الأم من هذا المنظر لأنها لم تر زوجها بهذه الحالة قبلا من الغضب . صرخت متلعثمة : يوسف يوسف جوزي ما هذا ؟ . ابني . فصاح يوسف : لا يريد ان يتناول الدواء بالهدوء ، ويتوجه الى ولده بالقول : سأجبرك على تناوله بالقوة . تلعثم الولد واضطرب وخاف ولجأ الى أمه التي بدأت تبكي وتتوسل ، لكن يوسف جذب الولد بقوة من بين يدي أمه وقال له : سنتناول الدواء غصبا عنك . ذعر الولد وتخلص من يد

والده وقفز من النافذة هاربا ، فتبعته الهرة طيرة كما لو كانا يلعبان لعبة التخفي . صاح به الوالد قائلاً : قف يا ولد . قف . والا أطلقت عليك النار .

في الصباح الباكر كان يوم الانتقال وترك المنزل . لم تنفع طلبات الأولاد ولا التوسلات ودعم الوالدة لهم في العدول عن الانتقال . الهرة طيرة بقيت في البلدة ولم ترافقهم الا قليلا . أمرها يوسف بالرجوع وعدم متابعتهم فعادت وبقيت حزينة . ثم عادت وتبعتهم ولا تريد اطاعتهم والبقاء هنا . عاد وطردها بشدة من جديدة فرجعت حزينة وفي عيونها الحزن والشكوى والتوسل .

لم يمض طويل وقت على اقلاعهم حتى اضاعوا طريق البلدة التي كان من المفترض ان ينتقلوا اليها ودخلة في طريق أخرى متجهة الى بلدة أخرى في قضاء آخر لا يعرفونه . انهم مرة أخرى ينتقلون كما ينتقل الخجر ولا يدرون اين يذهبون . يقنعون انفسهم ان طريق هي الطريق الصحيحة . لكن هذه المرة ستكون الاقامة في بلد بيغواسو ، وسيبدوون حياة جديدة وأيام جديدة وتوقعات جديدة وينتظرون أيام أفضل وتحقيق احلام واحلام . ويمنون النفس بأن هذه المرة ستتحسن حياتهم ويقولون لأنفسهم وللآخرين ان في هذه البلدة الجديد سيحالفهم الحظ والتوفيق وسيكون كل شيء على ما يرام .
بالأكيد الأكيد .

بالكاد انقضى اسبوع واحد على انتقال أسرة يوسف ، وربما أقل أي أربعة او خمسة أيام والأسرة لا تزال تنظم نفسها ومقتنيات منزلها وبينما كانت الطفلة هند وهي أصغر أفراد العائلة تلعب أمام المنزل الجديد في بلدة بيغواسو تبحث عن يشاركها اللعب ويلعب معها حتى كانت المفاجأة وصرخت الطفلة بأعلى صوتها : طيرة ورددت بصوت أعلى : طيرة . طيرة . انها الهرة طيرة . لا أحد يهتم ولا أحد يعير انتباها لصوت الطفلة .

خلال الايام الاولى من وصول عائلة يوسف الى بلدة بيغواسو ،
 راح يوسف يهتم بعمله في هذه البلدة لتحصيل رزق العائلة . أما
 الأطفال ، فان تفكيرهم بقي عند الهرة طيرة . لقد منعها الوالد من
 مرافقتهم . طيرة هي التي تشغل بالهم، وتلهيهم عن أي شيء آخر.
 يقول الأطفال : آه ، لو كانت معنا طيرة ! وكم كان جميلا لو كنا
 نلعب معها الآن ! انها جزء من الأسرة . نعم انها جزء من هذه
 الأسرة . لقد رافقتهم منذ الطفولة . لقد تعلقت بهم وتعلقوا بها . كم هي
 لطيفة ! وكم هي ودودة ! آه ! انها طيرة ! كيف ومن اين ظهرت
 فجأة امام الباب هذه اللحظة ؟ يا لها من مفاجأة سارة !
 الآن ينبغي على الطفلة هند ان تكرر وتصيح من جديد أن طيرة هنا
 أمام الباب في بلدة بيغواسو . الطفلة هند تركض لملاقاة الهرة
 وتصيح بأعلى صوتها : طيرة وصلت . انها على مدخل الباب .
 تعانق طيرة . وتصرخ : طيرة . طيرة . نعم انها طيرة . بطنها الآن
 كبير . انها تبدو كأنها تزحف على بطنها . تلهث . قليل من الوقت
 وتكون ولادة صغارها . الأسرة الآن في احتفال . احاسيس جميع
 أفراد الأسرة تدل على الفرح والسرور . شعور عميق لا يوصف
 يجتاح الأسرة حتى الأب . ولكي لا يبدي الوالد سروره علنا راح
 يخترع بعض الأعمال في اللحظة الأخيرة زاعما ان عنده بعض
 الأشغال ويريد ان يستشير ابراهيم الذي هو أحد انسبائه في بعض
 الأمور . أما طيرة المغمورة بالفرح الآن ، فانها أخذت تقف من مكان
 الى مكان . تدور حول الأطفال . تداعبهم . تلحسهم . تعاود القفز
 أمامهم . تتشقلب على الأرض من شدة فرحها بقاء الأسرة التي هي
 جزء منها . لقد سافرت عشرات الكيلومترات حتى وصلت طيرة الى
 هنا مسترشدة بالغريزة وبالرائحة وبالحاسة السادسة عندها للقاء
 أصحابها . لن تتخلى عنهم بعد اليوم . الأب نفسه كان الأول الذي
 راح يروي حكاية المروءة والوفاء بشكل اسطوري مستمد من
 رواية ألف ليلة وليلة التي سيبدأ بسردها في الغد على

الأطفال في السهرات الليلية مشددا على ان عليهم ان يحفظوها في
الذاكرة الى الابد ، مضيفا على الرواية مكونات جديدة تختص
بمغامرة الهرة طيرة الصغيرة السوداء ، الرائعة الذكاء ، والحاملة
بقعة بيضاء على جبهتها . وإرثا سلاليا ، والتي تستحق عن جدارة
اسمها العربي طيرة . طيرة التي تشبه الطائفة . لقد بدأ الأب يوسف
بعد وصول طيرة يكرر ويسرد القصة في كل الأمسيات والسهرات .
في البيت ، والدكان ، والخيمة ، والشارع ، والبار وحيثما وجد .
يروى القصة للأبناء ، والأقارب ، والأصحاب ، وأبناء البلد ،
والزبائن ، والمتسوقين الذين يريدون شراء المواد الغذائية أو
الأقمشة أو ما شابه . وذلك خلال تبادل الأحاديث أو تناول قرح من
عرق البنغا أو خلال الدردشة مع الأصحاب ، واثناء
سماع الأخبار الخاصة بالبرازيل أو أخبار العالم الملتقطة عبر اذاعة
الريو دي جانيرو بواسطة راديو فيليبس الذي يملكه والذي كان في
ذلك الزمان آلة سحرية مذهشة لا يملكها الا القليل من الناس .
كانت الأم تمينه تتدخل في بعض الأحيان وتقول : ان زوجي يبالي
كثيرا في سرده ، دون ان يهتم يوسف لتعليقها بل يستمر في تحليقه
الى اعالي الخيال والتصوير بشكل اسطوري خرافي ، ويقول لها :
هل طيرة حقيقة وقصتها حقيقية أم غير حقيقية ؟ وما يتحدث به الآن
ليس مقتطفات من الأدب الشعبي حملها معه من لبنان البعيد ؟ ثم
يلتفت الى نسيبه حنا (جوان) مشيرا باصبعه باعجاب وفخر مؤكدا
على انه لم يشهد في حياته بذكاء وشطارة تلك الهرة طيرة . ثم
يتوجه الى محدثه آدم قائلاً : من قال انني لا أريد ان اجلبها معي ؟
لقد تظاهرت بأنني لا أريد الايتان بها لأبين لكم ماهي قوة الصداقة
والمودة . وقصة الصياد سيرابيون وابنه الذي اتهم بالبلاهة تؤكد ان
ذات يوم سيكتشف الكنز الذي دفنه اللصوص السلابون في المنطقة
الواقعة بين سان ميغال وبيغواسو . واذا لم تقنعوا بما اقول ، فبامكانكم

ان تنادوا طيرة وتحملوها الى رئيس البلدية السيد فيدوكا لحل مشكلة صندوق البلدية وادارة أموالها واكتشاف الكنز الذي خفي على الكثيرين فيتبدل وضع البلد اليوم ويتحسن بدلا من الانتظار الى ما بعد . فالحقيقة والخيال يندمجان فيما بينهما ليشكلا كلاً واحداً غير قابل للتجزئة .

بعد سنوات طوال (من يدري كم من السنوات مرت؟! خمس عشرة ، عشرون ، خمس وعشرون ؟) الآن يقيم الوالد الأرمل يوسف في مدينة فلوريانوبوليس في منزل خاص يملكه في شارع أفينيدا ريو برانكو . يعيش ، بعد ان تزوج أولاده ، مع ابنته الكبرى وخادمتها . هاك الهرة طيرة تبعث من جديد .

ما الصباح؟ ما العصر؟ ما الليل؟ لا يهم هنا تحديد تلك الأوقات بالضبط . المهم هو الأمر الواقع . أفضل الأوقات لديه هو المساء . لقد وصلت طيرة وبطريقة هادئة ، وكان وصولها غير متوقع وعلى غير انتظار . الباب مغلق . لذلك راحت تخدمش وتخدمش الباب بمخالبها وتموء مواء رخيما ناعما كأنه استغاثة . يصيح الوالد بالخدمة ان لا تتأخر في المطبخ بتحضير وجبة الطعام وتلهو بحضور الفصل الجديد من فصول المسلسل الاذاعي الذي تتابعه يوميا . ثم يرفع صوته بشكل أعلى وينادي الخادمة : تعالي . تعالي . أسرع . تعالي . الأبنة الكبرى هي في الخارج أمام الباب وقد أتت لزيارة شقيقتها . الخادمة تقبل مسرعة وتفتح الباب . لكن الخادمة

بعد ان تفتح الباب تقف مندهشة مبهورة ويصيبها شيء من الاسترخاء والذهول حين تشاهد طيرة تدخل بكل هدوء وأدب كما لو كانت تدخل لحضور حفلة وتتجه الى حيث يجلس الوالد يوسف في زاويته المعتادة على مقعده الدائم بالقرب من النافذة والى جانبه عصاه التي يتوكأ عليها وفي يده راديو صغير يعمل على البطارية . انها مطابقة وتشبه الأخرى الى بعد الحدود . صغيرة . سوداء . نفس العلامة او الشريطة البيضاء على جبهتها . ان علامتها هي علامة

مسجلة . محبتها بارزة . لكنها تبدو أصغر سناً كما انها تبدو مزيجا من سلالات مختلفة وخليطا من الأصيل والرعاى . وما ان تصل الى قرب يوسف حتى تتجه وتميل اليه وتبدأ بدعك جسمها به ولعق يده ، فينذهل يوسف لهذا المشهد وينادي ابنته الكبرى فدوى : تعالى يا ابنتي . تعالى شاهدي . تعالى يا فدوى وانظري من وصل الى هنا تآن . ثم يقول للخادمة : ألا ترين ؟ انها هي نفسها . يظهر ان الأب لم يفاجأ بمجيئها ، بل يبدو وكأنه كان بانتظار عودتها . ويمر بعض الوقت قبل ان تصل فدوى . لكن فدوى ماكادت ترى الهرة حتى أخذتها الدهشة وصاحت : لا أصدق وانحنت تداعب طيرة التي راحت تبادل فدوى العناق ، وبدون تأخير تقول فدوى لأبيها بدهشة واعجاب : انها طيرة يا أبي . انها طيرة . فيجيبها يوسف بهدوء : نعم انها طيرة بالتأكيد يا بنيتي . فتسأله فدوى : ولكن كيف ظهرت ؟ ومن أين أنت ؟ يجيب الوالد : لقد عادت من الماضي وانا أعلم بذلك . تسأل الابنة : وهل هي نفسها يا أبي ؟ يجيب الأب بلهجة الواثق : نعم هي ولا شك في ذلك . تسأل الابنة : والآن ماذا يا أبي ؟ يقول الأب : والله انها جاءت تبحث عنا يا ابنتي . فتسأل الابنة من جديد : ما العمل الآن يا أبي ؟ يجيبها الوالد : مكتوب يا فدوى . انه المكتوب الذي لا مهرب منه . أني أمل ان تبقى عندنا وتعيش معنا من جديد . وصمت الاثنان يوسف وابنته فدوى ولم يتفوها بكلمة ، بل راحا يفكران بالماضي الذي يعود . بالغابر الذي يبعث من جديد ويجتاح حياتنا الحاضرة . الله كم هو جميل لو عادت تمينة وكانت بيننا الآن ! وكم كانت لحظة السعادة غامرة ! في هذه اللحظة يمسك الوالد يوسف الهاتف بيد مرتجفة وبعاطفة جياشة وبهلوسة يريد ان يخبر أولاده وجميع الاصحاب بما حصل . ثم يتصل هاتفيا بأبنائه قائلاً : يجب ان تأتوا الى هنا فوراً وبدون تأخر . انها مفاجأة . انها معجزة . لا أصدق ما حدث . تعالوا في الحال . انكم سوف لا تصدقون ما حدث ، ومن الذي عاد . عندها يسيطر

الشك على أولاده ويتساءلون : مالذي حدث مع الوالد ؟ ما نوع هذا المرض الذي أصابه ؟ ان الوالد نادرا ما يتكلم بهذه الحماسة .
 ويزعجهم انه لا يوضح ما يريد ولا ماذا حدث . وما هو عليه . هل ما يصيبه هلوسة ؟ هل هذا تصلب في الشرايين ؟ لكنه لم يفعل شيء ، ولم يمر عليه وقت طويل بعد

الفحوصات العامة التي أجريت له وكانت كل الفحوصات تشير الى ان حالته طبيعية ولا يوجد أي شيء يثير القلق ؟ على كل حال يجب تلبية طلب الوالد والذهاب لرؤيته ومعرفة ما حدث .

أتى الأولاد لتلبية طلب والدهم ودخلوا غرفته فوجدوا كل شيء على ما يرام ووالدهم لا يشكو من أي عارض ، بل وجدوا عنده طيرة .

انها بالفعل هي نفسها طيرة واستقبلتهم كعادتها . يظهر انها هي نفسها طيرة . وقد لبث دعوتهم حين دعوها طيرة . حقا انها طيرة ويكفي ان تناديهما بهذا الاسم حتى تلبي على الفور . لقد اتخذت

موقعها المميز في حيازة المنزل بأكمله واكتشفت مباشرة زاويتها المفضلة ، في الصالة ، في الحديقة ، في الفناء الخلفي . لقد عادت من جديد لتشكل جزءاً من الأسرة كما كانت في الماضي في بلدة بيغواسو . واخذ الجميع يحتفلون بها من أقارب وأبناء الوطن والأصدقاء .

وظلت طيرة على هذه الحال تعيش مع هذه الأسرة عدة سنوات حتى جاء يوم اختفت فيه فجأة وبطريقة غير منتظرة كما ظهرت فجأة وبشكل غير متوقع . لا احد من أفراد الأسرة استطاع ان يتقبل

اختفاء طيرة ، ولكن اختفاءها أحدث حالة ذهول وذعر للجميع . فالجميع متفقون على ان طيرة لا تذهب بعيدا عن المنزل . وتم

الاتصال بجميع الجيران والأصدقاء والأصحاب لمعرفة أي خبر عن طيرة . كما ان أطفال الحي خرجوا جميعهم يفتشون عنها . وقد نشرت الاعلانات في الصحف بحثا عنها ، ولكن كل الجهود كانت

دون جدوى .

في وقت لاحق بعد ان انقطع الأمل بالعثور على طيرة ، وبينما كانت هند ، الأبنة الثانية ليوسف ، تسير في الشارع في مركز المدينة بالقرب من ساحة 15 نوفمبر سمعت مواء يشبه مواء طيرة ، وفجأة اصطدمت بها وأخذت تتمسح بها وتخربشها وتدور حولها وتحيط بها بشكل واضح .

لم يعرف أبدا فيما مضى ان طيرة كانت تهرب خارج البيت من وقت الى آخر ، وتدور في الأحياء القريبة بحثا عن شريك لها تغازله وتمارس معه علاقاتها البيولوجية الجنسية . لقد ظنت الأسرة ان احد الاشخاص قد سرقها . لكن الحقيقة انها لم تكن تكل عن التفتيش عن شريك لها من جنسها لتمارس علاقاتها الجنسية ، فهي كانت تخلص من حمل الى حمل آخر . فقد حملت وولدت عدة مرات ، ولأولادها عدد من الآباء ، منهم المؤصلون وذو نسب ومنهم من الرعاع والأزقة .

الفصل الثامن عشر بيغواسو

بين الأعوام 1932 و عام 1943 استقرت عائلة يوسف في بلدة بيغواسو . الأسرة اصبحت أكبر والأولاد يكبرون . وجاء زمن التفكير والعمل على مواجعتهم الحياة في زمن مضطرب في جميع الحقول في القضاء . في الدولة . في الوطن . في العالم .

فبلدة بيغواسو هي عبارة عن شارع رئيسي وحيد يقطع البلدة الى قسمين متميزين من الطرف الى الطرف الآخر . يخرج من هذا الشارع ممرات او طرقات صغيرة من كلا الناحيتين وفي نواحي تبعد نوعا ما عن مركز البلدة تتخللها طرقات وأحياء صغيرة .

فمدرسة الأستاذ جوزيف برازيليسيو دي سوزا تقع على الشارع الرئيسي باتجاه مدينة فلوريانوبوليس . أما صيدلية السيد تاورينييو والسيدة فرنسيزا ، فانها تقع بالقرب من ساحة البلدة المركزية .

ومكتبة الشاعر الضريير جوان مندرس فهي قريبة جدا من مركز الخياطة للسيد جوان ديدينييو . ومحل الحلاق لاورو هو مركز لقاء الشبيبة المفضل ، وفرن خبز رئيس البلدية السيد فيدوكا (الفريديو سيلفا) يقع بالقرب من الجسر باتجاه سان ميغال . كما ان محلات الحدادة وفندق السيد فريديريكو بون يقعان تقريبا أمام منزل الوالد يوسف الذي استأجره من أحد الأقارب . ومعمل المشروبات مارتي يخص عائلة مندرس . والمنزل المؤلف من طابقين (هو بناء فخم مشاد حسب المواصفات ووفقا لمعيير المنطقة) تعود ملكيته الى عائلة ريتز ، وقد استضافت هذه العائلة في هذا المنزل عام 1936

الزعيم الوطني بلينيو سالغادو الذي استقبل يومها بالتهنئات والألعاب النارية . وفي هذه البلدة هناك البيوت والمنازل الي يملكها أبناء الوطن من المهاجرين مثل ابراهيم ، و ابراهام ، و ابراهيم

الصغير ، وجوان زينيو أي حنا الصغير وزوجته الأستاذة ماريا زينيا . وكل هذه المنازل كانت قريبة من بعضها ومتجاورة ، والتي يمكن ان يطلق عليه اسم حيّ الجالية.

ولم يكن منزل السيد سليم بعيدا عنها كثيرا . وخلافا للآخرين الذين انصرفوا لتجارة الأقمشة والمواد الغذائية ، فقد اكتفى سليم بان يكون صاحب مطعم وبار يبيع فيه المشروبات في الليالي حيث كان يؤمه جميع الأصدقاء والأقارب ، وأقارب الأقارب والكثير من الناس .

كان المطعم مقابل مركز البريد وبالقرب من منزل السيد جوان زينيو (حنا الصغير) والسيدة ماريازينيا (مريم الصغيرة) كما كان

بالقرب من مركز هاتف دوس مارتينيليس ، وجوار النادي الاجتماعي الكبير في ساحة البلدة حيث تقع ايضا في المربع نفسه كنيسة راعي خلاص النفوس ، ومركز البلدية ، ومركز الشرطة ، و محل البليار التقليدي في البلدة في البناية المؤلفة من طابقين يشغل الطابق الأعلى منها صالون الرقص الليلي كما يقع في تلك الساحة مكتب شاعر الدعابة الغنائية جيرالدينو أزيفيدو الذي يقول :

" أليست هذه هي بيغواسو القديمة ؟!

اذ ان تلك الأخرى تظهر لي كذلك

حيث المزيد من الابتسامات مع انبلاج الفجر

والمزيد من النشوة الساحرة في نهاية النهار "

في مربع الساحة ايضا يقع ملعب كرة القدم (آه على ذلك الزمن

الغابر ! آه على تلك الشوطات الدقيقة في الحظة الأخيرة من

المباراة !) آه كم هي رائعة جولات الخمس عشرة دقيقة الأخيرة

لبكر السيد زي غرينغو ! (الغريب جوزيف) وكذلك ايضا مباراة

العدائين على طريق طلعة بيغواسو . وبالقرب من المحل الثاني

للواد سليم تقع مزرعة الايطالي السيد غالاني المسورة بجدار

مرتفع بحيث يجعل سرقة الفاكهة اللذيذة الطعم أكثر صعوبة . لقد

كان صاحب المزرعة رجلا حانقا جشعا للغاية يفضل ان تتعفن

الفاكهة وتسقط على الارض من ان يستفيد منها او يقطفها أحد .
 المنزل الاول الذي اقام فيه فور وصوله الى بلدة بيغواسو كان
 مستأجرا من السيد ابراهيم أو كما كان يطلق على اسمه
 أبراون زينيو أو السيد أبراهون وليس أبدا جوني زينيو ولا الاسم
 الخاص بسليم . أما بالقرب من جسر الحديد ، فكان يوجد مكان رائع
 للغس والسباحة ولكنه خطير في بعض الأوقات والمواسم .
 نهر بيغواسو هو نهر طفيف ، قليل الماء ، هاديء ، تكثر فيه
 الحمامات ، لكنه ينفجر غاضبا فجأة بفيضان كلما أمطرت لفترة
 أطول . وهناك بالقرب من المنابع ينفجر بغضب وبسرعة كبيرة
 جارفا معه كل ما يجد في طريقه مما جعل الأغنية الشعبية
 تقول :

" سقط المطرُ ، سقط المطرُ

فاض النهرُ ، فاض النهرُ

بيغواسو ملآن

فلمن يُعزى منسوب الطوفان ؟

كل الساحة صارت مجرى

مجرى بول ، وساحة ...

أسخف جدول

طافَ وبول "

بالقرب من تلك الساقية السخيفة التي تدفقت من ذلك النهر الذي يثير
 السخرية والخرير. وتلك الكلمات هي لشاعر الهجاء جيرالدينو الذي
 كان معارض وخصم رئيس البلدية فيدوكا . ولا ندري ما اذا كانت
 تلك الكلمات لذلك الشاعر ام لشاعر سابق مجهول . ولكن اكثر الناس
 يؤكدون أنها من شعره ، وقد وصف تلك الساحة بالمبولة .
 وعلى كل حال وبحسب المعلقين العذريين ، فان أرض بيغواسو هي
 أرض طيبة . أرض خيرة فيها الكثير من الأشياء الجيدة .

أما رئيس البلدية فيدوكا فيقال انه كان مصابا بمرض التأتأة ومرضه كان غير قابل للشفاء ، وكان كثير الصياح ضد الواشين ويتحدث دائما عن أهمية العمل ولكن بتأتأة وفأفة كأن يقول : قو قو لو لو لو إ إ إ إذا إذا كا كا كا نا نا نا ضا ضا ضا روروري . ويتحدى الجميع ان يتحدثوا عنه وجها لوجه اذا كانت لديهم بالفعل الشجاعة على مواجهته . وكان يهدد ويتوعد ويؤكد على الرد على خصومه ويقول انه يعرف الشاعر الذي يهجيه ويذمه ، وفي الوقت نفسه يشدد على تدشين المشروع المهم والتضحيات الكبيرة التي تحملها لأنجاز مشروع المبولة الذي حققته البلدية ، وهو مشروع ضروري وشعبي والعامة بحاجة اليه وهو لا يعرف اسباب هذه السخرية مع ان هذه المبولة تفيد الجميع خصوصا بعد ان يكثروا من تناول البيرة حيث لا تتحمل المثانة الضغط الذي يمكن ان يحصل لها . وقال ايضا بانه لا يعرف اسباب كل هذه الثثرات السخيفة من اولئك المتعلمين الذين يعتقدون انهم يملكون وحدهم معرفة الحقيقة . انهم متعلمون ولكنهم يتجشأون ويتقيؤون المعرفة من قفاهم كما الحمير . من النحية الأخرى من الجسر يوجد المنتجع او الحقل الذي يقع على واجهة الطريق الذي يذهب الى سان ميغال حيث يقع مركز القضاء . وحيث اقيم اول مركز استيطاني استعماري في هذه المنطقة ويجب المحافظة حاليا عليه ولا يجوز تغيير معالمه حتى ياتي يوم يتخذ قرار بالتعديل والتحسين لهذا المكان . هنا توجد كنيسة سان ميغال ، ويوجد القصر الكبير المؤلف من طابقين الرائع ، وهذه الساحة تذكر بالأيام الخوالي المجيدة الماضية . ويسأل دائما رئيس البلدية : قولوا لي أين يوجد مثل هذه المآثر حالياً التي هي في هذا المركز ؟ وكانت كلمة مركز تثير عند السكان الاستهزاء ، فهم دائما يفضلون الشاطيء القريب ويتطلعون الى البحر والمياه الدافئة والهدوء والسباحة وصيد الأسماك

المتنوعة والصيد في ظلام الليل وفي الليالي المقمرة بالإضافة الى لقاء العشاق والغزل والحب على الطريق الشمالي الذي يطل على بلدة تيجوكينياس حيث ثبتت سابقاً ثلاثة خطاطيف او شناكل لتساعد على تثبيت القوارب عند مدخل تيجوكينياس حيث الشرفات من الحجارة والممرات والسواقي والمياه البلورية التي تتحرك من الجانب الآخر . وعلى الأكمة عند مدخل سان ميغال من جهة بلدة بيغواسو ينتصب الفارس والمنزل الأسود العتيق الرائع الذي يلفه الغموض ويبعث الرهبة .

في هذه البلدة الاسطورية والحقيقية استقرت الأسرة وتكونت ونمت واصبحت بيغواسو ديار أو أرض ميغاليز اي (بلاد جماعة ميغال) . وفي هذه الارض وعليها تواصل الصراع من اجل البقاء على قيد الحياة وهذا ما نجده مسجلا في مفكرة ذكرياته :

" استأجرت منزلا في هذه البلدة في الشارع الرئيسي ، ونقلت عملي التجاري وعائلتي الى هناك . الاعمال التجارية كانت سيئة جدا ، والمصاريف تفوق المكاسب والارباح . فكرت بالذهاب الى الاحراج الداخلية ومتابعة التجارة الجواله علي إسعاد بعض الشيء في تأمين أود الأسرة . حزمت حقيبي ووضعتها على ظهر الحصان وسرت في بلاد الله الواسعة وذهبت في تلك البرية الحرجية . كنت اخرج من المنزل صباح كل نهار اثنين واعدود الى اليه مساء كل يوم سبت . ابيع كل ما اتمكن من بيعه في رحلتي ، واقضي يوم الأحد بالقرب من أسرتي في البيت وأحضر البضاعة استعداداً للرحلة المقبلة . ومرة جديدة لا يرى البائع المتجول له مخرجا سوى التجوال في أي جزء او منطقة من مناطق الرازيل."

الفصل التاسع عشر الحظ

كانت رحلة الأسرة من لبنان الى البرازيل . الأب والأم وثلاثة أطفال . ثم حطت في مدينة ماجي في ولاية الريو دي جانييروا وبعدها ذهبت الى مدينة فلوريانوبوليس في ولاية سانتا كاتارينا . ما زال الأطفال صغاراً ومجموع اعمارهم معا هو أقل من ثمانية سنوات . الإقامة في فلوريانوبوليس كانت قصيرة جدا . ومن فلوريانوبوليس انتقلت الأسرة الى بلدة صغيرة اسمها سان بيدرو دي ألكانترا : وهنا يولد الإبن الرابع المولود الأول البرازيلي من ابناء الأسرة . وبعد ولادة هذا الطفل بقليل انتقلت العائلة بالتو الى بلدة راشاديل ثم اكملت الانتقال الى بلدة بيغواسو الفوقا . لا يهم ما حصل . ولكن ما هو سبب الشك الذي هيمن على كل تفكير ؟ ومهما يكن الأمر ، فان ما يحصل لهذه الأسرة هي واحد من الظروف التي لا يمكن ان يكون لها تفسير . على أي حال فان ظرفا آخر ومغامرة أخرى تضاف هنا في بلدة بيغواسو . الأسرة تصبح خمسة اشخاص علما ان اثنان منهم ولدوا في هذه البلدة ، فاصبح عدد أفراد الأسرة سبعة اشخاص شكلوا سلماً مكتمل الدرجات ينتهي بالأخير . في الانتقال الى بلدة فلوريانوبوليس أصبح أصغر الأطفال ابن ثلاث سنوات والأكبر سنا ابن تسعة عشر عاماً .

ان حظ الوالدة تمينة كلما انتقلت من مكان الى آخر ، كانت تنتقل وهي حامل ، ومعها طفل صغير . انها مجاهدة بامتياز . نشيطة وذوي عزيمة قوية . ان كلمة تمينه لا تترك ان تكون لفضة تشجيع واثارة في مواجهة الصعوبات مهما كانت عاتية . (على الرغم من كل العثرات التي تعرضت لها) . لقد ظلت مفعمة بالأمل وهي تسرد القصص التي تعرضت لها مكررة سردها على طريقتها الخاصة

بكل شجاعة ودون يأس كما لو كانت تقرأ رسالة وصلتها للتو من بعض أنسبائها .

يطرق ساعي البريد على الباب ، فيركض أحد الأولاد ويفتح الباب ، ثم يصيح انه ساعي البريد . الرسالة من لبنان . جوزيف ليس موجودا الآن . انه في عمله كالعادة يتجول من مكان لآخر عله يبيع بعض الأشياء التي يحملها معه . تأخذ الرسالة تمينه من ساعي البريد . تفرك يديها ثم تفتح الرسالة وتبدأ بالقراءة والضحك معا . وبعد ان تنتهي من القراءة يتفجر ضحكا بالقهقهة وتروح تقهقه وتقهقه حتى تختلط القهقهة بالدموع . بينما أولادها حولها ينظرون ويراقبون دون ان يعرفوا سببا لقهقهتها ودموعها . ويتساءلون فيما بينهم: ما الدوافع لهذا الضحك وتلك الدموع ؟

لا تمل تمينه ولا تتعب من تكرار القصة . تقرأ الرسالة مرة أخرى . تلخصها . تضيف أحيانا على الرسالة شيئا لذيذا من عندها كما تضاف البهارات على الأطعمة ليصبح أشهى وألذ .

الرسائل التي كانت تستلمها هي من بعض الأنسباء أو الأصدقاء : اما من أميون او من كفرسارون او من طرابلس او من بيروت . هذا ليس المهم . المهم ان الجميع كانوا يطلبون المساعدة والعون باطناب معقد من الكلمات قبل ان يصلوا الى النقطة الرئيسية .

كانوا يناشدون ويترجون في رسائلهم ان يعرفوا أخبارنا وماذا نعمل ، واحدى نسيباتي تقول في رسالتها : اريد ان اعرف كيف حال ابنة عمي تمينه ؟ الله يحفظها ويوفقها وجميع أطفالها . هل بإمكانكم ان تؤدوا لنا خدمة كبيرة ؟ نريد أخبار ابناء عمنا او أشقائنا الذين هاجروا الى البرازيل وانقطعت أخبارهم ؟ انهم يعرفون انهم يعيشون في البرازيل ولكن لا يعلمون اين يقيمون ولا عناوينهم . تقول ابنة العم في رسالتها انهم يعيشون في ماتو غروسو وتطلب منا ان نتصل بهم ونبقى على اتصال دائم وتعتمد اننا دائما نتصل بهم ويتصلوا بنا حاسبة ان منطقة ماتو غروسو هي بالقرب من منطقة

اقامتنا . وتقول ايضا لقد نسيوا ان لهم انساب هنا في لبنان وتأمل ان يكونوا موفقين في اعمالهم ، وتطلب ايضا ان يزورهم يوسف ويبقى على اتصال بهم ، وماذا يحصل لو تفرغ بعض الوقت وذهب الى ماتو غروسو ؟ وهي تعتقد ان بين بلدة بيغواسو وماتو غروسو ليست اكثر من قفزة صغيرة . وهي تشكو باسم العائلة جميعا وتطلب من يوسف ان يشد شقيقها باذنه ويوبخه على تقصيره ويجبره على الكتابة وارسال اخباره للأهل في لبنان . فهم يريدون ولو كرت صغير او صورة له وعلى الأقل يريدون جوابا على الرسائل العديدة التي ارسلوها له . انهم لا يريدون منه شيئا . انهم قلقون عليه . يتوسلون معرفة اخباره أو أي شيء عنه . ماذا حصل له في البرازيل ؟ وكل ما يعرفونه عن البرازيل أنها ارض برية واحراج وغابات وزنوج وهنود وأكلة لحوم البشر والحيوانات المؤذية والحشرات الضارة والثعابين والأفاعي المفترسة التي تبتلع الرجل بكامله ، والى جانب كل ذلك هناك الأمراض الفتاكة . فماذا حصل له ؟ اخبريني يا تمينه . انها تريد ان تعرف . ثم تضيف في الرسالة قائلة : الله أكبر . نعم الله أكبر . الله يحميه من كل شر حتى ولو كان لا يجيب على رسائلنا ، ولا يتذكرنا ، ولا يتحمل مسؤولية . انه عاق وناكر للجميل . ولا يرسل لنا أية مساعدة مالية . لقد كان الاتفاق معه أن يرسل الى انسابه هنا ليسافروا الى البرازيل . وحتى الآن هم في الانتظار ويحلمون بالسفر . ماذا جرى له ؟ لم يعد يفكر باحد هنا . ولا يشعر بمعاناة وحزن أهله وأقربائه . ربما نسي أقاربنا في البرازيل أن لهم أهل وأحباب يتألمون من أجلهم . تعود ابنة عمها وتقول في الرسالة : كرمي لأطفالك يا ابنة عمي يا تمينه أرجوك قول لي لزوجك العزيز يوسف ان يصنع لنا معروف خاص او خدمة ويقوم بزيارة سريعة الى ماتو غروسو ويرسل لنا الأخبار بأقرب وقت ممكن . الجميع عندنا بخير ويصلون دائما ويدعون لكم مع اولادكم بالتوفيق . الجميع مشتاقون ويرسلون لكم اطيب التحيات .

أي جنون هذا حصل معكم وتركتم أرضكم وسافرتم ؟ على كل حال نحن متفهمون الاوضاع . لقد التقيت منذ أيام بشقيقك توفيق . حاله بين بين . الحالة ضيقة هنا . هو ليس مريضاً ولكنه محبط ومثبط العزيمة وهو الذي أعطانا عنوانكم . وقد أخبرنا انكم بخير وصحة الجميع جيدة . لكنه استغرب والجميع عندنا استغربوا كثرة تنقلاتكم من مدينة الى أخرى ويبدو انكم اصبتم بلسعة حشرة الاثم الفينيقي ولا تستقرون في مكان ثابت . أو شتات اليهود . فما هذا الذي يحصل؟ وبأي شيء يمكن تفسيره؟ والحقيقة ان الذي لا يستقر لا يستطيع ان يتقدم وينجح في عمله . لقد خبرنا ان شقيقك حنا يعمل وحده ولم يعد يشارككم في العمل . فالى أين ذهب ؟ وأين يعمل الآن ؟ ولماذا انفصل عنكم ؟ ثم تعود وتكرر ما طلبته في الرسالة وتقول : ارجوك يا تمينة اعلمي قفزة واذهبي الى ماتو غروسو . اذهبي بزيارة خاطفة من فضلك . تبسم تمينه من جديد وتنفجر مرة أخرى بالقهقهة لأن ابنة عمها تستعمل عبارة " قفزة أو نطة الى ماتو غروسو " وتستعمل ايضا عبارة " زيارة خاطفة " ولا يخطر في بالها ابدا وليس عندها أية فكرة دقيقة عن اتساع البلاد في البرازيل . كان عام 1932 عندما وصلت أسرة يوسف الى بلدة بيغواسو واستأجرت منزلا تعود ملكيته الى احد ابناء الجالية واستقرت فيه كان المنزل مؤلفا من واجهة عبارة عن دكان صغيرة للتجارة ومن خلفها بيت يمكن ان تسكن العائلة فيه . كان موقع المنزل على مقربة من مجرى النهر والى جانبه قصر كبير خاص بأسرة ريتيز، وكان خلفه معمل مشروب روي تنبعث رائحته ليل نهار. أما امام المنزل فكان يوجد معمل للحدادة وفندق فريديريكو .

في جميع الأماكن التي انتقل اليها يوسف كان يفتح محلا صغيرة لتجارة الأطعمة والمشروبات والى جانب ذلك كان يعمل كتاجر متجول وتبقى تمينه تعمل في الدكان . كانت تمينة تعتني بالمنزل وترعى الاطفال وتساعد زوجها في التجارة ، كما انها تشجعه وتشدد

من عزيمته وقد اشترى عربة وحصانا اطلق عليه اسم سلطان، واخذ يبيع بضاعته متجولا بين الاحراج من مكان الى آخر .

بعد وقت قصير من وصول الأسرة الى بلدة بيغواسو ، أي ما يقارب السنة ، وفي منتصف العام 1933 تلد تمينه مولودا جديدا تطلق عليه العائلة اسم فوزي . وهذه هي المرة الأولى التي لدى الاولاد فيها وعي واضح للحقيقة . الولادة كانت طبيعية ، واصبحت الأسرة الآن مؤلفة من ستة أنفس : أربعة اولاد ذكور وفتاتان. وسوف يستغرق الأمر سبع سنوات أخرى حتى عام 1940 حيث تكون ولادة الابن الأصغر سمير . الأم تمينه تشارف ألان على سن الأربعين . لقد كان حملها الاخير بالطفل سمير صعباً للغاية واستغرقت الولادة وقتا طويلاً ، وقد لاحظ ذلك الأولاد من خلال خروج ودخول الاشخاص ومعهم الاطباق والماء الساخن وخرق القماش الى غرفة الولادة ، وكثرة الكلام والهمس والوشوشات وقلق الوالد واضطرابه وطريقته في التصرف لأنه كان كمن يولد له طفل لأول مرة ولا يعرف ما ينبغي عليه ان يفعل . فهو يصرخ بالاولاد ان ينصرفوا من أمامه ويذهبوا الى اللعب الى الشارع ويتركون والدتهم بسلام ولا يعرقلون شيء . بينما الأولاد كانوا لا يفهمون بالضبط ما كان يحدث حولهم ، وكلهم اصغاء وانتباه الى الآهات والصرخات المنبعثة من غرفة الولادة ، والنساء المربكات، وتأخر الولادة غير المفهوم حتى للوالد ، والخوف من حدوث شيء لا يجدون له تفسيراً ، وترقب حدث مغم محزن للجميع .

وفي لحظة فاصلة وبعد ان اعترى الجميع الارباك والغم ولم يعد أحد من الموجودين في المنزل يعرف ما يجب عليه ان يفعل بسبب تأخر الولادة سمع الجيع صراخ طفل تبعه بكاء ونواح ، وظهر بعد ذلك فجأة امرأة يتصبب العرق على جبينها وفي وجهها ابتسامة لتعلن للجميع الذين كانوا ينتظرون قائلة : كل شيء على ما يرام. والبشارة :مولود ذكر جديد . والتفتت الى الاطفال وقالت لهم : أصبح لديكم

شقيق صغير آخر ضمن عائلة ميغال . السيدة تمينه وطفلها كلاهما بخير ، وبامكانك ان تدخل وتراهما يا يوسف . اطلق على المولود اسم سمير .

مرت السنوات بطيئة وبشكل روتيني . وبدأت الأسرة تتكيف مع البيئة التي انتقلت اليها . ولكن ما هو الروتيني ؟ وما هو غير الروتيني ؟ العالم في حالة اضطراب . البلاد كلها تضطرب وفي حالة غليان . الآمال تنهار . كل شيء عبث . احتمالات العيش فاترة ولا تلوح في الأفق اية توقعات . احلام تحسن الأوضاع مع جيتوليو فارغاس تختفي . وتسلسل الأحداث القاسية التي لا ترحم تظهر تأثيراتها على حياة الأمة : انتفاضة ولاية سان باولو عام 1932 . ما سميّ بالمؤامرة الشيوعية عام 1935 . حركة الوطنيين لعام 1937 . اعلان دستور جديد للدولة . تقارب الرئيس جيتوليو فارغاس وألمانيا الذي تعود اسبابه لعدة سنوات خلت . وبينما كان الوالد يوسف يراقب التطورات التي تحدث في البلاد ويناقشها مع الزبائن نظرا لقربها وتأثرها بالحرب كانت حركة الجنرال فرانكو أولى الاشارات .

هل كل هذه الومضات والاشارات تجعل الناس في بلدة بيغواسو يشعرون ويحسون بشكل واضح بتفاعلاتها ؟ ان دكان يوسف المركز الجامع للناس جعلت الناس يتوافدون ليعرفوا ما يمر من الاحداث في جميع انحاء البلاد وفي العالم ، وقد كان كل شيء يجيء بشكل متقطع من خلال موجات راديو فيليبس الذي يملكه يوسف ، والذي كان يلتقط الاخبار من محطات الاذاعة وخاصة الاذاعة القومية الوطنية من الريو دي جانييرو او من الصحف وخاصة صحيفة الولاية (دو استادو) او صحيفة فلوريانوبوليس (غازيتا دي فلوريانوبوبيس) .

تدرجا يصبح الوالد ودكانه الصغير والخجول مركز الكون . الأحاديث المتواصلة تمتد حتى أواخر الليل . الجميع يريدون معرفة

رأيه بالأحداث . الجميع يتحدثون فيما بينهم ويقولون : ان زي او جوزيف هذا الغريب هو على اطلاع واسع ويعرف اشياء كثيرة وفي الخفاء يقولون هذا التوركو الذي بالرغم من لغته المعقدة المكتوبة من اليمين الى اليسار تمكن من السيطرة على اللغة البرتغالية بسرعة. انه ليس فقط يتكلم البرتغالية بطلاقة بل يجيد القراءة والكتابة بشكل جيد . وكذلك فان السيدة تمينه ، وان لم تكن تكثر من النقاش مع الزبائن ، الا انها تجيد البرتغالية بشكل لا يقل عن جودة زوجها للبرتغالية . فهي تعرف بقدر ما يعرف زوجها . الأطفال يفتخرون بوالديهم امام زملائهم في المدرسة ، وقد سمعوا أحد الزملاء امس في معرض تعليقه يقول بحيرة : كيف استطاع السيد زي أي يوسف والسيدة تمينه ان يتعلما القراءة والكتابة باللغة البرتغالية وشقيقتي المولودة هنا في البرازيل بقيت امية وتركت المدرسة من غير ان تتعلم كيف تكتب وتقرأ . وعلق زميل آخر بقوله : هناك الكثيرون منا وبيننا لا يعرفون شيئا ويأتي شخص تركوا الى هنا ويعطينا دروس ! ان ذلك هو العار بذاته .

هل هذه المعرفة تكفي في الحياة العملية ؟ ماذا تفيد هذه المعرفة للغة البرتغالية والعربية وبعض المعلومات الأساسية من اللغات الإنكليزية والفرنسية والروسية اذا كانت أمور الحياة اليومية دائما تأتي معاكسة وتؤدي الى الفشل ؟

الفصل العشرون الجد

كان اطفال أسرة يوسف يغارون ويحسدون الأطفال الآخرين عندما يتحدث هؤلاء عن أجدادهم والعطف والمحبة التي يحاطون بها ، والألعاب التي يربحونها منهم والزيارات التي يقومون بها . فأحدهم يقول : لقد ذهبت الى بيت جدي (مشدداً على كلمة جده) وبقيت هناك عدة أيام كانت من أجمل الأيام . وأخرى تقول : ان جدتي أرسلت لي هدايا رائعة لا أجمل منها ، وارسلت مبلغا من المال لشراء دراجة ، وقد اشتريت الدراجة بالفعل ، وأحب ان يرى الجميع دراجتي . وثالث يقول : اما بالنسبة لي فقد أرسل لي جدي عدة ألعاب جميلة وجديدة وأرسل معها الحلوى اللذيذة وأنتم لماذا لا تتكلمون عن أجدادكم ؟ أين يقيمون ؟ لماذا لم نرهم ولم نتعرف اليهم ؟ لماذا لم نر حتى صورهم ؟ هل ما يزالون على قيد الحياة أم أنهم في عداد الأموات ؟

بعد هذه الأسئلة التي توجه الى أطفال يوسف يذهبون الى البيت ويطلبون من الوالدة تمينه أن تجيب على كل تلك الاسئلة وتشرح لهم كل شيء ، ثم يتوجهون الى والدهم للحصول على أجوبة مرضية . انهم بحاجة ان يعرفوا الحقيقة . لماذا لا يشرحون لهم ؟ ما هي الأسباب التي هي وراء عدم معرفتهم حقيقة اين يقيم أجدادهم ؟ ان كل ما سمعوه من والديهم ووالدهم ليس بكافي وغير مرضي لأن جميع الأطفال يجب أن يكون لهم أجداد ، أليس كذلك ؟ بعض الأطفال لهم أربع أجداد : جدان وجدتان ، أما أطفال يوسف وتمينه فليس لهم حتى ولو جد واحد . لم تفلح جميع محاولات الأم تمينه في اقناع اولادها واثبات ان لهم اجداد ، ولكن أجدادهم الآن يقيمون بعيدا . وقد اعطت أمثلة على أن لهم

أقارب ، وابناء عم وأبناء عمومة. وقد استأجر والدهم هذا المنزل الذي يسكنون فيه من ابناء عمه .
لديهم أجداد ولكن أجدادهم لا يسكنون في هذه المنطقة ، بل يقيمون بعيدا عنهم ايضا . والأم بالكاد تعرف أبويها ، فقد توفيت أمها في وقت مبكر وهي في عمر أقل من اثنتي عشر سنة ، فقامت بدور الأم لأشقائنها الذين هم أصغر منها ، ووالدها مفقود وضائع في هذا العالم ولا تعرف عنه الا القليل من الاخبار . ثم تحاول الوالدة ان تخفف عن أبنائها ليشعروا بالامان فتقول : لا يجوز ان تشكو من شيء ، ألسنا دائما معاّ ونعيش معاّ ؟

اذا كانت الأم تعطي بعض التفسيرات والايضاحات ، فان الأب كان شحيجا بتوضيحاته ونادرا ما كان يتكلم عن عائلته ، ومهما ألح عليه أولاده ليتكلم شيئا عن أسرته كان يكتفي بالكلام عن شقيقته التي تعيش في مدينة ماجي وشقيقه الذي يعيش في شمال البرازيل والذي لم يعرف مكان اقامته ابدأ ، وهو يستمر في البحث عنه . الأولاد أصبحوا كبارا راشدين أو يكادون ، ولا تنفع استعادة ذكريات الماضي الذي لا يذكرون منه شيئا لا صراحة ولا تضمينا عن أهل والديهم الذين ظلوا يعيشون في كفرساروم . لقد صاروا بالنسبة للأولاد كما لو انهم لم يكونوا موجودين . فقط والدة الوالد لأمه كانت صورتها غير واضحة الدلائل . صورتها باهتة ، ضبابية. لكن عندما يلح الأولاد على أبيهم ليشرح لهم شيئا عنها ، أو عندما يجتاحه الحنين ، كان فقط يتمم ويغمغم قائلا : مسكينة جدتك . مسكينة . كانت شحيحة الكلام ولكن كلماتها قاسية، كانت امرأة سريعة الغضب ، متألّمة ، كادحة . ثم يتوقف عن الكلام ويسرح بعيدا وتحمله الذكريات الى الماضي البعيد وتتخبط في رأسه بدون وضوح وبدون تحقق ، ثم يستدرك ويقول : لقد كانت والدتي محبة ودودة ، مهتمة وقلقة على أطفالها ، ثم يقول بصوت خافت : أتذكر الآن تلك الليلة

التي جلست فيها الى جانب سريري تغني بصوتها الهاديء الرخيم من أجل أن أنام . لا أتذكر القمص التي ترويهها ، ولكن أتذكر تلك الأغاني والترتيلات الناعمة التي كانت ترتلها .

أطفال زي التركو أو زي الغريب أو السيد جوزيف أو السيد ميغال والسيدة تمينه كانوا يجلسون بغياب الجد أو الجدة غير المبرر مجموعين على بعضهم. وأحيانا يخترعون لهم جداً أو جدة ويمنحونها شخصية وطابعا خاصا ويكيفونها مع الظروف والمتغيرات ويستعيرون الصفات التي كانوا يقرأونها في كتبهم المدرسية . أحيانا تكون شخصية الجد شبيهة بأجداد الأطفال الآخرين ، وأحيانا تشبه الكائنات الأسطورية ناتجة عن كيمياء معقدة مستمدة من الخرافات والرويات التي يخلقها الخيال . أحيانا أخرى يقولون أن أجدادنا سيأتون الى زيارتنا ، وسيجلبون لنا معهم الهدايا الثمينة ويأتون بسياراتهم الفخمة التي كانت نادرة في ذلك الحين في بلدة بيغواسو وحتى في (فلوريانوبوليس نفسها) . ويقولون لبعضهم أكثر من ذلك . يقولون ان اجدادهم سيخرجونهم من الفقر الذي هم فيه ومن المصاعب فتتخلص أمهم تمينة من قتل نفسها بالتعب والكد ، ويخرج والدهم من الضيق ومن تجارة الدكان او تجارة التجول في الشوارع والأحياء .

في مناسبات أخرى كان أطفال يوسف وتمينه يخترعون ويفبركون رسائل ويتوهمون انها آتية من الأرجنتين والولايات المتحدة واستراليا والمكسيك وحتى من لبنان . كانت الرسائل تحضّر بشكل دقيق وتزود برسوم وصور للأجداد مع احاديث أخذت من قصاصات المجلات والجرائد والألبومات والكتب المصورة ويرتبونها بشكل يتلاءم مع ما يريدون ويلصقونها على ورقة الرسالة التي كانوا يخترعونها ، والتي يملأونها بالتدويقات التي لم تكن لتجسد كل ما يريدونه هم بالذات . بعض الصور كانت مستوحاة من الحكايات التي كان الوالد والوالد يرويانها ، وفي وقت لاحق كانوا

يستعينون بروايات الجدة المأخوذة عن روايات القصاص مونتيرو لوباتو.

الأولاد يتداولون ويتحدثون فيما بينهم . يقولون أن تي آداون لا يمكن ان يكون الجد . تي آداون كان زنجيا أسود . كان عبدا محبراي ملونا بالحبر قبل ان يعتق بعد ان تقدم في السن . في أرض الآباء لا يوجد زوج . كيف يمكن اذن ان يكون لنا جد او جدة ؟ كيف يمكن حل هذه المشكلة المعقدة ونتمكن من ايجاد جد موافق ؟ ان الأطفال بحاجة الى جد لي شعروا انهم على قدم المساواة مع الآخرين ليصبحوا قادرين على الاندماج في هذا العالم الذي يعيشون فيه والذي هو بيئتهم . من يدري اذا كان هناك نوع أبيض من سلالة تي آداون الزنجي صاحب الشعره الأبيض ، والإبتسامة نفسها ، والفرح في الحياة نفسه ، وبالخيال نفسه ، وبنفس الكلمة الطيبة ؟ والأعمام والأخوال ؟ أين هم الأعمام ؟ نعم هناك حل . الجواب يأتي جاهزاً من الجميع وهم يهتفون بصوت واحد : انه ذلك الذي رافق العائلة عندما غادرت الأسرة لبنان . انه الخال شقيق الوالدة الذي عاش معنا بعض الوقت ثم تركنا وذهب الى مدينة بورتو أليغري الذي هو اكثر حقيقة من صورته الوحيدة التي تركها لنا والتي يظهر فيها مزهواً . جسمه وسط ، وجهه مستدير ، باسم ، كان يرتدي بذلة سوداء اللون ، على رأسه قبعة سوداء غامقة تغطي شعره وبعض جبهته . قيل انه تركهم بطريقة غير مبررة ، وانه يعيش حياة التشرذم في بيغواسو ولا ينسجم مع الآخرين . كانوا يخرجون معه للتنزه في شوارع المدينة ، ويأخذهم الى السيرك . يتساءلون : الا تذكرونه ؟ بدأوا يتحدثون عن عمتهم التي تسكن في مدينة ماجي في الريو دي جانييرو حيث بقيت أسرتهم هناك عدة أشهر قبل ان ينتقلوا الى ولاية سانتا كاتارينا . تذكروا ايضا العم الآخر شقيق والدهم الذي ذهب الى شمال البرازيل وانقطعت أخباره

هناك . وأخوالهم أشقاء والدتهم الذي يقيمون ويعملون في الولايات المتحدة والذين لا يعرفون شيئاً عنهم ولا عددهم .

الأم تتوفى ، واخبار الجد الذي في الارجنتين والغامض بالنسبة لهم ولا يعرفون شيئاً عنه انقطعت اخباره . هل انقطعت اخباره لانه لم يعد اي موجب لارسال الاخبار ؟ أم ان الوالدة هي التي اخترعت ذلك الجد وتلك الرسائل ؟ ماذا بقي إذن بعد ذلك ؟ كانوا متعلقين جدا بعمتهم التي في ماجي ويعرفون ان اسمها سعدى . كيف كان الاهل يكذبون عليهم ويقولون ان كل يوم تصل رسائل من العممة سعدى ، وانها تسكن في ماجي ، وماجي قريبة من بيغواسو وفلوريانوبوليس ؟ وكيف كانوا يسمعون ان العممة سعدى ستأتي لزيارتهم في بيغواسو بأقرب فرصة ؟ وستأتي حاملة معها الكثير من الألعاب والحلوى ، وسيكون اللقاء معها عابقا بالقبلات والعناق وسيتبادلون القبلات الحارة ؟ كذلك كان هناك العم الساكن في الشمال شقيق الوالد ، وكان هناك ايضا أخوالهم اشقاء الوالدة المقيمون في الولايات المتحدة ؟ لكن الوقت كان يمر بسرعة ، والأولاد أصبحوا كبارا تقريبا في سن الرشد ، وأصبحوا ينظرون الى الأمور والى كل المسائل بشكل مختلف .

على كل حال ، وعلى الرغم من كل ما حدث ، ولو ان كل الوعود التي كانوا يمنون انفسهم بتحققها بالنسبة الى اعمامهم وأخوالهم ، فإن الأعمام والأخوال لا يمكن أن يحلوا محل الأجداد أبداً .

الفصل الواحد والعشرون الرعب

في الصباح الباكر ، وقبل الساعة الثامنة أو الساعة السابعة ، وفي ذلك الطقس البارد ، انهى الوالد يوسف شرب قهوته الصباحية ، وهياً نفسه للخروج من المنزل وفتح دكانه التجاري لأنه نادراً في هذا الطقس البارد ما يغامر فيه البائعون المتجولون ويذهبون الى داخل الاحراج أو ما اعتادوا على تسميته بالداخلية . الأم تمينه تحضر طعام الفطور لأولادها ، وبعد ان يتناولوا فطور الصباح تودعم وترسلهم الى المدرسة . ثم يبدأ عملها البيتي كما هي الحال دائماً ، فتقوم بترتيب الأسرة ، وتنظيف الغرف . وبعد الانتهاء من تنظيف البيت وترتيبه ، تنصرف الام الى تحضير طعام الغداء . اليوم موعد مجيء الخادمة التي تساعد في كناسة المنزل ، وغسل الاطباق المكسدة من يوم أمس كما تساعد في غسل الألبسة أيضاً ، وتنظيف المنزل .

الطقس بارد ، ورذاذ المطر الخفيف يتساقط امام حانوت يوسف . يوسف يرتدي معطفاً سميكاً خشناً ويقف على الرصيف امام دكانه يفرك بيديه من البرد القارس ، ويدخن سيجارته الملفوفة بورق الذرة ، ويراقب مرور الناس المنكمشين على انفسهم من شدة البرد والملففين بالثياب . يتبادل الكلمات مع معارفه ، ويجيب بالتحيات المألوفة مع الذين يلقون عليه السلام .

يدخل يوسف الى دكانه ويجلس على كرسي من القش مضفرة ، ويأخذ نسخة عتيقة من صحيفة استادو ويبدأ بتقليب صفحاتها ، ثم يضعها جانبا ، ثم يعود ويمسكها من جديد ويقرأ خبراً يستوقفه . يتوقف عن قراءة الخبر ويقلب على صفحة أخرى ويهز رأسه ، ثم

يترك الصحيفة ويرميها جانبا . يبدأ بالتفكير ويعاوده تفكير قديم لا يفارقه منذ زمن بعيد ، ولا يستطيع التخلص منه، ألا وهو الخوف . يتناول كتابا باللغة العربية للشاعر عمر الخيام كان على الرف بالقرب من الكرسي التي كان يجلس عليها ويقرأ مقطعا من أبيات الشاعر ويحاول ترجمتها الى اللغة البرتغالية :

" يقولون : لا تشرب الخمر

وهم على يقين أن من يشرب يجب ان يموت
ايها الناس لاتناقضوا أنفسكم ولا تكونوا متهورين
فمن شرب الخمر أو من لم يشرب ،
لا يستطيع تجنب الموت "

يضحك ثم يقفز الى الأمام . لا يقدر على التركيز . انه مشتت . أفكار كثيرة تأخذه الى البعيد وترميه في متاهات عوالم وبلدان ، فيسرح مع افكاره ويضيع ولا يدري في أي سماء يضيع . وبينما هو في هذه الحالة من الشرود تدخل الى حانوته فتاة وفي يدها دفتر صغير ، وتحاول ان تتكلم معه ، لكنه ظل شاردا ولم يلتفت اليها على الرغم من أنها كلمته أكثر من عدة مرات ، وربما وصل الكلام الى المرة العاشرة . أخيرا انتبه لها وحاول ان يستفهم عن طلباتها . قالت له بخجل : لقد أرسلني والدي يا سيد جوزيف وقال لي اذا تكلمت ان تعطيني كغ من السكر الأبيض أو سكر كريستال دينا ، ولوح من الصابون وتسجله على دفتر الديون ، وسيأتي والدي فيما بعد ويتحدث معك وأوصاني بأن لا تقلق بالنسبة لدفع المبلغ .

وزن يوسف كغ السكر ، ولف قطعة الصابون بقصاصة ورق من جريدة ، وسجل ذلك في الدفتر الصغير الذي تحمله الفتاة ، وكذلك في دفتر الديون عنده في المحل الذي يحمل في اعلى كل صفحة اسم الزبون المدين . وبعد ان انتهى يوسف من التسجيل ، شكرته الفتاة الصغيرة الرقيقة بخجل ، وخرجت من الدكان على عجل . من

يدري ؟ ربما كان عمل يوسف هذا سوف يلاقي عند والدها التقدير والاعتبار !

يعود يوسف مرة جديدة الى أفكاره وهو اجسه التي كانت تتقاذفه من غير ان يتمكن من أي تركيز غافلا عما يدور في الداخل من حركة . كان يستوقفه من وقت لآخر صوت الأم تمينة التي كانت تعمل في تنظيف المنزل وترتيبه مع الخادمة الجديدة . يتوجه يوسف الى راديو الفيليبس وهو موديل جديد اشتراه من مدينة فلوريانوبوليس من متجر جوان أكتافيو الذي اتفق معه على ان يدفع ثمنه كما يستطيع بعد الدفعة الأولى . شغل الرادو ، وبدا ينتقل من محطة الى أخرى . الأخبار قليلة ولا شيء جديد . وبينما هو ينتقل من محطة الى أخرى بحثا عن المعلومات ، التقط أغنية حزينة للمطرب أورلاندو سيلفا ثم انتقل الى الإذاعة الوطنية الأقوى في هذا الوقت ، أتت تمينة حتى الباب الذي يفصل الدكان عن غرفة البيت وقالت انها قلقة لأن الطفل فوزي استيقظ وعليه شيء من الحمى ، والحمى تختفي ثم تعود وهي قلقة لذلك . يجيب الوالد بحدة وصوته يتهدج : علينا ان نبقي منتبهين ويقظين . هل انتبهت له ؟ يجب ان تنتبهي . فتلوي تمينه برأسها وتقول : اذا استمر على هذه الحالة يجب ان نستدعي تاورينيو . ثم تضيف : اعتقد ان ذلك حصل معه لأنه رافق أخوته وعصابة الاولاد اصحابهم واصدقاءهم الى الاستحمام في النهر ، وقد حذرت كثيرا اولئك الاطفال لكي لا يقتربوا من المياه المتجمدة في هذا الطقس البارد . ولكن كل تلك التحذيرات كانت دون جدوى ولم ينفع معهم اي تحذير . وقد جاء غالياني الى هنا واشتكى عليهم وقال انهم كانوا يتمشون ويأكلون الفاكهة الخضراء غير الناضجة . تهز تمينه رأسها وتقول : لقد أعطيته الدواء المعتاد الخاص بالحمى ، وسوف أراقبه أكثر لأرى ما سوف يحصل معه بعد قليل . فاذا لم تتحسن حالته ، فينبغي ان ندعو الصيدلي ، ثم تعود الى داخل الغرفة لتتابع تدبير وتنظيف المنزل .

الآن موعد نشرة الأخبار الأولى . تبدأ الأخبار بالمعلومات عن الطقس . يليها أخبار صغيرة عن الريو دي جانييرو ، وبعد ذلك تأتي أخبار عن مناطق أخرى صغيرة في البلاد . الوالد يهتم بكل شيء ويريد ان يعرف الأخبار الدولية ، وبطبيعة الحال يريد معرفة انعكاساتها على البلاد والاقتصاد والسياسة وحياة الناس . يسمع بخبر اجتياح ألمانيا لتشيكوسلوفاكيا ، وتقدم جحافل قوات هتلر التي لا تقاوم ولا تقهر . فهي تحتل بدون أدنى مقاومة واعدة بالمزيد من الانتصارات ، وتبدأ في صفوفها الاحتفالات . العامة تقول : هذه أول النزهة ولا أحد يستطيع ان يقف في وجه هتلر . انه عبقرى سيطر ويحكم العالم .

كثيرا ما كانت تدور مناقشات حادة وتمتد لساعات وساعات بين الوطنيين المحافظين جماعة ريتز ومولير . توقفوا عن ارتياد المكان أي محل يوسف ولكن لم يتوقفوا عن ارسال اشخاص آخرين بهدف الاستطلاع ومعرفة ما يدور . آخرون أقل تعصبا استمروا بالمجيء وهم يأتون ليغيظوا ذلك الغريب كما ان بعضهم كان يتهمه بالتعاطف مع الشيوعية . يا للفضاعة والهول ! كما يقولون بابتسامة ساخرة : كيف حال السيد ميغال ؟ ما هي الأخبار الجديدة ؟ ماذا تقول يا زي التوركو الآن ؟ وهل عندك الشجاعة ان تقول عن ألمانيا ... ؟ الجملة تبقى معلقة بدون اكمال مزيجا من السخرية والتهديد ، يرافقها الضحك مرة أخرى ولكن أكثر انفتاحا وصراحة . حتى الأصدقاء بالكاد يمرون ويدخلون متجره معتذرين ومبررين عدم مجيئهم بسبب الأشغال والصعوبات .

دائما كان متنبها لتقارير وكالات الاخبار التي كانت تتحدث عن التقدم المطرد للقوات الألمانية التي سرعان ما انضمت اليها قوات موسوليني . يتذكر يوسف انتصار جيتوليو فارغاس والأمال التي عقدت والحماس الكبير في منزل السيدة جوانينا في بيغواسو الفوقا وما يسمى بالمؤامرة الشيوعية عام 1935 وملاحقة بريستيس

واعتقاله ، والوثائق التي ضبطت ، والانكماش والقمع في الولايات المتحدة . وفجأة انقلاب المحافظين الوطنيين ومحاصرة قصر غواناباره في الريو دي جانييرو وهروب بلينيو سالغادو أو مساعدته على الهروب بثياب امرأة الى البرتغال التي كان يحكمها سالازار . وسن تشريع جديد للبلاد مع ميل واتجاه اساسي الى جانب المحور بمساعدة العسكر بقيادة دوترا وغويس مونتيرو الملقب بالصامت ، وهما اللذان كان لهما شجاعة التحدث الى الرأي العام بواسطة مدافع الهون ، واللذان كانا صراحة وبشكل واضح يعملان لصالح ألمانيا وإيطاليا ، وهذا ما كان يعطي قوة للمحور او بشكل أخص للوطنيين الأصوليين .

يقفل يوسف الراديو وينهض ليرتب بعض الأشياء على رفوف المحل التي كانت تبدو شبه فارغة تقريبا ، وذلك للترفيه عن نفسه وتنظيف الغبار الذي كان على مكتبه ، ثم يفتح دفتر الديون الكبير ، ويبدأ بجمع ديون الزبائن ، وأكثر هذه الديون كان قد مضى عليها أيام واسابيع وحتى شهور . تقف الوالدة تمينه التي كانت أكثر عملية الى جانبه قلقة وتقول له مكررة : يجب عليك يا يوسف ان تطالب بهذه الديون وتستوفيها. يقول لها يوسف : أستوفيها بأية طريقة يا تمينه وكيف ؟ ثم تتراجع هي من تلقاء نفسها وتقول : مساكين هؤلاء المدينين . اني أحس بكل ما يعانونه يا يوسف . انا أعلم ان الحالة صعبة ، فكيف يدفعون ديونهم اذا لم يكن معهم شيء ، و من أين يأتون بالمال ليدفعوا ديونهم . حتى الأرض أصبحت بخيلة . وان الصعوبات لا توحى الا بالرعب والاهوال . فالجوع يسيطر ، والبؤس على وجوه الناس ، ولا أحد يعرفمتى تنتهي هذه المآسي يا يوسف . يبقى الأب صامتا يفكر ، ثم يجيب : لا أدري ما العمل . اني أتفهم جيدا قلقك وهمومك بالنسبة لاستيفاء الديون ، ولكن ماذا عنا نحن ؟ ونحن أيضا كيف ندفع ديوننا للدائنين ؟ والذين يمولوننا ؟ حتى نظام المقايضة لم يعد يجدي في هذه الأيام .

الآن السيد جوان ديدينيو يدخل المحل . لقد اعتاد ان يأتي لتبادل الحديث والدرشة مع الوالد يوسف ، وهو شخص على اطلاع ويعرف الأخبار اليومية . يتناقشان في السياسة والوضع الراهن الذي يتفاقم يوما بعد يوم ، ويتكلمان عن الماضي ، فهو لم يعد كما كان سابقا من مؤيدي جيتوليو فارغاس بشكل متطرف بالرغم من انه لا يزال متعاطفا معه . انه يعترف بقدرة ومهارة جيبي ، وهو يبدي خيبة امل مع تطور الأحداث ، وتردد الحكومة وعدم اتخاذ موقف محدد . وقال ان ميله ميل يساري . وعند حديثهما عن الحرب يتذكر يوسف الحرب السابقة لعام 1914 عندما كان مرافقا في كفرساروم حيث كان الجميع هناك من مؤيدي انتصار الحلفاء ، لأن انكسار ألمانيا يعني بالنسبة ليوسف انكسارا للأتراك ، وهذه هي فرصة التحرر من الحكم العثماني . ثم يتوقف يوسف هنا عن الكلام ويتوتر وجهه وتتغير نبرة صوته وترتفع ويقول : انظر وتأكد يا سيد جوان ديدينيو اننا نثق بكلمة الرجال، وخاصة بمثلهم الرئيسي وهو لورنس العرب الذي يجيد اللغة العربية بشكل افضل من معظم ابنائها ، وان بعد هذا الرعب الذي يخيم ستنتهي الحرب وبدلا من الحكم العثماني سيصبح لبنان تحت الحماية الفرنسية .

في هذه الأثناء يصل الى الدكان أشخاص آخرون ، وأغلبهم لشراء حاجات صغيرة ، ومعظمهم تقريبا يشتري دينا ليدفع فيما بعد . ولم ينفع الاعلان الذي رفعه السيد يوسف والذي يقول : " الدين فقط يوم الغد " وتتكاثر الأصوات وكل واحد من المدينين يقول : يا سيد يوسف أنا ما زلت في الانتظار . وآخر يقول : من فضلك أسرع ولا تخف . الأحوال في تحسن والموسم عندي على ما يرام وقريبا قريبا سأدفع الحساب بكامله حتى مع كل ما يترتب عليه من فوائد اذا أردت ، وأنا أضمن لك ذلك . والى جانب الزبائن الذين يريدون شراء بعض الحاجات هناك ايضا زبائن الدرشة الصباحية الذين اعتادوا على المجيء للتحدث ومعرفة آخر الأخبار عند السيد يوسف

، وهي بالطبع ليست كالدردشة المسائية التي تستمر لساعات مع شرب البيرة والمقبلات المصنوعة من المقانق المقلية وحتى الكبة المقلية التي كانت تحضرها السيدة تمينه . ان محل يوسف التجاري هو ملتقى الجميع في هذه الأوقات مثل الحلاق لاورو وحتى رئيس البلدية فيدوكا . اما الشاعر جيرالدينو ، فنادرا ما يحضر هذه الاجتماعات التي كانت تتناول كل الأشياء وجميع الأشخاص . فالى متى يستمر هذا الروتين ؟

نحن الان في العام 1940 . القوات الألمانية تتقدم . جيتوليو فارغاس يريد توقيع بروتوكول ينم عن ميول للانضمام الى مجموعة كروب الألمانية لتأسيس مصنع الصلب . في الحال تعلم الولايات المتحدة الأميركية بالأمر فتعارض المشروع ، وتقدم مبلغ عشرين مليون دولار لنفس الغرض . لم تتأخر الاذاعة الوطنية عن اعلان ذلك في نشرتها الاخبارية واعلان نبأ الابتداء في عمل الشركة الوطنية للصلب . في عام 1940 تدخل الولايات المتحدة الأميركية الحرب ، وتبدأ الضغط على بلدان أميركا اللاتينية . الحياد أصبح غير مقبول ، ولاسيما بالنسبة للبرازيل . بدأ الأصوليون الوطنيون في بلدة بيغواسو يشعرون بالمحاصرة والضغط . وفي هذه الاثناء تعود مبيعات الوالد يوسف الالازدياد والتحسن . في عام 1942 ينعقد مؤتمر الريو دي جانييرو ، وتبدأ التظاهرات في الشوارع لصالح الحلفاء حيث انضم الى هذه التظاهرات الكثيرون من المثقفين البرازيليين الذين كانوا يصرون على دخول البرازيل الحرب ، وقد جاءت انباء اغراق السفن البرازيلية لتدعم هذا الاتجاه كما هو معروف ، وكان اختفاء السفينة (أكيدابان) . كان للأميركيين الدور الأكبر في اجبار البرازيل على دخول الحرب . وهنا لم يعد لجيتوليو فالرغاس من مخرج ، بل عليه أن يقرر ويتخذ موقفا . وبدأت الدوريات الجوية على طول السواحل البرازيلية وخاصة على السواحل الشمالية الغربية في ولاية ناتال البرازيلية . في هذا الوقت

جاء نبأ اتفاق ستالين وهتلر ، فسبب جوا من عدم الفهم والحيرة حتى في بلدة بيغواسو ، وبدأ الاستهداف العشوائي لكل ما هو الماني في الممتلكات والاشخاص وحتى طال المعادين للنازية أيضاً .
ويكفي ان يكون اسم شهرة الشخص ألماني حتى يصبح في دائرة الاستهداف .

في بلدة بيغواسو كانت الملاحقات والاضطهاد نادرا ، ولكن الاخبار كانت كافية لخلق حالة غير طبيعية . وكان الناس يقولون حصل كذا وكذا في النادي الألماني في فلوريانوبوليس، وليس في النادي فقط، بل كانت تأتي أنباء عن رجم مساكن الألمان بالحجارة ، ومضايقات الأسر الألمانية والإعتداء عليها ، ولم يبق في المنطقة أي تعاطف مع النازية ، وصار الناس يتجنبون التعامل مع جيرانهم من الألمان . أما يوسف فكان يكرر باستغراب : انه الرعب . ما هذا الرعب؟! ما هكذا ينبغي ان يكون التصرف ! الجميع يعرفون موقفي ، ولكن من الضروري التمييز . لا مبرر لهذا الرعب . ثم يبدأ بسرد قصة ذلك الضابط الذي كان في مهمة ومر بأرضه بعد فترة وجيزة من انتهاء الحرب عام 1914 .

لم تتأخر الضغوطات من قبل الشعب ، ومن وسائل الاعلام ، ومن الولايات المتحدة الاميركية حتى دخلت البرازيل الحرب الى جانب الحلفاء . وبدأت تجمعات القوات البرازيلية في أكثر من خمس وعشرين ألف ساحة حتى وصلت الى سانتا كاتارينا وبلدة بيغواسو .
الوضع العائلي يصبح أكثر صعوبة . يجب الانتقال من بيغواسو الى مكان آخر . الاستمرار في بلدة بيغواسو لم يعد مقبولا ولا نافعا . لا تبدو في الأفق المنظور أية بارقة أمل . جميع أفراد الأسرة مترددون مربكون : الأب والأم والأولاد . لقد تكيّفوا جيدا في هذه البلدة . صار لديهم صداقات جيدة واصحاب ومعارف في هذه البلدة ، وكذلك أحوالهم تحسنت بعض الشيء . والآن ؟ كيف سيكون حظهم؟
أيعودون الى حياة العجر والتنقل من مكان الى مكان آخر ؟

في شهر أيار من العام 1943 (دائما تقريبا في شهر أيار . لماذا أيار ؟) وصلوا الى مدينة فلوريانوبوليس حاملين معهم ما كان في مستودعهم الصغير من البضاعة ، ومواجهين نفس الصعوبات التي مرت عليهم في الماضي وعادت الأحلام والآمال لتولد من جديد . هنا في هذه المدينة يوجد على الأقل مدارس للأولاد تمكنهم من متابعة دروسهم . من يدري ؟ يمكن ان تكون الحياة هنا أحسن وأسهل . يمكنهم ان يعملوا في دكان او التجارة المتجولة بين شارع وشارع . او يمكنهم ان يعملوا عند أحد من المعارف كما يمكن ان ينقلوا بضاعة ويوصلوها الى المشتريين في الشوارع الأخرى القريبة . ربما ينجحون في مسعاهم .

لا يمضي وقت طويل حتى تعود الاشتباكات ، وخصوصا مع ابن عمه الذي كان يريد له يوسف التوفيق في نشاطاته التجارية والذي اصبح يكرهه . تكثر الجدالات والاشتباكات الكلامية مما يجعل الوالدة تميته تتدخل دائما لإطفاء حريق المشاحنات بينهما . لا يكفي الجدال ، بل يبرز الى جانب ذلك عدم التفاهم والاختلاف في كل مرة . الأولاد يخرجون بحثا عن أي شيء بديل . المدينة جديدة عليهم ، وينبغي ان يتعرفوا عليها أكثر . لكن بداية كل شيء صعبة . مع اطالة أمد الحرب ، لا شيء يوحي بأن المستقبل سيكون واعد . حتى الآن لا يزالون يعتبرون انفسهم من سكان بيغواسو ، ولا يرون اي فرق ينم عن تحسن الحالة بعد هذا الانتقال . ان الحالة تبدو مؤلمة تقريبا مثلما كانت ظروف الأهل مؤلمة عندما انتقلوا من لبنان الى البرازيل .

الوالد يوسف يستمر بمتابعته سير الحرب . ينظر بقلق كبير لهول الرعب الناتج عن هذه الحرب ، ولا يتعب من تكرار كلمة الكارثة لدى سماعه عن تساقط القنابل ومعسكرات الابادة وتساقط آلاف القنابل على المدنيين والسكان الأمنين ، وتقدم القوات النازية والفاشية مع القلق المتزايد والرعب وانعكاس كل ذلك على البلاد وانتشار :

الجوع والعوز والفقير والمآسي ، وتكاثر الانتهازيين والسوق السوداء مقارناً كل ذلك مع ماحدث في لبنان عندما كان هناك خلال حرب 1914 - 1918 .

العام 1945 - انها فرحة النصر واستسلام دول المحور وعودة جنود الحملات التي ذهبت الى الحرب وحفلات الاستقبال من ناحية ورؤية الرعب الذي حصل من ناحية أخرى والقاء القنبلة النووية على هيروشيما والجرائد والاذاعات والصحف ولافلام الوثائقية التي كانت تظهر الهياكل العظمية في معسكرات الاعتقال ، وافران حرق السجناء ، والرعب فوق الرعب .

أما في البرازيل ، فكان النضال من أجل الديمقراطية ، واسقاط جيتوليو فارغاس ، والاجتماعات الحماسية للعميد ادواردو غومس في فلوريانوبوليس أمام الكاتدرائية ، والحشود المتحمسة المرعدة للتهافتات ، في حين كان الجمع الآخر يهتف للمرشح الآخر المارشال دوترا الذي كان يضم عددا أقل من الناس . وانتهت الانتخابات وحصلت المفاجأة بفوز الدكتاتور السابق المارشال دوترا الذي كان يميل الى دعم الألمان .

وفي الانتخابات اللاحقة يفوز من خلال صناديق الاقتراع جيتوليو فارغاس ويعود الى السلطة مرة جديدة .

1995- تعود مرة أخرى نفس كلمة الرعب بكل ما تحويه من قسوة ومأساوية الى ذهن الأبن الأكبر للسيد زي ميغال . انه كما لو انه والده الذي توفي منذ وقت ليس ببعيد . مكررا لدى مشاهدته التلفاز تقارير العسكر والجنرالات التي كانوا يرددونها قبل خمسين عاما مضت لتلك التجربة المأسوية المؤلمة التي تركت آثارها على الجميع والى الأبد . أحد الجنرالات قال : " ان الحرب هي أكبر دليل على الجنون البشري ، وهي رعب لا مثيل له " وآخر يقول : " لقد ارتجفت عندما شاركت كضابط في اول معركة في الريف الايطالي " وكانت تجربة مؤلمة حيث كنا نتقدم تحت القصف المدفعي حتى

صرنا في مواجهة العدو وأعطي الأمر لنا باطلاق النار وبدأت بالاطلاق ، كما ان في الجانب الآخر أيضا كانت قوات أعدائنا الألمانية والايطالية تتقدم ، ويحصل الصدام بين القوات المتحاربة ويلعلع الرصاص وتتساقط الأجساد ، وألمح فجأة رجلا ضخما يصوب بندقيته ليطلق النار عليّ ، فأطلق النار عيه ولا أعرف كيف سبقته بالاطلاق فأتمكن منه ويهوي جسده تحت تأثير اصابته في صدره ، واطلقت النار من جديد عليه واستمررت باطلاق النار دون ان اعرف ما كنت افعل ، وبشكل غير واعي ولا ارادي ، وكل ذلك بسبب الخطر الذي كان يحيق بي من كل جانب ومررت بالقرب من ذلك الرجل الذي وقع على الأرض فشعرت بقوة خارقة علوية تمسك بي امام تدفق الدم من ذلك الجسم الممدد على الارض ، والذي كان يسيل ويمتصه التراب ويحيط بذلك الجسم الشاب في ربيع عمره ، كما رايت انتفاخ عينيه الجاحظتين المرتابتين ، فكأن ما أصابه أصابني . والقليل الذي أتذكره هو فقط الدوخة التي أصابتنى والكدر والانزعاج والكمد . وعندما وصلت الى المعسكر ازداد ارتجافي وتكدري وازداد غثياني ولم أعد قادرا على السيطرة على نفسي ، وبدأت ببكاء متشنج وبالتقيؤ، ورحت أفكر بمنظر ذلك الشاب الذي قتلته وبحالة ابويه، وقلت في نفسي : ان من المؤكد ان لذلك الشاب السيء الطالع أمّا أو صديقة أو خطيبة أو زوجة وأطفال مثلي . وبدلا مما أصابه كان من الممكن والمحتمل ان اكون انا القاتل مكانه . ولاسترداد توازني واستعادة ما يمكن استعادته من الهدوء ، فقد تطلب الكثير من الوقت اذ انني كلما تذكرت وفتحت عيوني على ذلك المشهد ، كانت عياني تطبقان من جديد وكنت أشعر بحاجة كبيرة لألتقي باصحابي علني اتنفس الصعداء وأروح عن نفسي بعض الشيء ، فلربما كان بعضهم قد مرّ بنفس التجربة التي أمر بها وأتعذب أو مرّ بتجربة شبيهة بها ، وكان أكثر تحملاً ، ويمكن بعدها ان تأتي الأيام وتساعد على استيعاب ما حدث من

رعب بحكم العادة بحيث يصبح ذلك جزءاً من حياتنا اليومية عندما اشارك في معارك أخرى . أينما سر ت ومن البداية أرى في وجهي ذلك المشهد لذلك الشاب الذي سقط أمامي كما لو أنه كان ثمرة ناضجة تسقط على الأرض دون حراك . وبعدها مباشرة أطلقت النار على جنود آخرين وقتلتهم من غير أن أعرف من هم ولماذا قتلتهم باستثناء معرفة كلمة أعداء . وفي الوقت نفسه كان بعض أصدقائي الذين عرفتهم منذ وقت طويل ومن الذين تعرفت عليهم من مدة قصيرة في وحدتي العسكرية ، كانوا أيضاً أجساداً ممددة بعد ان اصيبوا في تلك المعركة . ان حرب الرعب أو أهوال الحرب او العادة على الرعب هي أقوى من أي شيء لأن علينا أن نتعود على معاشة تلك الحالة ، واعتقد ان كل ذلك لسبب غير مفهوم ولا يفسر . كل ما أعرفه ان علينا ان نعتاد على ذلك لكي لا يصيبنا اليأس . والرعب يخف تدريجياً ويصبح مألوفاً . لا أدري أيضاً اذا كان التعبير صحيحاً . والحقيقة انه في نهاية المطاف ، وفي الأيام القادمة ، أعرف انني كنت أطارد الأعداء لأصطادهم وأقتلهم وكنت أفخر بذلك كما يفخر الصياد بقتل أي حيوان او طريدة كغزال مثلاً . واذا فكرنا قليلاً ، فان الضحية اما ان تكون هو أو انا . سواء في الكمين أو العراء . كل ما كنت انتظره هو رؤية طلقة الرصاصة كيف تخرج مسددة وتصل الى الهدف بدقة فتسقط الجثة كما لو كانت شجرة قطعت فهوت على الارض ، وأمر بقربها دون ان القي ولو نظرة شفقة واحدة عليها .

ان كلمة " الرعب " التي قيلت في البداية مع التركيز الكبير لتدل على ما لها من تأثير كبير حفّاز . فقط هي الموجودة في الاساس . وهي تتوسط كل شيء ، وعليها يتركز كل شيء . الآن وبعد انتهاء المعارك يعود الوالد قتيلاً وهذا ما كانوا يقولونه له اذا كان قد استمع بشكل أكيد. والعسكري الذي يتحدث للتلفاز بطريقة أكثر هدواً وأكثر

تعلّماً وارشاداً وباعصاب هادئة ، وبنظرة ثابتة ، وبجسم منتصب
وعلى وجهه تبدو علامات السنين وشعره الابيض المبعثر ، يتذكر
جيدا مشاركته في الحرب من غير أن يبدي أي انفعال واضح ، ولا
كيف أصبح القتل عنده عادة . فالقتل واختفاء الرعب يصبح حادثاً
عادياً مبتذلاً لا أكثر ولا أقل . وهذا بطبيعة الحال الوجه الآخر
الحقيقي الذي ربما كان أكثر دراماتيكية مأساوية من الرعب .

الفصل الثاني والعشرون فلوريانوبوليس

بعد الاستغراق في التأمل والتفكير الطويل، يقرر الوالد يوسف الانتقال والذهاب الى مدينة فلوريانوبوليس. يبدأ بجس نبض العائلة لمعرفة مدى الاستعداد . يضحك ويقوم بجولة الى بيغواسو لدى تذكره الموضوع الذي حصل له قبل عامين عندما كان يفكر بوضعه ، وكان في حالة يريد فيها تقريبا او لا يريد اخذ موقف كيف وصلت أسرته الى مدينة فلوريانوبوليس . لقد مضى على ذلك التاريخ 15 عاما بالضبط (خمسة عشر عاما) . كانت الحيرة تكدره أم ان المكتوب هو المكتوب ولا فرار منه ؟ أو ان مصيره نفسه تعين ويجب ان يكون في فلوريانوبوليس ؟ فخلال كل تلك السنوات التي انقضت ، كانت العاصمة هي محط نظره ونقطة الجذب بالنسبة له التي يتوجه اليها الآن مرة أخرى . من يدري ؟ ربما تكون محطته النهائية والهدف النهائي !؟

يبدأ بالتحدث مع الأقارب والأصحاب من معارفه اصحاب الحوانيت والدكاكين ، ويدور في المدينة غير متأكد عما يبحث وماذا يريد ، وعن أي محل ن وأي مقصد وأي نوع من التجارة . أخيرا اقتنع ان لا شيء يفيد غير العمل في التجارة . فاذا كان في شبابه ولم تنفق أحلامه مع أي نشاط سوى أنشطة التجارة ، فماذا يقول الآن

وقد أصبح في عمر الخمسين ؟

لا أحد من أفراد الأسرة يبدي تحمسه للمشروع الجديد . يريدون ثنيه عن المشروع وتحذيره منه لأن كل شيء قد أصبح صعبا جدا . قبل

الحرب لم يكن الأمر سهلاً فكيف يكون الآن؟ ... لا بد من التحفظ والتكتم وابقاء الامور كما هي في الوقت الحاضر حتى أيام أخرى أفضل وعلى الأقل الى ما بعد نهاية الحرب . من يدري كيف تتغير الامور ؟ ... الوالد يوسف لا يستسلم . لا يمكن ان يستمر في بلدة بيغواسو . من المستحيل ان يبقى في هذه البلدة . لقد اتخذ قراره وصمم . من ناحية أخرى : أين الشجاعة الكافية ليفكر ويذهب الى قضاء او محافظة بعيدة ؟ وكيفيه التجربة التي مرت عليه فيما مضى . فلا داعي اذن للتفكير بغير ولاية ولا بغير بلاد . والعودة الى وطنه خالي الوفاض أمر لا يجوز التفكير فيه ولا بأي حال من الأحوال . وعلاوة على ذلك ، وبناء على كل المفاعيل والاعراض ، فان البرازيل هي بلاده الآن ، وولاية سانتا كاتارينا على وجه التحديد وكذلك على طول هذه الشواطئ وربما أكثر بلدة بيغواسو حيث ولد أطفال يوسف ونميينه وتمتد جذورهم فيها وفيها يحبون الاقامة والبقاء . ولكن بيغواسو اصبحت شيئاً من الماضي أو قريباً ستصبح وراء ظهورهم لأنه من المستحيل البقاء فيها وسدت ابواب الرزق وقوة الحظ والمكتوب تدفعهم دفعا لمغادرتها .

الأمور لم تكن بالنسبة لأسرة يوسف سهلة . فبعد زيارة الاحياء والشوارع في هذه المدينة والبحث ومشاهدة المخازن والمتاجر والحانات والبارات والدكاكين والمطاعم ، تمكن يوسف ونجح في استئجار متجر صغير كان صاحبه يريد التخلي عنه وتغيير مهنته والانتقال الى مكان آخر ، ويبدو ان حظه كان شبيها بحظ يوسف وغير راضي عن حظه .

أراد يوسف ان يمازحه فقال له : ما رأيك لو تبادلني فتعطيني مكانك هنا وتنتقل الى محلي في بيغواسو ؟ وبعد مداوولات واخذ ورد ، توصل الرجلان بدون كبير عناء ووافق الرجل على بيع محله الصغير الى يوسف . ولاتمام عملية الشراء ، اتخذت تمينه في نهاية

المطاف قرارا بالتصرف بما تبقى معها من قطع صغيرة من المجوهرات التي جلبتها من لبنان وباعتها مرة واحدة لأحد الأقارب في مدينة فلوريانوبوليس . وبهذا لم يكن تأثرها كبيرا على بيعها لأن تلك القطع انتقلت الى أحد الأقارب وبقيت بحوزة أسرة من ابناء بلادها . بعدها وقع يوسف على عدد من الكمبيالات ليصار الى تسديدها شهريا ودفع مبلغا مقدما مما كان معه من مدخرات بيغواسو واستلم المحل التجاري من البائع وبدأ العمل فيه يساعده على ذلك ابنه الأكبر . المحل الجديد يقع في شارع (روا ماريشال غيليرمي) بالقرب من ساحة (براسا بيريرا إي أوليفيرا) وأمام مسرح (تياترو ألفارو دي كارفاليو) و (سينما أوديون) بالقرب من ركن الزاوية التي تطل على شارع (روا بادري ميغيلينيو) . في بداية الأمر أقام يوسف بضعة أيام في منزل ابن عمه الذي نزل فيه عندما اتى من الريو دي جانييرو لأول مرة الى ولاية سانتا كاتارينا ولم يفارق هذه الولاية منذ ذلك التاريخ . لم يمض وقت طويل حتى قدمت أسرة يوسف وانتقل من منزل ابن عمه الى البيت القديم الذي أقام فيه عندما أتت عائلته من الريو دي جانييرو وهو منزل مؤلف من طبقتين في ساحة (15 نوفمبرو) في وسط المدينة ، بالقرب من كاتدرائية العاصمة وبار الشاعر وبار الهر الأسود (غاتو بريتو) وهي الأماكن المفضلة لرواد الليل. المنزل الذي استأجره واقام فيه في فلوريانوبوليس تعود ملكيته لأسرة (غاما ديسا) التقليدية حيث تظهر على الجدران الملصقات الصغيرة المخططة الخاصة بحزب المحافظين الوطني .

من السهل التكيف في هذه المدينة . فمدينة فلوريانوبوليس هي اكبر من بيغواسو ، ولكن مقسمة بين جزيرة سانتا كاتارينا وأحياء ضيقة في الجهة القابلة . فنوع الاستيطان هو نفسه ، والعادات نفسها ، والتقاليد نفسها ، بالاضافة الى المكلفين بخدمة السفن وبعض الألمان والايطاليين وعدد قليل من اليونانيين ، وعدد أقل من العرب .

تدور المدينة أساسا حول شارعين (خلافا لما هو موجود في بيغواسو) . شارع المستشار (كونسيليرو مافرا، فيليب شميدت)، ساحة 15 نوفمبر ومركز المدينة . هناك ايضا بعض الطرقات والمتفرعات الثانوية ، وأبعد هذه المتفرعات طريق بريزيدنتي كوتينيو الذي يظهر كأنه في نهاية العالم . كما يوجد هناك الأحياء التي لم تكن في الاعتبار مثل حي كيس الليمون (ساكو دوس ليموينس) ، وحي أغرونوميكا ، وتريندادي . أما الشواطئ التي كانت أكثر شعبية والأكثر ارتيادا فهي الشاطئ الرئيسي ، وشواطئ إستريتو وكوكيرو، وكاناسفييرا، وبحيرة كونسيساون ، وريبييرو دا إيليا (شاطئ الجزيرة . كل هذه الشواطئ وغيرها من المناطق البعيدة التي لا يمكن الوصول اليها .

لم يطل به الأمر حتى بدأت الزبائن تكثر عند يوسف وعليه ان ينتقل الى محل آخر لأن البناء الذي يعمل فيه قد عرض للبيع وانتقلت ملكيته وسيرتفع في مكانه بناء شامخ وسبكون أعلى بناية في المدينة ، وقد أعطيت ليوسف مهلة محددة لاختلاء المحل . لذلك خرج يبحث عن مكان آخر ، والأفضل ان يعثر على نقطة قريبة من محله التجاري لكي لا يخسر الزبائن . ولحسن الحظ ، فقد تمكن من استئجار محل قريب في شارع بادري ميغيلينيو (الأب ميغيلينيو) في مبنى مؤلف من طابق أرضي في مركز البلد بجانب محل للخياطة وفوق محل الخياطة كانت سينما مشهورة بمسلسلات افلام الفرويست . بعد مدة قليلة تم أيضا بيع المبنى الذي كان يسكن فيه وعليه ان يخليه في أقرب وقت ممكن ، وكذلك سترتفع هنا بناية جديدة أخرى . عليه ان يبحث عن مكان سكن آخر . المدينة بدأت تتغير، والبيوت الأثرية بدأت تتساقط بشكل مخفي مما جعل شوارع وأحياء بكاملها تتبدل وتتغير ملامحها .

ومرة أخرى ، يتدخل ابن عمه ليحل المشكلة الجديدة ويستأجر له منزلاً في حي جديد نشأ في وسط المدينة وسمي مزرعة اسبانيا

(شكرا دا اسبانيا) ، وفي هذا المنزل استمر مقيما لعدة سنوات .
 وخلال هذا اسنوات استطاع ان يشتري ويستملك قطعة من الأرض
 على شارع افينيدا ريو برانكو وبتمويل من مصرف الحكومة
 الاتحادية (كاشا إيكونوميكا فيديرال) وعلى قطعة الأرض هذه بنى
 منزله الوحيد وأقام فيه ، والذي بقي مرهونا للمصرف حتى مماته
 بعد ما يقارب ثلاثين عاماً . وعندما انتقلت الأسرة الى البيت الذي
 بني في شارع افينيدا ريو برانكو ، تعب أطفال الأسرة من سماع
 أصدقاتهم يقولون لهم : انكم تعيشون في هذا المكان . لماذا تسكنون
 بعيدا ؟ لماذا ؟ وتمر السنوات والسنوات ويندمج ذلك الشارع بنواة
 ومركز العاصمة فلوريانوبوليس . فلوريانوبوليس المدينة الجميلة
 الهادئة الغامضة التي تستوعب الاسماء المختلفة ابتداء من جزيرة
 السحر ، وجزيرة الخيال وحتى جزيرة الغروب والحالات النادرة .
 لتحديد أماكن اللقاءات ، هناك نقطتان مشهورتان يلتقي فيهما الناس
 في هذه المدينة : المكان الاول المقهى الذي يقع امام شجرة التين في
 ساحة 15 نوفمبرو في وسط المدينة ، والمكان الثاني في المقهى
 الذي يقع على شاطئ البحر ، وهما مقهيان يرتادهما الجميع من
 معارضين وموالين على حد سواء من الأحزاب السياسية وذلك في
 ظل سيادة عائلتين تقليديتين وناديين اجتماعيين : نادي (دوزي)
 ونادي (ليرا) . ومن كلا الحزبين هناك ايضا ناديان رياضيان
 وفريقان لكرة القدم : فريق (لافاي) وفريق (فيغيرينسي) . وليس
 من الضروري تكرار ان كل الناس في هذه المدينة منقسمون
 بالتساوي بين هذين الحزبين السياسيين المسيطرين . وهكذا فان البلد
 بكاملها يتقاذفها هذان الناديان ، ولا تخلو الحياة هنا من سيطرة روح
 الدعاية المنتعشة من خلال اسلوب التعاطي الذي يعزى الى الثنائي
 جيرالدينو وبيغواسو ، كما لا يخلو الأمر من المعاناة التي يعانيتها
 الجميع بسبب هذه الازدواجية بين الحزبين في كثير من الاوقات .
 ان فلوريانوبوليس التي أغرت يوسف تعاني" في النهار من نقص

المياه ، وفي الليل تعاني من قلة الكهرباء " . ومن اجل كسر هذا الايقاع الثنائي الروتيني المهيمن على هذه الجزيرة والكثير من الأجزاء الأخرى المجاورة على هذا الشاطئ القاري ، فقد كان يوسف وتمينه يهتمان بارسال الأطفال الى المدارس لكي يتعلموا ويتثقفوا . فالولد البكر الأكبر يتابع دورة دراسية خاصة في المدرسة الواقعة في المبنى القديم ، المدرسة الوردية (روزاريو) وفقا للمادة 91 . أما جورج وسعيد فانهما يدرسان في كلية التجارة في حين ان فوزي يتابع دروسه في مدرسة سانتا كاتارينا . بينما هند تريد ان تدرس وتتابع دراستها العليا . وبالنسبة لفدوى فانها دائما كانت منعزلة ولا تريد ان تكمل دراستها ولا تحب الدرس ، بل ترغب بمساعدة والدتها في البيت ، فتعتني بالطفل الصغير سمير الذي لم يلبث ان ذهب الى المدرسة الابتدائية ، ثم انتقل الى معهد الدولة للتربية والتعليم .

وفي الوقت الذي ينتظر فيه الجميع تحسن الاوضاع ، فان الروتين القديم يعود مرة أخرى ، والشيء الوحيد الذي ينشأ هو بروز مكونات وأمور تعقيدية فقط . مشاكل الأب والأولاد . صعوبة التفاهم بين يوسف وأولاده في حين تستمر تمينه بتهدئتهم والعمل على ازالة كل اسباب الخلاف وعدم التفاهم وخصوصا بين يوسف وولده البكر . الأب يحتاج اليه في المحل التجاري ليساعده في العمل ، ويحتاج ايضا الى الأولاد الآخرين في مجال النقل لتسليم البضائع في منازل الزبائن ، لكن هذا لا يمثل أية مساعدة جوهرية ولا كبيرة للوالد .

بدون اسباب موجبة ، وبدون تفكير ، وبدون اي هدف ، يظل الابن يجادل والده ويقول له : انك يا ابي انت نفسك لا تتعب من ان تكرر على مسامعنا ان نكره التجارة . اني احب ان أفعل شيئا آخر غير التجارة . كيف تريد ان ابقى هنا واعمل في هذا المحل ؟ فيجيبه الوالد بكل هدوء : أن تكره شيئا شيء ، وان تقبل بالحقيقة والواقع

شيء آخر . عليك ان تواجه الحياة اليومية الصعبة بالكفاح لترى ما يمكنك ان تحصل عليه . فالعمل حتى ولو لم يرضيك ، فانه يساعدنا . لا يوجد هناك شيء بديل عن العمل .

وتتدخل الأم بينهما وتسعى لاسترضائهما والتخفيف عنهما . لكن المشكلة تكبر وتتعد حين تدخل الى المحل احدى الزبائن وتقول : يا سيد يوسف ، عليك ان تنتبه ، والا ستخسر الزبائن . لقد أتيت لأشترى بعض الأغراض التي كنت بحاجة اليها ، وكنت مستعجلة وتركت أطفالى وحدهم في البيت وأتيت الى هنا حيث التقيت ولدك في المحل ، فوجدته يقرأ كما هو الحال دائما . ألححت عليه ليلبي طلبى ، ولكنه تعامل معى بدون رغبة كما لو كان يصنع معى معروفا ويفعل خدمة كبيرة . بالكاد تكلم معى . حتى انه لم يبتسم امامى . اذا كانت الأمور ستبقى هكذا ، فلن أعود الى هذا المحل بعد اليوم ، ولست وحدي من يشكو تصرفات ابنك . لا يجوز هذا ابداً . وفي الحال أراد الوالد ان يوبخ ولده على مثل ذلك التصرف ، فارتفعت الأصوات وعلا صوت الوالد طالبا من ولده ان يعامل الزبائن بكياسة ولطافة اكثر . مضيفا : ان على هؤلاء الزبائن يتوقف فقط الحفاظ على سير العمل واستمرار المحل التجاري كما ان على الزبائن فقط تتوقف معيشة العائلة وبقائها . فالانفاق والمصاريف تزداد ، والمدخول يقل .

هكذا يكون زيارة المرأة وكلامها سببا لغضب الوالد وغيظه وانزعاجه .

بعد أيام تعود المرأة نفسها الى المحل لتشتري بعض الحاجيات ، فيستقبلها ابنه بابتسامة قبل ان تتفوه بأية كلمة ويقول لها : ماذا تحتاجين ؟ يبتسم لها بدون سبب ، ويلبي طلباتها بكل كياسة ولطف وتصنع . وعندما تنتهي من شراء اغراضها وقبل ان تخرج من المحل ، يقول لها بشكل لا يسيطر فيه على نفسه لكنه كان متعمدا ذلك: هل لبيت طلبك ايتها السيدة هذه المرة بشكل مرضي؟ هل

تكلمت معك بما فيه الكفاية ام تريدين المزيد من الكلام ؟ هل احببت
وأعجبتك ابتسامتي ؟ وفي النهاية ، قولي لي يا سيدتي هل تأتين
الى هنا لأنك في حاجة الى المنتجات التي لدينا للبيع أم انك تأتين
للمحادثة والدردشة وكسب نصف كيلو غرام من الإبتسامات أو تأتين
من أجل غير ذلك ؟...

التكاليف تزداد ، والكفاح بدون جدوى ، والمحل التجاري بالكاد
يكفي للقيام بأود العائلة واستمرار العيش . الأولاد يخرجون بحثا
عن عمل . من الضروري التوفيق بين الدراسة والعمل . اثنان من
الأولاد يخدمان في محلين تجاريين آخرين كعاملين على صندوق
القبض . والابن الأكثر تمردا يبيع الصحف والمجلات في زاوية
امامية من زوايا مقهى في شارع فيليب شمدت سرعان ما أضاف
عليه بيع الكتب وخلال مدة لم تتجاوز السنة تمكن من افتتاح مكتبة
لبيع الكتب بالشراكة مع صديق له في موقع يقع على زاوية من
زوايا ساحة المدينة الرئيسية (15 نوفمبر) مع شارع كونسيلبيرو
مافرا . وعندما كان يُسأل ، كان يجيب : اذا لم اتمكن من ترك تجارة
الكتب، فعلى الأقل فانني متواجد في وسط الكتب .
وتدرجيا ، وشيئا فشيئا بدأ جميع أفراد الأسرة يكتشفون المدينة
بمحاسنها وأسرارها ، وبكل ما فيها من سحر عصي على التفسير .
وفي كل يوم أحد بدأت العائلة تتردد على شواطئ كوكيروس
واستريتو ، وأحيانا كانت المغامرة تكبر فتكون رحلة الأحد الى
بحيرة كونسيسون أو كانسفيراس .

كانت الدردشات والأحاديث ، ورواية القصص التي لا نهاية لها تملأ
المقاهي والبارات طوال الليالي في ساحة 15 نوفمبر ، كما كان
مقهى الشاطيء يغص بالذين يشربون البيرة هناك . كما كانت دور
السينما تعج بالناس ، و كانت ايضا الفتيات في الليل وعلى جانبي
الساحة تبحثن عن عمل او عن برنامج ساخن لعلاقة حميمة . وفي
المربعات الأولى لشارع فيليب شميدت كان الشباب والفتيان

المراهقون يتوقفون لمشاهدة بنات وسيدات المجتمع الراقي الثريات
وهن يتنقلن كأنهن في حفل عرض أزياء .
لقد فهم الوالدان يوسف وتمينه ان المكتوب على أولادهم انهم
سيستقرون هنا في هذه البلاد والى الأبد . هذا هو المكتوب الذي
لا مفر منه . لقد ادركوا واقتنعوا بأن حياة اولادهم ومستقبلهم هنا.
في البرازيل . أولادهم هم الأمل . بدأو بتخفيف الضغط عن أولادهم
وتركوهم يبحثون بأنفسهم عن أفضل الطرائق التي يستحسنونها
والتي سوف توفر لهم حياة هنيئة . من يدري ؟ ربما يكون في
هؤلاء الأولاد ما يحقق الاهداف التي هاجرت العائلة وغامرت
وعانت من أجلها حين تركت بلادها بحثا عن بلاد أخرى يكون فيها
الأمان والنجاح !؟

الفصل الثالث والعشرون الإغراء

في الصباح الباكر ، الأولاد يشربون القهوة ويتناولون فطور الصباح . ثم يتحضرون للذهاب الى مدارسهم . الوالدة تقوم بترتيب هندام القاصرين ، والوالد يتحضر للخروج من المنزل . لقد حان وقت فتح محله التجاري في المحلة القريبة من مبنى النشاط الصحي والاجتماعي في مركز العاصمة شارع الأب ميغيلينيو (بادري ميغيلينيو) . لم يعتادوا حتى الآن على الإقامة في سكنهم الجديد في المنزل المؤلف من طبقتين في ساحة 15 نوفمبر ، بغرفة الكبيرة التي يضيع فيها الشخص تقريبا ، والمستأجر بمبلغ زهيد يثير الاستهزاء . لهذا المنزل مزايا عديدة : فهو في موقع قريب من المحل التجاري ، وقريب من مدارس الاولاد ، وقريب من الأنسباء وابناء الوطن ، وهو قريب ايضا من السوق العامة حيث يمكن العائلة ان تحصل بسهولة على كل ما تريده من حاجات ضرورية . انه في وسط المدينة . الأسرة تشغل الطبقة العلوية من المبنى . أما الطبقة السفلى ، فانها لاتزال مقفلة .

وتظل في البال البلدة الأخرى التي كانت الأسرة تقيم فيها ببائعها الصغار المتجولين في الشوارع ، وعلى الأرصفة ، وأمام الأبنية الصغيرة ، وفي بواباتها ، ودكان الاسكافي ، ومحل ترقيع وتصليح الألبسة وأشياء أخرى من هذا القبيل ، كما يتذكرون قطعة الأرض المواجهة للساحة الرئيسية في البلدة ، والبار (غاتو بريتو) أي الهر الأسود الذي يقع تقريبا بالقرب من زاوية شارع فرناندو ماشادو ، والبار (بوويما بار) أي بار قصيدة الشعر ، والباران هما المفضلان لرواد الليل والسكرارى ، وتلك الليالي المليئة بالضجيج والصياح حيث كان يصعب على الانسان ان يتمكن من النوم فيقلب

على السرير من جهة الى أخرى طوال الليل ولا يغفو من الغناء والموسيقى الصاخبة وحدة المناقشات والمعارك والضجيج الرهيب الجهمني . كما كان صوت المذيع الاذاعي العالي في الراديو (فيسنتي سيجيستينو) يملأ الأرجاء مطالبا الناس بالحضور ومستثيرا عواطفهم ومشاعرهم ليشاركوا في تلك الليالي الصاخبة. أين هو الهدوء في بلدة بيغواسو ؟ أم اننا نبالغ في وصف ذلك ؟ ألم يكن ايضا عازف الغيتار المغني روبرتو غاليناني يخترق بصوته الاجواء مع فرقته حيث كان كل واحد من فريقه يؤدي مقطعا غنائيا او تعليقا وهم يتناولون وجبة الفطور الصباحية مع الفجر رغم ان الأرق لم يسمح لهم ولو بشيء قليل من النوم . ربما كان هذا هو السبب الذي جعل قيمة ايجار المنزل متدنية الى الحد الكبير . من أجل هذا ايضا لم تصدر أية شكوى عندما كانت الأسرة تتأخر في دفع بدل ايجار المنزل . وعندما كان يتركه أي مستأجر ، كان يبدو مهجوراً وغير صالح لا للايجار ولا للبيع . ومع كل هذا فان ذلك المنزل كان لا بأس به ، وكانت قيمة استئجاره قليلة ولا يرتب تكاليف باهظة على ميزانية العائلة .

وفي هذا الجو الخانق الذي يدفع الى اليأس ، يطل الأمل وتظهر فرصة الخلاص، ويذهب يوسف بكل حماس للتحدث مع زوجته قائلاً لها : الآن ياتمينه سترين . سترين ان كل شيء سيكون على ما يرام ، و تنتهي الصعوبات ، ونخرج من الضائقة ، والاولاد هنا سيذهبون الى المدارس وسيعملون ويساعدوننا . وسيكون لدينا زبائن كثر في هذا المحل التجاري في هذه المدينة . من يدري ؟ ربما تتحسن أحوالنا ونشتري قطعة من الأرض ونشيد عليها بيت أحلامنا ونسكن فيه بدون ان ندفع ايجاراً . هناك في بلادنا كان عندنا بيت في الكورة . اما هنا فاننا لم نتمكن حتى الان من ان نسكن في منزل تعود ملكيته لنا . اذا تحقق ذلك واصبح بيتنا ملكنا، فان كل شيء سيصبح سهلاً . وأولادنا في مدينة فلوريانوبوليس سيتمكنون من

متابعة دراستهم ، وسيساعدوننا في اعمال المتجر وفوق ذلك سيتأمن لهم عمل افضل في هذه المدينة ، ويمكن ان يمارسوا أي عمل خارج محلنا ، وسيكون مستقبلهم أحسن .

في هذا الصباح ، وقبل ان يخرج يوسف من المنزل ، يتذكر شيئاً ويريد ان يلفت اليه نظر زوجته تمينه فيناديها ويقول : لا تنسي يا تمينه ان عليّ اليوم ان اذهب الى بيغواسو لأرى ما اذا كنت استطيت الحصول على بعض المال . تدبري أمر الأولاد ليذهبوا الى مدارسهم و عليك ان تقومي اليوم باعمال المتجر . تستجيب تمينه لدعوة يوسف ، ويبدأ هو بفتح باب المحل . وبمجرد ان يمسك بمقبض الباب ، وقبل ان يفتحه يجده مفتوحاً ، فتأخذه الحيرة والدهشة كما هو حاله دائماً . امرأة في ردهة الممر بين المطبخ والغرف . شابة ، جميلة جمالها جمال بري ومثير ، شعرها احمر طويل ، وجهها يطفح بملامح المكر ، رطوبة الشفاه مثيرة ، خضراء العيون لا يسبر غورها ، تكاد تفشي أسرارها ، بارزة النهدين بشموخ ، تنتصب بقامتها المستقيمة للحظات ثم تتحول الى الجانب الآخر .

يوسف يحرك رأسه ويبادرها بتحيته وسلامه ، فتبادله المرأة بمثل حركته وتحيته ، وبشفاه بالكاد تتحرك ، وأنف ناعم التنفس ، وتمايل جسم هزاز مكرر يثير رجولة الشباب ما جعل الأم تمينه تحول عيونها وتنظر الى البعيد ، وبناتها يبتسمن بخفر .

الأم تمينه دائماً خائفة ولكنها لا تعرف سبب خوفها ولا من ماذا تخاف . أما تلك المرأة التي كانت أمام تمينه ، فان كل ما فيها ينضح بالاثارة الجنسية . ولم تمض برهة حتى اتجهت تلك المرأة نحو الحمام الوحيد في المنزل . الأم تمينه دائماً تشكو في سرها على تأجير الغرفة دون ان تعبر وتظهر بوضوح سبب شكواها أمام زوجها يوسف . فهي تلمح عن مخاوفها بشكل هاديء وبشكل رمزي ، ولكنها دائماً يقظة وبهدوء تراقب خطوات تلك المرأة البطيئة ، الناعمة ، المتخفية الغامضة والجسم الناعم الطويل

المغناج المثير ، والذي يتربص للإنقضاض من داخل وخلف تلك السترة الرقيقة الشفافة الفضفاضة الى البروز بحيث تظهر تلك الفتاة عارية أكثر منها مرتدية . دائمات شكوه هذه المرأة من شدة الحر . والواقع ان الطقس حار جدا في تلك الساعة الباكرة بحيث ينضح العرق من الجميع . أما هذه المرأة ، فانها بكل سهولة ترغب في الافصاح عما تحس به عن وعي أو غير وعي محدثة بذلك زلزالاً مثيراً . فقامتها تلفت الانتباه . ومشيتها تلفت الانتباه ، وهز وركيها وتراقصهما يثيران ويلفتان الانتباه ، وفمها وشفاتها الرطبتان تلفتان الانتباه ، وثدياها المنتفخان وحلماتها تلفتان الانتباه ، وأنفاسها وتنفسها يلفت الانتباه، وبحة صوتها العميقة وشهوانيتها الجنسية تلفت الانتباه ، وكل شيء فيها وفي جسمها وتصرفاتها مثير ويلفت الانتباه ويسحر .

الآن لا تتكلم . فقط تهز رأسها لتمينه ، وللفتاتين ، وللشباب ، ثم تخنفي ، وبعد ذلك يسمع ضجيج خافت في الحمام ذهابا وايابا . انها بالتأكيد تستعمل المرحاض وتفرشي أسنانها ، وتغسل وجهها ، وتمشط وتصف شعرها ، وترتدي ثيابها وتعنتي بهندامها . بعد وقت قصير من استئجار مبنى المنزل الكبير ، بقيت عدة غرف منه فارغة لا يسكنها أحد . ويقال انه كان يقيم هنا المارشال (غاما ديسا) وهو أحد أبطال حرب البرغواي وقد كرم ومنح وسام بارون (دي باتوفي) من قبل الامبراطور وكلف بمهمة اسكات الاتحاديين أي (الفدراليين) . كما كلفه رئيس الجمهورية الماريشال (فلوريانو بيشوتو) ليقوم بمهمة طرد ونفي الكولونيل (موريرا سيزار) ويقال انه صرع . فهو لا يريد التساهل مع اولئك الذين يعتبرهم مذنبين ، بل يريد معاقبتهم . وقد احيل عدد كبير من المعتقلين المحكومين بالنفي الى مدينة (فورتاليزا) في سجن (أنهاتوميريم) . الذي بني في العام 1700 . حيث أعدموا هناك بدون محاكمة . ومن بين هؤلاء

الذين أعدموا الجنرال (غاما ديسا) وأحد أبنائه الذي كان برفقته .
كل هذا حدث في عام 1894 , ولكن نحن الآن نحن في عام 1943
ولا تزال السمعة والشهرة السيئة لهذا المنزل على انه منزل
مسكون بالارواح حتى هذه الأيام . فهل هذا هو السبب الرئيس
للسعر الزهيد لايجار هذا المنزل؟ ربما ! من ندري ؟
الأب يوسف أو الأم تمينه من يعرف ما اذا كانت الغرفة الفارغة في
هذا المنزل يمكن تأجيرها . فتأجيرها يمكن ان يؤدي الى اسعاف ما
او معونة صغيرة . لذلك تقرر وضع اعلان (للإيجار) على مدخل
المنزل المؤلف من طبقتين . وذات يوم حضر أحد الرجال وطرق
على الباب وقال ليوسف : لقد علمت من خلال الاعلان انه يوجد
غرف للإيجار وانا بحاجة الى استئجار غرفة . أجابه يوسف : غرفة
واحدة لا . نريد تأجير عدة . بعد اصرار يوسف على تأجير
مجموعة الغرف ، قال الرجل : لكن يكفيني غرفة واحدة فقط ، وانا
لا أريد أكثر من غرفة . وبعد عدة ايام جاء الرجل من جديد وقال :
ان عائلتي صغيرة . انا وزوجتي ونود الانتقال الى مدينة
فلوريانوبوليس ، وانا افضل ان استأجر غرفة في بيت عائلة على
ان ابقى في غرفة في الفندق ، وانت تعرف الفنادق هنا ... وذلك
حتى أجد منزلا يلائمني ، كما أفضل ان يكون الى جانب الجسر
ويمكن ان يكون قريب من شاطئ كوكبيروس او في الوسط في
محلة إيتاغواسو او في شاطئ استريتو . وقد قيل لي ان الافضل
في محلة كوكبيرو . وفي الوقت الحاضر ليس عندي وقت للبحث
عن منزل ، لأن عليّ أولاً التكيف في هذه المدينة . يجب أن أرى
كيف تسير حياتي هنا وهل ستكون على خير ما يرام ؟ فقط يا سيد
انا وزوجتي وقد توقفت عند شيكينيو لأكل فطيرة وهو الذي أشار
عليّ بالتكلم معك لاستئجار غرفة في منزلك هنا ، وهو اول محل
دخلته في هذه المدينة كما ترى لأتناول بعض الطعام وكانت اول

وجبة هي فطيرة في بار شيكينيو ، وليس البار الآخر الموجود على شاطيء ميرامار حيث السيرى والبيرة الباردة .

وعلى عكس زوجة ذلك الرجل الذي يريد استئجار الغرفة والتي كانت تتكلم لماما عندما تنطق تاركة لسحر جسدها ان يفصح ، كان الرجل فصيحاً في منطقته ويتكلم بجرأة وبلاغة تصل الى مستوى السجع والشعر ولا يحتاج الى لفت انتباه المستمع الى حديثه أو ينتظر جواباً الا بقدر ما يريد الموافقة على طلبه وقد تبين فيما بعد وفي وقت لاحق المهنة التي يقوم بها ويمارسها .

وهكذا ، فان الوالد يوسف لم يتركه في اكمال حديثه ، بل أجاب على الفور : نعم . نعم . انا موافق على تأجيرك احدى الغرف الفارغة مع اني أفضل ايجار الغرفة كلها مرة واحدة ، لأن ذلك سيكون بالنسبة لي أكثر ارتياحاً . وبما ان الايجار سيكون لفترة قصيرة ، فيمكن ان تتفضل وتختار الغرفة التي تناسبك وتعجبك من الغرف . اختار الرجل غرفة ، واتفق على ايجارها فارغة من كل شيء ، وقال الرجل بانه سيجوز الغرفة بكل الحاجات الضرورية لاقامته مع زوجته فيها من سرير ، وخزانة ، وكراسي ، وأغطية السرير ، ومناشف الحمام . وكل هذه الأغراض سوف يحتاجها عندما يجد منزلاً مناسباً في منطقة شاطيء (كوكبيرو) حسب اقتراح أحد أصدقائه الذي يعرف المدينة جيداً . لذلك لا بد من جولة هناك والتعرف على الحي بشكل كافي عندما يتوفر الوقت ويمكن ان يكون ذلك خلال تناول بعض وجبات الطعام في المطعم على الشاطيء . اتفق الرجلان على ايجار الغرفة، وبطبيعة الحال ، على استعمال المرحاض وغرفة الحمام ووافق يوسف على ذلك باعتبار انه لا يوجد اكثر من حمام واحد للغرف . أم تمينه ، فحذرت زوجها من ذلك وقالت له : اننا لا نعرف هذه العائلة يا يوسف ابدا ابدا . كيف سننتشارك معهم ؟ وكيف نحافظ على خصوصيتنا ؟ هل تحققت من معلوماتك عن الزوجين ؟ أجاب يوسف : لا ليس لدي أية معلومات

ولكن ما هو الفرق بينهم وبين وغيرهم ؟ كذلك الآخرون سيكونون بالنسبة لنا غير معروفين ونجهل عنهم كل شيء . وأضاف : ألم تتذكرين عندما وصلنا الى هذه البلدة ، وفكرنا فوراً بالاستئجار لنسكن ؟ فالمبلغ الذي يدفعه الرجل لي بدل ايجار غرفة واحدة يعادل تقريبا ايجار المنزل بكامله ، ونحن بحاجة ماسة الى هذا المبلغ . هزت الأم تمينه رأسها بالموافقة، نعم، ولكن بدون اقتناع منها ، وقالت : نعم انها متفهمة من انه سيكون العمل في هذا المتجر مغامرة جديدة مثل المغامرات الكثيرة السابقة وقبل ان يكون لديهم أية فكرة عن النتائج التي ستتحق في هذه البلدة ، كان زمن الحرب ، وزمن الركود الاقتصادي . مرة أخرى تخطر في بالها فكرة عدم النجاح والتوفيق في هذه المدينة ، فتتساءل في نفسها : واذا لم ننجح هنا فما العمل ؟ هل نعود وننتقل الى بيغواسو ؟ وماذا بقي من المجوهرات التي جلبناها معنا وكانت التذكار من لبنان ؟ وبغض النظر عن قيمتها المالية فان قيمتها لا تقدر لأنها توقظ الحنين والشوق القوي للوطن الذي هجرناه . وعلى الرغم من بيع تلك المجوهرات ، فاننا لم نستطع ايفاء كل ديوننا ، بل بقيت الديون والكمبيالات التي علينا تسديدها . وليس لها الجرأة ان تطلب مساعدة من أخوتها .

في اقل من فترة أسبوع وصل الزوجان الشابان. الشاب أنيق، وذو حديث جميل . دائما يرتدي بذلة انيقة . مربوع الجسم معتدل، وفي بداية صلح مبكر . مع هذا كله لا يثير الانتباه حين يكون الى جانب زوجته . هي امرأة طويلة القامة . جمالها جمال خجول مزيج من البساطة والزهو والكبرياء . هي تدرك ان جمالها الكاسح يترك انطباعا وتأثيرا عميقين في الرجال شيوخا كانوا او شبابا . وهي ايضا تثير في النساء كثيرا من مشاعر الغيرة، والاستياء، والخوف . في ساعة الصباح الاولى تخرج من غرفتها وتسير نحو الحمام منتصبة القامة ، فخورة كأنها ملكة تخفي حياءها ، وتنفض بزوها

شهوانية تكهرب الفتیان فتضطرب مشاعرهم مما يسبب حسد الفتیات ، والخشية والتخوف عند الأم ، وشعور الأب امام ذلك هو شعور الآخرين . وبدون أي قلق او اهتمام تستمر في سيرها عارية تقريبا كما لو أنها في عارضة في عرض أزياء. هي دائما تخرج الى الحمام بردائها الداخلي الرقيق الشفاف ، وبألوان خفيفة ناعمة تكشف كل ما تغطيه من مفاتن جسمها البارزة ، وتديبها المنتفخين حيوية كأنهما على شاشة عرض . ومؤخرة قفاها النافرة بارتفاع هزاز ، وشفاتها الرطبتان النديتان على الدوام. انها تبدو وكأنها أفعى مأكرة . جميلة القوام . تتباهى بشعرها الخمري المتدفق المائل الى الشقار أحيانا ، والى لون أغمق في بعض الاحيان تبعا لسطوع أشعة الشمس التي تلامسه وتعطيه لمعانا وسحرا ، وبعيونها الخضراء الساحرة بتموجها . بطيئة الخطى في مشيتها المتعرجة . تتفحص كل ما يدور حولها ، ومتنبهة لأقل تنهد وتأوه لدى أية هزة أو رجة تحدثها . تحس انها المشتهاة والمعشوقة ، فتزهو وتتباهى بذلك .

أوليس كذلك ؟ من يدري ؟ وهل أحد يستطيع أن يعرف ؟

أحيانا وفي الليل كانت تلك المرأة تذهب الى الحمام شبه عارية وتحضّر نفسها للخروج مع زوجها . وكنت أسمع بالضبط خرير الماء المتساقط على جسمها ، وكذلك حفيف الفك الحاد والطويل وتلييف جسمها واضحا تقريبا كما يمكن تخمين كل حركة من حركاتها كحركات انحنائها ووقوفها وتمايلها وصوبنة جسمها وأطرافها ومن ثم انتهائها من الاستحمام الى استعمال المنشفة وتنشيف جسمها وعودتها الى غرفتها ندية طيبة الرائحة بشعرها المتدلي ، ووجهها المحمر ، وعيونها الطافحة بالبريق واللمعان الغامض الجذاب ، وعبق الأنوثة التي تنز بحرارة مثيرة منها. ثم توقفها للحظات في غرفة المطبخ لتتوجه بعدها الى الصالة وتتبادل الحديث مع الوالدة تمينة ببعض الكلمات . هي دائما متكتمة مع الفتاتين اللتين لا تكبرهما الا بقليل ، ولكنها دائما مثار اثاره

واغظة . وهذا ما لم يحصل ابداً أو تقريبا مع الشباب الذكور الذين بدأوا الآن يقضون وقتاً أطول في المنزل، فقط، لمشاهدتها، توقا لها ، ورغبة في رؤيتها وتأوها وتتهدا دون ان يجراوا وتكون لديهم الشجاعة على التحدث معها، او توجيه كلمة لها ، علماً أننا كنا نلاحظ في الواقع ، انها تسعى الى التحرش التحدث مع الاولاد الذكور الشباب ، ولفت انتباههم من خلال ما كانت تقوم به من حركات في مشيتها الاستعراضية الدائمة في المنزل . ألم يكن هذا حقاً من قبيل استلافات الانتباه أم ان الوالدة تمينه كانت تبالغ في ذلك ؟ في الواقع أن المرأة كانت هكذا هي نفسها . هذه هي طبيعتها . وهذه هي طريقها في الحياة ...

الشباب يريدون ويتمنون أن يطيل زوجها غيابه عندما يسافر ، ويبقى فترة أطول خارج البيت . يريدون التمتع برؤية تلك المرأة . يحلمون بها . يتوقون الى التكلم معها بمفردهم . وفي بعض الاحيان ، كان أصدقاؤهم يأتون لزيارتهم في أوقات غير ملائمة من أجل رؤيتها فقط ، ويتوشوشون ، ويتهامسون ، ويطمحون باستنشاق رائحة تلك المرأة المتقطرة منها ولا يشبعون كما لو كانت تلك الرائحة مخدراً مسكراً أو سمّاً . وفوق ذلك تراهم متنبهين لكل تنهيدة تصدر منها وكل زفرة يحملها الهواء منها خلال تنقلها المتكرر ذهابا وايابا بين الحمام وغرفتها . حتى انهم في حال اصغاء تام ويرافقون كل حركة من مشيتها داخل الغرفة . ويصل بهم الاهتمام والاصغاء الى حركة تمددها واستلقائها على سريرها . ونهوضها ثم تمددها من جديد على السرير وتقلبها . ثم انتفاضها من مخذعها والعناية بهندامها وتحضرها وتعطرها للخروج من البيت والوصول الى الباب ثم التراجع ومشيتها وتنقلها داخل الغرفة بانتظار ذلك الزوج غير المستقر على حال وهي التي تعيش في هذه المدينة من دون ان يكون لديها صاحبة او صديقة تقضي اوقاتها برفقتها . لقد كان لديها اصدقاء واصحاب قبل ان تأتي الى هذه المدينة ، أما

اليوم ، فهي تنتظر عودة زوجها من السفر بحكم عمله ، وعندما يعود من سفره يفضل البقاء في البيت للراحة بعد عناء السفر . تحاول اجبار زوجها على الخروج من البيت ، ولكنه يريد البقاء والراحة بعد السفر المرهق . كان المكان الوحيد الذي تذهب مع زوجها اليه في الصباحات هو شاطيء (كوكبيرو) وذلك للبحث عن منزل هناك للاستئجار . وذات يوم ، قالت لتمينه : ان ذهبت البارحة يا سيدة تمينه الى بحيرة السيدة العذراء (كونسيساون) التي لم اكن اعرفها ولم يحدثني عنها احد سابقاً . انه مكان جميل . لقد تناولنا هناك في مطعم اسحاق شوربة القريدس (كامارون) مع التبيذ ، وكانت المقبلات من السمك وبعض الصيد البحري الطازج الذي اثار شفقتي لأنهم كانوا يخرجونه من الماء حيا ، ويضعونه في مرجل من الماء المغلي .

وقالت ايضا انها وزوجها خلجا في الليل ، خرجا وذهبا الى المطعم لتناول العشاء . كانت تلح على زوجها بالخروج للتعرف على مرافق المدينة واماكن اللهو التنزه والترويح عن النفس فيها . كما اصرت على الذهاب الى السينما لحضور الفيلم السينمائي (هيا نذهب في الحال) (وذهب مع الريح) . انها تريد ان تحضر هذه الافلام لأن الجميع يقولون أنها رائعة .

في معظم الاحيان كان زوجها يفضل الذهاب الى شاطيء(كوكبيرو) بهدف العثور على منزل للايجار على الشاطيء . لكن المرأة الآن ، وقد بدأت بالتكيف ، فقد بدأت بالاعتراض على استئجار منزل على الشاطيء ، بل تريد ان تبقى هنا وانها مرتاحة لهذه العائلة . وبدأت تقول لزوجها : انس ذلك . فهنا مكان لطيف ومريح في وسط المدينة ، وقريب من كل شيء ، وبالامكان العثور على كل ما يلزمنا بسهولة . انك تسافر كثيرا وباستمرار ولا أريد أن انزوي في نهاية العالم هناك . أنا اخاف أن أعيش وحيدة في تلك الزاوية . لقد اعتدت على الحياة برفقة هذه العائلة ، وأفضل البقاء هنا .

لقد تغيرت حياة الشباب الذكور بعد ظهور هذه المرأة الساحرة في حياتهم . ففي السابق كانوا لا يطيقون البقاء في المنزل . أما الآن ، فانهم يتذرعون بأية حجة للبقاء في البيت ، ويبحثون عن أية ذريعة لكي لا يغادروا المنزل . من يدري ؟. ربما غدا أو في وقت لاحق ... علمهم ببقائهم في البيت يتبادلون الكلمات والأحاديث معها. من يدري ؟ انهم يحلمون بالحصول على علامة أو اشارة تقربهم منها . انهم يحاولون بشتى الوسائل جسها واختبارها ... دون ان تكون لهم معرفة بما سوف يحصل . او انهم يعرفون . وربما يشتهون . لكنهم يخفون ما يرغبون . وانطلاقا من لحظة معينة تدور في رأس كل واحد منهم افكار وافكار . وعندما يأتي الليل ويذهبون الى أسرتهم يبدؤون بالتقلب من جانب الى الآخر ، ويسيطر عليهم الأرق فلا يستطيعون ان يغفوا . وتتكرر احلامهم الاحتلامية فيحتلمون ويسيطر عليهم التخلع الجسدي والضجر والهلوسات الغريبة .

ها هي المرأة الساحرة تدخل غرفتها ، وتتمشى داخل الغرفة بثوب نومها الرقيق الشفاف الذي تظهر من خلاله كل مفاتها ، ثم ينزلق رداؤها الشفاف تدريجيا عن جسدها ، فتظهر عارية . ثم تقفز الى سريرها وتتجمع فوقه طاوية ساقها تحت وركيها وتتكوم فوق قدميها كما لو كانت هرة شبقة شهوانية . وفي الحال تتعري تلك المرأة وتمدد وتمط جسدها وتقلب على جانبها ثم تنقلب الى الجانب الآخر ، ثم تعود وتنقلب الى الجانب الأول ، وبحركة لا أدراكية تبدأ بفرك يديها ثم تضع يديها بين فخذيها من فوق الغطاء الرقيق وتزداد سرعة حركة يدها بشكل ايقاعي متزايد حتى لحظة الذهول والنشوة النهائية .

يستيقظ الأولاد في كل يوم أرقين وعيونهم متورمة من الأرق وقلة النوم . وما ان تفتح تلك المرأة باب غرفتها وتظهر حتى يكونون بانتظارها ، فتهمز رأسها بالقاء تحية الصباح متوجهة الى غرفة الحمام كعادتها . وهنا تأخذهم الافكار الى البعيد فيشرد كل واحد

منهم مع تخيلاته ليقول في داخله : واذا جاء يوم ، أو في ذات صباح ، أو ذات ليلة ، وقبل ان يكمل أفكاره وتخيلاته ، فانه يندفع ويسرع في ذهابه الى غرفة الحمام حال خروجها منه ليستنشق رائحة الهواء بحثا عن أي شيء منها ومن رائحتها . كل واحد من الشباب الغيورين لا يريد الافصح عما به حفاظا على السر الذي يحمله ولا يعرفه غيره لأنه يرى انها تميل اليه وحده وتتنظر اليه بطريقة خاصة يستنتج من خلالها انها تفضله على الآخرين . بنظرة معينة مريبة تناديه بها اليها كما لو أنها تلوح له بإشارة أو بمنديل . نعم . بالتأكيد، فانها لا تزال طفلة يلهبها الحماس والشوق والرغبة الجامحة الى الجنس الذي لم تختبره بما فيه الكفاية ولا المداعبة والملاطفة الحميمة ولا اطفاء الحرارة المتلهبة داخلها التي لا تكفيها تلك الفضلة او الفتاة من العلاقة الحميمة مع زوجها . انه دائما غائب عنها . وحتى عندما يعود من سفره ويكون في البيت ، فانه يبقى معها بارد العاطفة وغير مكترث كأنه تمثال أو صورة لا أكثر ولا أقل . يمكن ان نلاحظ ذلك من خلال قضائه معظم الوقت واهتمامه بحجارته المزورة او الحقيقية التي يمكن ان تكون حتى بلا قيمة . من يدري ؟ لقد نسي الجوهرة الثمينة التي في متناول يديه ، والتي تعبت وملت من الانتظار ، وتريد ان تهرب من هذا الواقع الراكد . فهي عندما تأتي للتحدث مع الوالد يوسف ، فلا حديث الا حديث التجارة والمبيعات ، والارباح الكثيرة أو القليلة الحاصلة ، وفي بعض الاوقات الصعبة ، كان الحديث عن انعكاسات الحرب التي لا تزال قائمة التي لا يبدو أنها انتهت . أما استئجار البيت على شاطيء كوكبيرو ، فلا يتوفر وقت للبحث عنه لاهتمام زوجها بالمستقبل وبجبال الذهب التي تتراكم . وفي أواخر ذات ليلة . ومع مطلع الفجر ، أحست تلك المرأة بألم لا يطاق . ألم شديد نزل بها ، فصرخت صرخة قوية . فسمع صرختها الصبي ، وأخذ نفساً عميقاً ثم هدأ وسكن وحاول ان ينام من جديد

لكنه لم يفلح . لكن الألم الموجه قد عاد اليها من جديد ، فصرخت بصوت أعلى ملاً كل نواحي المنزل ، فنهضت الأم تميمية مندهشة تريد ان تعرف ماذا حصل ، فأشار لها ابنها أن صرخة داخل المنزل قائلاً : الصرخة هنا هنا . حاولت الأم تميمية ان تتلمس ماذا يجري وأين الصراخ ، فاشتد الصراخ أكثر وأكثر . فاستيقظ الوالد يوسف فجأة ونهض ليعرف ماذا يجري ، وكذلك نهض الأولاد ، فوجدوا المرأة بحالة مختلفة عما اعتادوا على رؤيتها . سأل الوالد : ما الذي حصل ؟ أجابت : الألم يزداد . اني بحاجة الى دواء أفضل . أريد طبيب . لا يوجد هاتف في المنزل . أحد الأولاد الشباب يذهب الى الصيدلية التي تداوم طوال الليل . الطبيب يصل عند الفجر . يطرح بعض الأسئلة . يتلمس جسمها في مكان الألم . يطرح من جديد بعض الأسئلة . ثم يعود ويضع يده على مكان الألم . يقول بكل تأكيد وأصرار : بدون شك ، انه التهاب الزائدة الدودية . اننا بحاجة الى نقلها على وجه السرعة الى المستشفى الخيري لاجراء العملية بأسرع وقت ممكن ، وأمل أن لا تكون متقيحة . نودي بسيارة الأجرة (تاكسي) على الفور وما هي الا لحظات حتى كانوا في المستشفى بدون تأخير . وعند مغادرة البيت الى المستشفى ، قال الشاب الذي كان يتلصص ويسرق النظر من خلال فتحة الباب انه رأى بلمحة عابر حلمة ثديها . كانت تتنفس بصعوبة وقد غطى شعرها جسمها وأخفى كل وجهها . وفي المستشفى أجريت لها فحوصات سريعة لاتخاذ التدابير المناسبة . لا مجال لتضييع الوقت . فما ان وصلت الى المستشفى حتى كانت على طاولة العمليات . يطلبون العد من واحد الى عشرة . واطالة النفس والتنفس . ثم يقطرون شيئاً في أنفها ومن الاثير . تجري عملية التخدير ، وتسبح في غيبوبة ، ويختفى العالم من أمامها ، وتتلاشي وتغيب عن الوعي تماماً .

بعد ان ينتهي عمل الطبيب ، تستيقظ بصعوبة ، وتبدو منزعة ، وتشعر بضيق شديد يرافقه تقيوء ، كما تشعر ايضا بالعطش فتطلب الماء . وتشعر بألم شديد فتطلب دواء مسكناً . يقال لها : اصبري قليلاً . اهدئي . ثم تغفو . ها هي وشوشات وهمس الممرضات . ها هو الطبيب يأتي لزيارتها، ها هي الوالدة تمينه بجانبها . ها هي الأدوية المسكنة المباركة بالقرب منها. وكذلك الخطوات الصامتة ، واستئناف وعودة الهمس والشوشة ، ومرور الزمن البطيء حيث تختلط الليالي بالنهارات والنهارات بالليالي الى جانب الشعور بالشروذ والهديان والتعقيدات العويصة والهلوسات وملامح الوجوه المتعددة والمختلفة التي تظهر امامها دون القدرة على معرفتها وتمييزها . أيدي تلامس وجهها ، وتلامس شفيتها والتمسيد المنعش والمنشط ، ولمسات الملاطفة الناعمة التي تنعشها وتحركها وتجعل العافية تعود اليها وتدب فيها الحياة من جديد .

لقد تحسنت صحتها وسمح لها من قبل الطبيب المعالج بمغادرة المستشفى . هي الآن في المنزل وترتاح في غرفتها لاستعادة عافيتها وانتعاشها . الايام تمضي بطيئة . تحرك قطع الشطرنج دون تركيز . تلعب لعبة الدومينو مع الأشقاء . عندما تتعب وتشعر بالارهاق ، تتمدد على السرير أو تجلس على الكرسي . تجلس دون حراك لتستمع الى الموسيقى التي كانت تأتي من البار المجاور القط الأسود (غاتو بريتو) او من بار الشعر والقصائد (بوويما بار) . تنزعج من الضوضاء الليلية المنبعثة من صراخ وصياح رواد الليل التي كانت تجري امام نافذة غرفتها في ساحة 15 نوفمبر والتي كانت تبدو كأنها تحصل عمداً وقصداً من أجل ازعاجها وتكديرها بثرثرات لا نهاية لها ولا معنى . تظل طوال الليل أرقعة ولا تستطيع النوم حتى الفجر بدون ان يكون لديها اي احتمال او توقع بتحسن صحتها . الطبيب دائماً يحذرها ويطلب منها ان تصبر لأن استعادة عافيتها ستكون بطيئة وتدرجياً ، ولأن العملية التي

أجريت لها استغرقت وقتاً أطول من المعتاد لمثل هذه الحالة . لقد كان تأثير التخدير كبيراً عليها وكان لا بد من الصبر والانتظار . وتمر الأيام وهي على هذه الحالة الى ان كان ذات يوم شعرت فيه فجأة أنها في حالة أفضل .

كان اهتمام الصبي يتركز على تلك المرأة ، وعلى الضوضاء التي تحدثها عندما تفتح الباب وتخرج من غرفتها وتذهب الى غرفة الحمام . وعند عودتها الى غرفتها ، كان يتوقف قليلاً ويفكر هو نسج خياله ؟

كان الصبي ابن يوسف عندما يسمع حركتها الطفيفة ، يتوقف عن القراءة ، وينسى الشطرنج . جميع حواسه تصير في حالة تأهب لأية حركة طفيفة تحدثها عند خروجها الى غرفة الحمام . ينتظر باهتمام . يقشعر جسمها . يشرد ذهنها . هل ستعود اليها الحمى ؟ أم أنها حمى من نوع آخر ؟ أو كما لو كانت حمى . على كل حال وبما انها تشعر ان حالتها أفضل ، فهي دائماً في انتباه لكل ما يجري حولها . انها تريد ان تنهض . تنهض من الفراش ، لكنها تشعر بدوخة وذهول . تعود وتستلقي على السرير . تطلب استشارة الطبيب من جديد .

عيون مغمضة و يسيطر عليها النعاس . جسم يرفض الأخذ ، لكنه يعرض العطاء . منزعة مضطربة ، لكنها جذابة ومثيرة . تحبس حواس المشاهد كما لو كانت سجناء . لا يعرف جسمها على وجه اليقين ما هو النوم وما هو الحلم وما هي الرغبة . انها جسم يرن ، ولحم يهتز ، وجميع أعضائها في حالة استنفار وتنبيه . ما هو الخيال وما هو الواقع ؟ في وسط الشرود والهذيان ، يُستشف من بريق الفتوة وتصلب لحم ذلك الجسم ارتعاش رغبة جامحة . كما ان حلمتا ثدييها المسترسلتين تتوسلان وتدعو ذلك الصبي ليأخذهما بين يديه ويستملكهما .

لم يطرق الباب . فتح باب الغرفة فجأة . انحنى عليها . نظرت الى الصبي وهي متمددة على سريرها وخاطبته بصوت لطيف وتحبب وبيحة حنونة تتطفح بحساسية شهوانية وجنسية عميقة . سألتها : هل تحسنت وصرت أفضل ؟ أليس كذلك ؟

لم يحصل الصبي على جواب . ربما لم تسمعه أو انه لم يتخيل ولم يفهم الاستجابة ويشك فيما رآه . وكررت بصوت أعلى ولكن بنفس النغمة وبشكل بطيء متقطع وبمقاطع مخفية تقريبا : أ - ح - د - س - ن - ش - و - ي .

ذهب الألم مع الدواء المسكن الجديد . لقد ذهب الألم اليس كذلك ؟ هل تحتاجين الى شيء آخر ؟ نعم أ - ح - د - تا - ج . قولي . تجيبه : ساعدني . تدخل تمينه وتقول لابنها : ماذا تفعل هنا ؟ تجيب الفتاة بدلا منه : انا التي دعوته يا سيدة تمينه .

الصبي لا يزال مسمرًا في فصل قراءة نبليون الذي كان على وشك ان يهزم من قبل جنرال شتاء ، وجيشه يتهيأ للانسحاب ومغادرة موسكو . انه يتابع مطاردة الغزاة الذين يتقهقرون بعد ان أصبحت قوى قرصنتهم المتعطسة منكوبة بفعل البرد ، والثلج ، والجوع ، والعطش ، واليأس ، ومرارة المعارك التي تستمر لأسابيع وشهور ، والرعب أمام منظر الجثث المتكدسة والمتراكمة على طول

المخيمات والطرق ، وكذلك أمام مشهد الجرحى المصابين الذين كانوا على آخر رمق ويتوسلون ان يقتلهم الجنود الأحياء اذا لم يكن بإمكانهم ان يحملوهم معهم من ارض المعارك ، وكل واحد من هؤلاء الجرحى يصيح ويتوسل : لا تتركوني هنا . اقتلوني اذا لم يكن بالإمكان ان تحملوني . ارحموني واعطفوا عليّ . الصبي يتوقف عن القراءة . لا يريد ان يقرأ أكثر من ذلك . ها هو أحد المصابين الجرحى يخرج بعيدا عن ميدان القتال . يريد أن يتأكد .

يريد أن يعرف من هو ومن سيكون الامير بيدرا . من يدري ؟ هل يريد ان يذهب بسرعة الى لقاء سونيا (أو هيلين) ؟ يريد ان يعطي

خبر ان الامير بيدرا قد جرح في المعركة ولم يمت . لكنه فجأة
يشرد ويضيع في بياض لا نهاية له . ولا شك في ما يرى . يرتفع
الصوت متوسلا ان يحملوه وبشكل متقطع ودائما بنفس العناد : أ
- ص - ب - ح - ت - أ - ح - س - ن . أ ؟
وبصعوبة يتكلف فتح عينيه . انها مذبحة . ، وألم ، وتأوهات ، وبرد
، وثلج ، وجوع . كل شيء اختفى أمام الصبي . حتى المرأة ،
وسحرها اغراءها ، التي يثير ويربك ، والحرارة التي تنبثق من
جسدها والتي تحرقه بجاذبيتها حين تنحني أمامه ، وتنظر اليه
بعيون ماكرة خداعة متعطشة فيضع يديه على وجهها بلطف وعناق
، وتبدأ يداه بالنزول شيئا فشيئا لتستقر على الصدر ، ويداعبها
بحلاوة لذيذة ومثيرة . وتستمر يده بالنزول فيفر ثديها من السترة
الشفافة الداخلية ويقترب من فمه . ولدى ملامسة الثدي بشفته ،
يستنشق الرائحة العميقة لتلك الأنثى المرتجفة بشهوة في شبق كامل
بدون ان يتعب من اثارها وتهيجها منذ وقعت عيونهما على بعض ،
ولكن في هذه اللحظة كان اكثر من مجرد اثاره . فهي تهب نفسها
بكليتها في صمت وفي عزلة تجمعهما معا . عيونها تناديه بقوة . تتكلم
. تتوسل . تطلب . تتنهد . تتأوه . ترفع ذراعها وتشده اليها ليضمها
اليه ويمتطيها وليستولي على كل ما فيها فتشبع جوعها ، وتروي
عطشها منه فيتمتعان ويرتويان من بعضهما البعض في اروع لحظة
علاقة حميمة . لكنه كان في تلك اللحظة ضعيف ، ويزدحم في عقله
اضطراب كبير .

لقد تلاشى كل شيء . لا شيء آخر . لقد اختفى تحت الغمر . ومهما
جاهد واجتهد في السنين القادمة ، فلا يمكن ان يكون متأكداً من
معرفة ان ذلك الحلم سوف يتحقق مرة أخرى كما كان من قبل ،
ويتجدد ذلك اللقاء ، وتعود الأمور كما كانت أو ان تلك المرأة التي
هي من لحم ودم وعظام ورغبات سوف تستفز شهوتها كما حصل
في غرفة نقاهتها تلك ؟

هناك وبعد فترة وجيزة ، بدأ الصبي يخرج للنزهة في الحديقة المجاورة طلباً للشمس والحرارة ، ثم اخذ يطيل غيابه قليلاً في الدردشة والحديث مع اصدقائه ومعارفه في بار الشعر(بوويما بار). وذات يوم ،وعند المساء حيث كان الوالد يوسف بعد عودته من محله التجاري يرتاح بعض الوقت ويستمتع الى نشرة الأخبار الاذاعية بانتظار موعد العشاء ، يعود زوج المرأة من احدى رحلاته . وبعد قليل من عودته من السفر ، يدخل الى الصالة التي تجمع شمل الأسرة ويقول للوالد : آسف للمقاطعة . يجيبه الوالد : لا عليك . تفضل ادخل واجلس . يقول الرجل : شكرا لكم . لقد تمكنت أخيرا ان أجد المنزل الذي كنت أسعى للحصول عليه واستتجاره على شاطيء كوكبيرو أو شاطيء الحنان (برايا دا سودادي) منذ وقت طويل.سوف أنتقل اليه هذا الأسبوع أوالأسبوع القادم على الأكثر. وهو الوقت اللازم لاجراء التوصيلحات والتعديلات الضرورية للمطبخ ولوازمه كما تعلم . لكن لا تقلق بالنسبة لدفع بدل الايجار ، فاني سأدفع المبلغ كما لو كنت سابقى حتى آخر الشهر . لقد أحببت أن أشكركم الآن على اهتمامكم بنا ، ولأخبركم بذلك . من يدري ؟ وربما بإمكانكم في هذه الفترة أن تؤجروا الغرفة الى مستأجر آخر . زأعتقد انه ليس من الصعب الاجار في هذه النقطة . والى جانب الرجل كانت زوجته لا تزال قلقة مشغولة البال . انها لا تدري ما هو السبب . هل هي تعيسة حزينة ؟ ام هي غير منسجمة مع نفسها ؟ كيف تخمن وتكتشف ذلك ؟ انها لا تستشرف لا الارتياح ولا عدم الرضا . انها تطلق نظرات فيها الكثير من التطفل في جميع انحاء الغرفة . تذهب الى النافذة المطلة على الحديقة. تنظر الى الطريق في هذا الليل الهاديء تبحث عن شيء. ترمق خفية المارة الذين يسيرون في الشارع المقابل بنظرات مشتتة . تذهب الى الباب المؤدي الى المطبخ ومنه تطل على غرفة الحمام . تركز نظرها في اللوحات ذات الالوان الفاقعة. ثم تروح تنتظر الى لوحة شعار الحزب

الوطني المحافظ ورمزه من العهد الماضي ،والذي صار من التاريخ . تقترب من الطاولة ، وتمر بيديها على الكراسي كما لو كانت في وداع قطعة من حياتها تغيب وتذهب ليبدأ في الغد يوم آخر وشيء آخر . هي الآن في قلب هذه الأسرة حيث يمر الوقت ببطء . لحظة بعد لحظة . ونظرة غامضة بعد نظرة كمن يقول هي الفرصة الاخيرة والأصغر لفك رموز حياتها . ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان الذي طال انتظار فك احجبتها – اذا كان هناك شيء تفك رموزه .

الفصل الرابع والعشرون

الطقوس

اجتماع شمل الأسرة هو تقليد عطلة نهاية الأسبوع ، ويمكن ان يكون خلال أيام السبت أوالأحد . ويفضل أن يكون اجتماع العائلة في منزل الوالد ، وبعض الأحيان في منزل أحد الأولاد طالما كانت الوالدة ما تزال على قيد الحياة . وقد جرت العادة على دعوة الأصدقاء الى لقاءات العائلة الاسبوعية . المأكولات العربية هي الحاضرة دائما ولا يستغنى عنها وخصوصا الكبة . كان ذلك في المنزل المستأجر في ساحة (براسا 15 دينوفمبرو) في وسط المدينة وفي مزرعة اسبانيا (شكرا دا اسبانيا) . أما الوالدة فقليل ما تستعمل وتستفيد من البيت الذي اشترته العائلة في شارع ريو برانكو (أفينيدا ريو برانكو) رقم 84 والذي جاهدوا كثيرا حتى دفعوا ثمنه . استمرت تمينه تحضر الأطعمة نفسها . الآن ، فقط ، صارت الابنتان تساعدان الوالدة في المطبخ وتساعدهما ايضا الخادمة . احدى كنتننها كانت تردد دائما : انا لا أعرف تحضير المأكولات العربية ، ومن الأفضل ان يكون تحضير الطعام العربي من قبلكم . والوالدة هي التي تعد الطعام الأفضل . صحون الأطعمة المفضلة كانت : الكبة النية ، والكبة بالصينية ، والكبة المقلية والمحشية وغير المحشية ، والتبولة ، والصفيحة ، واللبنية ، والملفوف (والأفضل اوراق عريش العنب الجديد الطرية أو يمكن ان يكون ايضا ورق الملفوف) ، والمجدرة أي (عدس مع الأرز والبصل المفروم المقلي) ، والحمص بطحينة أي (الحمص الممعوس والمخلوط مع الطحينة) ، والزعر مع زيت الزيتون، وأحيانا جرعات

من العرق . أما البيرة فكانت هي الشراب الدائم تقريبا ، وندرا مت كانوا يتناولون شراب النبيذ .

1. الأولاد يأتون الى منزل الوالد عند اقتراب ساعة الغذاء برفقة نسائهم وأطفالهم من مختلف الأعمار. وعند وصول الأطفال يمتليء المنزل الهاديء بالعجيج والضجيج . الوالد يريد ان يعرف كل الأخبار الجديدة ، فيسأل عن صحة الجميع ، وكيف حال الأطفال في المدارس ؟ وكيف دروسهم ؟ ثم يسأل عن الأشغال والمشاكل التي تعترض أعمالهم الى ان يصل أخيرا الى السياسة والأخبار السياسية . يريد ان يعرف كل شيء عن الأحداث والتغييرات التي تحدث ، وكذلك يشدد على معرف أقصى مايمكن من حياة المدينة والولاية والدولة وكل ما يجري في البلاد . وايضا يريد ان يعرف شيئا عن الخلاف بين لاسيردا وجيتوليو فارغس (لاسيردا و جيتوليو فارغس) ، والانتحار ، وانتخاب جوسيلينو . يريد ان يستفهم ويتحقق عن طريق اولاده : أخبروني . لا أفهم حتى هذا التاريخ ، كيف أن بلادا كبيرة كالبرازيل وفيها الكثير من الثروات الكبيرة والسهول الزراعية الغنية ، تستورد المواد اغذائية ؟ قولوا لي كيف يستمر هذا الفقر وهذه التعاسة في بلد كالبرازيل ؟ أشرحوا لي لماذا يكون في بلاد البرازيل الكبيرة أناس بدون أرض ؟ ولماذا يكون في البرازيل الغني جوع والناس لا يجدون ما يأكلونه؟ ولا يجدون مأوى ينامون فيه ويأوون اليه؟ . بعد فترة من الآن ، حصل الانقلاب العسكري في البلاد وحكمت الدكتاتورية التي أصابت العائلة باستبدالها . وكيف ترك الغريب الخدعة تمر عليه . وهل لم ينتبه لذلك ؟ فقط الأعمى او الأحمق هو الذى يُخدع هكذا بسهولة . انه يحب ان يعيش ويحب ان تعيش البلاد بأخوة أكثر لأسباب عديدة تعود الى تربيته الانسانية، ونظرته الى العالم ، واهتماماته الاجتماعية . ويجب ذلك لسبب أساسي آخر هو :

مهما حاول في بعض الأحيان أن يتنكر ، فهو لا يستطيع أن يتصور حياته خارج البرازيل . انه برازيلي بالإختيار . فهنا في البرازيل انغرست جذوره ، ودفنت زوجته تمينه ، وولد طفله الأصغر سمير وطفلته فدوى. وهنا يشق أولاده درب حياتهم ، وبينون عائلاتهم ، وقريبا أولادهم وأحفادهم . نعم . هنا بينى مستقبلهم . يشدد على كل ذلك ، ويأسف ويحزن بشكل خاص لأن زوجته تمينه لم تعد بقربه والتي كانت رفيقة حياته وشريكة الأيام الصعبة القاسية التي مر بها . لقد كانت تمينه المشجع له على مواجهة جميع الصعوبات ، وفي جميع الأوقات الجيدة واللحظات السيئة الي لا يمكن ان ينساها أبدا . انها لحظات تعيسة ان يدخل الى المنزل الذي اشتراه مع زوجته تمينه ويعيش فيه من دونها . على كل حال لا يزال البيت مرهونا للمصرف الاقتصادي الفدرالي وهو المبنى الوحيد الذي يملكه بعد عشرات السنين بعد الكد والعمل والذي بنته الزوجة تمينه باصرارها وعنادها الكبيرين .

الوالد يغرق في صمته حياء بعد سكون ألم الذكريات ، ويبحر في تفكيره . أحد أولاده يجلس الى جانبه . وولد آخر يذهب الى غرفة المطبخ بحثا عن بعض المقبلات كقرص من الكبه ، وبحثا عن أي مشروب لتناوله . الوالد يستعيد الزمن الماضي أو يعود الى ما مضى من الأيام ليتحدث عن بلاده البعيدة الأخرى التي تركها وهاجر . انه مجزأ بين أرضين وبين بلادين . كيانه مجزأ وكل ما فيه أيضا موزع . والحديث معه لا يفيد لا في قليل ولا في كثير. وقد اعتاد على القول ان أية مقارنة تضلل ولا تفيد . حتى الصور التي جلبت من لبنان منذ عقود وكانت تزين الجدران لم تعد موجودة . لقد اختفت وتبخرت . يكفي الآن ان يتابع بعض الأخبار . لا يهم . فلبنان الذي يسكن داخل الوالد هو الذي يتحدث ويحدث عنه. لبنان الذي تركه منذ زمن طويل. هذا هو لبنان الذي يهمله أشجار التفاح المزهرة ، واشجار التمر التي لاشبيه لها، و حلاوة أطباق التين التي لا تضاهى

ولا يعادلها ثمر في اللذة . وكذلك الشراب اللذيذ والعصير الطيب الذي يتقطر على الشفاه ، والزيتون وزيت الزيتون ، واللبن الرائب وجبنة حليب الماعز وسياجات المراح حيث يأوي قطيع الماعز . وأشجار أرز لبنان الشامخة والغليظة الجذوع والصامدة والمتحدية التي لا تقاوم ، والتسلق والصعود المحفوف بالمخاطر ، وكذلك النزول المستحيل من المرتفعات الشاهقة . والقفز والسقوط على الحجارة والصخور ، وكسور الارجل والأقدام التي لا تلتئم وتجبر ، ولا تمحى آثارها ...

وبدون سابق انذار ، يتوقف فجأة ، ويُدعى الجميع الى طاولة الطعام . لقد أصبحت وجبة الغداء جاهزة . لكن لم يكد الجميع يبدأون بتناول الطعام حتى بدأ الوالد بمتابعة حديثه الآن عن أقاربه الأقربين وأصدقائه ، وعن التأخير باستلام الرسائل ، وعن ألعابه ونشاطاته الرياضية عندما كان طفلاً ، وعن نزواته في المناطق المجاورة لبلدته ، وعن ارتياحه ورضاه حين كان والده يدعو للذهاب الى المدرسة وعن رغبته المتأججة منذ زمن طويل الخاصة بلقائه لأول مرة بزوجة المستقبل ، وعشقه المفاجيء لها الذي رافقه مدى حياته ، وسيستمر الى ما بعد الحياة .

لقد قدم الطعام أولاً الى الأطفال قبل الكبار . أما الكبار فقد ملأوا أطباقهم بالطعام الساخن الذي يخرج منه البخار ، ولم يبق سبب للذكريات التي تجعل الانسان يقاوم أمام هذا الفيض من المأكولات الشهية التي بدأت بالتناقص ولم يعد يسمع غير كلمات : أعطني كبة مقلية . ناولني ورق عنب قبل ان ينفذ . أما بالنسبة للوالد ، فلا يقول ورق عنب ولم يعتاد الا على كلمة ملفوف . ثم يقول : الكبة بالصينية جيدة ولذيذة . أما اللبنية فقد كانت في الأسبوع الماضي أفضل . وربما يعود ذلك الى اللبن . لكن الحقيقة أن اللبنية التي كانت تحضرها زوجتي تمينه فهي الأفضل والأجود . هو لا يوافق على القول بورق ملفوف بل بكلمة ملفوف (لأن الكلمة العربية هي

ملفوف أي لولبية ملفوفة وهذا بالنسبة اليه هو الأصح) بالنسبة لأحد أولاده ، فانه يفضل الملفوف . دائما كان يقول: لا شيء أذ من وريقات العنب الخضراء الطرية الجديدة الملفوفة وخصوصا عندما تقطف من الكرمة الموجودة في حديقة المنزل الخلفية التي زرعها هو نفسه والتي لم ينس أبداً تقليمها في مواعيدها المناسبة . يطلب كأساً من البيرة ولكن ابنته الكبرى لا تريد أن تعطيه بيرة وتقول له : لقد شربت عرق يا أبي وعليك ان تتذكر ان ما تطلبه لا يلائم داء السكري ، وينبغي ان تتذكر تعليمات الطبيب . في هذه الاثناء يقوم احد أولاده متساهلا فيملأ الكأس بالبيرة ويقول : ان رشفة صغيرة من البيرة لا ضرر منها . وجبة الغداء تصل الى نهايتها ، وصمت عميق يخيم على الجميع . البعض أفراد الأسرة يريد بعد ان تناول الغداء ان يذهب الى منزله ، والبعض الآخر يتمدد ويستلقي على السرير وينتظر الى ما بعد .

في الاسبوع المقبل أو في الاسبوع الذي يليه ، تجتمع الأسرة مرة أخرى في المنزل ذاته لتناول الغداء . المأكولات هي ذاتها تقريبا دون أي تغيير كبير .

في هذا اليوم ، الوالد متوتر . لقد استلم رسالة من لبنان مع خبر وفاة أحد أقاربه وهو من أصدقاء الطفولة . انه لا يستطيع تغيير او تحويل الموضوع الذي يصر على ملاحظته . انه أصبح يتخوف من وصول أية رسالة تصله . فالسنوات تقضي على الناس من أقاربه واصحابه واحدا بعد الآخر وهو لا يزال على قيد الحياة . وبدون أي سبب يغضب من أحد أبنائه ، ثم فجأة ومن غير اي توضيح يقول انه وزوجته تمينه وهي شابة صغيرة حلما بموت طفلهما سمير المبكر . نعم يقول لقد حصل ذلك . انه الولد الأصغر الذي حملته تمينه . وهي منذ تلك اللحظة لم تعد تتحسن . وهنا يحاول أولاده ان يغيروا الموضوع ويتحدثون معه حول مواضيع أخرى عله يتحول عن هذا الحلم .

بعد الانتهاء من تناول طعام الغداء ، يبدأ طقس آخر وهو عادة الوالد على النوم بعد الغداء وكذلك عادة الأولاد أيضاً .
 لم ينته اليوم بعد ، ويجب انتظار الوالد حتى ينهض من النوم . لقد استيقظ من غفوته . كانت غفوة قصيرة .
 الوالد من الذين يحبون مائدة الطعام ويأكل جيداً . لكنه في المدة الأخيرة اصبح يحتاط ويسعى الى اطاعة توصيات الطبيب فالعمر له تأثيره وصحته لم تعد تساعد على الافراط في الأكل ، ولذلك فهو يتجنب الزيادة من أكل اللحوم ، والأطعمة المقلية ويحب القليل من شرب العرق البرازيلي (بيبيدينيا دي بينغا) فيأخذ رشفة أو رشفتين ويكتفي بذلك . هو لا يريد أكثر من التذوق . وعندما يصرون عليه بالنصائح وبأن عليه أن يكون حذرا من الشرب ، كان يردد أبيات من شعر الخيام التي تقول :
 "إن تشرب الخمر تمت ،
 وكذا إن لم تشرب الخمر تمت "
 أي من يشرب الخمر يموت ، ومن لا يشرب الخمر أيضا يموت .
 كان لا يحب شرب النبيذ ، بل يحب شراب العرق فقط . وبعض رشفات من البيرة .
 كانت ضربات عصاه على الأرض وخبطتها بمثابة تحذير وتعني بأنه قد أتى ، وليس بحثا عن مكانه المفضل بالقرب من النافذة أو النقاط مذياعه . يجلس على كرسيه في الصالة وبدون ان ينادي أولاده ، فان جميع أفراد الأسرة يعرفون أنه أتى الى البيت .

الفصل الخامس والعشرون النرد

التصفيق التصفيق (بلاك بلاك) بعد القيلولة هو مؤشر أكيد . لقد حان الوقت لطاولة الزهر . فعلبة النرد جاهزة في الصالة على الطاولة ومفتوحة على مصراعيها ، وحجارتها بالأسود والأبيض وحببات الزهر كبيرة . وقبل ان يستيقظ الوالد من قيلولته ، يبدأ الأولاد باللعب ويتبارون فيما بينهم للتسلية وليس بشكل جدي . يتمرنون ويتدربون ويتحضرون لمعرفة من سيكون دوره اليوم ليبتديء المباراة الجدية ، ومن سيكون الباديء بصف وترتيب حجارة الزهر . يبدأون تدريباتهم برمي حجارة الزهر ليختبروا حظوظهم .

يصيح أحدهم : (هب ياك) . قليل جداً . لا شيء تقريبا . هذا واحد وواحد . يهزأ الآخر متهكما . لكن حسب وضع الزهر على جدول الطاولة يمكن ان يترتب على ذلك كل شيء في المباراة . ويمكن ان يقرر مصير الشوط الأول .

الولد الثالث يرمي حجارة الزهر مستطلعا حظه . يقول : (دوسي) لقد تحسن الوضع . ثلاثة وثلاثة . يعترض الآخر ويقول : أي دوسي؟! لا شيء لا شيء . أنت لا تعرف ما عليك قوله . انظر جيدا . كيف يكون ثلاثة واثنان دوسي ؟ اشرح لي كيف تقول دوسي ؟ ينفجر الجميع بالضحك .

مع مرور السنين ، وبسبب ضعف نظر الوالد ، فانه يفضل ان تكون حجارة الزهر كبيرة وواضحة ليتمكن من قراءة الأعداد بسهولة . فعندما يصيحون (دوبارا) على سبيل المثال ، فانه يريد التأكد من أن الرقم هو بالفعل اثنان واثنان . ولا يقبل أبدا الا ان ينظر ويدقق

ويراقب ويجمع ليتأكد من أن الأرقام صحيحة ، ليس لأنه لا يصدق أولاده أو يشك بهم ، وانما هي عادة متجذرة فيه . وهي جزء من المناخ ، ومناخ اللعب هو أمر أساسي لحسن سير اللعبة حتى يتمكن اللاعب من المحافظة على تنبئه الدائم والمتزايد حتى انتهاء المباراة وكذلك لا بد من روزان حجارة الزهر باليد قبل رميها في الطاولة كما لو كان يراها ويمسك بها لأول مرة كي يؤثر على الخصم ويربكه بحيث يضعه امام عدة خيارات عندما يتوفر له حظ تناول بعض الحجارة ، ودراسة الطرق التي ينبغي ان تذهب حجارته فيها قبل ان يرمي الزهر . واذا أتاه الحظ فعليه ان يستولي على قطع الحجارة الأساسية التابعة لخصمه أو التي تكون في أماكن استراتيجية .

انه يحب ان يرى تراكم القطع التي لم تعد صالحة الى جانب صندوق الطاولة وخاصة قطع الحجارة السوداء (وعلى مضض البيضاء) اذا كانت بطبيعة الحال لخصمه . فهو دائما يفضل أن يلعب بقطع الحجارة البيضاء على الرغم من انكار أي نوع من أنواع الخرافة ، ودائما يقول : لقد اعتدت على ان ألعب بالحجارة البيضاء . لكنه يغيّر الموضوع ويتحول الى آخر كلما ذكره أحد أولاده بالحظ و (المكتوب) . أخيرا ، هو يحب أن يربح دائما في لعبة النرد ، ويقول : قولوا لي من لا يحب أن يربح ؟ هو يعترف انه يربح أكثر عندما تكون معه القطع البيضاء ويلعب بطريقة أفضل . انه دقيق في اللعب ، منتبه ، يقظ ، حريص ، يتفحص المربعات بتمعن ، يزين الأمور ويقيسها مليا ، يفكر ، يُقيّم ، يحسب بدقة لاتخاذ الخيار الأفضل في المباراة . وهو فوق ذلك يحتاط لمواجهة ما سوف يأتي في وقت لاحق من اللعب ويتعلق بالزهر و قطع حجارة الطاولة ليس كل هذا فحسب ، بل لا بد من التفكير السريع قبل اتخاذ القرار وتحريك ونقل هذا الحجر او ذاك تبعا لأرقام الزهر . انه يكره الخسارة ويقول ايضا : قولوا لي من لا يكره الخسارة ؟ ... ينظر

الى الهدايا ، ولا يعترف بالخسارة او ان يكون خاسرا . دائما لديه ذريعة لكي لا يعترف بالخسارة . يحتد . يتوقف عن الكلام . ثم يقول غاضبا : كفى . أريد تناول فنجانا من القهوة كما اريد ان أرتاح واسترخي قليلا ، وبعدها نعود الى متابعة اللعب من جديد . لكنه يستدرك ويعيد النظر فيقول مقترحا ان يتوقفوا عن اللعب أو يمكن لأحد من أولاده ان يكمل اللعب مكانه مرددا : حسنا حسنا . ما دتم تصرون على ان اتابع اللعب ، فاسمحوا لي بعض الوقت لأتناول قهوتي ، واعطوني فرصة لأدخن غليوني . ثم يقول : هيا نعلب شوطا آخر فقط للتسلية . فالمباراة الاولى لم تكن سليمة وخصمه لم يربح .

مضى عدة ايام ولم يحالفه الحظ كي يربح . وكل المحاولات كانت دون جدوى . لا فائدة اذن من العناد وحماوة الرأس وحرق تلافيف الدماغ بالبحث عن مخرج ، ولا فائدة من التعب وبذل الجهد والمشاجرة مع الخصم ، وشتم الزهر ، وخبط الطاولة وأحجار اللعب ، والتذمر من ضجيج الأحفاد اذا كانت حتى قطع احجار اللعب البيضاء لا تسعفه ولا تعطيه حظا ولا تساعده ليربح . لكنه يصر بعناد على متابعة اللعب بما تبقى معه من أحجار مرددا بأصرار : لعبة النرد ليست فقط حظا وانما هي ايضا دهاء وشطارة ويشير الى مجتمه حيث الشعرات البيضاء القليلة والمبعثرة . كل ذلك لاعادة الاعتبار مرة أخرى ، وربما ساعده الزهر على الفوز في هذه المرة . ان يديه تعرف كيف تمسك باحجار الزهر وترميها الى الطاولة ، لكن من الضروري ان تحسن بتحريك قطع الحجارة ووضعها في الاماكن المساعدة على الفوز . كما يجب التنبه لخطط الخصم وحيله ، وأخذ الحيلة لأي شرك لاحق ممكن ان يعده الخصم اثناء اللعب بعد ثلاث او اربع او خمس تحريكات للقطع او أكثر من ذلك . من خلا لذلك يمكن ان تتعرف بشكل صحيح على لاعب طاولة الزهر .

الخصوم الذين يحيطون باللاعب أو الأفضل أن نقول الخصم أي الذين يدورون حول طاولة اللعب من الحضور فانه غير مرغوب بهم من قبل الوالد . فهو لا يقبل بان يكون أحد خلفه ولا الى جانبه لأن ذلك بالنسبة اليه بمثابة فآل سيء وسوء طالع . حتى انه لا يقبل اي اقتراح ولا تنبيه من أي شخص . المطلوب فقط الصمت والسكوت التام من أجل التركيز . التركيز في اللعب هو شيء مهم جدا . لقد رمي الزهر لمعرفة من سيبقى بقطع الحجارة البيضاء ومن سيلعب بقطع الحجارة السوداء . وعلى الرغم من ان الوالد يوسف يفضل اللعب بقطع الحجارة البيضاء ، فانه لا يقبل ذلك الا بعد رمي الزهر ليعرف ما اذا ستكون القطع البيضاء من نصيبه أم لا . فقواعد اللعب هي قواعد يجب ان تحترم . وأصول اللعب هي الأصول التي يجب أن تطاع .

كان نصيبه بعد رمي الزهر اليك واليك كما هو معلوم هو الحظ الذي يرثي له . فماذا يستطيع ان يفعل اذا كانت البداية هي هذه ؟ انه يتمنى الآن ان يكون نصيب خصمه من رمي الزهر هو نفس حظه لأعادة الرمي ، لأن ذلك يعني التعادل . ما ان بدأ اللعب ، حتى بدأ الوالد بالشجار ، والنقاش . انه يريد ايضا ان يثبت ان بالامكان استخدام كل الزهر لاختيار القطع . وعبثا يحاول الأولاد اقناعه ، ويكررون القول انهم لم يسمعوا بمثل هذا الادعاء . ويؤكدون ان رمي الزهر للاختيار هو مرة واحدة . ويبدأون باستشارة الأقارب والاصحاب والاصدقاء وابناء الوطن الذين لا يؤكدون ذلك ولكن الأمر مشكوك فيه أو يتجاهلون لكي لا تتعقد الأمور اكثر من ذلك . حتى في أي كتاب أو أي قاموس أو أي صحيفة أو مجلة هناك تأكيد ان المعتمد هو زهري النرد . والزهر الواحد ليس مؤكد . أخيرا يوافق الوالد ولكنه يقول سيأتي يوم وتكتشفون انني كنت على حق . الآن يتمكن الخصم من الحصول على جهاز في مقابل يك أي اربعة في مواجهة واحد . لقد بدأ يوسف من البداية على غير ما يتمنى ،

ولكن صبراً ، فما زال هناك فرصة أخرى لمعرفة كيف سيسير اللعب بعد الجولة الأولى . لكن البداية الحسنة والانطلاق الى الأمام يعني شيئاً مهماً . الوالد لا يوافق على أن من معه قطع الحجارة البيضاء يرمي أولاً . والآن من يرمي أولاً هو الخصم الذي يحصل على بنج دوسي أي خمسة وثلاثة . انه يضع حبات الزهر بين أصابعه ويفركها . وقبل ان يرمي الزهر ينفخ في كفه لجلب الحظ ثم يرمي فيحصل على دوشيش أي ستة وستة . بالطبع هو يربح لأن ستة وستة أقوى من خمسة وثلاثة . والآن كذلك هناك نقاش آخر لا يمكن ان يؤدي الى نتيجة وفقاً لقواعد اللعبة . ولكن بالنسبة لهذا الموضوع (أين هي القواعد ؟) وأيضا زهر واحد فقط . الوالد يصر ويتمسك بقاعدة اللعبة (أية قاعدة ؟) المسألة ليست واضحة بما فيه الكفاية . من الممكن ان يكون زهر واحد او اثنان . وبحسب التقليد المتبع زهران اثنان . ومن اجل الاختيار بين القطع البيضاء والسوداء ، فانه يقبل في الأخير ويقول ان النقاش هو اضاءة للوقت ويقبل بزهر واحد على مضمض مكررا : لا أريد ان يضيع الوقت في هذا النقاش العقيم . هيا بنا حالا لنباشر اللعب . لقد بدأ يومه هذا منزعجا . لم يستيقظ وينهض من النوم بحالة جيدة . لقد نام بشكل سيء وظلت ال دورسي تعتمل في رأسه . استيقظ بشكل سيء ، وتناول طعامه بشكل سيء ايضا ، وناقش وتحدث بشكل سيء كذلك ، وفوق ذلك كله كانت قطع الحجارة السوداء من نصيبه . وهو الآن عليه ان لا يعترض ولا ضرورة للشكوى . يكفي النظر الى وجهه المتغضن المتشنج ، وشفثيه المضغوطتين ، وعينيه المضطربتين ، والطريقة التي يفرك فيها ويضغط على حبات الزهر بين اصابعه ، وكيف يرمي الحبات بعصبية وغضب في صندوق طاولة الزهر المفتوحة على مصراعها أمامه التي تتحداه بقطع حجارتها المرتبة والمنظمة في أماكنها الصحيحة . القوة محدودة والزخم كبير حتى ان أحدهم يرمي حبات الزهر خارج الصندوق . بل خارج الطاولة. بل

وأكثر من ذلك بعيدا عن الطاولة وتحت الأريكة . الوالد ينتظر ان يعيدوا اليه حبات الزهر . يفكر . يهيه نفسه ويخطط لتحريك الحجارة بشكل يمكنه من الفوز . هاديء . لا يأتي بحركة حتى ولا بترنيمه أو أغنية . حتى تنفسه يكاد لا يلاحظ . فقط خرير خفيف لصدر رجل كهل . لا يسمح لأحد بالتعبير عن أي شيء ولا بالتعليق على سير اللعب . تحسسه انه سوف لا يخرج من اللعب موفقا .

على الجميع ان يصمتوا وان يلتزموا السكوت التام ، لأن التعليقات يمكن ان تحوّل الانتباه عن المباراة . يجب التركيز الكلي على الحجارة ، وحبّات الزهر ، وخانات جدول الصندوق . ولا يجوز غير ذلك مطلقا . للمرة الثالثة يلعب بالنرد بقرار حازم وعزم .

ومرة أخرى يكون اللعب على الأرض ، فهو أقرب وأفضل . يقول : يجب الغاء الشوط الثالث ، حتى ان رميتي الزهر هي أيضا غير صحيحتين ولا يجب ان تستمرا حتى ان اللعب على طاولة غير مفيد بديهيا . يجب اعادة اللعب . الآن نعم .

انظر . يقول : خمسة وخمسة . بداية رائعة مع خمسة وخمسة . هذه العشرة في بداية اللعب تساعد جدا على نصب فخ للخصم سواء في حالة الهجوم أو حالة الدفاع . يفكر : ما هو الخيار الأفضل ؟ الأبن هو الذي يهاجم دائما ، ولكن بقليل من التبصر . ومع هذا فان الهجوم يمكن ان يؤدي الى وضع غير متوقع . لدي مراوغاته وحيله وشطارته . لذلك من الضرورة التنبه الدائم تحسبا للمفاجآت غير السارة التي قد يكون لها عواقب وخيمة في سير اللعب بعد قليل .

يحرك القطع ويتخذ موقفا وسطا بين الهجوم والدفاع وينتظر ان يخرج الخصم . ولكن الخصم يأتي باتجاه حقله ويهاجم . يظهر ان هذا اليوم هو يوم سيء عليه ولا يوافقه الحظ ، فقد حصل أبنه على دوشيش أي ستة وستة بعد رميه للزهر . في الواقع ان الفرق بسيط في البداية ، وعمليا الفرص متماثلة وسير اللعب سيحدد مستقبل

المباراة ، وعندما يصل سير اللعب الى الرمية العاشرة ، فان
أوضاع المباراة تبدأ بالتعین .
الآن دور الأب . الرمية كانت معقولة ثلاثة وأربعة . كان بالاحتمال
ان تكون أفضل أو أسوأ لا . يفكر . لا شيء جيد . ما هو الخيار ؟
ضمان موقع أو المغامرة ؟ ينتظر الجولة المقبلة ليحصل ابنه على
واحد وواحد . يظهر أن الزهر سيأتي لصالحه . يخاطر . لكن لم
يكن موفقا . ما زال هناك وقت . كان عليه ان يفكر اكثر وأكثر .
كان هناك عدة بدائل . عليه الآن أن يتحمل النتائج . لكن كيف ؟
الرميات تستمر لصالح ابنه .
يرمي حبات الزهر بشكل غير مرضي . أصبح بدون مخرج . هناك
الآن خسارتان تقريبا امام ابنه . حجر آخر من حجارته أقفل عليه
وسجن . وحيث ان الخصم لا يفرج عن حجره فسيبقى محجوزا .
وعديم الفائدة . من الضروري مضاعفة الانتباه والحذر . مرة أخرى
يجيء دور الوالد . ينسى حبات الزهر في يده . يطلب اليه الخصم
ان يرمي الزهر ، فيدعو هو الى الهدوء وعدم الاستعجال . يروز
الزهر ويهزه قبل ان يرميه . ينفخه . يطيل التوقف قبل ان يرمي
الزهر . يرمي فتأتي النتيجة دورج . وهذا ما يقلل من وضعه في
اللعب ويعقد الحالة . التقليل ليس حل . انه يريد حلاً . الحل فقط
يأتي اذا ارتكب ابنه سخافة ما او خطأ ما . وهذا لن يحصل لأن
الولد ليس ابله الى هذا الحد . أو يمكن ان يخطيء ؟ مع التأخير هل
يريد ازعاج الخصم ؟ وعندما يتعلق الأمر بالغناء ينسى او يتناسى
قاعدة اللعب التي تتطلب الصمت الذي هونفسه يمدحها . الوضع لم
يعد فقط عابرا بل أصبح من الصعب العثور على الحل . لقد أصبح
وضعا بشعا . كل شيء يشير الى ان الجميع متعبون . واللعب
يشرف على النهاية ولم يبق اكثر من جولة واحدة او اثنتين او ثلاثة
على الأكثر لتحسم النتيجة ، والصعوبات لا يمكن تجاوزها . واذا

الخصم اشتكى من أية حيلة او خدعة عند الغناء ، فانه يجيب بأنه لم يكسر قاعدة اللعب. الغناء بالنسبة له ليس كلاما ولا حديثا .
وعلى كل حال ، فان اللعب صار في مرحلة النهاية وبامكانه ان يتغنى ببعض الشعر . لكن عندما يسمع همهمة او دندنة من أحد يقول :
من هذا الذي يهمهم ؟ ويمكن التأكد انه عندما يبدأ الانشاد بأبيات من الشعر مكتملة ومعظمها باللغة العربية ، وايضا باللغة البرتغالية لبعض الشعراء والفلاسفة الذين هم محط اعجاب ، فان ذلك يعني ان الوضع لم يعد مسيطرا عليه وأصبح خارج السيطرة. ولهذا يحاول الحاضرون اكتشاف الموضوع ، وخصوصا اذا كان الكلام باللغة العربية ، عن طريق التجويد ، والصوت ، والصياغة ، والكثير مما سمعوه ، وذلك لمعرفة مصدر ما يرتله اذا كان من مؤلفات الخيام ، أو سعادته ، أو جبران خليل جبران أو فوزي معلوف ، أو حافظ ، أو ألف ليلة وليلة ، أو ابن سينا ، أو حتى من مقدمة ابن خلدون . وأكثر من ذلك : ففي الحالات القصوى التي يكون فيها في موقف لايمكن فيه الدفاع عن نفسه ، فان الأصح ان ينسحب ويطلب ان يسمح له بالمزيد من الوقت ومهلة للذهاب الى الحمام لقضاء حاجة ، ويفضل دائما القول انه يريد التبويل ولا يجب استعمال كلمة (الشخ لأنها كلمة فاحشة) أو يتذرع بانه يريد أن يسجل بعض الملاحظات باللغة العربية في دفتره الصغير وهو عبارة عن (دفتر مدرسي صغير) يرافقه دائما اينما ذهب ليسجل فيه ملاحظاته .
انه يرفض ان يبوح بما يحتويه دفتره من تسجيلات ، ولا أحد يعرف ما اذا كانت أفكار ، أو ذكريات ، أو عبارات متفرقة ، أو مقاطع من مراحل حياته ، أو سيرته الذاتية التي وعد أبناءه بها، أو اذا كان هناك شيء يحتاج الى تذكره لاحقا ، أو أرقاما حسابية يحتاجها للمباراة القادمة ، أو (شوط لعبة لكي يعالج بها خطأ لعب اليوم فلا يقع به في المستقبل) .
يقول بأسى عندما يلحون عليه ان يوضح لهم ما يحتويه دفتره :

" عندما أموت ، فتشوا عن أحد يترجم لكم ما فيه ، فانكم لم تريدوا ان تستمروا في تعلم اللغة العربية " ويضيف موضحا : " انكم لم توافقوا على أن الرجل الذي يعرف أكثر من لغة ، يعرف على الأقل أكثر من غيره بقليل . ان الذي يعرف قليلا من كل شيء ومن كل لغة ، يمكنه مهما تعقدت الحياة ان يواجه المصاعب كما لو كان يساوي شخصين أو ثلاثة ... "

هذا اليوم ليس يوم حظ للوالد . انه يخسر بشكل بشع . فلقد انقضت المباراة الثالثة ولم يحالفه الحظ ولو بواحدة . ولم يتمكن من رمية زهر واحدة مرضية ، وحبات الزهر كأنها كليا خصمه في هذه المباراة . نادرا ما استطاع ان يحصل على (دوبارة) . وماذا ينفع اثنان واثنان اذا كان لا مكان لاستخدامها ؟ واذا كان الخصم يواصل لعبه وبانزعاج ظاهر ويستمر في تسجيل اربعة وأربعة ، وخمسة وخمسة ، وخمسة وثلاثة ، وستة وستة ؟ وليس هذا فحسب . بل ان هذه الارقام هي اللازمة حقا لاغلاق الدائرة ؟ التشجيع وتذكيره بانه في الاسبوع الماضي قد كسب جميع الجولات لا يفيد لا في كثير ولا قليل . فالاسبوع الماضي مضى ، والآن هو الآن . وهذا الآن هو المهم .

الوالد يروز بيده قطع الزهر . يشتم حبات الزهر . لقد جرب جميع المناورات التي تخيلها . لكن كل المناورات والتحركات كانت عديمة الفائدة . أخيرا ، يلتفت ، بشيء من عدم الارتياح وعدم الرضى ، الى خصمه الذي غير مكانه مع آخر ويقول له : لا فائدة من اللعب معك . انت لا تحسن اللعب . لقد أزعجتني بطريقة لعبك البلهاء . لا فائدة ابدا من هذا اللعب . أي لعب بشع هذا وفظيع ؟! وقد ربحت مع انك لا تحسن ولا تعرف اصول اللعب ؟ ! اذهب . اذهب حالا واتركني بسلام حبا بالله . اعطي مكانك لأخيك . انه يعرف اصول اللعب ، ويعرف كل شيء ، وكيفية اللعب وتقنية النرد . اترك اللعب للكبار الذين يعرفون الأصول والقواعد والذين هم اساتذة في هذا المجال .

الجميع يبتسمون ويسعون للتمويه عن انفسهم . لقد فهموا الآن انه جاء دور الأبن الأكبر ليشارك في اللعب وهو الذي يتنكر لأي لعب ولا يكثر كثيرا لذلك .

يقول الوالد وبعزم وتتطرف : نعم الآن يحلو اللعب . اسمحوالي ان ألعب شوط واحد لتروا كيف يكون اللعب . وسوف ترون جمال اللعبة . فالمسألة ليست مسألة فوز أو خسارة . فموضوع الفوز والخسارة هو موضوع ثانوي . المسألة هي هي مسألة خبرة وحسن المناورة في اللعبة . ومسألة الانسجام والتناغم والمبارزة والاستراتيجية المعتمدة . عذرا اذا كررت مرة اخرى وقلت انه بالنسبة لكم اللعب هو رمي الزهر كيفما اتفق ، أما بالنسبة لي ، فان اللاعب الأفضل هو الذي يمتلك رؤية تامة لجدول خانات طاولة الزهر ، ويحسن وضع قطع الحجارة في مواضعها الدقيقة ولديه احساس تام وخبرة في موضوع لعبة النرد ، ويرمي الزهر باتقان وجودة ويسميها لعبة النرد بدلا من لعبة الطاولة . فلعبة النرد هي ايضا علم كعلم الشطرنج لا تعتمد فقط على الحجارة والبيانات ، بل هو علم . والنرد هو سهم او نبلة في يد الرامي المعلم الخبير . وهنا صرخ الجميع بصوت واحد وهم يمزحون : نعم يا أبي . نعم . انه يخسر دائما ضدك . يقول لهم : ولكن بدون شك هو يلعب بشكل أجمل وأفضل . . ومرة أخرى هيا بنا جميعا نشهد على ذلك .

الفصل السادس والعشرون

الاعتزاز

الوالد يوسف يتقاعد ، ولكن ليس عن رضى واختيار . انه مرغم على التقاعد لأنه من المستحيل ان يستمر وحيدا في ادارة محله التجاري. لقد صار من الصعب عليه حتى ان يتمشى من شارع أفينيدا ريو برنكو الى بادري ميغيلينيو. لقد استقر في المنزل وقليل ما يخرج منه . احيانا يقوم بزيارة الى اصدقائه في سوق التجارة العامة ، والى بيوت الاقارب ، كما صار أنيا يذهب الى ساحة نوفمبر ويجلس بعض الوقت تحت شجرة التين هناك حيث يلتقي بالاصحاب المعروفين ، ويحاول ايجاد صداقات جديدة . لقد اصبح من السهل عليه معايشة الناس ومسايرتهم بعد ان اصبح يعرف الكثير عن البلد والناس والاشياء ، ويحسن التفاهم والتواصل مع الناس ونقل افكاره بسهولة الى من يلتقي بهم . أحيانا يكون مزعجا مما يجعل الآخرين يسعون الى تغيّرات مفاجئة معه فيقابلون طبعه الحاد بشيء من اللطافة وينسحبون من الحديث معه .

مع مرور الزمن وتعاقب السنوات يصبح الانسان كثير التصلب والعناد مع حلول الشيخوخة، فيصبح قاسيا لا يرحم ، ويغرق أكثر وأكثر في الماضي ، ولا يعود يستطيع مواكبة الحاضر . وعندما تسمح له الظروف في بعض اللحظات يحاول ان يسجل في دفتر مذكراته بعض الملاحظات ، ويملاً بعض الصفحات بأشياء عليها تساعده على استرجاع العالم الذي فقده الذي يشكل لوح واجهة

حياته حيث تتراءى الأحلام ، وآمال ، واليأس وفتور العزيمة ،
والسعادة ، وخيبات الأمل .

وكنقطة مركزية في حياته ، تبقى زوجته تمينه محور كل شيء
بالنسبة له . وذات يوم يقف شاردا حائرا امام حدث اختفاء دفتر
ملاحظاته ومذكراته ، فيستشعر أولاده بان شيئا ما قد حصل لوالدهم
. والحقيقة انه لا مجال لمعرفة ما هو مسجل في الدفتر على وجه
اليقين . ويمكن ان يكون الوالد قد سجل في دفتره بعض الاحداث
التي حصلت في لبنان او في البرازيل ، أو سجل بعض الأشياء عن
الطفولة ومرحلة المراهقة في بلاده قبل ان يهاجر ، أو يمكن ان
يكون سجّل شيئا عن ظروف السفر والعراقيل التي تعرضت لها
أسرته ، والبداية الصعبة بعد وصوله الى البرازيل ، والسنوات
العجاف التي قضاها في المهجر وما مر عليه وعلى أسرته. لقد كانت
محاولة معرفة ما كتب في ذلك الدفتر دون جدوى. وكان ابنه يحاول
ان يعرف ما هي المرحلة من حياة الوالد التي يحتفظ بها في دفتر
المذكرات ؟ وكلما ألح عليه بأن يقرأ له شيئا أو مقطعا ويترجمه له
، كان دائما يكرر فقط : " عندما أموت ابحثوا عن شخص يترجم
لكم ما كتبت " .

كان يرفض الدعوات ولا يقبل مطلقا أية استفزازات . يقول مؤكدا :
"والله لم يخطر ببالي أبداً ولا مرة أن أعود الى لبنان وأسترد أية
ملكية لي هناك . نعم أشعر بالحنين ألى هناك . أشعر. ولكن الآن لا
أنوي حتى بالقيام بزيارة سياحية. عندما كانت تمينه على قيد الحياة ،

كان ذلك ممكنا . أما اليوم فلا " وأخيرا يمزح ويقول : " لقد حصلت على هوية الاقامة الدائمة في البرازيل موديل 19 وهي تعطيني الحق القانوني لأبقى في البرازيل وأحصل على الجنسية البرازيلية فلماذا تريدون أن أخرج من البرازيل اه ؟ هل تعبت مني هنا ؟ ثم يتابع ويأخذ الأمور على محمل الجد ويقول : ابنائي وأحفادي يعيشون هنا ، وقريبا سيولد أحفاد الأحفاد . وزوجتي تمينه وأولادي سميرو وفدوى دفنوا هنا في هذه الأرض وأنا أيضا سوف أدفن بجانبهم في نفس هذه الأرض . " يسألونه أولاده : لماذا ترفض السفر ؟ أتخشى شيئا هناك ؟ يجيب : لا أدري . لقد حصلت تغيرات كثيرة خلال هذه السنوات الطوال ، والكثير من الأخبار والحوادث انتهت واصبحت طي النسيان . وخلال السنوات الأولى حتى ولو كان يرغب بالسفر الى لبنان ، فان الشك حول الاوضاع هناك يثير الاضطراب في الفكر ، وربما لا . لكن أين هو المال والأحول كانت من سيء الى أسوأ ؟ الأسرة كانت تكبر والمشاكل والمصاعب كانت تزداد أيضا . الكد اليومي والعمل الشاق كان هو الغالب . بعدها فقد الرجل زوجته وصار أرملا . وعندما صار بإمكان أولاده ان يتشاركوا ويتساعدوا بشراء بطاقة السفر ومصاريفه ، فقد الرغبة ولم يعد يفكر بالسفر الى بلاده . ويرفض بشكل قاطع أي اقتراح بالسفر ويهز برأسه ان لا فائدة من ذلك ولا يمكن ان يسافر . لقد تأخر الوقت كثيرا وفات الأوان . وأحيانا كثيرة يبقى صامتا ولا يرد على اقتراح أولاده بهذا الخصوص عندما يقولون له: اننا مستعدون ان نشترى لك بطاقة سفر بالطائرة يا أبي، ونعيّن لك موعد السفر . بلّغ الأقارب هناك . سيكونون مسرورين لذهابك الى لبنان . وانت ايضا ستكون راضيا

ومسرورا أيضا . كل شيء أصبح اليوم أسهل من الماضي . نرجوك قم بهذه السفرة الى لبنان ، وعاود التمتع برؤية ارض بلادك والكورة التي تحب وتتحدث دائما عنها . وأنت لست ملزما بالبقاء هناك . اذهب وعد عندما تريد . يستمر في الرفض ويقطب وجهه قائلا : " لو كانت والدتكم على قيد الحياة ، ربما كان ذلك ممكنا ، وكان بالامكان البحث في هذا الموضوع " ثم تنفرج أساريره فيقول : " كم من مرة ، وفي كثير من الأحيان كنت ووالدتك تمينه نتحدث في الليالي في هذا الأمر ... ؟ " يتوقف عن الكلام يغير الموضوع .

يطرق حياء . يتذكر طفولته عندما كان في كفرساروم ، وجنون الشباب . ويتذكر تمينه في أميون ، فتغيب كل الأعذار والذرائع عن مخيلته لرفض مثل هذه الرحلة ، ويتساءل في نفسه كيف كان يؤجل ويرفض رؤية أنسبائه وأصحابه وجوقة العائلة ، ويتذكر كيف كانوا هناك يجتمعون ، ويقضون احلى اوقاتهم وهم يتكلمون العربية مع اصحابهم؟! ومن أجل التحول عن هذا الموضوع المؤلم يطلب من أولاده ان يتركوا موضوع السفر الى وقت لاحق : " من يدري ؟ ربما أقرر السفر بعد عودتكم . لا تنسوا ، فانني أريد ان تجلبوا لي معكم قليلا من الزعتر والتمر . أه كم لذيذ التمر الذي كنت آكله أيام الطفولة ! " كل هذا الكلام كان ذريعة . وهو يعلم أن لا أحد يمكن أن يحكم على المستقبل أو يضمن ما سوف يحدث . لكن كان ذلك الكلام ليكسب الوقت ، فهو يعرف انه ينتظر أيامه الأخيرة . وهو لا يطلب الموت ويستعجله كما انه لا يخشاه .

في الآونة الأخيرة ، قال ضاحكا : " اذهبوا أنتم مكاني الى لبنان ، وسوف تشاهدون وتتعرفون على كثير من الأشياء والمعلومات الي

أعرفها ، وبامكانكم بعد ذلك ان تقابلوها وتقارنوها مع ما حدثتكم به وما رويته لكم . اتركوا جانبا حالة الشك التي تراودكم هنا واذهبوا لتتأكدوا بأنفسكم انني ما كنت مبالغاً في حديثي . قولوا بصراحة ألا تشعرون برغبة لزيارة لبنان والتعرف على بلاد أجدادكم؟" في أعماق صدره يكمن صداً من الشك وهو سبب آخر يجعله يرفض بشدة كل الدعوات المتكررة لزيارة لبنان ، أسئلة تعتمل في رأسه مثل: "أي لبنان يريد زيارته؟ وأية أميون؟ وأية كفرساروم؟ وما هو؟ وكيف أصبح نمط الحياة هناك؟ وما هي التغيرات التي حصلت في الأعراف ، والعادات ، والتقاليد بعد هجرته؟ ومن هم وكيف هم الأقارب والأصدقاء الذين بقيوا على قيد الحياة؟" المعلومات المتواضعة والضئيلة التي كانت تأتي من لبنان عبر الرسائل المتباعدة والمتقطعة ، والأخبار النادرة التي كانت تصل عبر الأخبار ووسائل الاعلام كانت كلها مخيبة للآمال . لكل هذه الأسباب التي كانت تراوده في قرارة نفسه ، كان يقول بانه لن يعود ابدا الى بلاده . واسباب ذلك تعود الى حوادث الاقتتال الغرائزية التي تجري بين المسلمين والكاثوليك والأرثوذكس ، والى دمار وخراب الأرض الناتج عن تناحر العرب واليهود ، والى كل شيء هناك يجعل التفاهم غير ممكن . متى يكتسب هذا العالم الذي خلقه الله عقلاً؟ انتقامات وأموات وشبيبة تقتل تباد . أين هو لبنان القديم المبارك بجماله وطيبة شعبه؟ أين هي بيروت الرائعة بتراثها الثقافي؟ لقد كان ذلك البلد الصغير واحة في الشرق .

الذي كان يسعى اليه الوالد ويخشى ان لا يلاقيه ويستعيده كما هو

في ذاكرته وأحاسيسه هو: لبنان أيام زمان الذي تركه منذ سنوات عديدة واستمر، فقط، في داخله سليماً. انه يتنهد ويحن الى تلك الطفولة المنطلقة في برية الوطن. يحن ويتوق الى الحب الطاهر المتلهب بين طفلين في أول لقاء لهما، وخلال أول نظرة عندما التقيا محض صدفة أو بفعل القضاء المكتوب والذي لا مفر منه. ومنذ ذلك اللقاء أصبحا حبيين عاشقين لا شيء يستطيع أن يفرق بينهما حتى الموت نفسه. انه يتأوه ويشتاق حتى الى اللحظات التعيسة والسيئة، والى الكسر الذي حصل لقدمه في لحظة مؤلمة والذي لم يلتئم أبداً، والذي حصل اثناء تلك المغامرة الطائشة بسبب الغطرسة التي كانت استجابة للتحدي في الذكرى المئوية لأرز لبنان. وسواء

كان لوحده أو محاطاً بأولاده، فان لذلك قليل أهمية. لقد نسي الكثير من ذكرياته، والذكريات التي يسترجعها مبهمه ومختلطة. وبينما هو يتحدث عن ذكرياته في لبنان التي تعود الى سنوات الطفولة والمراهقة، يقفز فجأة الى كل العالم العربي الذي يحمله في صدره بفخر كبير، وتختلط العوالم العربية في رأسه فيقول ان لبنان الذي يعرفه ليس لبنان الموجود على هذا النحو المعروف الآن. لقد كان لبنان بلداً رائعاً ازيل من الكتب، والتواريخ، والقصص والروايات الشفوية. ان لبنان الذي يعرفه ويتحدث عنه هو لبنان الذي كان قبل هذا اللبنان. كان يرفع رأسه ويحاول عبر نظره الضعيف تعرية الماضي وافشاء اسراره مشيراً بأصبعه، وفاتحاً فمه بهمهمات وهمسات، ثم رافعا صوته بشكل عال متسائلاً: هل أحد اليوم يتذكر صلاح الدين؟ وماذا كان هذا السلطان يمثل للعالم؟

وللعالم العربي ؟ ألا تتذكرون أم أنكم لا تريدون أن تتذكروا ؟
 وكنوز العلوم العربية في مكتبة الاسكندرية ؟ والحضارة التي
 زرعت في شبه الجزيرة الايبيرية في بلاد اسبانيا والبرتغال ؟
 وروعة بهاء تلك الحقبة من التاريخ التي لا تزال انعكاسات انوارها
 تمتد وتلفحنا حتى أيامنا هذه ؟ ومن يزور اليوم اشبيليا ، وقرطبة ،
 وغرناطة ، ويطلع على اللغة الاسبانية والبرتغالية ، يكتشف أن ربع
 كل لغة من هاتين اللغتين هو من جذور عربية ، ويكتشف أيضا عبر
 البحث والدراسة ان ما بقي من فنون العمارة ، والرقص ،
 والموسيقى ، والآداب ، والعلوم والرياضيات ، ما يثير دهشة العلماء
 والدارسين حتى الآن .

بعد هذا يتوقف ليستريح قليلا . يصمت خجلا . ثم يطلب من الذين
 يستمعون اليه مع هزة رأسه : تأملوا وفكروا ، هل بالغت في كلامي
 وذهبت بعيدا ؟ يجيب : لا . ثم يستأنف حديثه ويقول : من أكون أنا
 لأعلمكم ؟ لا بد من أن تكونوا فكرتم وقلتم في أنفسكم : ان هذا الكهل
 قد أصابه خرف الشيخوخة . لكن قولوا ليشيئا عن العصر العباسي
 من القرن الثامن عشر الى القرن الحادي عشر ؟ لا يمكن لأي
 شخص على درجة وسطى من العلم ان يتنكر ويتجاهل ذلك العصر
 المتألق والثري بالانجازات والذي لم يفقد قيمته وألقه في موازاة
 النهضة في ايطاليا . أليس كذلك ؟ وهل يجوز تجاهل ذلك ؟ لقد
 عرف هارون الرشيد فقط بسبب المسلسل الروائي " ألف ليلة وليلة "
 وأي شخص قرأ أو سمع تلك القصص البديعة التي تركت آثارها
 البارزة في الأدب العالمي ولم يقفز اعجابا وتقديرا ؟ وماذا نقول عن
 ابن رشد الذي لا يقل أهمية عن ابن سينا وان كان أقل شهرة لدى

العامّة ؟ وماذا نقول عن مقدّمة ابن خلدون التي ما تزال حتى يومنا هذا تثير الرهبة والاعجاب لما تضمنته من المعارف والاستشرافات ؟ لا مجال لمقاطعته . فهو يستمر في الكلام عن المساهمات الهائلة التي تركت في جميع حقول المعرفة وفي مجال العلوم ، والفنون ، والآداب . لقد حان الوقت ان نستذكر شعراء البلاد الأحياء وأخص بالذكر في هذه اللحظة الخيام . طالبا اليهم أن يسمعوا ما تركه هذا الشاعر قائلاً : "اسمعوا . انتبهوا جيدا الى مدى الحقيقة التي انطوت عليها هذه الآيات الشعرية الرقيقة :

" لماذا مع الزهرة ينتهي الربيع
والشباب لا يدوم لأكثر من لحظة فقط ؟ "

يتوقف عن الكلام كمن يسعى الى ان يتذكر أكثر من ذلك . لا ! لكن مجرد ذريعة أو تعليل لما سوف يتابعه . وهو موقف من يريد من الجميع ان يصغوا اليه، وان يسمعوا الاشعار التي كانوا قد سمعوها سابقا ويعرفونها ، لكنهم ايضا لا يتعبون من سماعها مرة أخرى . وما ان يتابع حديثه حتى يستأنف القصة التي توقف عن سردها والتي يفضلها أو التي يعتبرها كنزرة الى العالم والحياة :

" والبلبل الذي كان يغني منذ قليل ؟

من أين جاء ؟

والى أين ذهب ؟

من يدري ؟! "

ليس ، فقط ، هم القدماء الذين يتذكروهم ، ولكنه يفضلهم . هناك مفكرون من الأمس ، وآخرون من هذه الأيام كجبران خليل جبران

على سبيل المثال . يتوقف الوالد مرة أخرى للراحة . يصمت ،
ويبدو تعباً ، أو انه يفكر بشيء آخر مختلف ثم يقول : والحكايات
الخفية والاسطورية الغنية جدا بالحكمة الناتجة عن مخيلة خصيبة
تعيد لي الفخر بأن أكون عربيا . لا يهم أي نوع من العرب . ومن
أي عصر أو أية فئة أو أية طائفة أو أي دين !؟

لقد كان يحب ان ينقل التعاليم من خلال تلك القصص الاسطورية ،
وتقاليد شعبه القديمة التي تعود الى آلاف السنين . وكان يتذكر في
كثير من الأحيان ، وبشكل خاص ، قصة الغزال أمام نبع الماء ،
والذي كان يحرق بالماء فيرى ساقيه نحيفين جدا فيشكو من ذلك
ويقول: لماذا هذان الساقان نحيفان ؟ ويتباه بقرنيه الكبيرين الجميلين
. وعندما طارده الصيادون ساعده ساقاه على الركض والفرار في
الهواء الطلق فنجا من الصيادين ، ولكنه عندما وصل الى الغابة
المتشابكة الاشجار علق قرناه بالاغصان الملتفة ، فتمكن منه
الصيادون واصطادوه . وقبل ان يموت ، قال في نفسه : مسكين أنا ،
لقد شكوت من الساقين الرقيقتين الرشيقتين اللتين أنقذتاني من
الوقوع فريسة بيد الصيادين ، وأثنت على قروني التي سببت لي
القتل .

الفصل السابع والعشرون

الخيوط

الذاكرة تتصدع ، تطوف على السطح ، تتحلل ، تنضغط .
 وخيوط الذاكرة تترابط وتتقطع . وشظاياها تختفي ثم تعود الى
 الظهور حيث يخلو للبعض ان يسترجعها اكثر وضوحا ، ويستمر في
 حيازتها والحفاظ عليها . ولماذا آخرون يرغبون تجاهل دالاتها غير
 السارة ؟ او بغير معنى وتظهر لديهم مشوهة وبشكل ثابت ؟ ان من
 الضروري ملء الثغرات التي تسبب المتاعب . وكل جهد واعي هو
 عديم الفائدة . الذاكرة لا تملك المنطق الديكارتي ولا تسمح لنا بان
 نشير اليه في اي وقت مما تسبب في ومضة من الزمن استعادة كل
 ما تم تغييره سليما وواضحا . انها لا تخضع للمنطق . ومن غير
 المفيد ان نعانده ونجتهد ونسعى لاعادة بنائها بشكل منتظم فتهتدي لما
 ضلت عنه ، وتعيد كل ما ذهب وانتهى ليبعث من جديد كائنا كما
 كان ، متطابقا او معدلا ، لا يهم . حتى أنه يمكننا في لحظة غير
 متوقعة ، وبغض النظر عن أرائنا ، ان نعود مرة أخرى الى تلك
 اللحظة الضائعة التي تظهر أمامنا بكل ما تحتويه تقريبا من
 المكونات الجديدة التي تتجسم بشكل لا نعرفه ؟ . اذا كان الامر كذلك ،
 وفي هذه الحالة ، فما هي الآلية الداخلية التي تم تفعيلها وتحميتها كما
 لو كان من يحرك نارا هادمة في ليلة شتاء باردة ؟ أو على الأصح ،
 ماذا يمكن ان نتخيل الآن بعد الاسترداد التام للأمس وما حدث فيه ؟

وحتى لو اعتقدنا اننا تمكنا من الماضي و صار في حوزتنا ، فانه لا مفر من وجود هفوات ، وحصول اخفاقات ، وكذلك فواصل وتصدعات غير مفهومة . انها عملية معقدة تخرج عن نطاق السيطرة ، ويبدو أن كل شيء يؤدي الى اتخاذ اجراءات انضباطية . ان ما يصل الينا ، أحيانا ، ليس ذاكرة حيّة ومعاشة، أليست هي ذاكرة الآخرين التي تتلبسنا ؟ وتتجسم فينا ؟، وتصبح كأنها ذاكرتنا مع انها ليست سوى شبح او تمثال فقط ؟ من يدري ؟ فأجلا أو عاجلا ، لا بد للسنين من أن تنقطر وتتدفق ، وتتصادم فيها الظروف الآنية والحوادث والاحداث . والا لماذا الفترة من الحياة الاكثر حضورا هي الفترة الماضية البعيدة الاكثر بعدا ؟ و في بيغواسو على سبيل المثال ؟ فالماضي البعيد دائما يتشبه بان يظهر ويسيطر وينتشر ويكبر حتى ولو بشكل تعدي وغير ملائم أو غير مريح . وسواء كنا متنبهين أو غافلين عما يحيط بنا ، وما نراه أمامنا ، وما نهجس به ونستشعر من سوء ، فقد تطرق سمعنا فجأة كلمة مشوشة ، وصوت آت من بعيد غير مميز وغير واضح ، ومشهد طبيعي لكنه على تخوم مسافة بعيدة ، وأريج زهرة بدلت لونها ، وهيكل شخص بشكل عابر سبيل ، ومقتطف مقال مقروء ، ومدونة موسيقية مجهولة ، وموضوع شيء غريب لا نعرف ما هو . ونعاس ونوم وحلم يقظة متوترة وصراع نخوضه لاستعادة صورة لشيء غير معروف يلحق بنا على حين غرة ، وكل شيء ينفجر أو يمكن أن ينفجر حركة فعل لم يعد بإمكاننا ضبطها والسيطرة عليها ويمكن ان تحمنا وتقودنا الى حيث لا نعرف الى أين . فمتى نصل الى المعرفة؟

مع مرور السنين التي تنتهي الى الطفولة ، وسريعا الى الشباب ، وبأسرع الى الشيخوخة ، هناك نوع من انعكاس او انحراف دقيق وحاد بحيث يصبح الابدع النائي هوسا حاضرا ، والجديد الأحدث يختفي ، ويتلاشي ، ويصبح سرايا ، ويتبخر . ننسى اليوم ما أكلناه بالأمس .

يجب علينا ان نعمل بما هو معنا ، وبما تبقي معنا . علينا ان نناضل بانتظار اللحظة المؤاتية . إلا أن كل هذا هو مستقل عن قوة الإرادة ، وعن العوامل التي يمكن ان نسيطر عليها ونضبطها . فجران التيار يتدفق ويتوقف بشكل غير متوقع . ولذلك ، فان من الضروري جعل الصبر هو الرابط المحوري للرتابة ذات الصلة بحثا عن فعالية وهمية لكي تجمع وتوحد ، بهدوء ، جميع الخيوط بشكل منسجم اذا أمكن ذلك .

المشهد واضح : السفينة تستعد للرسو وتقترب من شاطئ المدينة الصغيرة . بعد قليل نعرف انها جزيرة ويكون وصولنا الى مدينة فلوريانوبوليس . المفاجأة يليها التوضيح : النتيجة ان الوالدين لم يتعبا من التكرار والانشغال بالعائلة، ويجب التفكير والقيام باي عمل نحوها وبأية طريقة . حسناً . ألم يكن الاختيار الفوري لبلدة سان بيدرو دي الكانترا هو المحاولة الأولى تقريبا للاستقرار ؟ واذا لم يوجد أي خيار ، أليس من الضروري الخضوع لأي شيء حتى ولو كان جبراً ؟ فالواقع لم يكن أبدا واضحا بما فيه الكفاية . ولو كان واضحا ، هل حصل الانتقال من بلدة سان بيدرو دي الكانترا الى بلدة بيغواسو الفوقا ؟ أو من سان بيدرو دي الكانترا الى بلدة راشاديل ؟ والأغرب من ذلك ، اذا كانت راشاديل هي أيضا منطقة يستوطنها

ويهيمن عليها الوجود الألماني ، واذا كان الشك يستمر بدون حل ، وبدون إيضاحات مقنعة ؟. بعض المشاهد او الحلقات العرضية تتوارى لتساعد على اعادة تكوين اللوحة ان لم تكن على اساس المعرفة الخاصة ، فهي على الأقل تعتمد على السمع مرارا وتكرارا وفي جزء منها على سيرة الوالدين الذاتية .

أيضا في بلدة سان بيدرو دي ألكانتارا : لقد أصبحت الوالدة تمينه في مرحلة متقدمة من الحمل ، والوالد يوسف مسافر خارج البلدة، والخال حنا يعمل ويشغل في اعمال بناء الكنيسة . الاطفال يلعبون مع اترابهم في لعبة الدائرة حيث يمسك الاطفال بأيدي بعضهم البعض بشكل دائري ويبدأون بالدوران . ومع كل دورة ترتفع وتيرة الحركة ويصير دوران الأطفال أسرع وأسرع . وفي لحظة من لحظات اشتداد السرعة بدأت تنفتح أيدي الأطفال وتتفرج أصابعهم عن بعضها . ونظرا للسرعة الكبيرة ، انفلتت يد الصبي وكان عمره خمس سنوات. لم يستطع السيطرة على توازنه فسقط على الأرض فوق حجر حاد مما سبب له ألما مبرحا لا يطاق في ذراعه ، فتخدرت أصابعه وأصيبت بالشلل الذي امتد الى عنقه وحتى أعلى رأسه ، وانشل جسد الطفل من أعلى الرأس الى الصدر حتى كتفه الذي كسر نتيجة السقوط على الارض . وانفجرت صرخة عنيفة من الألم الشديد الذي أصاب الطفل الذي بدا عاجزا عن النهوض وملاً صراخه المتردد جميع الأرجاء المحيطة . سمعت الوالدة تمينه صراخ ابنها . اندفعت لمعرفة ما جرى للطفل ، فعاودتها ذكرى بعيدة ومشهد قديم لحبيبها عندما سقط من شجرة أرز في لبنان أدى به السقوط الى كسر قدمه هناك . هناك كسر قدم، وهنا كسر كتف

بالإضافة الى حالتها و غثيان نفسها من جراء الحمل ومشهد الطفل وهو على تلك الحالة والى جانبه الأولاد الخائفين المذعورين، بينما اختفى الاطفال الآخرون وولوا هاربين. تمينه تنحني بصعوبة وتريد ان ترى حالة الطفل وتساعده . لكنه لم يتوقف عن الصراخ لشدة الألام . فتبدأ بالأنين الى جانب طفلها ويرتفع صوتها مناديا : حنا . حنا . أين أنت يا حنا ؟ ثم تنادي وتنادي بأعلى صوتها :يا حنايا حنا، فيملاً صوتها أرجاء الجوار ويبدأ الجيران بالظهور من البيوت المحيطة . وما هي الا لحظات حتى ظهر حنا وخلفه ايضا اناس آخرون . والجميع في حالة ارتباك ودهشة لا يعرفون ماذا يفعلون ولا كيف يتصرفون . وفي نفس الوقت بقيت الوالدة تمينه تطلب وتستغيث، محبة لله، ان يساعدها في انقاذ طفلها . في هذه الاثناء يصل الحلاق المجاور ويبدأ مباشرة بمساعدة الطفل ولف عصابة على عنقه حتى الكتف ويضع قطعة من الخشب على ذراع الطفل ويثبتها ويربطها بخرقة من القماش حتى تتوقف الذراع عن الحركة.

هل يستطيع طفل ابن خمس سنوات ان يتذكر تماما حادثة وقعت له وعاشها بصورة حيّة وحقيقية ؟ أم أنه يعتمد في تصورها وتذكرها على ما نقلته له أمه من الهلع الذي أصاب كلاهما لدرجة ان ما نقلته اصبح خاصا به، ويتظاهر بانه يتذكر الألم الذي كان يشعر به دون ان يكون في الواقع يشعر بحجم ذلك الألم ؟ وخاله ، ألم يكن لا يزال يعيش مع تلك الأسرة حتى ذلك اليوم ؟ أو حتى أن الوالدة كانت في حالة ارتباك وتخلط الأمور بعضها ببعض ؟ وصراخ الأم وصل الى سمع جار ذهب ليبحث عن الجار الحلاق ؟ وهل انه صار الطفل أعسرأ نتيجة لذلك السقوط والكسر، أو أنه كان شبه أعسر بالولادة ،

والمسألة تحتمل الوجهين ؟

المشهد واضح : الرجل يتوارى . لقد اختفى . أما الشكل الذابل الباهت فلا يزال قائما . الطفل بلغ العمر الذي صار بإمكانه فيه ان يبدأ تعلم القراءة والكتابة . ينطق ويتكلم كما ينطق ويتكلم سائر افراد العائلة التي تتكلم مزيجا من العربية والبرتغالية وشيئا قليلا من الألمانية وهي عبارات وبعض الكلمات التي تعلموها الأولاد خلال احتكاكهم بالاطفال الآخرين في الماضي عندما كانت الأسرة تقيم في بلدة سان بيدرو دي الكانترا .

وفي بلدة راشاديل حصل مع الأسرة ما حصل في بلدة سان بيدرو دي الكانترا ، لأنه لا يوجد مدرسة لتعليم اللغة البرتغالية . ولذلك فان بداية تعليم اللغة العربية كانت في منزل العائلة وعلى أيدي الوالدين وكذلك شيء ابتدائي من اللغة الألمانية مع معلم خاص . لاحقا اكتشفت العائلة ان تعلم هذه اللغة لا جدوى منه ولا يفيد الا للتكيف مع البيئة التي يكثر فيها الألمان ولتلبية بعض الحاجات المحلية . في وقت لاحق، حصل صدفة على نسخة جيدة تتعلق بقضية التعليم وهي عبارة عن كتاب نشر مؤخرا في حقبة الستينات في الولايات المتحدة الأميركية وهو كتاب " ذي فالي أوف لاتين بير " للمؤلف (ألكسندر لينارد) والمقدمة ل (روبرت غريفيز) . يجمع المؤلف في هذا الكتاب أمثلة كثيرة من اندماج الكلمات واعادة استخدامها ، وقد أخذت هذه الكلمات من قرية اخرى نائية برازيلية فيها ايضا وجود كبير ألماني . السيدة إيما هي لاجئة من هنغاريا وتقيم في مدينة إيتاجايي . والكاتب ألكسندر لينارد هو ناشط انساني

اجتذب تلك السيدة بكل لطافة وطبع خلوق وقد تبناها كما لو كانت ابنته وأخذ يسجل عاداتها وتقاليدها النموذجية ، وكذلك تسجيل اعادة انشاء وملاءمة او اعادة مطابقة وتطوير اللغة بحس وادراك نادريين.يقول الشاعر الروائي والمؤرخ الانكليزي غرافيز:

a complex local patois , an equally complex
morality and very little government control

ان تعقيد اللهجة العامية المحلية هو على نفس القدر من التعقيد المناقبي وقلّة السيطرة الحكومية .

فقط في سان بيدرو وراشاديل كانوا ينطقون بلهجة معقدة محلية وكانت سيطرة الحكومة قليلة ومحدودة للغاية .
المشهد واضح .

اليوم هو يوم الأحد . الوالد انتهى من تناول قهوته الصباحية . لا يزال الوقت باكرا . يخرج الوالد من الداخل الى أمام المنزل فيجد الممر فارغا من الناس . يعود ويدخل الى البيت ثم يفتح باب المتجر ويتناول دفتره القديم الذي قرأه واعد قراءته مرارا . أما في داخل المنزل ، فان الوالدة تمينه كانت تهتم بالأولاد والعناية بالباسم ثيابهم وبعد ذلك تحضير طعام الغداء . الوالد يوسف يرفع رأسه ويحول نظره عن الكتاب ثم يرفع صوته مناديا زوجته تمينه وطالبا منها أن لا تنسى وعاء الماء. بعد قليل يبدأ وصول مجموعات من المتحدرين من أصل ألماني يحملون أحذيتهم على أكتافهم أو تتدلى من على رقابهم ويدخلون متجر السيد يوسف ويلقون التحية عليه طالبين السماح بالدخول وقائلين : بالإذن يا سيد زي . يهز رأسه

بالموافقة لأنه يعرف ما يريدون . يأتون كالعادة فتيانا وكهولا ، رجالا ونساء ، ووفقا لنفس الطقوس التي اعتادوا عليها في غسل اقدمهم في والوعاء المليء بالماء او الذي تضعه تمينه في وقت سابق بالقرب من المنزل . بعد أن يغسل كل واحد قدميه ينشفهما بمنشفة يحملها معه من بيته ، أو بالمنشفة التي تعلقها تمينه تحت تصرفهم خصيصا لهذا الغرض. بعد غسل اقدمهم وتنشيفها ينتعلون أحذيتهم ويتوجهون الى الكنيسة لتأدية الصلاة وحضور قداس الأحد التقليدي الذي لا يمكن تفويته . وبعد ان ينتهي القداس ، فالعادة هي نفسها ، ولكن بشكل عكسي . فلا ضرورة لغسل القدمين يخلعون أحذيتهم ، وينظفونها ، ويربطونها بالاربطة ، ثم يتوجهون الى الوالد يوسف ويشكرونه ويسألونه هل عنده قماش بنطلون جينز هانز ؟ جينز جيّد ؟ وهل لا يزال عنده للبيع تفتا للفساتين الملساء الناعمة ؟ ثم تبدأ الطلبات وكل شخص يطلب شيئا خاصا : نصف كلغ ملح . هل عندك سكر أبيض؟ هل عندك مجرفة ؟ مطرقة ؟ ويسأل رجل آخر : هل عندك مسامير صغيرة من هذا القياس ؟ هذا القياس لا يصلح . أريد هذا القياس مشيرا الى مسمار أصغر في يده . يقول آخر ليس معي الآن نقود هل يمكن ان اشترى الآن وأسدد الحساب فيما بعد ؟ آخر يقول : هل يمكن أن أشترى بعض الحوائج وأدفع البديل اكياس فاصوليا سوداء ؟ أو تنتظر موسم البطاطا الانكليزية ؟ يوسف يهز رأسه موافقا على كل شيء ويقول: حسنا . حسنا . ويقول في نفسه : " ما العمل ؟ " لكنه يتخوف ان يحصل معه الشيء نفسه الذي حصل مع الجالية الالمانية في البلدة الأخرى . لا شك ان المقايضة لا بأس بها ويمكن المتاجرة (بالفاصوليا أو البطاطا ، أو الذرة ، أو البصل ،

أو الثوم) في بيغواسو . من يدري ؟ ربما تكون هذه التجارة مقبولة وتوفر بعض الأرباح . الأفضل بيع هذه المنتجات السوق العامة للتجارة في مدينة فلوريانوبوليس حيث يمكن الحصول على أفضل الأسعار والمبادلة بمنتجات وأنواع مصنعة .

وبهذا يمكن التخلص من الجدالات الممكنة والمهاترات واطلاق نعت الغريب (غرينغو) الذي يعتقدون انه يريد فقط الاستفادة منهم واستغلال الناس . لا مبادلة ولا ثقة . يجب نسيان ان الغالبية العظمة هم متحدرون من أصل ألماني وانهم من بلدة راشاديل .
المشهد واضح .

الأحداث تكرر بشكل عادي : يولد طفل آخر للأسرة في بلدة بيغواسو الفوقا في منزل السيدة جوانينا في أواخر العام 1931 ، وهو الخامس في سلسلة الأولاد ، وقد ولد بعده اثنان واكتملت الأسرة في بيغواسو . وما هو مؤكد ان طفلا جديدا هو على أهبة الولادة .
الوالدة تمينه تمشي بصعوبة نتيجة الحمل ، والوالد يوسف يعاني من مرض يعاوده من وقت لآخر وعلى فترات متقطعة . فجأة في هذا الجو الضاغط تضطرب الأمور وتتعدد ، والخادمة التي كانت تعمل في منزل تمينه بمنتهى الارتياح والرضى تقول وبدون سابق انذار :
"أريد الذهاب يا سيدة تمينه الآن . لا أريد ان أعمل هنا بعد اليوم . أنا ذاهبة الآن فورا " وقد حملت ملابسها تحت ذراعها . تسألها تمينه : لماذا ؟ فتجيب الخادمة : لا شيء . الأفضل أن لا أقول شيء .
تقول لها تمينه : ما الذي حصل ؟ لقد كنت ... ترد الخادمة : كنت راضية وعلى احسن ما يرام . تسألها تمينه : كيف تتركيني الآن وأنا على هذه الحالة ؟ لا أرى سببا يبرر هذا القرار المفاجيء . لماذا؟

تجيب الخادمة : اذا كنتم لا تريدون أن تدفعوا لي ، فعلى كل حال، انا ذاهبة ولا أريد أن أعمل هنا . وتخرج من منزل تمينه بدون ان تعطي عذرا منطقيا مقبولا . تنطلق مهرواة دون الالتفات الى الورااء .

وتمر الأيام وتتوالى : يوم ، يومان ، ثلاثة ، أربعة دون أن تعلم تمينه سبب توقف الخادمة عن العمل الى ان عرفت السيدة جوانينا السبب فأخذت تضحك وقالت لتمينه: ان الخادمة ذهبت لأنها استاءت مما عمله السيد يوسف عندما ذبح الشاة المربوطة التي تجمّع دمها في الوعاء وهي تكابد زفرات الموت ،ومن ثم عندما شاهدت سلخ جلد الشاة وتنظيفه وتعليقه على حبل الغسيل ليجف ، وتقطيع لحمها الى شرائح وتمليحها للحفاظ عليها ، واعداد الكبة من لحمها الطري (وقد عرفت ذلك الخادمة حتى انها أكلت من الكبة بشهية لكن الكبة التي أكلتها ليست من لحم الشاة وانما من لحم البقر الذي تم شراؤه من عند الجزار) أما من لحمة الشاة ، فانها لم ترتح لذلك . وقد تم تنظيف المعدة والأمعاء لحشوها بالأرز واللحمة المفرومة والتوابل وطبخها على النار فيما بعد . وقالت لي أن الذي أزعجها كثيرا هو : " أن يوسف وتمينه والأولاد الصغار يأكلون الكبة النيّة كما لو كانوا أكلة لحوم البشر مما يبعث على الاشمئزاز . يا للقدارة والرعب ! " وأضافت ان يوسف يبدو انه شخص لطيف ، لكنه يتلذذ بمضغ قطع اللحم النيّ من ذلك الحيوان المسكين سيء الحظ . ما هو الذنب الذي اقترفه ليذبح ويجري دمه من فم ذلك الرجل الشاذ القبيح وهو يخدع الناس بلطافته ؟ لذلك من غير المفيد ان يطلبوا مني توضيحات عن سبب تركي العمل في منزلهم " . لكل هذا ، ومع انها

بحاجة الى العمل ، ومع معرفتها بأن تمينه حامل ، فانها لا تريد زيادة راتبها ولا البقاء في منزل أسرة يوسف.تضيف الخادمة ايضا : "يريدون معرفة السبب ؟ألا يلحظون الرحيل المفاجيء أمس وحالة السعادة التي كنت فيها عندما تركت منزلهم وأنا أغني ؟ ألم يشاهدوا كيف كنت اجمع حزمة ثيابي وانا متوترة الوجه والدموع تنهمر من عيوني ؟ ألم أقل لهم ادفعوا لي ما انتم مدينون به لي ، ولا جدوى من البقاء في هذا المنزل وحتى لو لم تدفعوا الحساب سأغادر المنزل الآن وحالاً حالاً ؟ ألم أقل أنني أريد المغادرة حالاً وينبغي أن أذهب ؟ "

ذهبت الخادمة الى منزل السيدة جوانينا حيث تعمل صديقة لها هناك وأخبرتها بانها تركت العمل في منزل تمينه ، فسألته صديقتها : "ألم تقولي لي أنك مسرورة جدا ومرتاحة بالعمل عند تلك الأسرة؟ وأنهم يعاملونك على قدم المساواة كواحدة من أفراد الأسرة ؟" فأجابت الخادمة من دون تردد : "أنا . هه . رأيتة يذبح ذلك الحيوان الأليف بدون ان يرتجف ،ويرى الدماء تنزف بقساوة قلب . والآن قلبي: هل رأيت مثل هذه القسوة وعدم الشفقة في أي مكان؟ لقد ذبحوا ذلك الحيوان المسكين الذي كان يصرخ أمامي كمن يطلب الاستغاثة . ولم يكف كل هذا الذي فعلوه بالحيوان ، بل سيعملون من لحمه ،وقد مات للتو، كبة نيّة وسيأكلونها نيّة . وأهم من ذلك مشهد السيد زي (جوزيف) الذي كنت اعتبره،رجلا طيبا ولطيفا ، كان يقطع اللحم من ذلك الحيون ويأكله نيئا ، ويتلذذ بمضغه ، كما كان يختار المكان الذي يقطع منه اللحم ويقدمه لأفراد الأسرة وهم بغاية السرور كما لو كانوا في احتفال . لقد شاهدت ذلك الوجه

المضطرب الخائف ، والصوت المرتجف ، والعيون المنتفخة لذلك الحيوان المسكين . وغدا، سيحصلون على حيوان آخر شبيه به وسيفعلون به ما فعلوا بالأول . لقد قالوا لي أنهم يحبون أيضا لحم الماعز ويرغبون أكل لحمه الطري نيئا . ومن يضمن لي انهم لا يقتلونني اذا كنت بقربهم ويأكلون لحمي حتى العظام لأنهم لا يأكلونها نيئة ؟ " ... وتوقفت الخادمة عن الكلام هنيهة ثم تابعت كلامها قائلة : "هل تعرفين كيف كانوا يعاملونني ؟ لقد عاملوني بشكل جيد جدا . كانوا يقدمون لي الكثير من الطعام ، ويلحون كثيرا من أجل أن أكل جيدا . كانوا يقولون أن جسدي نحيل جدا ، وأنا مسكينة ومن الضروري ان يمتليء جسمي باللحم ويزداد وزني فأصبح جميلة أكثر ، وأصبح أقوى على تحمل العمل ...

المشهد واضح

لم يدم الوقت طويلا حتى امتلأ المنزل . الشائعات تكثر . الحماس يشمل الجميع . الدعايات تروج . من البداية يظهر الخوف بين الناس الذين يذهبون الى بيغواسو . هذا واحد يقول : " لقد تحدثت مع السيد جوان ديدينييو الذي كان في العاصمة وعلى تواصل مع قادة التحالف، وقد حان وقت الحقيقة الآن . جيتوليو فارغس يستعد للمضي قدما . " وآخر يقول : " لقد كنت مع صديقي جوكا ، وجيتوليو هو واحد ثرثار ، والذين بجانبه يخترعون الأكاذيب ، وجوان ديدينييو لا يخجل من فضح تلك الأكاذيب . أما الرئيس واشنطن ، فهو مضمون والى جانبه القوات المسلحة ومؤيد من غالبية الشعب ، ويمكن القول ان تقدم جيتوليو فارغس هو كذب صريح .

مرة أخرى يأتي التأكيد : " بيغواسو الفوقا تستقبل أحد الثوار، وهو

ابن السيدة جوانينا واسمه ريجيس . ليست المرة الأولى التي يصل فيها الى بيغواسو . دائما يصل بشكل غير متوقع . يقول احدهم انه شاهد ريجيس وتكلم مع ريجيس وهناك أخبار جديدة . سافر فجأة ريجيس . لقد قَدّم ريجيس سفره . الى أين سيذهب هذه المرة ريجيس ؟ شخصية رائعة . متحدث لا ينضب كلامه . مغامر . بغض النظر عن شكوك الآخرين . الآراء تتضارب وتختلف حول الأحداث والأشخاص . وقد فعل كل شيء لتكون الأشياء كما هي كذلك . آخرون ايضا يتحدثون : " انه سيكون شخصية مهمة قريبا قريبا " ، وينتظرون اتهامات لاذعة من آخرين . فقط يجلب الانزعاجات والتعب لوالدته المسكينة والطيبة جداً .

أثناء غياب ريجيس ، كانت والدته تحتفظ برسائله معها . فهي شديدة التعلق بولدها ريجيس أكثر من الآخرين . فالآخرون هم دائما متواجدون ، وهي دائما حريصة على الرسائل التي تصلها من ريجيس وتحافظ عليها وتصونها لكونها من الولد العزيز الذي تحبه تقرأ الرسائل المكتوبة بخط يده للجميع وتتمسك بها لأيام وأيام . ومن كثرة لمسها تبتهت الكلمات وتميل الى السواد وتتجدد ورقة الرسالة حتى تميل كلماتها والحروف الى التلاشي . وكثيرا ما يروي حكايات وحالات غريبة ، وقصص استذواقية خيالية الى حد كبير تجري في مناطق البرازيل المجهولة . كما يتحدث عن لقاءات خطيرة مع الخصوم ، والقيام بمهمات سرية حساسة وعلى جانب كبير من الخطورة . يتحدث أيضا عن شوقه وحنينه لأمه ، والأمان الذي تتمتع به أرض بلاده ، ويحب لو كان باستطاعته ان يزورها ، ولكن زيارتها في تلك اللحظات كانت من المستحيل . لكن

الأمل لم ينقطع واللحظة التي سيعود الى بلاده تقترب. لقد كان مكلفا بمهام عظيمة والاتصال بشخصيات مهمة الشأن ، وعندما يفسح المجال للنشر سيكون للنتيجة انعكاس وأثر قوي على الحياة الوطنية. الكل يتحدثون ، وكل شيء يشير الى ثورة الثلاثين (30) التي سوف تسقط الرئيس واشنطن لويس الذي هو دمية بأيدي من يسيرونه ، والذي شكل خيبة أمل لأولئك الذين وثقوا به والذي وصل الى الحكم في نفس العام الذي وصلت فيه أسرة ميغال الى البرازيل .

كان للرسائل التي أرسلها ريجيس نفس التأثير ونفس الحماس الذي كان لأحاديثه كما هوا حاصل الآن . الجميع ينتظرون سماع أحاديثه وطرح الأسئلة وانتظار أجوبته . ينام حتى ساعة متأخرة من كل يوم وذلك لاسترجاع عافيته . يحب السجع من كتابة النثر شأنه كشأن السيد زي ميغال (يوسف) . يرددش في الحديث مع يوسف ويتكلم عن السفر الى الخارج ويقول انه يعرف مرسيليا وفيها مرفأ جيد وجميل وفيه حركة ملاحه كبيرة . يطلب من يوسف : " أعطني كأس عرق (كاشاسينيا) . لا يوجد مثل عرق بلادنا " ثم يسير في نزهة طويلة على شاطئ النهر متذكرا طفولته وأيامه الماضية وصيد السمك ، واللعب مع أترابه الأطفال ويتذكر أيضا القصص والمغامرات الخيالية اثناء سيره في تلك الامكنة ، ولا يترك شيئا من تلك الذكريات مثل الجسر المعلق والحكايات الدرامية المشبعة بالخيال ، كما يتذكر الكمين الذي نصبه الاطفال له ، وكيف تخلص منه وهرب بعدها ليخبر رئيس فريقه .

ان ريجيس لديه موهبة وجرأة في وجه المتكبرين وتعكير المناقشات اكثر من اللزوم . ويقول متشدقا وبتأكيد: " ان ذلك الرجل

الدمية لم يكن ولا مرة رئيسا بالفعل ولم يحكم كما يجب. انه أبله، وغير واثق من نفسه ، ويتلاعبون به في كل اتجاه . وينبغي على جيتوليو فارغس ان يتسلم السلطة وينقذنا بأسرع وقت ويثبت الأرض تحت أقدامنا بشكل صحيح " ، فيردد البعض الآخر قائلا : " ان رئيسنا هو رجل طيب ، مسالم ومصالح ، ويريد الخير للأمة ولكل واحد منا. أما صاحبك جيتوليو فارغس فليس الا رئيس سيء السجية والطبع .

في بعض الأحيان، وعندما يكون ريجيس مسافر الى خارج البلدة، فان الأخبار المنتظرة او المتوقعة لم تعد مفاجئة ولا مثيرة للدهشة: الاخبار دائما تتمحور حول ان قوات جيتوليو تبدأ تقدمها باتجاه الشمال ، وهي دائما في تصاعد وتفوق أكثر من أي وقت مضى. لا تهزم . تتوقف . تواصل سيرها . تقترب من عاصمة الولاية . ولحماية المدينة ، فقد أزيلت ألواح الجسر الموصل اليها والتي لم يمض انشاء هذا الجسر أكثر من خمس سنوات . مدينة فلوريانوبوليس تقاوم وسوف تستمر في المقاومة والدفاع عن نفسها وستكون آخر عاصمة من عواصم البلاد التي تخضع وتستسلم . قوات المتمردين تمر في بلدة بيغواسو ويتمركز القصف على مركز البلدة . تقع قذيفة على صيدلية السيد تاورينيو وتبقى آثارها علامة على الجدار لمدة طويلة بادية للعيان لمن يريد التأكد والبرهان على ذلك. قوات جيتوليو فارغس تستمر في تقدمها نحو الشمال وتقترب من ولاية بارانا ولا تتأخر عن الاشتراك في معركة إتاراري الشهيرة التي لم تحدث أبدا. المشهد واضح .

نعم ، الآن المنزل ممتليء بالكامل .

في ذات يوم من أيام شهر تشرين الأول من عام 1930 . وفي ذلك التاريخ الذي وصلت فيه أسرة يوسف الى ولاية سانتا كاتارينا ، قام الانسباء والأصحاب وأقرباء الأقرباء بمساعدة تلك الأسرة وتقديم العون لها . ولا بد من ذكر الحادثة التي حصلت آنذاك حيث جاء الناس مهرولين من مدينة فلورينوبوليس ومبالغين حتى الحد الاقصى نتيجة لخبرمصطنع ودعوة مبالغ فيها،وتجمعوا ينتظرون لحظة النصر النهائي ، وكل واحد منهم مستعد لأن يكون من الثوريين المتحمسين للقتال من اللحظة الأولى عندما يقتضي ذلك. ولكن لأن تلك اللحظة لم تأت بعد وستأتي فيما بعد ، فقد أجّلوا الانخراط بالثورة نتيجة لبعض الشكوك.

المنزل تحول بالكامل الى فوضى عارمة :أناس ينامون في الزوايا بدون تحديد وقت للنوم ولا للنهوض . الأطفال يستلقون في غرفة نوم الوالدين . والوالدة عليها ان تقوم بخدمة ما يقرب من عشرين شخصا كما لو أن ذلك كان من واجبيها . والبعض الآخر لجأ الى منزل السيدة جوانينا المجاور الفخورة برسائل ابنها الواثق من النصر النهائي في الحرب حيث كانت تتمشى جيئة وذهابا مرددة: ان ابنها كما يعلم الجميع أكد بما لا يقبل الشك ان جيتوليو فارغس سوف ينتصر . أما السيدة تمينه ومن دون ان تستمع لكل ما كان يقال او يستمع لها أحد كانت تطلب من الجميع أن يأخذ الجميع راحتهم في المنزل على أحسن ما يكون وتنصرف الى اعداد الطعام متسائلة في نفسها عما اذا كانت هذه الحركة الثورية ستستمر وقتا طويلا،وما هي الاجراءات التي عليها ان تتخذها خلال الايام القادمة اذا استمرت الامور على هذه الحال.كان الوالد يوسف يلاحظ حيرة

زوجته ويحاول تهدئتها وتطمئنها قائلاً: ان جيتوليو فارغس سينتصر يا تمينه . لا تقلقي . المسألة هي مسألة أيام وبعدها سوف يتحسن كل شيء في البلاد . فقط يلزم القليل من الصبر . معارضو وخصوم جيتوليو الذين كانوا يعرفون موقف الوالد يوسف من الأحداث (على الرغم من أنه كان دائماً يعلن انه كأجنبي ليس له أي موقف سياسي مما يحدث) ، ربما كان ذلك بتأثير ريجس أو الرغبة في التغيير ، كانوا يرددون عليه ويقولون: ما هذا الذي تقول يا سيّد زي (جوزيف) ؟ ينتصر جيتوليو ؟ أبدا . راجع الامور جيدا . كل هذا الذي تسمع هو مباهاة من أنصار واتباع هذا القائد الذي لا قلب له ولا شعار ، والذي هو شخص يائس ومتعطش للسلطة بأي ثمن ، والذي لا يعنيه شيء سوى ارتكاب الفضائح والمذابح . وبعد ذلك يهمله سماع القلة القليلة من اتباعه الأوفياء له والمؤيدين لمواقفه . مسكين رئيسنا سيتم نفيه والبعض الآخر سيعانون معه أو بسببه . وهنا كيف سيكون وضع الدولة مع الرمونيين ؟ والمحبين للانتقام ؟ وفي بيغواسو الأمور ينس ؟ والسيد فيدوكا ، والسيد جوان ديدينيو ؟ وكل من يريد الانتقام ؟ لننتظر ونرى .

استمروا على هذه الحال حتى جاء يوم ، وكما كانوا قد وصلوا وبنفس الطريقة ، فان الجميع أعدوا حقائبهم وغادروا ، حتى أن بعضهم لم يقل كلمة شكرا . من الصعب معرفة خصوم جيتوليو فارغس ومعارضوه . لقد عاد الروتين بعد مغادرة الجميع الى ما كان عليه سابقا ، وصار المنزل فارغا ، وبدأت الوالدة باعادة ترتيب المنزل وكان النصر لثورة الثلاثين 30 . وبهذا صح استشراف

وتنبوء ريجيس، وكان الأمل بأيام أفضل، وحصل التغيير في الحكومة ووصل الى السلطة جناح راموس لفترة طويلة .

الخال حنا قادم . الخال سيصل ولن يتأخر . لقد وصل الخال . الوالدة تمينه سعيدة جدا بقدوم شقيقها الحبيب الذي تحس بتوق وحنين كبير لرؤيته . الوالد يوسف يعانق الخال حنا بحرارة وعبطة عاطفية كبيرة ، ويعاتبه مخفيا مشاعره وتأثره قائلا : ما هذا الجنون الذي جعلك تنتقل الى مدينة بورتواليجري ؟ الآن ينبغي أن تبقى هنا معنا . فيهب الخال حنا رأسه بالنفي ويقول : لقد جئت فقط لزيارتكم . مجرد زيارة سريعة وعليّ أن أعود . الأولاد مسرورون وتغمرهم البهجة برؤية خالهم حنا ويحيطون به باهتمام ظاهر . الأولاد وخاصة الأكبر سنا يحاولون تذكره واستماعه وهو يتحدث عن مدينة بورتواليجري ويقول انها ربما أكبر من بيروت فيساورالشك شقيقته تمينه وصهره يوسف ويقولان : انك تبالغ يا حنا (جوان) يمكن مقارنتها مع أميون أو كفرساروم ، ويمكن مقارنتها مع بيغواسو بلا شك ، وربما يمكن مقارنتها حتى مع مدينة فلوريانوبوليس من يدري ؟ ثم يعود الوالدان يوسف وتمينه الى عتابه : وهل هذا سبب كافي لتتركنا ولا تعيش معنا ؟ يضحك الخال حنا ويحاول ان يجد تبريرا لذلك . بعدها ينادي أولاد شقيقته ويقول لهم : هيا نخرج من المنزل . هيا نقوم بنزهة . هيا . يحاول يوسف وتمينه الاستفسار : أي اسم تحمل الآن يا حنا - جوان أو جوون - حنا ؟ يجيب : حسب المنادي . الاسمان هما لي وحسب الظرف . ثم يداعب الأطفال بلطف ومحبة . يقول الوالدان ان الاولاد فوضويون وقليلو التهذيب ، فيضحك حنا ويقول : دعوني اشبع حنيني واشتياقي حتى من الذين ولدوا في غيابي ولم

يتسن لي معرفتهم . لقد استقر اسم الخال بشكل نهائي بالنسبة لجميع
. اولاد شقيقته أخذوا ينادونه : جيون . لم يهتم حنا بكلام شقيقته ولا
تعليقات صهره ، بل نادى جميع الأولاد للخروج من المنزل معهم
للقيام بالنزهة معا . اشترى لهم الحلويات ، وذهب معهم الى ميدان
الالعاب – السيرك الذي افتتح حديثا على الأرض الخالية القريبة .
انه يردد الصياح والالغان كالأطفال ويهتف معهم ويصيح كما
يصيحون : انظروا المهرج اللص كيف يفعل يصيح بصوت أعلى
هو والأطفال عندما يشاهدون رقصات المهرج البهلوانية وشطارته،
ومهارته في القفز على حبال السيرك . الأسد يتقدم من مروضه .
المشهد مثير وينحفر في مخيلة الأطفال ويصعب امحاؤه . وكلما
تركوا السيرك ليشاهدوا الألعاب الأخرى عادوا لمشاهدة السرك مرة
أخرى ، وكلما روا البهلوان عاودوا الضحك والصياح كما ان خال
الأطفال حنا لا يتوقف عن الضحك والصياح معهم بغير رادع ولا
خجل تاركا العنان لسجيته الى آخر الحدود لدى مشاهدة بهلوانيات
المهرجين وشطارتهم في الحركات والقفز والرقص . ولا يخفون
دهشتهم من انقياد الحيوانات المفترسة وطاعتهم وكيف انهم يبدون
كالحيوانات الأليفة أمام المدربين المروضين . يلفت حنا انتباه اولاد
شقيقته الى جميع الحركات والهلوانيات حتى وصل الجنون بأحد
المهرجين الى ان يضع رأسه بين فكي الأسد دون خشية او خوف مما
احدث دهولا عند المتفرجين خصوصا عندما كان المهرج على أعلى
الحبال وسقط من فوق الى القرب من الأسد . لقد امضوا في
ملعب السرك يوما كاملا حتى انتهت جميع العروض والألعاب . لكن
بعد ذلك اليوم لم يعد للسرك نفس الإغراء والجاذبية عند الأطفال .

وكما وصل حنا بشكل مفاجيء لزيارة الأسرة ، فقد ودعهم وغادر
ايضا بشكل غير متوقع وعاد الى تلك المدينة الغامضة الساحرة
بورتو أليغري التي أصبحت لأسباب مختلفة حاضرة في ذاكرة
الجميع ولا يمكن ان تنسى . وقد حاول الوالد يوسف والشقيقة تمينه
ان يغروه بالبقاء معهم بكل الوسائل وناشدوه ان يبقى لكنه كان
يرفض . وعدوه بأن يساعده بكل ما يريده لكنه كان يصر على
العودة الى بورتو أليغري . أخيرا قالوا له : من المؤكد ان هناك في
تلك المدينة امرأة حبيبة تنتظرك . ابتسم ابتسامة لطيفة ناعمة وهز
برأسه . ترك هدية لكل واحد من أولاد شقيقته للذكرى لكي لا ينسوه
ويتذكرونه دائما . ترك للولد البكر هدية عبارة عن سكين صغيرة
فضية كتب على أحد جانبيها (سولنجين) وعلى الجانب الآخر (لا
تصدأ) والسكين هذه كانت مقدمة نخب من شركة البيرة (براما)
وهذه السكين بقيت معه ولم تفارقه طوال ايام حياته ، ولم يتخل عنها
أبدا . فقد كانت بالنسبة له تعويذة ، وقد أضاعها لفترة من الوقت لكنه
عاد ووجدها بعد ضياعها وبشكل سحري دون ان يجد لذلك أي
تفسير كما لو أنه من خلالها يمكن أن يلتقي بخاله ذاته . ولكن الآن
، بالرغم من كل الجهد والمحاولات التي يبذلها فان طيف خاله قد
توارى شيئا فشيئا بعيدا . لقد رحل لكن يبقى السؤال عند ابن شقيقته
: هل استقل خاله الحافلة أمام المنزل ؟ أم في مركز البلدة في ساحة
بيغواسو ؟ لقد اختفى ، لكن بأي اتجاه ؟ . والى أين ؟ ... كل شيء
بالنسبة له غامض ومثير للدهشة . وبين هذه التغيرات غير المفهومة
تستمر صورته محفورة في مخيلة ابن اخته وترفض أن تتوارى أو
تختفي . انها صورة خاله المسجلة في مخيلته وكأنها فيلم شابلن الذي

شاهده في وقت لاحق . يتذكر مشيئة غير المتزنة وخطواته الطويلة ، وقامته القصيرة مع شيء من النصاحة ، وقبعة على الرأس . وبدلة سوداء داكنة . مستقيم . لماذا مستقيم ؟ تبقى كلمة مستقيم بدون تفسير . لقد ذهب منذ قليل بهدوء وشيئا فشيئا توارى ببطيء كحركة الكاميرا حتى اختفى في زاوية من الشارع الرئيسي الوحيد في بلدة بيغواسو .

كانت الساعة متأخرة جدا من الليل، وقد تأخرت الساعة والأولاد لم يناموا بعد . ولا أحد يعود الى المنزل . الأسرة كلها في حالة اضطراب . والطفلة الصغرى هند اختفت دون معرفة مكانها . الجميع يفتشون في كل اتجاه . في منازل الأقارب ومنازل ابناء الجالية وبيوت الأصدقاء والمعارف وزملاء الطفلة من فتيات المدرسة . لكن كل ذلك التفتيش عن الطفلة كان دون جدوى وذهب عبثا . كذلك كان افراد الأسرة يبحثون ايضا في الأحياء القريبة المجاورة . لكن النتيجة هي نفسها دون العثور على أي أثر لها . اتصلوا بمركز الشرطة لاتخاذ الاجراءات اللازمة . السيد جوون ديدينيو يحاول تهدئة السيدة تمينه والسيد زي (جوزيف) ويقول: انتظروا واصبروا قليلا فسيأتي الاولاد بأقرب وقت . ترد عليه تمينه و يوسف : يأتون كيف ؟ ومتى ؟ من فضلك أرسل عناصر الشرطة للبحث عنها . عناصر الشرطة تفتش في اطراف البلدة ولكن بدون أي نتيجة .

بدأ القلق يداخل السيد جوون ايضا في ذلك الليل الذي يجر أذياله بطيئا ويبدو كأن لا نهاية له . وبدأت التخيلات المخيفة تراوده . ربما تكون الطفلة وقعت في بئر او في حفرة . ومن المحتمل ان ترحلقت

على احدى ضفتي نهر بيغواسو بالقرب من الجسر وسقطت في النهر وحملتها المياه أو أنها تاهت وضلت طريق (تريس رياشوس) الجداول الثلاث . وبدأ الهمس بين الناس فتذكر بعضهم وجود عائلات من الغجر تخيم بجوار البلدة بالقرب من بلدة سان ميغال أو بيغواسو الفوقا.وتلك العائلات الغجرية التي كانت تباع بعض الحلى والاباريق والاقراط وتقرأ طالع الناس كانت تظهر وتختفي سرا وبشكل غامض بعد ان تسرق ما يتيسر لها من البيوت التي تدخل اليها . وربما تكون احدى عائلات الغجر قد سرقت تلك الطفلة وحملتها معها الى مكان غير معروف . وقد اعتادت عائلات الغجر على سرقة الاطفال وخصوصا سرقة الفتيات. وبدأت كل هذه القصص تطرق خواطر الناس في تلك الليلة ، ولكن لا يتكلمون جهارا بذلك بل وشوشة وهمسا ، لا قريبا من الأسرة ولا بعيدا عنا ، لكي لا تصل الاحاديث الى سمع تمينه ويوسف . أين يجب البحث عن الطفلة اذن بعد الآن ؟ لقد بحثوا في أكثر الاماكن . لا أحد من الموجودين لديه أي فكرة . الجميع في حيرة ولا يدرون ما ينبغي ان يفعلوا . ولا أين يفتشون . الام تمينه يصيبيها اليأس . والوالد يسف يجتاحه الحنق والارتباك ،والاشقاء يغمرهم الخوف والجزع . وبعد كل الذي جرى ، فماذا يمكن أن يحدث ؟ يوجه يوسف كلامه الى زوجته قائلا : ما العمل يا تمينه ؟ ماذا ينبغي علينا أن نفعل ؟ تذكرني . حاولي ان تفتكري . أين يمكن أن تكون الطفلة الآن ؟ قولي . أين ذهبت هند ؟ ماذا يمكن ان يحدث لها ؟ هل طلبت منك اذنا بالخروج ؟ الخوف يشتد والارتباك يكبر ولا يسمح للوالدة بتذكر اي شيء . الوالد يعود ويناشد ويطلب من اولاده ان يفعلوا أي شيء للبحث عن

الطفلة هند ويقول : ابحثوا عنها في كل مكان . ففتشوا في أي زاوية . يوسف يريد ان يتذكر أين رأى ابنته في آخر مرة في تلك الساعة المتأخرة . الرهبة تحاصره وتقف عليه باب التفهم . يسعى جاهدا للمحافظة على رباطة جأشه لكي لا يبكي . يقطب وجهه . يحاول ان يظهر بمظهر الجدية .

يصل الى المكان عدد اكبر من الناس . الخبر ينتشر في الاماكن المجاورة . بعض الفضوليين والمهوسين يتدخلون ويريدون ان يعرفوا ما يجب عليهم ان يفعلوا لتقديم المساعدة والتضامن في مثل هذه الحالة وكأن الأمر قد استنفد وانتهى كل شيء . فالطفلة قد ضاعت الى الأبد أو انها ميتة وجثة هامة أمام الجميع . يتحدثون عن حالات مماثلة حصلت . يلتفت أحد الحضور ويقول : استيقظ يا سيد أبراون (ابراهيم) لقد أقمت في بيغواسو وانت تعرف أن حالة الطفلة ... ويقطع كلامه ثم يعقد القصة بدون بداية ولا نهاية، وبغير مقدمة ولا رأس ، فيقاطعه البعض قائلاً : يا سيد جوون ديدينيو ان سميك (يحمل نفس الاسم) جوون مهندس كان يمكن ان يموت غرقا تقريبا عندما كان يسبح في النهر ، وقد أدى به ذلك الحادث الى ان يصبح معاقا ومن ثم أعمى . ويضيف شخص آخر أن جوون مهندس أنقذ في الوقت المناسب وعن طريق الصدفة عندما كان يمر بالقرب منه زورق وهو يتخبط في المياه ويغرق . ويمكن رؤية ذلك المسكين اليوم والوقوف على حالته التعيسة . في الواقع أن نية المتحدثين والمتدخلين حسنة ، ولكنها مبطنة بشيء من الخبث . ويمكن أن تكون النية سليمة بالكامل ، ولكن التذكير بتلك القصص وسردها كان يزيد فقط من حجم الخوف والرعب على تلك الأسرة .

وقد بدا الخوف جليا واضحا وتلبس جميع أفراد أسرة يوسف . بقيت الأسرة على هذه الحال من القلق والخوف طوال ذلك الليل حتى بدأت تتسرب بعض الشظايا الخفيفة من شمس الفجر بعد وقت طويل من الانتظار، وبدأ الصباح يتضح سلسا ويمتد بهاؤه الى الزوايا غير عابيء بأرق وعجز الذين يتوقعون الأسوأ والذين لم يعد لديهم من يناشدونه ويطلبون منه العون .

وفي هذا الجو من السكون والحزن الذي يخيم على منزل أسرة يوسف وعلى جميع الذين تجمعوا في المنزل من الاصحاب والمعارف والأقارب تدخل الطفلة هند الى البيت وهي تفرك بعيونها وبثيابها المجددة المجعوكه وتتوقف متعجبة من الجمهور الكبير في منزل أبويها ومن كثرة الناس أمامها ففتساءل في داخلها : أهى في رؤية منام ام يقظة ؟ وحين تراها والدتها تمينه تقفز صارخة وتجهش بالبكاء وتعانقها بلهفة محتضنة اياها مستجوبة: أين كنت؟ لماذا تأخرت ؟ ثم تضحك الوالدة ضحكة متشنجة . أما ردة فعل الوالد يوسف فكانت مزيجا من الغضب والمرارة . يرفع يده ويجمع قبضته وبوده ان يهجم على ابنته ويضربها ، فيتدخل أحد الحضور ويقول له : من فضل يا سيد ميغال اهدأ . لا تفعل ذلك . دعونا نسمع الفتاة لنعرف ما جرى لها . يقول الوالد : مع من خرجت ؟ وكيف اختفيت ؟ يكمل الرجل حديثه قائلا : صبرا يا سيد ميغال . ألم ترى أن الفتاة لا تزال على قيد الحياة ؟ ما هو المهم الآن المحاسبة ام معرفة ما جرى لها ؟ المهم انها ما تزال بخير . اتركها تتكلم وتقص علينا كل ما حصل لها وما حدث . قالت الطفلة بكل براءة وهي ترتجف : كنت في بيت صديقتي ستيليا ألعب معها هناك في الطابق

السفلي وكنت أقلب صفحات بعض المجلات وقد ذهبت استيلا لتكلم أمها ، وبعدها لا أدري ماذا حصل معي فقد نمت واستيقظت الآن وجئت الى البيت .

في المنزل الأول الذي سكنت فيه أسرة يوسف أرسلت الوالدة تمينه ابنا بعد ان شفي من مرضه الشديد الى مخبز السيد فيدوكا لشراء بعض الخبز وليتر من الحليب أو ليترين . وكان المخبز قريبا وفي اتجاه الجسر الذي يقع على الجهة الأخرى من الشارع . خرج الصبي لشراء ما طلبت منه والدته . كان لا يزال ضعيفا بسبب المرض الذي أصابه . أحس وهو يسير في الطريق بدوار وكاد يقع على الأرض . وكان بحاجة الى ممارسة بعض التمارين كما وصف له الصيدلي السيد تاورينيو . فهو لا يزال ضعيف ، وعنده فقر دم ، وبحاجة الى فيتامين ومنشط جيد وغذاء ، وفوق ذلك بحاجة الى الحركة وبعض التمارين الرياضية ، وعليه ان يخرج من البيت ويترد الكسل عنه . ولذلك كانت تقول له أمه دائما : اترك الكسل وانهض واخرج من البيت . لا تمض نهارك متمددا خاملا . وكذلك كان والده يقول له : لا تكن كسولا متخاذلا وتمضي نهارك في البيت . انهض ونشّط نفسك . الخمول لا يفيد . اترك الخداع . لقد خرج الآن من البيت وأخذ يمشي باتجاه الفرن ، ولكن قبل ان يصل الى الفرن مر أمام بيت صديق من أصدقائه السابقين الذي تشاجر معه بدون سبب ككل شجار الاطفال . ومنذ ذلك الشجار اصبح الاثنان عدوين ساخط كل واحد منهما على الآخر . وأثناء شجارهما الذي انتصر فيه على خصمه والذي هزم فيه صديقه السابق ووقع على وردة مليئة بالاشواك حيث جرح امام زملاء صفه ، ويومها

قال له خصمه: سوف نتقابل مرة أخرى وسوف ترى ما سيحصل لك . وهدده بالانتقام فيما بعد . ومرت الأيام ومع المرض نسي التهديد ولم يفكر به ولم يتخيل ان يلتقي به وهو ضعيف وبالكاد شفي من المرض، بل لا يزال يتمثل للشفاء . في النهاية التقى الخصمان الضدان . وأراد خصمه حين رآه ان يثار لنفسه وينتقم منه وكانت فرصة جيدة له باعتبار خصمه كان ضعيفا فهو لم ينس ما اصابه من الاذلال والسقوط على الارض وابتلاع التراب في المشاجرة الماضية . كان كافيا ان يلكمه لكمة قوية على وجهه ويضربه بقوة على صدره حتى يقع على الأرض ويمتليء فمه بالتراب . وبدأ بضربه دون شفقة ولا رحمة ، ولطمة وراء لطمة ووضع قدمه على وجهه واشبعه لطما وضربا دون ان يتدخل أحد بينهما شاتما اياه بكلام بذيء . واستمرت الحال على هذا المنوال الى ان حضر شخص انساني وفصل بينهما بعد ان اشبعه خصمه ضربا في الوقت الذي كان فيه غير قادر حتى على الوقوف على قدميه او تحريك ذراعيه وكاد يغمى عليه .

بعد ان انقذه ذلك الشخص الطيب وانتهى العراك ، حاول اجهاد نفسه وبذل ما يستطيع من الجهد لتنظيف ثيابه والوصول الى المخبز من أجل شراء الخبز والحليب . لم يتفوه بأي كلمة امام والديه بالنسبة للعراك الذي جرى بينه وبين خصمه في الشارع. فالموضوع يخصه وحده وسوف يتصرف في المستقبل من أجل الثأر والانتقام .

حيث تلفت في جميع انحاء المنزل وقعت عينك على أكياس ممتلئة وطافحة . ليس فقط محل البيع التجاري ، بل أيضا في صالة الاستقبال وغرفة المطبخ ، وربما أيضا كذلك في الغرف الأخرى . رائحة القريديس (كماراون) تجتاح كل الزوايا وخاصة القريديس المجفف الذي استلمه الوالد عبر نظام تجارة المقايضة وتبادل المنتوجات. ويمكن القول ان شراء القريديس ولا مرة حصل تقريبا. بل دائما يأتي الصيادون بكل تواضع ويجلسون في دكان الوالد يوسف ويطلبون كأس عرق برازيلي (بينغا) ، ويتحدثون أولا عن الطقس، ويسألون عن صحة الوالد وصحة الأسرة ويعرجون على أحوال جميع أفراد الأسرة والتعرف اليهم ، و يأتون إما لوحدهم وإما برفقة أطفالهم مثل السيد سيرابيون وابنه . والحقيقة ان الوالد يوسف يبدأ مع الصيادين بالدردشة عن الصيد . فهو يحب سماع قصص الصيادين وما يجري معهم . وأغلب هؤلاء الصيادين كانوا من بلدات سان ميغال ، وتيجوكينياس ، وغانشوس .

وبهذا الأسلوب يصلون الى ما يريدون فيما بعد من تجارة المقايضة والتبادل في المنتجات . نادرا ما يكون في حوزتهم نقود ، ولذلك هم مجبورون على المبادلة للحصول على ما يريدون من دكان يوسف . هكذا تتم المبادلة فبضع كيلو غرامات من القريديس المجفف يبادلونها بشيء من الملح ، والصابون ، وفي حالات نادرة يبادلون القريديس بالسكر الأبيض أو سكر الكريستال . فهم يستعملون بشكل عام السكر الخشن . وكانت تجري صفقات المبادلة بين يوسف وهؤلاء الصيادين وأقاربهم وأصدقائهم . واثناء هذه المبادلات كانت المساومات حيث كانوا يقولون له ويكررون: يا سيد زي او جوزيف

الاجنبي (ولا يقولون تركوا أبدا) الظاهر انك تريد ان تخذعنا في هذه المبادلة . اليس كذلك ؟ لقد أتيت الى هنا من الطرف الآخر من الأرض ومن نهاية العالم لخداعنا ولكن بطريقة لطيفة . لا بأس نحن راضون عن هذه المبادلة . فيرد عليه الوالد يوسف بأسلوبه الجميل قائلاً : المسكين هو أنا ولستم أنتم ، وأنتم الذين تخذعونني في هذه المبادلة . فلو حاولت ان اشترى بضاعتي بالقريديس أو غيره لما تمكنت . عليّ ان أدفع نقودا وانتم تعرفون . في نهاية الأمر يتفقون على المبادلة وتجري الصفقة بينهم . في البداية يطلبون من يوسف ان يذهب معهم الى بيوتهم لجلب منتوجاتهم من هناك ويصرون عليه ان يذهب معهم قائلين : ان لديك يا سيد جوزيف عربة وحصان وأولادك كبروا ويمكن ان يساعدوك ، على كل حال لنترك المبادلة الى ما بعد . وآخرون يريدون ان يشتروا ، ولكن بشرط أن يجلبوا منتوجاتهم فيما بعد . وأمام شكوى الزوجة تمينه من هذه التجارة وهذه المبادلة والديون يقول لها يوسف : اعطيهم ما يريدون يا تمينه . انهم فقراء مساكين سيجلبون منتوجاتهم بعد أيام وسيسددون حساباتهم . فترد عليه تمينه بالقول : ونحن ؟ السنا ايضا فقراء ؟ لا يجيب جوزيف بل يطرق مفكرا ثم يقول : سوف اذهب الى الشمال وابعع ما أحصل عليه من منتوجاتهم في إيتاجايي ، وبلوميناو ، وريو دو سول ، وبروسكي . واذا لزم الأمر فسأذهب حتى مدينة جوانفيلي . وسنربح في بيع منتوجاتهم في هذه الحالة الطارئة . ألا ترين الحالة التي نمر بها ؟ ان جميع الناس لا يتعبون من التكرار ان الوقت قد حان لبيع القريديس المجفف ، وبامكاننا ان نبيعه ونحصل على بعض الارباح الأكيدة .

ذات يوم ذهب فيه السيد ميغال لينقل بعربته القريديس المجفف ،
وعندما خلا المنزل من القريديس ، فان الرائحة استمرت لعدة أيام في
جميع انحاء المنزل تمرغ الاجساد والارواح ، حتى انها كانت تفوح
الى الاماكن المجاورة ويشعر الناس برائحة القريديس القوية من بعيد
. حتى ان الأسرة لم تعد تطيق التحدث او رؤية القريديس حتى لو
كان طازجا . الوالد يوسف هو خارج المنزل وقد ذهب الى مدينة
إيتاجايي . نعم . نعم لقد أكد لزوجته :انه سيذهب الى هناك ليرى ما
بامكانه ان يعمل لتسويق وبيع ما يستطيع بيعه وانه متأكد من ان
البيع هناك مضمون وسيبيع كل ما عنده وسيعود ومعه نقود كافية
وهو متفائل وقد عمل كل حساباته بشكل جيّد : قيمة الكلفة
والمصاريف واضحة . وقيمة المبيع هي أيضا واضحة وأكبر من
الكلفة . اذن الأرباح هي أيضا واضحة ولا شكوك في ذلك . انها
صفقة رابحة والمقايضة مع الصيادين والمزارعين ستوفر له ارباحا
نقدية ممتازة . الا أن زوجته تمينه تقول له : ان البضائع التي
اعطيتها بالمبادلة للصيادين والمزارعين هي أيضا كانت عندنا لقاء
دفع ثمنها مالا . أليس كذلك ؟ وعند هذا الحد يرد عليها يوسف
بعصبية على كلامها قائلا : سوف اشترى المزيد والمزيد من
القريديس والسمك المجفف او المقدد وفي هذا يكون المخرج لكل
مشاكلنا . فترد عليه تمينه مشككة بذلك:من أين أتيت بهذه الفكرة
الجنونية؟ لكنه لا يسلم بمنطقها ولا يتزحزح عن رأيه .
لقد طالت رحلته التي قام بها بهدف بيع ما كان عنده من قريديس
واستغرق وقتا طويلا حتى تمكن من العودة الى منزله ، وتم ذلك

بفضل شفقة سائق طيب القلب من معارفه أشفق عليه وسمح له بالركوب معه دون ان يدفع له شيئاً مقابل ذلك . وهنا فقط وفي هذا الموقف اعترف بخطأه وبالفكرة السخيفة التي كانت عنده وقال : ان تمينه كانت على حق وكان معها كل الحق . يا للسخافة والهراء من أين أتت هذه الفكرة ؟ ان تجارة القريديس المجفف هي تجارة رابحة ؟ ومن وضعها في رأسي واقنعني بجدواها ؟ والله انها فكرة هراء في هراء ولم تترك لي الا القرف والرائحة الكريهة . ولأول مرة تخرج من فمه كلمة (انها فكرة خرائية خرا في خرا) مع انه لم يعتقد على الكلام البذيء ولم يستسغه يوماً ويكره كلام العربدة والانحطاط الخلقى في الالفاظ . أخذ يوضح ما حصل له في رحلته فقال : لقد خفضت السعر حتى أقل من التكلفة . وبدأت أجوب الاماكن وانا دي: تعالوا واشتروا لحم القريديس الجيد بأسعار رخيصة. انه يصلح للشواء . حتى الطيور تفضله على لحم السمك. ومع كل الدعاية والمديح للقريديس لم يجد أحدا يتقبله أو يأخذه منه حتى ولو مجاناً . لقد كان جميع الناس ينفرون من رائحته ورؤيته ويبتعدون عنه . لهذا بقي لعدة أشهر وهو لا يريد ان يسمع باسم القريديس المجفف ولا يحب أن يراه لافي المنزل ولا في المتجر.

وحين يأتي الزبائن أو الأصدقاء الى متجره كان ينذرهم بعدم استعمال حتى كلمة قريديس الملعونة كما أصبحت من الكلمات المحرم لفظها في المنزل والمحل . وكان يقول للجميع أن من يتلفظ بتلك الكلمة سوف يطلق عليه النار . والجميع أصبحوا يعرفون ان تلك الكلمة هي لعينة بالنسبة له . بندقية الصيد دائماً جاهزة للتهديد بها .

ينبغي على البرازيل ان تدخل الحرب وتشترك بها الى جانب الحلفاء . سوف تدخل الحرب بكل تأكيد . الأمة تطلب ذلك .

الصحف تشجع على دخول الحرب وكذلك الاذاعات في نشراتها وبت برامجها . والشخصيات البرازيلية السياسية والاجتماعية تدلي بأحاديثها وتعليقاتها فضلا عن الضغوط الكبيرة التي تمارسها الولايات المتحدة الاميركية في هذا الشأن . لقد حان الوقت لدخول الحرب حتى انه قد استحق قبل الآن ونحن لا نستطيع ان نبقى غير مبالين بما يحصل ونتفرج على زحف الجحافل النازية والفاشية التي تهدد بالهيمنة على العالم . يجب علينا التحرك والرد . لا بد من التنبه والحيلة : فبلدة بيغواسو أيضا ينبغي أن تساهم في المجهود الحربي ويكون لها دور في ذلك، والاعداد يجب ان يكون حالا ودون تأخير . فما العمل اذا حصل الغزو علينا ؟ ألم تقترب البواخر الحربية الألمانية من شواطئنا ؟ لقد شوهدت سفن الألمان بالقرب من إيتاجايي وسان ميغال من قبل قوارب الصيادين .

ذات يوم أتى السيد جوون ديدينييو الى متجر يوسف، وأخذ يرددش في الحديث ويتحدث عن الوضع طالبا من يوسف اذا كان بالامكان ان يساعد الاولاد الكبار البالغين بالقيام بدوريات في انحاء المدينة وقال : اننا نقوم الآن بنوبات ليلية ونهارية ونحن بحاجة أكثر الى النوبات الليلية . وقد بدأ استدعاء المجموعات ليتم توجيهها واعدادها من اجل القيام بعملها في دوريات الحراسة والاستطلاع . والحقيقة ان هذا العمل ليس الزاميا ولكن من اجل التوجيه السريع والاستعداد والتدريب على استعمال سلاح البندقية والمسدس وحتى بندقية الصيد اذا اقتضى الأمر . وكذلك اعطاء التوجيهات اللازمة بالنسبة للقيام

بالدوريات وكيفية التصرف في الحالات الطارئة واعطاء الدروس الاساسية التي يقوم بتوضيحها ضابط عسكري على رأس نصف دزينة من الجنود وكل هؤلاء تحت أمره رئيس عسكري أعلى رتبة .

أثناء ذلك الزمن ، وحتى العام 1943 ، كانت عائلة ميغال تتردد على مدينة فلوريانوبوليس مرتين أو ثلاثة في الاسبوع وأحيانا مرة واحدة. عندما يأتي دور أولاد يوسف للمناوبة كان يحذر الأولاد ويقول : احترسوا لقد أتى دوركم ، بينما الأم تمينه تتخوف من ان يذهب الاطفال الصغار الى الحراسة وتقول : ينبغي على القاصرين ان يبقوا في المنزل . لا أريد ان يشتركوا بأية دورية ، فيردون عليها بانهم يريدون الذهاب الى الحراسة ، فالحراسة بالنسبة لهم متعة كبيرة . انهم يريدون ان يكونوا مع غيرهم من الشبيبة التي تقوم بالدوريات في الشوارع حيث يتنبهون الى أية اشارة و حركة تصدر من هنا او هناك ، وكذلك الى اي شعاع ضوء يتسرب من شق باب منزل باعتبار ان ذلك من الممنوعات في الليل . وبالإضافة الى هذا عليهم ان يتأكدوا من هوية الاشخاص غير المعروفين الذين يجوبون الطرقات، وأيضاً الشاحنات والعربات التي يمكن ان تحتوي وتكون محملة باشياء ممنوعة او تثير بعض الضوضاء غير العادية وفي ذات يوم قبضوا على شخص مشتبه به، ممتليء الجسم، أشقر اللون وقد بدا كأنه جاسوس أو هو جاسوس . كيف يمكن التعرف اليه في حال كونه جاسوساً؟ وهل اذا طلبوا منه يمكن ان يفصح عن قيامه بالتجسس ؟ ثيابه كانت رثة ، وهو غير حليق، وذقنه كثيفة ويمكن ان تكون للتمويه. وربما كان أحد لصوص سرقة الدجاج ، أو اولاد الأزقة ، أو من العاطلين عن العمل ، أو من المشردين . كل ذلك

كان على وجه التخمين وكان يدور حول منزل الخوري (الكاهن). قال انه كان قبلا من محبذي ومؤيدي معسكر المحور ، وكان من منتسبي الحزب المحافظ الوطني أما اليوم فلم يعد من مؤيدي ذلك الحزب ولا من مؤيدي معسكر المحور. وهذا ماجعل الشك يراود الجميع، فهم لا يعرفون بالضبط نواياه بالنسبة للمعسكرين . وقد كان هناك اشاعة انه يوجد في المنطقة محطة ارسال صغيرة تتلقى وترسل المعلومات الى اعالي البحر وتحذر من حركة السفن ربما يساعد هذا على اغراق بعض الزوارق البرازيلية ، وهذا ما جعل الجميع ينظرون بعين الريبة الى المتحدرين من اصل الماني باعتبار انهم ينتمون جميعهم تقريبا الى عصابة الخونة والحزب الوطني المحافظ على حد التعبير الشائع يومها او الى منظمة اصحاب القمصان الخضراء والدجاجات الخضراء قليلي الحياء والشرف . نعم لقد كانوا كذلك . وكيف يمكن تمييزهم عن الذين لم يكونوا من الخونة والتفريق بينهم ؟

وفي ذات يوم سرت اخبار مذهلة وهي ان سفينة مجهولة كانت تبحر بالقرب من سواحل ولاية سانتا كاتارينا وقد شوهدت من على شاطئ سان ميغال وقد اختفت ثم عادت الى الظهور أمام الجمهور ثانية . يبدو ان هناك غواصات ألمانية . لكن كيف يمكن تعيين الغواصات الألمانية التي كان ينزل منها بعض الجواسيس ويصعد اليها عملاء كانوا سريين ومختبئين بين الناس ويريدون مغادرة البلاد ؟ لقد شوهدت السفينة المجهولة الهوية بالقرب من مدينة فلوريانوبوليس من ميناء إيتاجايي تقريبا. وقد تجمهر الناس وذهبوا حتى سان ميغال لرؤية تلك الغواصة التي أثار خبرها ضجيجا كبيرا

ثم تذكر أحدهم المنطاد الذي مرّ فوق رؤوس الناس في هذه المنطقة عام 1935 ويقال وهو بالتأكيد أنه صوّر المنطقة وهذا ما كان يريده . وقد أخذت الصور الى ألمانيا وتم تحليلها هناك بشكل تفصيلي ، وبعد تحليل الصور توصلوا الى معرفة المكان الذي ينبغي النزول فيه ، وبأية طريقة يمكن الوصول الى مدينة بلوميناو ثم السيطرة على عاصمة الولاية ، وبيغواسو هي الممر الاجباري باعتبارها النقطة الاستراتيجية لاحتلال الولاية المعقل الرئيسي لحزب المحافظين الوطني . لكل هذه الاسباب ، فان الحاجة ماسة لليقظة والمراقبة المستمرة .

فجأة انقطع المشهد ، وأسرة يوسف انتقلت الى فلوريانوبوليس ، مما تسبب بعدم استمرار الأولاد بالمشاركة في تسيير دوريات المراقبة في الشوارع وفي ترويج الشائعات . والآن ، فهل يستمر الأولاد بمتابعة القصة واعطاء نهاية لها ؟ لا ؟ أو ان النهاية ستبقى غامضة ؟ الوالد يوسف هو دائما ممسك بمذياعه الصغير ولا يتركه أبدا .

يريد يوسف ان يقف على آخر الأنباء . يقطع بعصاه من غرفة اى أخرى وينتظر وصول بعض الصحف النادرة التي كانت تصل الى بيغواسو . عليه يجد فيها خبرا جديدا . يلح على سائقي سيارات النقل الذين يعملون على خط بيغواسو - فلوريانوبوليس مكررا عليهم : من فضلكم اجلبوا لي بعض الصحف من بيغواسو وانا ادفع الثمن مضاعفا . اجلبوا لي ولو صحيفة واحدة اذا لم يكن بالامكان كل الصحف التي تصدر هناك مثل جريدة استادو ، وغازيتا ، وديا إي نويتي ، ودياريو دا تاردي والأفضل جريدة الريو أو سان باولو أو جورنال دو برازيل ، أو كورييو دا مانيا ، أو استادو دو سان باولو ،

أو كوريبو دي بورتو أليغري . انه يريد أي صحيفة ، فهو قلق وغير مرتاح ويريد أن يعرف دائما ويطلع على آخر الاخبار، وتعود الى ذهنه حرب 1914 ، فيقرأ أو يطلب من أحد أولاده أن يقرأ له شيئا عنها . الاخبار مقلقة عن الحرب . يناقش بعض الاخبار والمعلومات التي تصله . يتذكر مرور الزعيم الاخضر بلينيو سلقادوالذي حرّك وأثار بيغواسو ، فاستقبلته بتلك الحرارة النادرة وبالترحاب في منزل عائلة ريتز المؤلف من طابقين وخصوصا من قبل أعضاء جبهته . ويتذكر كيف انه خرج الى أمام بقالته من اجل مشاهدة ذلك الرجل ذي الشاربين الشبيه بهتلر وهو يتوجه بالكلام الى انصاره وجميعهم يرتدون اللباس النظامي الموحد، ويرفعون أيديهم بالتحية ، ويقومون بمسيرتهم على قرع الطبول . ولدى مشاهدة السيد يوسف لهذه المظاهر ، فانه لا يخفي عدم ارتياحه لمشاهدة مجموعات الأطفال الذين يرتدون اللباس النظامي والموحد أيضا وهم يسرون على قرع الطبول والموسيقى . أما أبناؤه فكانوا يحيطون به ويدورون حوله ويطلبون منه قائلين : اتركهم اتركهم يا أبي . كم هو جميل منظرهم ! اننا نريد المشاركة . لكن الوالد يوسف يرفض اي مشاركة مع اولئك الاطفال، فيركضون خلف والدتهم تمينه راجين اياها ان تساعدهم على اقناع والدهم بالاشتراك في تلك المسيرة الجميلة . يستمر الوالد يوسف برفضه ان يشترك اولاده في المسيرة لأنهم لا يعرفون ماذا يختبئ وراءها من اهداف واغراض ويحذر ابناءه قائلا: اسمعوا كلامي ولا تشاركوا أبدا في أي نوع من المظاهرات أو تنجروا الى أي نوع من أنواع الدكتاتورية . والاصولية هي نوع من أنواع الدكتاتورية ونموذج للنازية . ويلقنهم

ان الديمقراطية يمكن ان يكون لها عيوبها ، ولكن لم يبتكر حتى الآن شيء أفضل منها . يجب ان نحافظ على الحرية قبل كل شيء آخر ، ولا تنسوا أبدا ان الأفضل هو خير الانسان . وتقف الوالدة الى جانب اطفالها تستمع الى كلام يوسف بكل انتباه . وعندما ينهي كلامه تقول تمينه لأولادها : ان ما يقوله والدكم هو الحقيقة ، وقد ردد ذلك دائما في كل احاديثه وحواراته مع الأصدقاء والاصحاب وخصوصا مع مفوض الامن السيد جيون ديدينيو كان يطرق او يفتح نفس الموضوع .

هل هذه هي كانت نفس الكلمات أم انها تضمنت نفس المعنى وأشارت الى تلك الافكار ؟

اذا كان قلق الوالد يوسف قد بدأ بشكل خفيف خلال الحرب الأهلية الاسبانية ، فان قلقه الآن يزداد حدة نظرا لادراكه الواضح لاقتراب حصول الحرب مع اجتياح ألماني وغزوها للبلدان المجاورة بشكل خاطف . وهذه هي المرة الأولى التي يلاحظ فيها الأولاد ان والدهم يبتعد عن النرفزة ولا يشتم كما عهدوه من قبل،وكما حصل لفرنسا والفرنسيين عندما ارتفع العلم النازي عاليا في باريس .

الليل يهبط ، والسماء تنفجر بالنار، ودرجة الحرارة تخنق والصمت يهيمن على كل شيء. الشوارغ فارغة، وليس في الطريق الا زوجين رجل وامرأة يسرعان الخطى وخلفهما بعض الاطفال يصلان بهدوء الى امام بقالة السيد جوزيف . يصعدان درجة امام باب المتجر وينادي الزوج يا سيد جوزيف زن نصف كلغ من الأرز ، وبيده قذيفة تملأ يده تقريبا . السيد يوسف يستشعر الخطر من خلال صوت

المنادي و يطلب من الزوجين ان يدخلوا الى متجره ، ولكنهما يرفضان الدخول ويريدان ان يخرج هو بنفسه وان ينزل من محله . ثم يبدآن بالهمس والوشوشة فيما بينهما دون ان يرتفع صوتهما ولكن لفتاتهما وحلاكاتهما كانت شديدة التوتر وكذلك تعبيرات وجوههما . يهز جوزيف رأسه بالموافقة و وعد باتخاذ الاجراءات . الزوجان غادرا المكان دون ان يودعا ليعبّرا عن موقفهما الذي يدل على انهما كانا منزعجين وساخطين . أما اولاد الحي فقد كانوا حائرين ولا يعرفون ما يجب القيام به تجاه ذلك المشهد ، لكنهم ساروا وراء الزوجين باستثناء اولاد جوزيف أي يوسف الذين جاؤوا قبل الزوجين وتوقفوا قليلا ثم اختفوا معاندين توجيهات والدهم . جوزيف يبذل اقصى جهوده لصرف زبائنه من اجل اقفال متجره ، وحين خرجت آخر زبونة أغلق محله فورا كي لا يأتي زبون آخر ويضطر الى تلبية طلباته . لقد أقفل الباب ووضع من الخلف عارضة السلامة السميقة التي تثبت خلف الباب من ناحية الى الناحية الأخرى بحيث تجعله مقفلا تماما . بعدها نادى زوجته تمينه أين ذلك الطفل (موليكي) ؟ تمينه لا تعرف ماذا جرى . لقد شاهدت الأولاد يركضون ولم يدخلوا الى المنزل بل استمروا في جريهم حتى اختفوا . انها اصبحت تعرف اي طفل يعني حين يسألها أين ذلك الطفل (موليكي) أي ذلك الولد العنيد الشقي الذي يخالف توجيهات والده بعكس سائر اخوته . انه الآن ليس في المنزل ، وفوق ذلك لا يعرفون أين يكون الآن في هذا الليل .

لم يمض على وصول الأسرة الوقت الطويل في بيغواسو ، ولم تتكيف في البلدة وفي البيئة الجديدة بشكل كافي ، وربما كانت

صدمتها أخف في هذه البيئة . لقد قوبل أفراد عائلة يوسف في هذه البيئة بشكل غريب، فأسماءهم غريبة، ويتكلمون بشكل غير مفهوم، وكلماتهم خليط من البرتغالية والعربية، ويفعلون كل شيء ليكونوا مقبولين ومندمجين في عالم هذه البيئة التي أتوا إليها . ويرفضون جميعهم ان يكونوا مختلفين عن الآخرين . في هذا المساء، وقع حادث وتجمع الناس بالقرب من منزل السيد أموريم بالقرب من نهر بيغواسو تقريبا . والسيد أموريم شخصية معروفة ومألوفة من الجميع وعنده بنات صغيرات عليهن سمات التباهي والتفاخر وهن في سن أولاد يوسف الأكبر سنا تقريبا أي ما بين عشرة واثنى عشر عاما كما ان ابن السيد يوسف يصل عمره الى تسع او عشر سنوات .

يتقدم من ابن السيد يوسف أحد الشباب ويمسكه بذراعه ثم يربت على كتفه ببادرة ودية ويقول له هل تنظر الى هذه الفتاة السمراء الجميلة التي تفتح الشهية؟. اننا نريد ان نعرف حقيقة اذا كنت رجلاً ولديك الشجاعة التي تبرهن عن رجولتك أم لا ؟ . لقد شك بعضهم في ذلك أما أنا فلم أشك أبدا بشجاعتك، وقد راهنت عليك بانك رجل فحل بالفعل واني أريد ان لا تخيب أملي فيك أمام الآخرين فبرهن لتلك الشلة واثبت انك رجل حقا وعندها تستطيع ان تنضم الى فريقنا .

اذهب الى تلك الفتاة وقرب منها واطلب منها وقل : أريني شوشوتا أي (فرجها) ثم قل لها : اسمحي لي . اسمحي لي بعلاقة حميمة .

هو لا يعرف جيدا اللغة البرتغالية . وربما لم يكن يعرف معنى هذه الكلمات، الا انه بحدسه شعر أن هناك أمراً خطيراً أو شيئاً يمكن ان يسبب له بعض الخطر، ولذلك راح يفتش عن اخوته الذين كانوا قريبين منه ليستفهم عن معنى تلك الكلمات . الكل كانوا بانتظار ما

سوف يحصل له اذا ما تجرأ و غامر بتلك الكلمات مع تلك الفتاة . بدأت الأفكار تتقاذفه بين ان يقبل التحدي أو لا يقبل . هل يقول للفتاة تلك الكلمات التي تلقنها ويمكن ان تنطوي على أشياء خطيرة أو ينصرف الى منزله ولا يقول لها شيئاً ؟ أم يغامر مهما كانت النتائج لأنه يشعر انه بحاجة ان يكون له أصدقاء في هذا البلد ويثبت بذلك أنه شجاع ولا يخاف؟ الشلة تنتظره وتراقب ، والشخص الذي طلب منه ان يواجه الفتاة بتلك الكلمات التي لا يعرف معناها لا يزال بقربه ويربت على كتفه ويشجعه ويقول له : انا أثق بك وبشجاعتك . لا تخيب أمني فيك . كلنا سنكون أصدقاءك ، وستكون واحدا من شلتنا . تشجع واقدم . انه متردد لا يعرف ما هي الغاية وراء تلك الكلمات ، وكل أفراد الشلة يراقبونه . انه يشعر ان النتيجة لم تكن مضمونة ، ولكنه بحاجة الى أصدقاء . وهو يشاركهم اللعب من وقت الى آخر ، ولكنه لم يصبح واثقاً من الشلة بعد . ودائماً كلما شعر بحاجة الى ان يكون معهم ويلعب معهم ، كتنوا يبتعدون عنه ويهربون منه . ويفتش عنهم بخوف وخشية . دائماً يسمحون له بمرافقتهم عندما يريدون القيام بمغامرة مثل السطو على مزرعة غاليني الذي يترك ثمار اشجار الفاكهة تفسد وتتساقط على الأرض ولا يسمح لأحد بقطفها والاستفادة منها . لذلك كانوا يذهبون الى مزرعة غاليني لسرقة الفاكهة ويقولون قبل ان يبدأوا بالسرقة : من هو الشجاع الذي لا يخاف ويبدأ بقطف الفاكهة من بستان البخيل غاليني ؟ يشدد على مسمعه من جديد ذلك الشاب الذي لقنه الكلمات مرة ثانية وثالثة ورابعة ، يقول له : تقدّم حالاً . تقدّم ولا تخف . ألسنت شجاع ؟ أليس كذلك ؟ وبحركة لاشعورية وخوفاً من الاحتقار لشخصه

سار بسرعة نحو تلك الفتاة ومن غير ان يعرف من أين يبدأ جملته أخذ يردد على مسمعها كل تلك الكلمات التي تلقنها . وما ان سمعت الفتاة تلك الجمل حتى بدأت بالصياح والصراخ والبكاء راكضة الى منزلها . فنهض والداها وسألاها عن سبب يكائها ، فأشارت باصبعها الى ابن السيد جوزيف . عندها انطلق أبواها الى بقالة السيد جوزيف وخلفهم من بعيد افراد تلك المجموعة التي خدعت ابن السيد جوزيف بتوجيه تلك الكلمات الى تلك الفتاة .

هناك في متجر السيد جوزيف بدأ والدا الفتاة بشرح ما حصل لابنتهم مع ولده وما قال لها من كلام وهم مستأوون جدا مما حصل ، فغضب جوزيف من فعلة ولده ، وما ان وصل الولد الى المنزل حتى جذبته يوسف بأذنه ، وشده بشعره ، واشبعه لظما وضربا وشتما ، بينما راحت الوالدة تمينه ترجو زوجها بان يتوقف عن ضرب الولد طالبة منه ان يسمع كلام الابن أولا . أما الولد فلم يتفوه بكلمة واحدة وبقي صامتا .

بعد الحادثة التي جرت مع الفتاة حجز يوسف ولده في المنزل مدة اسبوع لم يسمح له خلالها بالخروج من البيت كعقاب له على فعله ، وكخوف من ان ينتقم أشقاء الفتاة وأقاربها الذين هددوا أمام المتجر بسحقه وطحنه . أما أفراد الشلة الذين تسببوا بالحادث ، فقد اختفوا وهم يضحكون مما حصل له . وبعد عدة أيام ظهر أحدهم وهو يسخر منه .

ها هو . ها هو الخال الجديد .

نحن في أي عام ؟ في أواخر حقبة الثلاثينات ؟ أو بداية الأربعينات ؟

أي قبل العام 1943 بالضبط . قبل شهر أيار . أي تاريخ انتقال الأسرة الى مدينة فلوريانوبوليس .

لقد وصل الخبر بالذهاب الى فلوريانوبوليس الى الوالدة القلقة تمينه حين شقيقها أرسل انه في طريقه الى فلوريانوبوليس . فقد ترك الديو دي جانييرو وسيصل في وقت قريب . لقد وصل الى فلوريانوبوليس وصار في المحطة . ذهب يوسف الى المحطة لاستقبال شقيق زوجته ، وذهب معه بعض الأقارب والاصحاب . سيجلب معه بالتأكيد بعض الأخبار ، والأغراض والتذكارات والهدايا للجميع .

أسمه توفيق . جاء مباشرة من أرض الوطن ومن نفس القرية . فهو شقيق تمينه الأصغر سنا . وصل مرتابا وأكثر حذرا . نعم لقد وصل ويحمل أخبارا عن الأهل ، والأصدقاء ، والأصحاب . يعرف من مات . ومن تزوج . ومن هاجر . ومن انتقل من القرية . جلب معه بعض زيت الزيتون من الكورة وكذلك جلب بعض علب الزيتون الذي لا الذولا أطيبي ، والمتعطشة تمينه لتذوقه . فبدأت فورا بفتح الحزمة التي فيها الأغراض وخصوصا علب الزيتون وفتحت علبة منها وقالت للجميع : جربوا هذا الزيتون اللذيذ والشهي لتتأكدوا من صحة ما أقول . ومع الزيت والزيتون كان يحمل توفيق الزعتر ، والمجلات العربية ، والصحف القديمة ، وراح الوالد مباشرة يهتم بالمجلات والصحف . وصاح الجميع : أه انه التمر اللذيذ . لم ينس توفيق حتى التمر .

ومرت عدة أيام والمنزل يعج بالزائرين : هذا يريد أن يعرف كل ما يجري في لبنان من أحداث . وآخر يريد ان يسأل عن أخيه فريد في

أميون . كيف حاله ؟ ألم يرسل لي شيئاً مع توفيق ؟ وواحد يحب الاستفسار عن ابن عمه اسكندر في طرابلس ويسأل توفيق : ألم تره قبل ان تغادر لبنان ؟ ألم تتصل به وتخبره بأنك مسافر الى البرازيل ؟ والى بيغواسو ؟ وشخص آخر يقول لتوفيق: حدثني عن كل شيء . قل لي كيف هي الآن بيروت؟ ألا تزال جميلة ورائعة كما عرفتھا؟ والخال توفيق على عكس شقيقه حنا لا يدخر الكلمات، ويجيب على كل سؤال . وحين لا يُسأل يروي الأخبار والقصص عن الوطن من تلقاء نفسه . فأحدهما منطوي على نفسه ، والآخر منفتح الى أبعد الحدود . توفيق لا يهدأ يساعد يوسف في متجره ويحاول جاهدا تعلم اللغة البرتغالية بأسرع وقت ممكن، ويمضي الساعات في التقاط الكلمات وتعلم الجمل وترديد ما يلتقط من اللغة مرات ومرات . انه غير راضي عن اي شيء ، فكأنه قد جاء الى هذه البلاد مضطرا وليس راغبا ، أو هاربا . لا يعطي اهتماما بما فيه الكفاية لأولاد شقيقته . وبعد ان سيطر على الكلمات البرتغالية وبعض الجمل والعبارات الضرورية للإبتداء بالعمل ، كان المكتوب له ان يبدأ بالتجارة المتجولة كجميع ابناء وطنه المهاجرين . كانت بداية عمله في التجارة الجواله صعبة جدا ، وقد مر بأيام مليئة بالكد والتعب وهو ينتقل من بلدة الى أخرى . كان يذهب حاملا بضاعته تارة الى سان ميغال ، وتارة الى تيجوكينياس ، ومرة أخرى الى غانشوس ، ويتجول ببضاعته في بيغواسو الفوقا ، وسان جوزيف ، وسانتو أمارو دا بياتريس ويكرر نفس المسار الذي كان يتبعه زوج شقيقته يوسف ليبيع بضاعته . ولكن كل ذلك كان دون جدوى . كان دائما حائرا ولا يدري ما عليه ان يفعل . وكلما فكر بعمل شيء لتحسين

وضعه ، احتار في الأمر ولا يصل الى معرفة الخيار الأصح .
يجتمع بشقيقته ويستشيرها في بعض الأشياء وكذلك يستمع الى
رأي زوجها يوسف . يعيش في قلق ويشكو كما لو كانت تمينه هي
التي ألحت عليه في المجيء الى البرازيل . يقول لها : أنا لم آت الى
هنا لأقوم بهذه الأعمال التجارية المتجولة . أريد أن أذهب الى حيث
يقيم أشقائي في الولايات المتحدة . أريد أن انضم اليهم هناك . لا يذكر
والده في البلد المجاور في الأرجنتين . لا يريد ان يذهب الى
الأرجنتين الآن . قد يذهب في وقت لاحق ، أما الآن فهو يريد
الذهاب الى حيث اشقائه ليكون معهم وبقربهم . سؤال واحد يراود
أبناء شقيقته ويريدون ان يسألوه ، ولكن لا تتوفر عندهم الشجاعة
لطرحة على خالهم ، وهو : هل كنت عند اخوتك في الولايات المتحدة
؟ وهل تسيطر بشكل جيد على اللغة الانكليزية ؟

أخيرا ففتح توفيق دكان بقالة بالقرب من محل خياطة السيد جيون
ديدينيو، رئيس مركز الشرطة ولكن في الجانب الآخر من الشارع. لا
يجيد البرتغالية الا بشكل بدائي . لقد بقي في هذه البلدة يعمل حتى
بعد ان انتقلت اسرة يوسف وتمينه الى فلوريانوبوليس ، وأمله ان
يستقر وتتحسن اشغاله ، ولكن ذلك لم يحصل .

بقي وحيدا يشغل في البلدة وبالكاد يستطيع القيام باعبائه . بقي في
هذه البلدة وحيدا دون رفيق ولا أصدقاء ، ولا زوجة ، وعاش دائما
متشظيا ومرتابا وفي حيرة. وفي مقارنة بينه وبين شقيقه حنا فان
الفرق واضح والاختلاف كبير . وهلى يمكن المقارنة بين الاثنين ؟
في ذات يوم . وبنفس الطريقة التي وصل بها الى البرازيل ، فانه
ذهب الى الولايات المتحدة بحثا عن أشقائه .

لقد أعد كل شيء بسرعة دون ان يخبر شقيقته ولا زوجها ، كما انه لم ينتظر جوابا ولا دعوة من اشقائه للحصول على تأشيرة الدخول الى الولايات المتحدة . نعم لقد قال لشقيقته تمينه انه سيذهب الى الولايات المتحدة مباشرة من دون المرور بالمكسيك .

انه ، بلا شك ، سيستأنف العودة الى البرازيل بعد ان يكون قد احبطت محاولته في الوصول الى الولايات المتحدة حيث يقيم اخوته قبل ان يعود نهائيا الى مسقط رأسه لبنان .

كل هذا وأكثر من ذلك سيحصل لتوفيق،فهو محبط،وحائر،ومنزلق، وغامض ، وغير مفهوم تقريبا . لذلك ، فان المقارنة مع شقيقه حنا غير مناسبة وغير مؤاتية أي (الخال حنا المتأنق والخيالي) . الذي سحر الجميع بجاذبيته والذي لا يزال يكتنف الغموض تلك الوفاة غير المبررة وغير المفهومة وكيف مات . أو ، اذا ذهبنا أبعد من ذلك قليلا للوقوف على تلك الشخصية المحيرة ، فانه يصعب علينا معرفة كيف اكتسبت تلك المزايا الساحرة . والحقيقة ان الخال توفيق لم يتمكن بما يكفي لاكتساب مودة أبناء شقيقته الذين لم يعودوا أطفالا ولا اولئك الذين لم يعرفوا جيدا شخصية حنا فكيف بالنسبة الى سائر الانسباء والاقارب وابناء بلده المهاجرين؟ ويبقى السؤال علامة استفهام تتطلب جوابا .

السقوط . الغطس .

حادثان متتاليان لا ينفصلان وغير متوقعان يتداخلان فيما بينهما ويتكاملان : الدراجة القديمة التي اشترها الوالد يوسف بفعل الحاح الاولاد ، وتذكر الحادثة القديمة حادثة غطس أدالبيرتو من على

جسر الحديد فوق نهر بيغواسو . والنتيجة المترتبة كانت متطابقة في الحادثتين . ودراسة وتحليل الحادثتين كل واحدة على حدة ، والعناصر المكونة لهما من دون جهد كبير تشير الى بعض التشابه، ولكن التساؤل أيضا يشير الى وجود التشابه والتقارب بين الحادث وغيره ، ليستمر في الذاكرة كما لو كانا قطعة واحدة . وربما كان ذلك بسبب النتيجة الكارثية التي حصلت بعد عملية الغطس التي قام بها أدليبرتو من دون تفحص عمق المياه في النهر قرب الجسر بعد الفيضان الذي حصل للنهر ، وعدم مهارة الطفل في قيادة الدراجة بسبب عدم معرفته وتدريبه على ركوب تلك الآلة التي تشبه الوحش الجامح ، في حين اعتاد الاشقاء على ركوبها بسهولة كبيرة . ها هو أدليبرتو فوق الجسر . يستعد للغطس . ثم يقفز الى النهر غاطسا فتأرجح ساقاه وقدماه ويتشقلب غير قادر على النهوض الى ان يأتي أحدهم ويدركه على تلك الحالة فيسرع الى انقاذه من الغرق والهلاك قبل فوات الأوان . وبعد قفزة الغطس هذه تستمر رقبتة متصلبة خلال أيام وأيام دون ان يكون قادرا على تحريكها أو استدارتها حتى لو بذل جهدا كبيرا من أجل ذلك ، بينما راح اصداقؤه يمزحون معه وينادونه ليلتفت اليهم مع معرفتهم بانه لا يستطيع تحريك رقبتة او استدارتها مما يدفعهم على الضحك وقهقهات الاستهزاء الساخرة . أما الدراجة التي كانت مسندة الى الجدار بالقرب من المنزل ويحيط بها الأولاد فقد صعدت عليها مرة الفتاة هند وحاولت قيادتها ولم تكن على دراية كاملة بقيادة الدرجات وبدأت تسير وتتوقف وتقف وتنزل عنها ثم تصعد مقلدة شقيقها جورج الذي يستطيع قيادة الدراجة بقفزة واحدة - ويقود الدراجة

بالشكل الذي يريد سواء كان صعودا او نزولا، ويسير في المنحنيات والأكواع ، ويرفع الدراجة ، ويقوم بالعاب على الدراجة دون ان يحصل له شيء . أما فوزي فلا يستطيع ذلك، لأنه بحاجة الى تدريب وتمارين أكثر ليقدر على القيام بمغامرات على الدراجة . وذات يوم جاء أحد اصحابه وقال له : اليوم يومك يا فوزي . يجب ان تثبت براعتك في قيادة الدراجة . حاول فوزي التملص من ذلك وتردد ، الا انه امام التحديات والاستهزاء ركب الدراجة بكل حيطة وبدأ قيادتها بحذر شديد متظاهرا بعدم الخوف وسارت الدراجة وبدأ صياح الاصحاب مردين : هيا . هيا امشي . لا تخف افلت يديك . ان قيادة الدراجة سهلة . جمعينا نفعل ذلك افلت يديك ولا تخف . كان يسمع الجميع ، ولكنه لا يريد ان يفعل ما يطلبونه منه . يجب الا يفعل . لكنه لا يستطيع الاستمرار بالرفض وهم يلحون عليه ويتحدونه . انه يعي ما يدبرون له وما ينون وما يتوقعه الجميع وما سوف يحصل له . ومع هذا الحذر الذي كان ينتابه زاد سرعة الدراجة فسقط فجأة على الأرض ، وانقلبت الدراجة وأخذت عجالاتها تدور ، وانفجرت قهقهات السخرية من الجميع حتى نسي حادثة غطس ادالبيرتو المؤسفة .

قبل ان تظهر السيارة تبدأ بالتزمير ، فيعلم الجميع بمجيء سائقها ذلك الرجل الكهل الفطن والذكي .

الزمان هو منتصف الصيف .

انه تاجر ناجح ومحترم . لا مهرب من شدة الحرارة ، وكل الممارسات والعلاجات لا تنفع في تخفيف حذتها . يترك كل شيء : الأسرة ، والأصدقاء ، وزبائن متجره في الغانשו الأوسط ، وهو

المكان الأكثر تقليدياً من بين البلدات الثلاث وهو محلة رعي البقر والتلذذ بلحومها ، وكذلك حساء السمك الشهير ، والمأكولات البحرية التي تفوق التصور بطعمها اللذيذ ، وكذلك أشياء أخرى لم يكن ليتخيل حدوثها ، التاجر المتقدم في السن ساغاز يتمكن من الانتقال الى العاصمة ، وفي العاصمة يشتري بالتقسيط سيارة فخمة آخر موديل ، ويرتب على نفسه اقساط من الدين . هو من الموثوقين في تعاملهم وسمعته جيدة . ومع شراء هذه السيارة يبدأ بتبذير ماله كيفما اتفق ، وينشغل بمطاردة الفتيات ونساء المنطقة حيث كان يملأ سيارته، في منطقة استريتو، بالفتيات اللواتي كنّ ينتظرنه ويذهبن معه الى التنزه في شوارع العاصمة في فلوريانوبوليس . كان يبادل اوراق نقدية بكمية من النقود المعدنية ، ويضعها في كيس ، ويتجه بها الى بيغواسو ، ويتوقف عادة امام المدارس ومجمعات الدراسة المدرسية للبنات ويبدأ باستعمال زمرور السيارة، بدون توقف او ملل، والذي أصبح بمثابة نداء للفتيات اللواتي ينتظرن قدومه . وعندما يخرجن من المدرسة يبدأ بالصياح عليهن ويقول : انا هنا من جديد . هيا تعالوا . اصعدوا الى السيارة لنقوم بنزهة . واستمرت الحال على هذا المنوال . صعود الفتيات الى السيارة ونزولهم منها، والتنزه في شوارع فلوريانوبوليس ، وقيام الحفلات والمغامرات، وجميعهن ينتظرن تلك اللقاءات حتى اصبحت عادة لهن . أما هو فلم يكن لجوجا عندما يأتي الى البلدة ، بل كان صبورا وينتظر الوقت مهما طال حتى لحظة خروجهن من صفوف الدراسة وانتهاء دروسهن . وعندما كن يشاهدن سيارته في الانتظار كنّ يركضن مسرعات باتجاه السيارة ويتوافدن للتكلم والحديث معه غير أبهين بتحذيرات

معلماتهم . واصبح من المستحيل على الآخرين ان يمنعوهم عن اللقاء معه . كان عندما تصل الفتيات الى القرب من سيارته يأخذ قبضة من النقود المعدنية ويرميها في الهواء أمامهن فيركضن ضاحكات لالتقاط النقود التي لم يكن ليرميها مرة واحدة ، بل كان يرميها على دفعات في عدة نقاط تحيط بالمدرسة القريبة من الساحة العامة . وكان يضحك ويقهقه كلما رأى الفتيات الصغيرات وحتى الكبيرات يتسابقن ويرتمين ويتمرغن على الارض لالتقاط النقود التي كان يرميها لهن وكان يقول لمن كان يمر أمامه : انظروا أليست هذه الفتيان مثل صيصان الدجاج (كتاكيث) التي تهجم لتلتقط حبوب الذرة ؟ أليس كذلك ؟ ويبدو بينهم بعض الذكور الذين كانوا يشبهون الديوك بين الدجاج . هو لا يريد ذلك . انه يريد فقط الفتيات اللواتي يشبهن افراخ الدجاج الطيبة التي اصبحت ناضجة لوضعها في المقلاة او الطنجرة والتلذذ بها . وكتن يقول دائما لا أريد أن أنفّرّها ، بل أريدها هنا مخدرة بقربي .

انتهى فصل الصيف ، وكانت أفضل الأيام التحضيرية فيه . وربما تأتي أيام أكثر سخونة وحرارة كما كان يقول السيد تي آداون . ها هو مرة أخرى التاجر الكهل ساغاز في غانشو ، ويبدو أنه لا يتذكر أي شيء مما كان يفعله من ناحية ، ومن ناحية أخرى يبدو خجولا وعليه مظاهر الحياء ، وحاني الرأس مكتئبا وينبعث من أعماق أعماقه بصيص ضئيل .

لم يطل الوقت ويتأخر ، فقد بدأت تصل فواتير الديون التي لا تقبل سؤالا ولا نقاشا ، واستحقت مواعيد دفع الاقساط الي رتبها على نفسه من جراء شرائه السيارة بالتقسيط . الخسارة كانت كبيرة ، فما

العمل ؟ وماذا بإمكانه أن يفعل ؟ يجب ان يدفع الديون كلها ولا سبيل الى التملص من دفعها . يحاول ان يعيد السيارة التي تشوبها الاضرار من كل الجوانب تقريبا . يقسم يمينا انه لا يتذكر أي شيء مما حصل معه . يقطع عهدا على نفسه أن ذلك الذي حصل معه لن يتكرر ابدا مرة أخرى . لا أحد ينكر ذلك ، ولكن لا جدوى من ذلك . كما يعلم الجميع ان ما حصل معه مستغرب جدا والذي حصل له انه أقوى منه . وأقوى من ارادته . انه ليس هو ، بل هو شخص آخر تحرك في داخلته وتمكن منه وتصرف بكل ما تصرف بدلا عنه . لقد كان يظهر في بيغواسو عندما يزار في متجره انه رجل رزين لا يرتكب خطأ ، هاديء في حديثه الذي يطيل فيه ، متوازن وذو تكوين ثقافي وفكري جيد ، له مطالعته ومعارفه الجيدة أيضا كما يلاحظ ان له نظرة الى العالم لا بأس بها ، وكان يعرف حتى ولو القليل من كل شيء الا بعض حالات عدم توازن واختلال موسمية تجعله يرفض ان يقبل حالته كما هي ، فماذا يريد ؟ وماذا سوف يكون ؟ .

سؤال آخر يبقى بدون جواب وهو : لماذا السيد ساغاز عند ادراكه منتصف عمره أطلق عليه نعت متكرر انه أكبر بكثير من عمره ؟

المطر يتساقط رذاذا . الطقس بارد بعد الظهر والأمسية بشعة تثير الحزن والكآبة في المنزل الثاني في بيغواسو . قبل الانتقال بقليل الى فلوريانوبوليس ، وفي الغرفة التي تحيط بها الاغطية والستائر ، كان الولد البكر يستمتع بالقراءة ويتنقل بين الصور الموجودة في الكتاب ويتصور شخصيته من خلال الصور . تارة يشرد وتارة يجد نفسه في ذلك العالم غير المتساوي من الخيال والذي هو اكثر واقعية من

الواقع التافه . عليه ان يتقدم بسرعة . ان يتابع التحرك الى النهاية لأنه لم يبق لديه سوى يوم واحد لإرجاع الكتاب الذي بين يديه في يوم الغد . بالنسبة له لا يوجد أي شيء سوى أن يعيش المغامرة المثيرة مع دوستويفسكي . انه متورط وبحاجة ماسة لتحقيق الفوز . فالعاطفة الجياشة تخنقه ، وتأخذه الى البعيد البعيد ، وفي الوقت نفسه تقرّبه من ذويه الذين سوف يحلون مشاكله . فالخطوة التالية صعبة وحاسمة .

الأولاد يسعون ويحاولون الترويح عنه ، وصرفه عما هو به . من المستحيل الخروج من المنزل في ذلك الوقت . الوالدة تحضّر طعام العشاء في المطبخ ، وتعتني بالطفل الأصغر سمير . اما الوالد فهو في محل البيع ينتظر موعد نشرة الأخبار وفي الوقت نفسه يراجع بعض الكتب المفضلة لديه وخصوصا وربما أشعار الشاعر عمر الخيام . أما في الرواق الذي يفصل ويصل ما بين محل البيع وغرفة الجلوس فقد كان أحد الأولاد الأخوة يلعب ويحاول اخراج بعض اصوات اوتار القيثارة . فقط يحاول اخراج بعض الأنغام السمعية ويحاول التقاطها سمعيا . فهو لم يدرس الموسيقى ابدا ، ولم يكن له مدرّسا . فقط يصاحب ويرافق أحيانا عازف القيثارة والمغني روبرتو غالياني ويحاول تقليده . انه يعشق الموسيقى ويقول دائما انه سوف يصيح موسيقيا . يجهد نفسه ويعزف للحصول على أي نغم أو لحن كان قد سمعه ويتذكره . من يدري ما سوف يحصل في المستقبل ؟ ربما سيكون يوما عازفا حقيقيا ، ومن تحريك اصابعه على هذه القيثارة الصغيرة التي يلعب فيها ينطلق الى العزف على قيثارة حقيقية أخرى ؟ .

ويستمر اللعب والتنافس في الغرفة على قطعة القماش الخضراء ،
وبدلاً من تزايد المال على طاولة اللعب ، فإنه يتناقص ويختفي .
واللاعبون يحاولون المضي قدماً دون توقف . يجب الاستمرار
في اللعب ومنع أي ضجيج يمكن أن يؤثر على سير اللعب فيعود إلى
ذلك العالم الذي كان يعيش فيه ، والذي يريده محفوفاً بجو من
الرخامة والهدوء . فمهما حاول التركيز ، فليس هناك مفر من
الضجيج الذي يتداخل ويعكر عليه الجو ، ويحدث تشتتاً خارجاً عن
السيطرة . لا جدوى من الشكوى ولا من تهديد المستقبل الذي يبدو
غير خاضع أو قابل للاختزال . يرد على طلب ستانداال الجديد على
الفور قائلاً : لماذا يجب عليّ أن أتوقف ؟ يمكنك أنت أن تتوقف ولو
لمرة واحدة . وإذا كان ذلك يزعجك ، فاغلق الكتاب وتوقف عن
القراءة . واذهب أنت وقراءتك المقرفة إلى زاوية أخرى . لماذا عليّ
أنا دائماً أن اتسامح وأطيع ؟ أجبني . الخلاف ليس وليد الآن ،
بل يعود إلى زمن بعيد . ومن المستحيل تقييم ومعرفة متى ابتداء
الخلاف حتى هذا اليوم الذي تنبأ بحصوله الجميع . الباب يفتح بعنف
جنوني . إنه بحالة عدم توازن كلي . لقد خسر باللعب ، وخسر
بالتركيز ، فتقدم حانقا غاضبا رافعا الكتاب بيده ورماه أرضاً وأخذ
القيثارة الصغيرة من يد شقيقه ورفعها كما لو كان يحمل هراوة
وراح يضرب بها بشكل حاد ضربات سريعة على رأس شقيقه الذي
يريد تعلم الموسيقى بلا رحمة أو شفقة انسانية غير مبال بالصراخ
الذي اجتذب العائلة .

تواصلت الضربات حتى لم يبق من جسمه أي مكان لم تصله ضربة
ولم يسلم من القيثارة أي جزء حتى بدأ الدم ينزف من رأسه الكثيف

الشعر ويسيل على جبينه . ويبدو الأمر كما لو كان هناك شيء كامن من الغضب والحمق وقلة الحيلة ، ليس لكونه قارئاً يريد ان يقرأ فقط ، بل لكونه لاعبا أيضا ويحتاج للفوز . يجب ان لا يكون هناك أي عائق او مانع يغيّر قواعد اللعبة . لكن اللعب قد انتهى وتم وكل حظ بالفوز قد تحطم ، والهزيمة لا مفر منها والوضع يستمر خارج السيطرة . وبعد تلك الحادثة فان علاقة الاخوة استمرت عادية كما هي . الحياة في حالة استفزاز : والذي كان يتعلم الموسيقى يشكو دائما وغير مقتنع بما حصل له ويقول لشقيقه دائما : تصور لو انك قضيت على ذلك الفنان الواعد بفعلتك ! وماذا كان حصل لو انني فعلت معك كما انت فعلت معي ومزقت كتابك وكتاباتك الخاصة ؟ فيجيبه على الفور شقيقه صاحب الكتاب : ولماذا لم تحاول ؟ كان بإمكانك ان تفعل ، ولكن ربما كنت قطعت بداية مسار حياتك الموسيقية . والآن أجزم والتاريخ يؤكد انه لن يتساوى أبدا مصرفي ممتاز وموظف تنفيذي يمارس عمله بمهنية رائعة . وأخيرا ، فان التعامل بالمال ، بالنسبة للكثيرين يشبه الاغنية او الموسيقى لبعض الناس ، وحتى انه اكثر لحنا وايقاعا من ذلك . وعازف القيثارة الصغيرة يؤكد انه لم يصبح محبطا والبلاد لم تخسر به تلك العبقرية الموسيقية .

الفيضانات تغمر بيغواسو . الأمر ليس جديدا ، ولا استغراب أو مفاجأة في ذلك فقط مجرد ملاحظة . ومقاطع الشعر تشير الى ذلك : " شنت شنت ، وغمرت بيغواسو " أي (هبط المطر) وهي أغنية تعزى بدون سبب للشاعر جيراالدينو وهو قريب والخصم السياسي الحالي لرئيس البلدية السيد فيدوكا مع ان مؤلف هذا الشعر هو

التاجر الشاعر أو الشاعر التاجر الساخر اللاذع ، وليس للشاعر الضرير بائع الكتب الذي اشتهر بأشعاره الغنائية والرومانسية . وقد اعتاد ابن جوزيف (غرينغو أي الغريب) أن يقضي الساعات الطوال في القراءة بصوت عال . وكلا الاثنان : الشاعر الضرير والفتى ابن جوزيف كانا يبديان نهما كبيرا للقراءة وحب المعرفة والتعلم .

وذات يوم من الايام غمرت المياه كل شيء في البلدة : الشارع الرئيسي ، والطرق الفرعية ، والأزقة ، وغمرت الأحواش وجعلتها شاغرة من الناس ، وغمرت المنازل ايضا ، وشردت الناس وأجبرتهم على ترك بيوتهم ، وتوقفت حركة المرور في كلا الاتجاهين : اتجاه الشمال واتجاه الجنوب ، وتقطعت بالناس السبل وبغير منفذ للنجاة ، والسبيل الوحيد للخلاص هو اللجوء الى احد منازل الأقرباء والأصدقاء ، فقد ارتفعت المياه الى مستوى عالي يصعب التخلص منه . فما العمل ؟ وما الوسيلة سوى الاعتماد على الزوارق على شاطئ بندقية سانتا كاتارينا ؟ وهذا ما كان سببا لمتعة الاطفال الغافلين عن الاخطار التي تسببها السيول وطوفان المياه والغير مباليين بأحاديث الكبار ومخاوفهم فيما يتعلق بمخاطر الانهيارات الارضية ومخاطر سقوط التربة المرتفعة ، والاضرار ، والخراب ، والوفيات والتحذيرات الموجهة الى الاطفال . وقد كثرت التنبيهات خصوصا للأولاد التي تقول : انتبه يا صبي لقد سقط أحد الصبية في المياه ولم يتم العثور على جسده حتى الآن . وهنا ولد آخر غرق في النهر ، وآخر ايضا اختفى وحملته المياه ولم يستطع أحد انقاذه ، كما لم يعثر على جثته . ويقول رجل آخر بأن البارحة

عثر على جثة أحدهم وقد مات غرقا . حتى ان فرق الانقاذ لم يصدقوا ان السيول حملت الغرقى الى البحر دون ان تستطيع فعل شيء لانقاذ الذين ذهبوا غرقا . فتيار المياه على ما يبدو كان كبيرا وقويا جدا . فمن يستطيع المخاطرة في هذا الجو المرعب ؟ لقد جاءت الفيضانات هذه المرة مفاجئة وفجأة وليست كما كانت تحصل عند تساقط الأمطار في منابع النهر . هذه المرة كانت الفيضانات شيئا مختلفا ومرعبا . لقد كانت الفيضانات كبيرة وجرت المياه وعمت بسرعة لا توصف وأخبارها انتقلت الى كل القرى ، ومن طرف الى طرف ، ومن ناحية الى ناحية بسرعة فائقة في جميع انحاء المدينة .

نعم نعم هناك في البليار في مبنى القصر الكبير الواقع في ساحة وسط المدينة كان رجل على الأرض . انه هو هو ذاته . محاصر لا يستطيع الخروج من مكانه . يريد ان يذهب الى فلوريانوبوليس بسبب التزاماته هناك . لقد جاء من جوانفيلي وربما من بلوميناوي أو من إيتاجايي . لقد حاصرته المياه ولم يتمكن من الخروج من الدائرة التي حوصر فيها من شدة الماء . من يدري اذا كان لهذا المسكين فرصة أو أمل بالتخلص من المياه اذا انخفض مستواها وبدأت بالتراجع عن المكان ؟ لكن المياه كانت تزداد وترتفع بسرعة ويحتاج الى انخفاض مستواها او مساعدة لكي ينجو . بدأ الناس يتجمعون ويتنادون لرؤية ذلك الرجل المحاصر بالمياه، وكلهم يتساءل ما العمل ؟ فالبعض يقترح بالوصول اليه بواسطة زورق مجاذيف ، وآخرون بزورق بخاري او كهربائي ، وغيرهم يقول لا بد من انقاذه ولو بالسير على الاقدام ويحاولون المخاطرة بالسير في الاماكن

المرتفعة وعلى حافة المياه ، وبعضهم يقول بالسباحة ولكن قوة المياه شديدة ولا يمكن الوصول اليه . لقد التجأ الى مبنى القصر الكبير المحاط بالمياه كماوى لتجنب الخطر . بدأ الناس ينادونه أملا بتشجيعه ، وينادون بعضهم بعضا من أجل مساعدته وتطمينه . كان ذلك الرجل اسم مشهور ، وصاحب صوت رخيم ، وقد سمعوا صوته وأغانيه عبر الاصطوانات ، وأجهزة الراديو ومكبرات الصوت . والجميع اليوم يريدون ان يسمعوا صوته وأغانيه ، ويريدون مشاهدته شخصيا . الكثيرون منهم لم يرونه حتى في الصور . يريدون ان يتبادلوا الأحاديث معه ، ويصافحونه ويشدون على يديه ، فهي فرصة بالنسبة لهم من العمر . يطلبون منه أن يغني ويقولون له : غني . غني . غني . أسمعنا أي شيء . من فضلك أسمعنا أي لحن . أي أغنية . أحدهم يفضل أن يغني له أغنية " هكذا ينتهى الحب الكبير " . والغالبية يريدون أغنية : " المصير يتهاوى كتساقط الأوراق " بعضهم يدندن ويردد بعض مقاطع الغناء . وبعضهم يستفسر عن المغني وعازف القيثارة روبرتو غالياني أين هو الآن ؟ ربما وجوده الآن يفيد في تنشيط وانعاش الرجل . أحدهم يأخذه الحماس ويبدأ بترداد بعض المقاطع الغنائية ولكن بشكل غير متناغم :

" حبنا يترجم السعادة ، وصادق المودة
وذات يوم حبنا في قبضتينا ينجز انتصار "

ويصيح أحدهم قائلاً : لن أنسى أبدا أغنية : " المصير يتهاوى ويتساقط "

فقد تركت تلك الأغنية أثرها الكبير في حياتي . حيث لم يلبث ذلك الحب الهالك يعتمل في الذاكرة دون نسيان . لا أفصح عنه . لقد

حصل خلال تلك الزيارة التي قمت بها الى مدينة بورتو دي ريو
 غراندي . أعرف كل شيء عن ذلك الحب وحتى الآن ارتعد كلما
 تذكرت . وبدون ان انتظر الجواب ما زال ذلك الحب مستمرا الى
 الآن وارتجف كلما خطر في بالي ، لكن اتابع غير مبالي لكل ما
 يلحون به على ذلك المغني وما يطلبونه منه كالأغنية التي تقول :
 " لقد جاء يوم الغيرة ، وكل شيء بيننا قد انتهى
 ولم يبق سوى الذكرى العاطرة من الحنين " .
 كانت كل تلك الطلبات تذهب هباء ، وذلك الرجل المغني
 المحاصر بفيضان المياه ينظر الى الجميع ولا يريد أن يعرف شيئا
 ولا يتفوه بكلمة ، ويستمر محبوسا ، متأففا ، حانقا ، مكتئبا لا يدري
 كم من الوقت او من الأيام سيبقى على هذه الحالة محاصرا ولا يقوى
 على شيء قائلا : انها ما زالت تمطر بقوة ، ومرددا السؤال : متى
 سيخف المطر ؟ ومتى سيتوقف ؟ وأنا ، ماذا سيحصل لي ؟ وماذا
 عليّ ان أفعل وانا عالق هنا ؟
 لم يقتنع ولا يريد ان يصدق ان ما حدث كان يمكن ان يحدث . لقد
 وصل في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم ، ولكن كان وصوله
 مع هبوب تلك العاصفة الهوجاء الكبيرة التي عبثت بكل شيء في
 المدينة . كاد ان يبقى في الجانب الآخر من الجسر وكادت السيول
 العنيفة تحمله معها الى حيث الهلاك مع تدفق تلك المياه المرعب .
 وعندما وصل الى دكان جوزيف سأل : أين يمكنني أن أحتمي من
 هذا الفيضان ؟ فأجيب : لقد كنت محظوظا في وصولك الى هنا . أكمل
 سيرك قليلا الى الأمام فستجد مكانا آمنا في ساحة البلدة بالقرب من
 الكنيسة في مبنى (كازارون بورن) . هناك يمكنك البقاء المدة التي

تريد . كم يوم تريد البقاء ؟ يومين ؟ ثلاثة أيام ؟ أو تزيد أكثر؟ يمكنك البقاء الى ما تشاء . لا تفكر أكثر بمدينة فلوريانوبوليس . انس عاصمة سانتا كاتارينا ، والمسرح ، وصالات العرض والسينما ، ونادي 12 آب (دوزي دي أغوستو) ونادي التنس في منطقة (ليرا) . وانس ايضا متابعة السير الى ولاية بورتو أليغري وغيرها من المدن في الولاية . هناك في الكازاراون يجري الاهتمام بالغناء ، وعلى المدخل ، ينتظر الناس حلول وقت الغناء . انها لحظات وتبدأ الحفلة . يبدو انها هدأت فجأة تعود المياه وتنهمر .

الفيضان يتضخم . والناس تتكاثر . الجميع يريدون رؤية المغني . يريدون أن يلمسوه ويصافحوه ، ويطلبون توقيعهم . ويتخيلون كل ذلك . منذ وقت ليس ببعيد وصل نسخة الى أيدي الناس من صحيفة جورنال دو استادو وفيها اعلان عن العرض الغنائي في شبه الجزيرة يقول : ان هذا المطرب هو واحد من كبار وربما أعظم المطربين لدينا .

هبط الليل ، ولكن الأمطار ما زالت تتساقط ولم تخف وتيرتها . وضجة سقوط المطر تستمر على السطح وجريانه على شرفة المنزل . يتناول كأسا من مشروب العرق البرازيلي (بينغا) ويبدأ بالتنقل حاملا الكأس بيده ويصل الى طاولة لعبة الدومينو لمشاهدة المباراة التي كانت تجري في المكان ، ثم يذهب الى الداخل لمشاهدة لعبة البليار ، ومراقبة عصي البليار الممسك بها جيدا بأيدي الخصوم ، والتي كانت تقذف كرات البليار التي كانت تتدحرج بشكل هاديء على القماش الناعم الأخضر . كان يقظا متنبها لتسديدة صعبة حين تحول انتباهه فجأة لدى سماعه عزفا وحيدا على القيثارة لعازف خبير

، وارتفع الى جانب العزف صوت أحدهم ممن يجيدون كلا العزف على القيثارة والغناء بشكل بديع .

ولدى سماعه ذلك العزف وذلك الصوت ، جرى بسرعة الى ناحية الباب لمشاهدة العازف وصاحب الصوت ، فوجد أن المياه لاتزال تزداد وتلامس المدخل وتهدد باجتياح الصالة كلها، ومن الضروري بعد قليل أن يبحث عن ملجأ آخر في الطابق الثاني من البناء . نظر الى خارج المبنى فشهد زورقين: واحد يحمل اربعة شباب، والآخر يحمل ثلاثة ، اثنان يجذفان والثالث كان واقفا ، وكان قاربا صغيرا

يتأرجح على سطح الماء مهددا بالانقلاب بينما كان المجذفان يحاولان بكل انتباه تحقيق توازنه لكي لا ينقلب .

كان عازف القيثارة روبرتو غاليناني ممسكا بقيثاره ويلوح لكارلوس غاليناردو ويعزف ويغني بصوت حاد ومدوزن يذكرنا ب شيكو ألفس مع شيء من أورلندو سيلفا الذائعي الصيت والشهرة في ذلك الزمن في المقاطع الغنائية: "الغناء، والبرازيل" في اشعار وألحان بدت كأنها استفزاز لذلك الرجل المحبوس والمحاصر بالمياه بايصال صوت غريب اليه يستفزه بأغنيات لمنافسه الرئيسي في الغناء فرنسيسكو ألفس في لحظة النجاح المطلق في جميع أنحاء البلاد . يتوقف روبرتو غاليناني لحظة ليضبط الأوتار ، ويسعل لينظف صوته ، ويتحنح ليجذب انتباه الجميع ، وانتباه كل الناس الذين بدأوا بالظهور في الأماكن العديدة غير المتوقع ظهورهم فيها . بعد هذا راح يرفع صوته ويجوده ببعض المقاطع الشعرية كالتي تقول : " البراري أعطتك في ليالي السكون أنغام البرابرة ، والزنوج جلبوا

معهم من البعيد احتياطا من الحزن والدموع ، والبيض تحدثوا عن الحب في أغانيهم ومن مزيج هذه الأصوات ولد هذا الركن واسمه البرازيل وعندما انطق بكلمة البرازيل يصير صوتي حنانا ، وتصير الأشياء أكثر جاذبية وألقا " .

المشهد واضح . الأصدقاء يلعبون لعبة الغميضة والتخفي ، وعلى مسافة ليست بعيدة من منزل جوزيف . الوقت ليل . وفي الليل يصبح الاختفاء في أي مخبأ آمنا ، ويكفي قفزة فوق السياج العالي .

أصوات اللاعبين تتقارب : كيف الهروب والفرار من امام الأعين ؟ وكيف يمكن اعادة القفزة مرة ثانية ؟ واذا لم يقدر على القفز ، فما العمل ؟ يظهر ان السياج أعلى . لا بد من المخاطرة . انها المخاطرة التي سببت الجرح العميق نتيجة القفز فوق الأسلاك الشائكة حيث بدأ الدم يسيل ، وارتفع الصراخ من الألم . وكذلك الخوف والجزع الذي رافق قطرة الدم البسيطة التي سألت ونكدت عيش المصاب في يده اليمنى . ركض الى المنزل وهو يرتجف من الخوف ، ومن أن الجرح يمكن ان يترك أثرا أو علامة لا تمحى وكل ذلك كان بسبب تلك القفزة في الظلام . المخاطرة كانت لازمة للاختفاء ومتابعة اللعبة ، ولكن ينبغي قبل المغامرة ان يكون الانسان يقظا ومتنبها لما سوف يحصل فيحطاط للامر قبل ان يخاطر . فالحياة خطر دائم . هل سيكون هذا الحادث درسا له ؟

الفصل الثامن والعشرون الملاح (الجوانب)

ان اختيار هذه الجوانب من بين الجوانب الكثيرة يمكن ان يبدو اختيارا عشوائيا ، ويحتمل ان يكون له أو لا يكون تفسير منطقي. لماذا هي فقط في هذا الكون الفسيح ؟ ولماذا ليست غيرها من الجوانب التي يمكن ان تساويها وتشغل مساحة ، وتكمل مشهدا جديدا اضافيا ، وتساعد على انشاء لوحة تختص بالزمان والمكان ، وذات صلة بالاوضاع والمواقف التي ستتبلور فيما بعد ؟ فمن خلال عملية غريبة التشكل والتكوين ، حتى انه لا يمكن تفسيرها وتخرج عن نطاق السيطرة ، فقد فرضت تلك الجوانب نفسها ، وتمكنت من ان تظهر مع مرور الأيام وتتحول الى رسائل واخبار لم تكن بالرضا والارتياح . انها تتطلب مساحة أكبر . وتتطلب الاستمرار للمساعدة في انشاء الاطار الاوفى ، ومتابعة مسيرة تلك الأسرة القادمة من البعيد البعيد الى هذا العالم الجديد حتى تكيفها وتكاملها التام ، وتركيز وتثبيت لوح مطامحها التي تكشف عن حقيقة معينة ، ومرحلة معينة من حياتها في هذه البلاد . لقد خرجوا جميعهم من الطبقات الشعبية ، ومن مختلف الشرائح الاجتماعية . وكلما اقتربنا منهم ، نشعر بنفس معنى التضامن الانساني ، وبنفس الاحلام ، وبنفس الأماني والآمال والتوقعات وانتظار الأيام والظروف الأفضل على الرغم من المعيشة التي ليس فيها استقرار . فهم يعيشون هنا وليس هنا . وهم هم وليسوا هم . فقد تحولوا وتبدلوا مع مرور الزمن بالذاكرة وبالخيال .

تي أداون نكر متى يصبغ وعنده ثلاث مرات ثلاثين . لقد تنكر الدهانات الدفعة الثلاثين . والعبارة تتكرر مع التأكيد حتى النهاية ، وفي مختلف الألفاظ والظروف من قبل الزنجي (تي أداون) في كل

مرة يوجه اليه سؤال لمعرفة عمره . مضيفا الى ذلك مع شيء من الكبرياء الجامحة : عندي من العمر أكثر من مئة عام (100) . انظروا الى شعري الأبيض . قولوا لي هل هو مصبوغ ؟ ثم يضحك فتظهر أسنانه البيضاء التامة ، وضحكته المميزة ، وتفح رائحته، وكأنه يقول : صدّقوا أو لا تصدّقوا . كذبوني اذا استطعتم . يتذكر الماضي والأيام الأخيرة من العبودية وعيشة الرقيق والقانون الذهبي ، والسفن المزدهمة بالعبيد ، والناس الذين يموتون أثناء الرحلة ، ووصول الناس الأرقاء والنزول في الأرض الجديدة ، والمساومة عليهم كالحوانات بل أسوأ من الحيوانات ، وتخليص العبيد من قبل الأميرة إيزابيل ، وعلان الجمهورية . يتوقف عن الكلام ثم يتابع متذكرا اثنين من الأباطرة : الأول الذي كان في سان ميغال ، والذي لا يعرفه . أما الثاني الذي يعرفه وقد ذهب الى مدينة فلوريانوبوليس لرؤيته قبل فترة وجيزة من ابعاده . مرة أخرى يتوقف ويصمت ثم يقول : أما الماريشال ديودورو الذي لا يزال على علاقة معه ، فانه أصبح اليوم رئيسا للجمهورية . لكنه كان لا شيء وأسوأ من فلوريانو الذي جاء بالبلطجي المجرم موريرا سيزار الى هنا . وقد رافقنا المجزرة في قلعة أنياتوميريم الممنوع الوصول اليها والتي ما ان شوهدت السفن تقترب منها حتى جرى التحضير لتنفيذ تلك المجزرة رميا بالرصاص .

من يتجرأ في وقت لاحق على المخاطرة والنزول الى جزيرة الاشباح تلك ؟ وقد قيل ان الاشجار كانت تبكي بعد تلك المجزرة . وقيل ايضا ان كنوزا كانت مدفونة هناك ولا يلزم سوى الذهاب الى هناك والحصول على تلك الكنوز ، ولكن أين الشجاعة ؟ ومن يتجرأ على المخاطرة ؟ وقد قتل الكثير من الناس هناك حتى خرج منها موريرا سيزار . يتذكر ايضا اسماء اثنين من الضباط : البارون دي باتوفي الذي لم يكن يعرفه شخصيا والنقيب رومالدو دي باروس

الذي كان يعرفه والذي كان له شرف مصافحته عندما كان الرجل في إحدى زيارته في مدينة سان ميغال ، وقد قال عن هذا النقيب : يبدو ان هذا الرجل رجل جيد. اما عندما يتحدث عن اعلان الجمهورية فكان يُذهل . يتحدث فقط عن النتائج ، ثم يقول لمن حوله: انتم تعرفون أكثر من هذا الزوجي الكبير السن؟ مشيرا الى شخصه. انتم تعرفون؟ ثم يغير الموضوع .

حلّ المساء وبدأ يهبط الليل ، والسيد يوسف لا يزال في بقالته يتسلى بقراءة صحيفة الأمس او صحيفة الأسبوع الماضي بانتظار نشرة الأخبار القادمة عبر راديو الاذاعة الوطنية كما يريد ان يعرف شيئا عن اخبار البلاد ، وعن قرار جيتوليو فارغس بالنسبة للحرب ، وهل حقا أن ذلك اللعين والسخيف هتلر ما زال ينتصر ولم يكتف بما احتل من الأراضي؟ والآن يتقدم باتجاه الاتحاد السوفياتي بعد الاتفاق غير المبرر . اتفاق ستالين - هتلر .

الآن يصل الزوجي تي آداون . دائما هو الأول في الوصول . يدخل محل يوسف و يبقى واقفا على قدميه للحظات. يحيي الحاضرين بايماءة وحركة من رأسه. يبدأ كلامه قائلا: كيف حالك يا سيد زي؟ يعني (يوسف) ، ثم يطلب الاذن بالجلوس . يجلس . دائما يوجد مقعد محجوز له فوق صناديق الصابون (ماركة ويتزل) الذي يأتي من مدينة جوانفيلي . بعد ان يجلس، يبدأ بالسؤال : ما هي آخر الأخبار اليوم يا سيد زي؟ وما هو الجديد ؟ قص عليّ كل شيء . لا تخف شيئا عني . لا يسمع أي جواب . يحرك رأسه ويروح يراقب محل البقالة من جهة الى أخرى ، فيلاحظ ان الرفوف فارغة من البضاعة تقريبا . يطلب من يوسف كأس عرق بينغا من الصنف الحاد . ثم يكمل حديثه : فاذا كان الطقس حارا ، كان يقول : الطقس حار جدا لا يحتمل . اعطني العرق لأخفف من حدة الحرارة . واذا كان الطقس باردا يقول : الطقس بارد جدا وأريد ان أخفف من شدة البرودة . أعطني كأس عرق البينغا . (عرق برازيلي) . يقطع يوسف

قراءته ويشغل راديو الفيليبس لسماع بعض البرامج . ثم يقدم للسيد تي آداون ما طلبه من العرق . وبعد ان يقدم العرق يقول : والنهاية يا سيد تي آداون ؟ ما هي نهاية القضية التي كنت تحدثنا عنها أمس أو أول أمس ؟ أليس لها نهاية ؟

لم يتلأ ولم يتردد السيد تي آداون ، بل يستأنف الحديث مباشرة ، ويواصل حديثه أمام الحاضرين الذين كانوا ينتظرون تنمة القصة ، فيبدأ الزنجي تي آداون بوصل الحديث بشكل مثير ورائع وملفت للانتباه ، ويربط الأشياء بعضها ببعض ، ويحب ان يروي دائما القصة ويعطيها لمسات جديدة لم ترد في المقاطع السابقة ، ولم يرويها أمام سامعيه قبلا غير مكترث بأي مداخلة أو انتقادات توجه له اثناء الحديث . فالأشياء التي كان يرويها أمام سامعيه كانت مثيرة بشكل انها تدخل من الأذن الى القلوب،حتى ان بعضهم بعد ان يسمع قصص تي آداون لم يستطع النوم والاعفاء،ويبقى ينقلب على فراشه من جهة لأخرى طوال ليله .

يتناول الكأس في جرعة واحدة ويقول ليوسف : أعطني جرعة أخرى جيدة . لا تكن بخيلا . فأنا عطشان ولا أريد شحا . يجب استعمال التعابير النادرة وحتى الكلمات غير الموجودة في قاموس اللغة ، ويخترع أيضا كلمات جديدة وأنيقة ومبتكرة . وحين يسأل من أين تعلم هذه العبارات أو الكلمات ومن أين استقاها ؟ كان يحول الحديث ويبدل الموضوع الى موضوع آخر . واذا قيل له من أين لك هذه المعرفة ؟ يجيب ضاحكا مقهقها :

الحياة هي التي تعلم ، وهل هناك معلم أفضل من الحياة ؟ كانت زجاجة عرق البينغا دائما بجوار السيد يوسف . يملأ الكأس ويدفعه منبها : هذا كأسك يا تي آداون ، ولكن اشرب بتروي، وتناوله بتمهل . ارتح قليلاً وخذ كأساً أصغر . لا تتعجل في الشرب : سأرافك على الرغم من انه لا ينبغي ذلك . يعود تي آداون الى

الضحك . ابتسامته هي هي . علامة خاصة لا تقلد . فقط هي ابتسامته الخارجية من فمه ، وعينييه ، ووجهه ، وذراعيه ، وجسمه والتي تجعله يهتز ويوقف اي حركة ليده التي ترفع الكأس الى فمه . ثم يكمل حديثه ويقول : اشرب ولا تسل عن نصائح الطبيب التي تخوّف بالكثير من الامراض مثل الصفرة وغيرها . كل هذه الاقويل هي هراء وسخافة .

يقول تي آداون : ان قدحا من مشروب الروم الصافي او مزجه مع نبات لوزنه (نبات مر) او مع الليمون والعسل هو ما يجعلني احس بالمتعة والمحافظة على شكلي وبنيتي وعافيتي الكاملة . نعم يا سيد يوسف احس بنشاطي التام . وعندما أقول بشكل تام يعني صراحة وضمنا أنني بتناولي هذا المشروب احافظ على شهرتي كفحل بكل معنى الكلمة في علاقاتي الجنسية . ويضيف على كلامه ويقول : عندما تزورني يا سيد زي (يوسف) سأريك تلك البيضاء النحيفة التي أحبها ولا أريد التخلي عنها . انها عفرينة . كما أن هناك أخرى على القائمة . من اللواتي الأطفهن وأروضهن ، وأتابعهن بالترويض حتى النضوج .

في هذه الأثناء يصل المزيد من الناس الى متجر يوسف للدردشة وحديث المساء ، وتبدأ الأحاديث والمجادلات والنقاشات . وفي أكثر الأوقات يكون تي آداون هو محور الأحاديث ، وإثارته هي من الأمور الضرورية لاضفاء نكهة خاصة على الأحاديث ، فهو يعدل ويبدل وينتقل من قصة الى قصة ، ومن رواية الى أخرى . وفي اوقات يحضر الابن البكر للسيد يوسف ويبدأ بمجابهة تي آداون الزنجي الافريقي ومواجهة رواياته في لحظة تدفقه في الحديث ، كما يبدأ بمقاطعته جيئة وذهابا مع سرد بعض القصص وقراءة البعض الآخر من الحكايات التي كان يقصها الوالد يوسف والوالدة تمينه ، والتي كانت تنتقل من جيل الى جيل ، أو مستقاة من الأساطير عن طريق السماع ، وكذلك من الخرافات، والتخيلات ، والأمثال، ومن

قصص ألف ليلة وليلة ، والتي تتشابه في بعض الأحيان في نواحي كثيرة لجهة المناخ ، والمعاملة، والبنية ، والسلوك والبناء ، والغموض ، والأوهام .

في الواقع لم يكن للزنجي تي آداون أسلوب معروف في الرواية، بل كان له أسلوبه الخاص . وعلى سبيل المثال ، كان يقطع حديثه في موضوع يتكلم فيه اليوم ويستأنفه في وقت لاحق وربما بعد عدة أيام في دمج مع موضوع او موضوعات أخرى أو لا يستأنفه ولا يستعيده أبدا ، ولا فائدة من الاصرار على طلب استئناف الموضوع الذي تركه وبدأ بغيره . فكل شيء في نهاية المطاف سيكون خليطا مخربطا معقد التجانس كما كان يستمر في سرده غير المنظم وبدون انقطاع . وبعد التوقف عن السرد لحظة لأخذه رشفة أخرى من كأس البينغا ، يقهقه ويضحك كما يقال في سره ويقول : هذه جرعة لذيدة وجيدة وتحمي الجسم بشكل جيد وحقيقي ، وتدفيء الأمعاء والقلب ، وتحى وتنعش الذاكرة وتستأنف نشاطها . ومجرد حادثة بسيطة ، او ظهور شخصية ظرفية أو اي وضعية سيئة يمكن ان تؤدي الى تنبه الذاكرة وظهور بطل روايتها الذي كان قد تخفى ولم يعد يظهر تماما كما يجري في الحياة عندما نتعرف على احد الأصدقاء في مرحلة الطفولة ، وتنشأ بيننا وبينه علاقة ودية ،ومن ثم تمر الأيام ، ويتوارى عن حياتنا بغير رجعة ولا يبقى لنا سوى ظله. ان الحياة أو المعيشة المتقلبة والمتعددة التي عاشها تي آداون بالانزعاج والقلق طوال حياته كان لها تأثيرها الكبير عليه وعلى طريقتة في استذكار احداثها ومراحلها وسوف تبقى كذلك الى الأبد تقريبا. وما كان يسرده هو جزء جوهرى من الصدمات والمخططات التأميرية التي كانت تظهر خلال سرده القصصي . خلال الليالي العديدة ، كان تي آداون يبقى الى ساعة متأخرة من الليل يسرد قصصه وأخباره وما مر معه في الماضي ، وكان أولاد يوسف يسهرون ولا يذهبون الى فراشهم وهم يتابعون تلك القصص مما يجعل يوسف يأمر أولاده

بالذهاب الى النوم ، وكذلك كانت تفعل والدتهم تمينه وتقول : لا . لا .
 يكفي . يكفي . يجب ان تذهبوا الى النوم . لقد كان والدكم متسامحا
 جدا . يجب ان تذهبوا الى الفراش . ينبغي ان تستيقظوا غدا
 باكرا للذهاب الى المدرسة . ثم تطلب من زوجها ان يطلب بدوره
 من الزنبي تي آداون ان ينصرف ويذهب الى بيته فقد بدأ يخلو
 المكان من الناس لأن تمينه ليس لها الجرأة على طلب ذلك مباشرة
 من تي آداون خشية ان تقلل من الاحترام . ان تلك الشخصية المثيرة
 تجعل الاطفال يترددون في الاطاعة والذهاب الى الفراش ،
 ويستمترون في الغرفة الملاصقة لدكان يوسف ، ولا حاجة الى ان
 تبقى عيونهم مفتوحة ، فأذانهم دائما في حالة تأهب للتعصت وسماع
 كل ما يجري حولهم من الأحاديث والقصص الساحرة والمخيفة اتي
 تجعلهم في نهاية المطاف ينامون ويلتحفون الأحلام المليئة بالكوابيس
 حيث تستمر المشكلات والمتاعب التي تسيطر علينا وتجررنا
 وتعكر صفو حياتنا .

الوالد يوسف وبقية الرواد الذين يلتقون في دكانه ويتجمعون قليلا ما
 يكثرون من الكلام . فقط في بعض اللحظات النادرة يضيفون بعض
 الكلمات او بعض العبارات كطلب توضيحات او بعض التوضيح أو
 الطلب الى تي آداون ان يستأنف سرده وحكاياته لأنه كان يتوقف
 أحيانا في مواقع حساسة من القصة التي كان يرويها لأخذ جرعة من
 عرق البينغا ، وفي الوقت نفسه كان يحب ان يتفحص وجوه
 المستمعين الذين يحيطون به وهو يتناول بعض المقبلات من المقانق
 المقلية ، وشيئا من المحمصات والموايح من المأكولات الخفيفة ،
 والرخيصة الثمن . وخلال توقفه عن الكلام كان ينسى أحيانا بعض
 الأوضاع والحوادث والأشخاص .

لا جدوى من اللاحاح عليه لأكمال ما وصل اليه في سرده ومتابعة
 شرح القضايا التي تنطرق لها او عن الأشخاص الذين وردوا في
 القصة . وكان من المألوف ان يزدحم الناس في بقالة يوسف يصغون

اليه . منهم من كانوا يستمعون وقوفا على اقدامهم ، ومنهم من كانوا جلوسا على الارض ، وبعضهم كانوا جلوسا على صناديق خشبية او اقفاس معدنية ، ومنهم من كانوا يستندون الى الطاولة أو الجدران أو بالقرب من الباب .

منذ سنوات خلت كان ابن السيد يوسف البكر قد أصيب بفيروس القراءة والمطالعة والاهتمام بالأدب والتمرن على الكتابة وقراءة وحفظ النصوص الأدبية . ولأنه كان ضعيفا في اللغة الجديدة كان يجلس صامتا في حضرة ذلك الزوجي تي آداون دون التجروء على الكلام في حين ان تي آداون كان يجتاح الساحة ويتناول الحديث والموضوعات المختلفة ، ويبدأ بسرد قصصه بدون رسميات أو طلب الاذن من أحد حتى ولو لم يكن الوقت مناسباً أو الموضوعات التي يطرحها في غير محلها . فهو يظهر فجأة ، وبمثل ما يظهر يختفي ، وبمثل ما يختفي يعود ويظهر بشكل غير عادي ، كما ان حكاياته وموضوعاته عن الاشخاص والاحوال لا يمكن تصديقها لاسباب كثيرة .

كان ابن السيد يوسف يعمل حساباته ثم يعيدها ، ويفكر ويتساءل في نفسه: كم عمر هذا الزوجي العفريت الكهل؟ هل بلغ المئة عام؟ أم ان عمره أكثر من مئة عام كما كان يصرح؟ وكما كان يتباهى؟ وحين كان يسأل عن عمره كان تي آداون يقول : اذا كنت تشك في ذلك ، امسك بحلقة السمع ونظفها واعمل الحساب . لقد غادرت سفينة الرقيق ووصلت الى الريودي جانبيرو (أو السانتوس) وقد كنت الزوجي الذي جاء رقيقا بكامل صحته وقوة جسده وضخامته وليس كما تراه الآن بهذا الجسد الهزيل الذي اضعفته الكهولة . ولذلك تمت صفقة بيعي حال وصولي الى هذه البلاد وحملتني سفينة أخرى وذهبت بي الى ميناء إيتاجايي وتم صفقة أخرى وتم شرائي من قبل بعض العصابات التي كانت تشتري الرقيق في تيجوكاس بالقرب من إيتابيما ، في الطريق التي تذهب في ايامنا الحاضرة الى

مدينة كامبوريو، وهنا استمرت حياتي كعبد رقيق يعمل لمصلحة سيده زهاء سنتين تقريبا حيث اطلق سراحي بعد صدور بيان تحرير العبيد وبعده اختفيت ولم يعترف اسيادي بذلك . ولقد تواريت عن انظارهم تواروا خوف الملاحقة . واذا اردت الكلام اليوم عن صاحبي او سيدي الذي اشتراني ، فانه كان من ملاكي الأراضي وعنده املاك كثيرة وهو من الشخصيات المهمة في المنطقة ومن السياسيين . وكانت معاملته للعبيد الأرقاء بين بين ، فلا هو يعاملهم معاملة سيئة ، ولا هو يعاملهم معاملة حسنة . كان ذلك السيد يسهر على رعاية أملاكه الكثيرة ويشدد على حيازته لها من أراضي وعبيد وخيول وأبقار وحيوانات أخرى ويسعى لمبادلتها بأفضل الأسعار ويبيعها لمن يدفع الثمن الأعلى .

يتوقف قليلا ويقطع كلامه ثم يتابع كلامه عن فترة تنظيم الحكومة بعد تبدل النظام وبدء مرحلة النظام الجديد الذي انعتق فيه من العبودية، فيغلق تي آداون عينيه ، يتمتم كما لو انه كان يصلي ، ويتحدث عن أنسابه وأقربائه ، ووالدته السوداء البشرية التي انفصل عنها وانفصلت عنه ، ولا يعرف أين هي ، ولا أين تكون الآن . وهل هي لقت حتفها وتوفيت على متن السفينة التي كانت تحملها ؟ ولا يعرف أين يوجد والده أيضا وما هو مصيره . وتراوده الافتراضات والأسئلة الكثيرة خلال الحديث وخلال كلامه الهاديء التي لا يجد لها جوابا والتي تترك في نفسه الكثير من الحزن والكآبة وشيء من التشنج. يعاود صياغة الأحداث القديمة بأسلوب بياني معدل جميل . وأحيانا ينسى ويتخبط في كلامه بغير قصد وبغير انتباه دون ان يعترف بذلك . في النهاية لا يعرف اين تكون والدته الآن ، فهي كغيرها من الكثيرين الذين لم يعد يعرف أخبارهم منذ زمن طويل . وعشيقة سيده . اين هي ؟ أي سيد ؟ وأولاده في البرازيل ؟ ويبدأ بالتناقض في كلامه . لقد وصل شابا الى هذه البلاد الفتية . ولكن هل هذا التناقض والخربطة في الحديث يبطل الرواية

التي يسردها ؟

ان هذا لا يهم المستمعين لا في قليل ولا في كثير. المهم بالنسبة لهم سحر النطق وبيانه ، والقدرة على متابعة الكلام وجذب الجميع الذين يصغون اليه والتأثير فيهم . يسألونه : يا سيد تي آداون كم كان عندك من العمر عند إعلان تحرير العبيد ؟ وفي أي عام ؟ هل كنت في الأربعين من عمرك أكثر أو أقل ؟ الآن نحن في بداية الأربعينات. كان عمره على مقربة من المئة سنة . يعني أما في التسعين وبعض السنوات واما مئة وأكثر. لقد ولد في هذه الحالة، قبل عام 1850.

يمكن القول ان تي آداون لم يكن جيدا في الحساب ولذلك يمكن القول انه بلغ المئة عام أو تجاوزها الى اكثر من مئة

عام من العمر . من يدري ؟ الا ان هناك ثغرات في كلام رجل هو متنبه جدا وواضح بالنسبة لأمر أخرى . أو يمكن القول أنه لا يريد أن يتناولها . وهل يجوز القول انه يفضل ان لا يتعرض لهل؟ انه لم يذكر ولم يشر أبدا الى حرب البرغواي. ولا فائدة من الاصرار عليه بأن يتحدث عنها . فهل يفضل أن لا يطرق هذا الموضوع ؟ من

يدري ؟ هو يذكر ويروي بعض الشيء وبعض اللقطات عن اشتراكه في القوات العسكرية في المعارك التي جرت في ولاية سانتا كاتارينا. ويمكن ان يكون هذا الاشتراك بسبب قربه من هناك ويتذكر جيدا

نضالات السنوات الأربع التي قام بها الفلاحون ضد القوات العسكرية الأكثر تجهيزا وهي المعارك التي استخدم فيها الطيران لأول مرة . ويقول : أتذكر دخول الخشب المنشور الى اراضي

الفلاحين الفقراء ، وأتذكر أيضا جوان ماريا كيف كان يشجع ويقول لهم لن نسمح لهم أن يأخذوا منا ما هو لنا. أين رأيت هذا الظلم ؟ وما هذا الذي تفعله الجمهورية ؟ سوف تساعدنا القوات الفرنسية وسوف يعود الأمبراطور .

بأي شكل يمكن تفسير استعمال هذه القوة ؟ ثم يقول انه كان يشرب جيدا، ويقتصد ولا يبالغ في أكله ، ولديه وصفات كاملة لمشروب

الشاي المستخرج من النباتات والزهور التي كان يتناولها دائما ، وهذا هو السبب الرئيسي لتمتعه بصحته التي استمرت على ما يرام بالإضافة الى أنه دائما كان يمارس المشي . ولذلك حافظ حتى اليوم على انتصابه وحيوته كما لو انه لا يزال شابا . لقد كان يأتي من بيته ، الواقع على تلة صغيرة عند مدخل القرية ، القريب من بلدة سان ميغال في اتجاه شمال الولاية مشياً على الاقدام ، كما كان يعود الى منزله في وقت متأخر من الليل مشياً أيضا بعد ان يتناول نصف زجاجة من مشروبات الروم ، ويدردش ويتحدث بدون انقطاع وبشكل مستمر لعدة ساعات . كان أيضا يهتم بزراعة حديقة صغيرة ويزرع الخضار واشجار الفاكهة ويعتني بالماعز من اجل الحصول على الحليب وصناعة الجبن الذي هو أفضل من نوعية جبن حليب البقر ، يقول ايضا : اتذكر انني كنت أضيع في الغابة وانا أبحث عن جذور الأعشاب لاستخدامها في العلاج الشعبي .

الشائعات تنتشر ما بين التأكيد والدحض، وهي انفصالة عن الفتاة ابنة الخامسة عشر ، السمراء ، السيئة العادة والثرثارة ، والتي بدأت تتحدث عنه اخبارا واخبار ، وعن نزوته السيئة وحبه للعلاقة الجنسية. فهو جيّد في علاقة الفراش الحميمة، صبي عفريت لا يتعب ولا يهدأ طوال الوقت من الحكاك والممارسة الجنسية والادخال والاخراج والادخال حتى اضطرت الى تركه والابتعاد عنه والا تعرضت الى الموت من شدة وألم العلاقة بينهما لكنها مع هذا كله تشعر بالشوق له والحنين لعهره ولتلك العلاقة معه . وتتساءل كيف تقبل أن يستبدلها باخرى غيرها ؟

يتحدثون عن الوصفات والجرعات السحرية التي كان يحضرها تي آداون دائما في بيته بواسطة وعاء دائم التبخر حيث كان يعد فيه المراهم ، ويغلي انواع مشروبات الشاي المستخرجة من جذور واوراق الشجيرات التي كان وحده يعرفها ويعرف أماكنها . ومن كثرة ممارساته واختباراته المحاطة بالغموض كان يكفي ان يلمس

باصبعه مكان المرض حتى يشفى المريض كفعل المعجزة تقريبا .
كما حصل لتلك المرأة التي كان أحدهم لا يهتم بها كفاية بل يظل
منصرفا عنها ويحب ان يعيش هادئا مع انها دائما تسعى الى استنقافات
انتباهه وتبدي كل ما بوسعها ليتعلق بها . جاءت اليه تلك المرأة
وأخبرته بعلاقة زوجها بها وطلبت اليه بان يساعدها ويعمل اي شيء
لكي لا يبعد زوجها عنها ويبقى دائما الى جانبها ولصيقا بها . وبعد
ان سمع قصتها قال لها: أحضري لي قطعة من ملابس نوم زوجك
الداخلية كالبجامة أو كلسونه الداخلي أو منديل أو جواربه والأفضل
قطعة من لباسه الداخلي وحتى من دون غسل ، واتركي الباقي على
مسؤوليتي ، وأنا أضمن لك ان كل شيء سوف يسير على مايرام ،
وأملك لن يخيب ، وستجدين قريبا أنه سوف يجن بك، ويشغف شغفا
كبيرا ، ولن يلتفت الى غيرك . ومع ان الرجل كان رجلا محترما
هادئا، فاذا به يتغير بشكل كبير ويصبح مخبولا مسحورا دفعة واحدة
، ويترك كل شيء ، ويهجر أعماله التجارية ، والأسرة ، والأصدقاء
، والأملك ، وكل ما يتصل براحة باله ، وينضم الى تلك المرأة بكليته
، فيسير معها في الشوارع الرئيسية في فلوريانوبوليس كالمراهق
بدون خوف ولا خجل ، ويعانقها بشكل جنوني وبعاطفة لا حدود لها
من اللهفة . يرافقها الى كل مكان حتى الكنيسة والسينمات والمسرح
، ولا يتحمل ان يراها تتكلم مع أي انسان غيره . الغيرة المجنونة تكاد
تقتله . يريد ان يبقى ممسكا بها ليل نهار وبدون انقطاع كما يريد ان
تكون له بكليتها في ليله ونهاره من غير ان تفلت من أمامه ، ومن
بين يديه ولو للحظة . ويرغب في ان يتعرف اليها أكثر ويزداد
معرفة بها كما لو كانت شيء دينيا يريد ان يتعمق اكثر في فهمه .
وتمر الأيام والحالة تستمر على ماهي بين الاثنين الى ان ضاقت
ذراعا به ولم تعد تتحمل تصرفاته وغيخته عليها وأحست بالضيق
الشديد الذي يكاد يقتلها اذا استمرت على هذه الحالة ، فعادت تلك
المرأة الى تي آداون باكية راجية متوسلة قائلة : كرمى الله يا تي

آداون أنقذني من هذا الرجل الفزاعة البليد المخبول فأنني لم أعد استطع أن أطأ الشارع وحيدة الا وهو الى جانبي وممسكا بي ، ولم أعد استطع ان اكلم احدا غيره ، كما لم أعد اقدر على ترتيب هندامي ونفسي وثيابي. فالغيرة الجهنمية تعصف به وتكاد تعصف بي وتقتلني . انا امرأة عشت دائما حرة وأكاد اختنق من هذا الوضع . ساعدني يا سيد آداون . انقذني من هذا السحر الذي تملكني وسيطر علي حبا بالله . هنا يضحك الرجل الاسود تي آداون ويهز رأسه ويملس شعره المجعد ويقول : ألم تقولي انك تريدينه كله لك عشيقا ولم تقبلي ان يشاركك به احد من النساء؟ هذا ما كنت تطلبينه. ان دبري نفسك الآن ، فانت من طلب ذلك . ثم يضحك من جديد . يصمت . يتأمل . يسرح نظره ويأمل ان يصيب الياس تلك المرأة أكثر فأكثر . تأخذ بالبكاء والتوسل وترجوه ان ينقذها مما هي فيه . أخيرا يهديء من روعها ويخفف عنها ويعزيها ثم يقول لها : في هذا العالم كل شيء له علاج الا الموت . فالله وحده هو القادر . سأساعدك على ايجاد طريقة للخلاص، ولكن عليك ان تتعلمي الدرس من أجل مرة أخرى. يجب ان تفكري وتتروي قبل ان تتخذي قرارا . يجب ان لا تتسرع ولا تتهورى في المستقبل . بإمكانك الآن ان تجلبي لي قطعة من ملابس العشيقة الأولى له والأفضل ان تكون مستعملة وغير مغسولة ، لا أضمن لك ان كل شيء سيتم بسرعة . يجب ان تنتظري مدة من الوقت . انتبهى جيدا . يجب ان تجلبي لي زوج جوارب من الحرير الأسود من جوارب تلك المرأة بدون غسل ايضا وكذلك قطعة من ملابسها الداخلية (كلسونها) مع رائحة بولها القديم ، ويمكن ايضا منديل ابيض عليه تفوح منه رائحة عرقها واطركي الباقي بعد ذلك لي وعلى مسؤوليتي ، ويشير الى نفسه قائلا : هذا العجوز الأسود لا يفشل في عمله .

لم يكن تي آداون مشهورا فقط بتحضير جرعات العشق والقدرة على فعل الشيء ونقيضه في التشويش والارباك من خلال قطراته

وجرعته السحرية ، بل كان ايضا يقوم بالرقيات والتبريكات لشفاء الحيوانات والبشر الذين تلدغهم الافاعي ، والمسحورين ، ومعالجة الالتهابات الجلدية بمزج أوراق بعض النباتات بقطرات من زيت الزيتون الصافي ، وكذلك ازالة البثور والشامات التي تظهر على الجلد، وكان يحذر الاطفال من عدم التأشير على النجوم وتعدادها لكي لا تظهر على أصابعهم التآليل والبثور المؤلمة والتي تصعب معالجتها ويصعب الشفاء منها . ودائما كان لا يعطي ضمانة بشفاء من شيء الا اذا كان الامر يتعلق باختصاصه ومعرفته الاكيدة بالاسباب وطرق المعالجة. كان يبذل قصارى جهده لمعالجة بعض الحالات التي تعرض عليه ، فاذا لم يتمكن من المعالجة كان يشير على من يعالجه من أجل ان يذهب الى من هو أكفأ منه في مضمار المعالجة . فلا أحد يستطيع ان يقول انه عالم بكل شيء وتي آداون كان يقول دائما انه يوجد من هو افضل منه كما يوجد من هو أقل خبرة ومعرفة منه ايضا . وفي بعض الحالات يشير على بعض الناس ان يذهبوا للمعالجة عند جاستنو سيلفا . كان ينصحهم بالذهاب الى غيره حتى ولو دفعوا مبلغا اكبر لأن ذلك اختصاص غيره الذي هو ادري بمعالجته . كان في بعض الاوقات يتصل ويطلب مساعدة السيد أراوجو فيغيريدو الذي يقيم في منطقة الكوكيروس في فلوريانوبوليس والذي كان يعيش في المحلة التي يمكن الوصول اليها عن طريق المفرق الذي يتجه الى اليمين قبل الجسر ، وهو من أفضل الذين يعالجون مخاطر آفات الاشباح وأرواح العالم الآخر والعفرات ولا أحد مثله في هذا المجال . لا أحد على هذا الكوكب هو جيد في معالجة كل شيء بكل معنى الكلمة وليست مفاتيح المعرفة هي بيد شخص واحد مهما تعلم . ويقول : انا لا أصرح وأتكلم الا بما هو متوفر لي من المعرفة ومن اختبارتي الماضية، لأنني بذلك أعرف من اين انطلق،والى أين اتجه، وأحاول ان أصنع الأفضل الذي استطيعه، وبالطبع دائما أفعل أفضل ما يمكن فعله

أو عندي ثقة أكيدة بصلاحه ، ولا يخامرني شك فيه. اعتاد السيد يوسف ان يقول : لقد تعلمت الكثير من الحياة ، ومن العالم ، ومن البرازيل مع تي آداون .كنت أسجل بعض الروايات واردها وألخص بعض القصص ، والاساطير ، والحكايات ، والذكريات ، والتذكارات التي كان يرويها عن الأفارقة السود القديمة التي لها اسانيده والتي معدلة بفعل تسلل الأساطير اليها والمستمدة من ميتالوجيا أساطير السكان الأصليين في تلك البلاد ، وكذلك من التي كان يسمعها في معاقل الهنود في وادي إيتاجايي .

ومن هذه القصص واحدة تقول ان معامل الخزف المكتشفة ، كان لها تأثير كارثي في تصنيع رؤوس أطفال أوغون الذين قرروا المجيء الى العالم . وقد صنعت الاجساد والهيئات من الطين بكل كفاءة وبشكل فعال في معامل فخارية او خزفية أخرى ، بينما كانت المشكلة في صناعة الرؤوس . ويبدو ان معمل الفخار المخصص لتلك الصناعة ، وعلى الرغم من أنه بدا مناسباً لتلك الصناعة ، إلا أنه كان عتيقاً ومهجوراً وليس فيه أي فكرة عن هذا العالم . وهكذا حصلت الكارثة ! اذ ينبغي ان تكون للرؤوس وظيفتها الأساسية في انشاء الشخصيات المتميزة والحكيمة في الناس ، وتكيف البشر مع العالم الذي يعيشون فيه ويتحركون فيه . ففي هذا المزج وجبل وتحضير الطين ، فان المعمل الفخاري فقد أهليته وكفاءته ، و كانت النتيجة هي ما نراه اليوم السائد في العالم : اناس بلهاء ومخبولون وعالم يسيطر عليه سوء التفاهم والخلافات ، والأشخاص المؤهلون هم في الحقيقة نادرون . ولمتابعة واكمال هذه الرواية ، كان تي آداون يدندن ، أحيانا ، ويردد القليل من الآيات والشعر مكرراً :

" لقد وُجدَ رأسك يا صديقي

فاعتني به جيداً حين تختار

واحرص عليه بعناية

لكي لا يُصاب بالبله

و لا يزيد العالم جنونا ... "

يتبين من القصة التي كانت تسرد على عدد قليل من الناس بذلك الأسلوب الشخصي ، كانت تتقطع على مراحل ثم تستأنف ، ثم تروى من جديد بشكل تسلسلي أو مع بعض التعديل . ومن هنا كان يضاف اليها حكايات أخرى مستندة الى غيرها من روايات السكان الأصليين الذين اطلق عليهم شعوب الاصول الهندية التي كانت في بداية العالم . وهو العالم المظلم الغامض والطائر في فضاءالسواد حيث لا نور ولاشيء جلي . ومن ذلك العالم المظلم خرج انسانان وراحا يبحثان عن الشمس ، ولكنهما لا يعرفان ما هي الشمس ولا كيف تكون هيئة الشمس . وهل الشمس نور أو نار . ومشيا حتى تاها وشردا ، ثم أخذا يسيران ويسيران حتى نهاية العالم . ويتعب الرجل الأسود تي آداون ، فيتوقف عن الكلام ، ولا جدوى من اللاحاح عليه أو التوسل من أجل الاستمرار في سرده للقصة التي كان يرويها . يقول : البقية ستكون فيما بعد . لقد نسيت . لكن البعد اي المستقبل يمكن ان لا يأتي . كفى لقد أتى المساء وبدأ الليل يخيم . وكان من الضروري التفتيش في أعاميق المياه . فالناس الذين لم تكن رؤوسهم جيّدة بسبب المعمل الخزفي الذي صدروا عنه ، هم لا يعرفون ماذا يصنعون في الليل .لقد كان الليل ضروريا ، وليس ضروريا فقط . بدون الليل يكون المستحيل . فقط هو المستحيل بدون الليل . الفتاة الجميلة قالت للفتى : أنا أريدك ، فاذا كنت تريد أن تنام معي ، فاجلب الليل لكي نتمكن من اللعب معا على السرير دون أن يرانا الآخرون...

كان يروي هذه القصص على مسامع أطفال تمينه ويوسف دون ان يتمكنوا من ادراك المعاني الحقيقية لهذه الخرافات . ولكن القصة التي كانت تدهشهم وترهبهم هي أسطورة العملاق الذي يبلغ طوله حوالي ثلاثة أمتار وأحيانا كثيرة يبلغ خمسة أمتار والذي كان

يختبيء في سقف المنزل الكبير المعتم والمخيف والذي كان يبدأ بالخرير والجعير قبل ان يتساقط الى بقايا أشلاء حيث سقط اول ما سقط رأسه ، ثم عنقه الضخم ، وبعد ذلك سقط الساقان وأخذا يركضان وحدهما خلف الرأس ويصيحان : انتظرنا . انتظرنا . وبعد سقوط الساقين سقط الذراعان وراحا يجاهدان من أجل اللحاق بالساقين والامساك بهما . ولكن أين بقايا الجسم والأيدي والأصابع والشعر والأظافر التي كانت تصرخ وتقول : أريد أصابعي ... هنا وعند هذا الحد كان يتوقف تي آداون عن الكلام ويرتاح مؤقتا والمرارة بادية عليه ويطلب: من فضلك كأس عرق بينغا آخر يا سيّد جوزيف لأطري حنجرتي ن فأنا ظمآن . هنا يكرر المسألة نفسها كما في السابق : اما ان يستأنف الكلام واما ان يتوقف او يعدل في الحكاية فيكشف عن حركة بعض أجزاء العملاق التي تفككت ، والتي ليست سوى سقوط الجسم المتشظي الى اشلاء ...

2 - جووان مندىس .

المكتبة وصاحبها علامات مسجلة في الذاكرة ولا يمكن ان تمحى ، ومنها كانت بداية الانفتاح على العالم ، وبداية ازاحة الستائر عن الأشياء واكتشاف ما وراءه بمزيد من الدقة . وبعرض ومبادرة من المعلمة نيلا ساردا ، فقد صدر أول كتاب لجووان مندىس ونشر في عام 1946 أوضح فيه جووان مندىس الضرير مكان ولادته في بلدة بيغواسو ولاية سانتا كاتارينا بتاريخ 12 تشرين الثاني من عام 1917 .

يضيف : " التقيت به وتعرفت عليه فكان رجلا قويا وذكيا ولديه نضوج مبكر ، وخاصة في مجال مادة الحساب حيث تفرد بها وتفوق على جميع الأطفال الآخرين " .

ويتابع قائلا : " لقد كان يتيما ، فقد والدته وعنده من العمر ثلاث سنوات ، فتكفلت برعايته احدى شقيقاته التي رحلت عن هذا العالم

في سن مبكرة . ولذا عاش طفولته ونما بدون دفاء وحنان ورعاية الأمومة . ولا يخفى ما لعناية الأم وحنانها من الضرورة التي تدفع على التشجيع والتربية وتعلم الأمور التي تساعد كثيرا على مواجهة الأيام القادمة في المستقبل . ولأن ذكرياته عن والدته كانت شحيحة، فان شقيقته خلال فترة حياتها القصيرة التي تولت رعايته والعناية به كانت بالنسبة له هي الأم الحقيقية التي يعرفها ويكن لها كل الأحرار وقد أثر فيه كثيرا موتها المبكر، فكان أهداء أول كتاب صدر لجوان مندى هو الى روح شقيقته . ويقول في قصيدته الشعرية التي تحمل عنوان " ستة عشر زهرة " ما يلي :

" أحب أن أرسل لك ستة عشرة زهرة ،
وأريد أن أبعث اليك أيضا من نفسي الحزينة،
أجمل مشاعر الحنين .

زهورا ما رأتها عين على الأرض أبدا
لأنني ما رأيت أبدا زهرة بمثل تألقها .
زهورا كانت تتفتح بك زهرة بعد زهرة
حتى اكتملت سنواتك الستة عشر
فليس على الأرض أمجاد لنتغنى بها ،
ونفسي من دون نفسك أعجز من أن تقاوم
لقد هبطت من السماء لتكون لي أطف حافظ .
لقد قطفت لك زهرة جميلة من عاطفتي
لتركني أعاني من الألم الذي لا يطاق
متضرعا الى السماء أن تأخذني أيضا
وتحملني الى أعالي وآفاق لون من الكتان
لأعيش بقربك فيما وراء الأبعاد ."

انه شعر يطفح بالألم ، وبنغمة قيثارية تسيل برومانسية غنائية
تعكس ما كان يواجهه من مشكلات .

وفي الكتاب نفسه نجد شهادة الغاوشو نيلو روشيل من بورتو أليغري التي جاء فيها :

" ان ما يهم هو النظر الى داخلية واكتشاف تلك المسحة من الشجاعة المذهلة من الرضى ، وتحدي الحياة . فهو في وسط معركة غير متكافئة . يخرج جريحا ، معاقا، يتلمس طريقه في وسط عتمة تحيط به من كل الاتجاهات "

ثم يضيف موضحا :

" هنا تظهر اشعاره التي تمثل أصدقاءه في ساعات ولحظات الاحباط ، وتمثل أيضا دور أصحابه المقربين اليه، الذين يحيطون بوحدته ويملاؤن بأجنحة ونور الظلمة المطبقة على هذا المصارع كما يملأون بالتذكارات والاضطرابات مشهد داخلية . وها هنا مؤثران سريعان يلقيان ضوءاً مفيدا يساعدان على اكمال صورة مشهد مأساة جووان مندس ، والمخرج الذي اكتشفه في الرباعية الأولى من قصيدته " الشعر " والتي تحمل معنى ذا أهمية كبيرة :

" الشعر هو عزاء كبير

يرفقه عن النفس

وبه أفضض عن هموم شخصي الحزين

وهو أيضا ابتسامة على ثغر فقير سجين

يفصح به عن كآبة سخطه "

كان محبا ، فطنا ، سلسا ، مزعجا ، لبقا ، صعب المراس ، ذكيا ، يعيش المعاناة والألم ، عنيدا ، متمرسا، قلقا وشغوبا يتوق الى معرفة المزيد فضلا عن المزايا الأخرى الكثيرة التي كان يتمتع بها وقد صنفه الأشخاص الذين عرفوه وعاشوه متذكرين ما كانه ووصفوه بأنه كان فتى طافح بالصحة، لعوب وعفريت لدرجة انه من لحظة لأخرى يظهر كأنه معاق وأعمى ، من دون أم ، ودون شقيقة التي حلت مكان أمه ومنحته كل حبها ودعمها . لقد انهى دراسته بمرتبة

مشرفة وبتكريم في مدرسة المعلم جوزيف برازيليسيو دي سوزا في بلدة بيغواسو ، ثم انتقل لمتابعة دراسته في كلية سانتا كاتارينا التقليدية للآباء اليسوعيين في فلوريانوبوليس . ولم تمض الا فترة وجيزة حتى حصلت المأساة في سنته الثانية عشرة حين ذهب ليستحم في نهر بيغواسو الذي يجري خلف منزله

وكان ذلك في يوم شديد الحرارة حيث لم يكد جوان مهندس ينهي تناول طعام غذائه في ذلك اليوم بعد ان أكل جيدا كما هي عادته ، حتى خرج من البيت وتوجه الى ناحية النهر الذي كان يجري بهدوء . وما ان رأى الماء يجري حتى شعر ان الماء يدعو للاستحمام فلم يستطع مقاومة دعوة النهر له . وبدون أي تفكير رمى بنفسه في الماء في مكان معشوشب ، وأخذ يغطس مأخوذاً بنشوة عارمة ملأت كل كيانه . لكنه ، فجأة ، أحس بتلذذات ونوبات وباضطراب عقلي كبير ، وبعدم توازن جعله يشعر انه غارق في النهر لا محالة ، وان لا جدوى من أي مقاومة . أخذ يغطس تارة ويطوف على وجه الماء تارة أخرى ثم يصرخ ويطلب النجدة صراخه يمتد للبعيد . لا يستطيع السيطرة على نفسه . لا وقت لديه للتفكير وهو اجس تأخذه في كل الاتجاهات . انه يتلاشى . يقول في نفسه: لقد انتهيت ولا مفر من الهلاك . هيئات وشخصيات

تتراءى له وهو يتخبط في الماء . يتعرف الى أمه التي لم يعرفها فيمد لها ذراعيه . يمر بالقرب منه زورق فينتشله من الماء من كان في الزورق . يهتفون وهو في حالة لا يحسد عليها ما بين الوعي واللاوعي . النتائج التي حصلت : اصابه الشلل والعمى . أخذوه الى المستشفيات للعلاج ، ولكن لم يجده شيء ، حمل الى مستشفيات سان باولو ، والريو دي جانيرو ، وبورتو أليغري . لكن جميع العمليات الجراحية كانت غير ناجحة . كلها كانت هباء ودون جدوى . الآمال محبطة ولا شيء سوى المعانات والأوجاع والنفقات والعودة الى

الأوهام كلما عاد الى بيغواسو .
لا يستطيع قبول هذه الحالة ، ولا يستطيع السيطرة على نفسه . انه
مشلول وعيشه لا يخلو من المرارة ، وقد استعصى الحل وحالته
عصية على المعالجة . يرى الحياة تهرب منه وهو الذي كان يحلم
بالكثير الكثير من أحلام السفر ، والمغامرة ، وطلب المعرفة ،
وتحقيق الذات . كان يريد ان يكون حرا مستقلا ، ويكره ان يعيش
في مظلة شفقة الآخرين التي يشعر بها من خلال أصواتهم ،
وأصرار الأقرباء والأصدقاء على تذكر ذلك الحادث . يحس انه لا
يليق به ان يتقبل مساعدة الغير حين يقطع الشارع من جهة الى
أخرى وخاصة حين ينبهونه ويحذرونه ويطلبون منه ان يحتاط
قائلين : انتبه يا جوان . كن حذرا يا جوان لا تصدم بالحائط .
هناك شجرة الى جانبك الأيسر . حوّل سيرك ولا تصدم بالسيارة
المتوقفة أمام الفندق . لوّح بعصاك لتجنب الصدام . انه بحاجة الى
الترويح عن نفسه بأشياء بديلة تخفف عنه . من هذه البدائل الشعر
الذي كان يدونه على أوراقه ، والذي يقوله بصوت عال مثل
" التذكر لا يعني أننا نحيا !
أقول بكل يقين : التذكر ليس حياة المسرّة
ومن يتذكر هو التعيس الذي يغمره الحزن "

في بعض الأحيان يشرد ويتيه ، ويقرأ بصوت عال على الأنسباء
بكلمات لا تتطابق تماما مع غيرها حيث القافية والوزن لا تتناسبان
مع تركيب العبارة فيضيق الحاضرون ذرعا به ويفقدون في نهاية
المطاف الصبر .

لكنه يبقى هو هو دون ان يهتم بأي شيء ، ويظل يبحث عن أي
نشاط يفرّج عنه مما هو فيه ، ويساعده كسب لقمة عيشه من دون
الاعتماد على الآخرين . من أين تأتيه هذه الفكرة ؟ وكيف توصل
اليها ؟ فبالنسبة الى البعض هي فكرة غريبة وغير معقولة . ولكن

لا يهيمه رأي البعض . هو يريد أن يكون مستقلا ولا يريد الاعتماد على الغير . والحقيقة ان أفضل شيء بالنسبة له هو ان يفتح مكتبة صغيرة وحيدة من نوعها في قلب المدينة وفي الشارع الرئيسي بالقرب من صالون لاورو للحلاقة ، وبالقرب ايضا من محل جowan ديدنيو للخياطة ومفوض الحكومة السريع الانفعال كما ان في الجانب المقابل من الشارع تقع الساحة الرئيسية في وسط المدينة حيث توجد صيدلية السيد تاورينيو . وعلى الرغم من ان المكتبة تعطي بعض المردود من المكاسب وخاصة من الناحية المالية ، الا انها لا تكفي . فهو بحاجة الى المزيد من المعرفة والعلم ، ويريد زيادة القراءة والاطلاع بشكل أفضل . هو بحاجة الى من يقرأ له لتنتفح أمامه آفاق جديدة وتساعده على كتابة الشعر ونظمه . وبهذا يجمع بين فائدتين متقاربتين : الأولى تشبع توق جowan مهندس ورغبته الى التعلم وزيادة المعارف والثانية توفقه الى الحصول على الكتب التي لا توجد في مكتبة المدرسة ولا في المكتبة العامة للولاية ولا الكتب النادرة فيعوض عن ذلك بقراءة الجرائد القديمة ، والمجلات العتيقة المجددة والمكومة واعادة قراءتها مرات ومرات حتى انه كان يقرأ الاعلانات والوصفات الطبية والملصقات . كان جowan مهندس نهما جدا ولديه جوع كبير وعشق الى الكلمة المكتوبة واكتشاف عوالم جديدة ، وفك رموز العلامات السحرية التي تساعده على اعادة خلق عوالم رائعة وعواطف جامحة لا حدود لها .

أنه لا يتعب ولا يهدأ ، ويعمل باستمرار دون روادع وقيود ، ويريد دائما المزيد والمزيد من التقدم في المعرفة والاكتشاف . كان عندا تباع الكتب وتنفذ من الكتبة ، يقوم بارسال طلبيات جديدة الى فلوريانوبوليس للحصول على كتب أخرى مكانها ، وفي اكثر الاحيان ليس من أجل بيعها بل من أجل قراءتها واعادتها بعد القراءة كما كان يستعير الكتب من المكتبات العامة ومن الأقباء والأصدقاء

والأصحاب من غير ان يتأخر في اعادتها الى اصحابها بعد قراءتها . ومن هذه الكتب يمكن ذكر كتاب بوريدان وكتاب غوامض برج نسلي لميشال زيفاكو ، وكتاب آلام العالم لشوبنهاور ، وطرزان يأخذهم الى افريقيا العجيبة ، والبؤساء لفكتور هوغو ، ومجاري باريس ، والذي لا يصدق لجافيرت ، والإيسا دي كيروز وماشادو دي أسيس ، والاكتشافات الرائعة من النفس البشرية والمركب النفسي المعقد والواقعي وهي مكتشفات سيتم تناولها وتوسيعها من دون كلل ، وللمرة الأولى ، ليس لمجرد متعة بسيطة من القراءة ، ولكن من أجل أمر أعمق . فالاكتشافات لا تتوقف ، وقراءة الكتب العتيقة مستمرة ، واختيار المقتطفات من القصائد الشعرية كذلك دائمة ، وبالأخص من اشعار كروز أي سوزا التي تعبر عن مخاوفه وقلقه ، ومن قصائد أوغوستو دوس أنجوس وعالمه المظلم . ومن يدري ؟ فقد يكون قد تعلم بعض الشيء من كاسترو دي ألفس وكتاباتة الاجتماعية ، ومن أولافو بيلاك ، وريموندو كوريبا . لقد كانت القراءة شيئاً مهما والزاميا في حياته من غير تعيين أي نوع من انواع القراءة . فهذا من المستحيل . والأفضل هي القراءة بدون تفضيل ، ولا يهم نوع القراءة . واختيار القراءة سوف يتم مع الزمن فقط أو لا يكون ، وهو عملية تتم مع الوقت . كما ان ذلك يعبر عن ميل أو هواية من خلال التقرب من الموضوع الذي تمت قراءته . المهم هو القراءة ، والقراءة من دون تفكير في غربلة الأشياء أوفرزها أو بدون تفحص . ويبقى السؤال قائماً والشك يستمر . الزمن يمر ، والعمر يتقدم ، وجووان مندس يصبح جزءاً من أمس الساحر الذي لا غنى عنه كانعكاس . فهو عنصر من الماضي ومن مجمل العناصر الأخرى المكونة للحياة والتي تمتد من الماضي فقط ، ولكن كل عنصر من عناصرها يتخذ اتجاهه ومساره . حتى في الآونة الأخيرة من ذلك الماضي لم يتمكن أبداً من التخلي عن عادة القراءة المتمكنة في كيانه والمطعم بها ، والتي أصبحت جزءاً

جوهريا لا يتجزأ من حياته ، الى جانب الأشياء الأخرى التي استمرت لفترة من الزمن تتداخل وتضاف الى تلك العادة . كل تلك الأشياء هي على قدم المساواة في تكوين كيانه الحي بهوموه ، وبحثه عن معنى الحياة ، وحتى مباراة كرة القدم في ملعب السيد لوسيو بون ، والاستحمام في نهر بيغواسو على الرغم من مأساته التي سببها له نهر بيغواسو، ومصارعة الديوك ، وصراع طيور الكناري فوق القرميد ، وألحان الغرام ، و روبرتو غالياني وعزفه المنفرد على القيثارة وغنائه عند مطالع الفجر من أشعار فرنسيسكو ألفس ، وأورلندو سيلفا ، وكارلوس غالاردو الذي تقطعت به السبل في بيغواسو في احدى الفيضانات الموسمية، واهتمامه المتزايد في صباه بالصبايا مع خجله الكبير الذي لم يعطه شجاعة الوصول اليهن بعكس أصدقائه الذين كانوا أكثر جرأة منه ، والذين توصلوا الى الحديث عن مغامراتهم وما فعلوه وما لم يفعلوه وما يريدون القيام به مما يدخل الحسد الى نفسه حتى ولو كانت تلك الاحاديث كاذبة . فواحد يقول له انه خرج بالأمس مع الفتاة غلورينيا وقد تركته وسمحت له ان يمسك بيدها . وأول أمس قال له آخر أنه قبل الفتاة ستبلا عدة قبلات ساخنة لذيدة وقد تظاهرت بالغضب ، ولكنها أحبت ذلك ، وانه ينوي ان يغامر بأكثر من ذلك . من يدري؟ وقال له : وأنت ؟ لماذا لم تتشجع ؟ لقد سألت عنك لورديت يوم السبت في النادي الليلي . الرقص جميل ولكن الأجمل هو رقص التعانق والتصاق الجسمين لأنه يعطي احساسا للقرينين وحساسية حميمية . فهو نادرا ما كان يغامر ويذهب الى حفلة راقصة ، واذا ذهب ، فانه لا يصل الى درجة أن يرقص أو يراقص أي فتاة . انه ينتقم او يعوض عن ذلك بكثرة القراءة . يتابع القراءة ويحمل معه الكتب لقرائتها في البيت . ان جووان مندرس لا يوافق على شيء مما يطرحه عليه أصدقاؤه . يرفض . يتردد . يسأل نفسه ويتساءل : أين أنا ؟ يستسلم في مواجهة التهديدات ويقول : أريد ان ابقى هنا . فقط

أريد أن أقرأ . يجب أن أقرأ الكتب التي لم أقرأها بعد . . حتى الكتب التي قرأها يريد إعادة قراءتها .

من الأسماء التي يدرجها : شكسبير (الزوجات السعيدات لوندسور)، وشافيه دي مونتيين (مغرد المطحنة)، وتولستوي (كاهادي مورات) ، وج . كونراد (السهم الذهبي) ، وكميلو كاستيلو برانكو (الحب الضائع)، و ليما باريتو (حياة وموت م.ج. غونزاكا دي سا)، وتشسكوف (الأعداء) ، وراوول بومببيا (ندوة المثقفين) ، وماريو دي أندراي (مدينة الحنين) ، آ. دوماس (الفرسان الثلاثة)، و النكار (جذع إيبى) ، و م. ديللي (رقيقة أو ملكة) ، و ريكاردو غيرالدس (السيد سيغونديو سومبرا) الذي قرأه بالاسباني ومحاولة معرفة فهم اكبر قسم منه ، وكتاب (عاشق السيدة شاتيرلي دي لورانس) الذي جعل العاشقين مثارين ومنجذبين الى بعضهما الى أبعد الحدود ، (طبعة مقرصنة) بالاضافة الى الكثير من الكتب الأخرى التي لم تحفظها ذاكرته . عندما رافق ابن السيد يوسف والديه في انتقالهما الجديد الى مدينة فلوريانوبوليس ،كذلك رافقه ايضا انتقال جووان مندس للبحث عن طرق علاج لمرضه الذي كان يعاني منه . وبسبب وصوله الى حالة اليأس الشديد ، فانه لم يعد يفكر بمعالجة نظره واستعادة رؤيته ، بل صار يفكر بكيفية تحسن ساقه من الشلل الذي سبب له صعوبة كبيرة في المشي . وفي الوقت ذاته استمر بانتاج اشعاره وكتابته ، فصدر له الكتاب الاول (ألجوم الحنين) في عام 1946 ، وبعدها صدر له الكتاب الثاني وهو ثلاثية (الحب ، والصدقة ، والأمل) يلخص ويحمل فيه حياته ، وقد نشر هذا الكتاب في عام 1950 . ولم يتأخر الزمن بعد ذلك حتى صدر كتابه الأول في النثر بعنوان:

(رحلة الى السماء) وهذا الكتاب هو مزيج من السيرة الذاتية وقصة للأطفال . استهلها بما يلي :

" في الثانية عشرة من عمري، كنت أقوى طفل على الأرض ، وهذا

كان في بلدة بيغوسو من ولاية سانت كاتارينا التي تقع على مسافة خمسة عشر كيلومتر من مدينة فلوريانوبوليس . كان وزني في ذلك الوقت ستين كلغ ، وكنت قد دخلت معهد سانتا كاتارينا لليسوعيين " . من تلك البداية الواقعية والمباشرة يبسط جوفان مندرس الاحداث من أجل الالتفاف على الوقائع الحقيقية التي كان من الصعوبة عليه أن يتأقلم معها ، ويعمل على ايجاد واقع آخر من خياله واختراعه بحيث يكون دائما الشخصية الأولى والفريدة . ويروي قصة بسيطة حيث يتحاور فيها ويتحدث مع أفراد البط ، والديوك ، والديوك الرومية ، وبالتالي يجد نفسه فجأة متعلقا بنسر أسود يحلق به فوق الأرض ويطير به عاليا باتجاه السماء حيث يمكث هناك بعض الوقت ويتخلى عنه النسر . وما ان يتخلى عنه النسر حتى يعود الى الأرض ...

من السهل كشف رمزية الموضوع الذي تناوله ومعالجته .

القصة بسيطة للغاية والرومانسية تستمر في شعر جوفان مندرس وتعيدنا الى الورا الى الماضي في بلدة بيغواسو من دون فقدان أو نسيان ، وهي تعاود نبضها في أواسط عام 1996 كما لو ان الزمن يتراجع الى الورا وأ يجعل كل شيء يتراجع حتى يصبح من الممكن التأقلم والعيش في فترة أواسط الثلاثينات أو حقبة الأربعينات . هناك خط واضح لترسيم وتوضيح شعر جوفان مندرس . وقصيدته المؤلفة من اربعة عشر بيتا التي عنوانها : " من أنا ؟ " يمكن ان ترسمها وهي التي تقول :

" عندما تبكي نفسي ،

أي حنين ينتابني !

أي قوة إرادة تدفع الى الموت

عند الشعور بالضجر الهائل

إني أشعر بأنني ملدوغ بشكل كبير

من كثرة الشفقة .

كم هو الغش كبير !

وأبي براعة في الاحتيال !
 إن ذلك يجرحني من غير أن أستحق ذلك .
 آواه ! لم أشعر أبداً بمجد ،
 ولا أستطيع أن أصدق بمجد ،
 ولا بأبي مجدٍ حقيقي .
 من أنا ؟
 ألسنت مجرد منبوذ ، ومجرد جائع ؟
 نعم ، أنا من يرثي لحاله ،
 أنا أكبر سوقي يثير الشفقة والآسف .
 كم أتمنى لو تستطيع عيونكم التحديق بي !
 ولكن سيأتي اليوم الذي تقولون فيه بدون تردد :
 كم عانى جووان مندس من الجحود ونكران الجميل !
 لكنه كان صادقاً وعرف كيف يجاهد ! "

إذا كان في كتابه الأول قد مال الى القصائد التي تميزت بالنفحة
 التراثية والرومانسية في اللحظة الأخيرة ، فلأن معظم قصائده
 مكرسة لشقيقته التي فارقت الحياة والتي لا يمكن له ان ينساها،
 ولذلك تستمر عاطفته في هذا الاتجاه ، ويستمر السؤال عنده :
 " من أكون أنا ؟ " .

لكن هناك لحظات يحاول فيها التغلب على اليأس والاحباط الذي
 ينتابه دائماً كما يبدو في قصيدته التي عنوانها :
 " محادثة مع الحياة " عندما يهتف :

" وأخيراً ، لقد قلت فجأة وبدون تردد
 إن الحياة هي قصة رومانية كتبها القدر
 والعيش هو صراع مستمر لا يُغلب . "

3 - جيرالدينو أتو أزيڤيدو

كان أيضا شاعرا من بلدة بيغواسو . ترك لنا فقط كتابا صغيرا جمع قصائده ونشره بعض الأصدقاء . وقد جمع هذا الديوان الى الجانب الشعر الغنائي الكثير من القلق والهموم التي تفوق نسبتها بكثير مما ظهر في شعر جيوان مندرس في الشكل ، والعبارة الشعرية ، وهيكلية النظم الشعري . واللهجة الساخرة هي دائما حاضرة في موشحات لم تكن مندرجة في وحدة النظم . تتناقلها الألسنة من فم الى فم وتنتشر بين الناس . وهكذا يظهر الشاعر الشعبي بطابعه المميز الذي يعرف كيف يلعب ويتألق مع خفقان الأحداث . كان صاحب متجر للبقالة . ومن ذلك المتجر كان يتابع ويتعلم . ذلك المتجر الذي يقع في الساحة الرئيسية من البلدة ، وبالقرب من خريز مجرى الماء المتدفق هناك .

ولد الشاعر جيرالدينو في منطقة ريبيراون وسط مدينة كامبوريو في عام 1885 وكانت وفاته في العام 1947 ، وهو اكبر سنا من جيوان مندرس . عاش في منطقة كاناسڤيراس / فلوريانوبوليس ، ولفترة قصيرة في ولاية ريو غراندي دو سول قبل ان يستقر نهائيا في بيغواسو ويتخذها منزلا له كمدينة نهائية عاش فيها حتى نهاية حياته . بدأ عمله التجاري في متجر والد زوجته المستقبل . وبعد ان تزوج مع ابنة رب العمل الذي كان يشتغل عنده قبل الزواج استمر بالعمل في نفس التجارة التي يمارسها حموه ولم يترك هذه التجارة حتى نهاية العمر . في مقدمة الكتاب الذي صدر له بعنوان : " شاعر بيغواسو " كتب زميله وصديقه مانويل فيليكس كاردوزو وهو شاعر أيضا ما يلي : " كشاعر وحالم يتحسس جيرالدينو عالماً من التناغم يعتمل في كيانه ، ولهذا فانه يستمتع سرا بخفايا ضوضاء التجارة ولغظها . فهو يتلو على مسمعي آياته الشعرية بشكل متقطع بطيء مفعم بأحاسيسه كما فعل ذلك قبيل وفاته بأيام

عندما قرأ لي موشحته الشعرية الجميلة التي كتبها في المستشفى
الخيرى تحت عنوان :
" دموع وآلام " .

و سياستيون ب. فييرا الشاعر الآخر والمعلم المرشد في ذلك الجيل
نفسه بعد قراءته وتحليله للكتاب يبدأ القول عن خاصية شعر
جيرالدينو فيقول :

" عند عرضنا على جمهورنا هذا الكتاب المتواضع من الشعر، تبين
لنا أن أشياء أخرى لم نعرضها على هذا الجمهور الذي هو أيضا
يعرف ما هو موجود في الغابة البكر مما يمكن استخلاصه وانشاده
على الرغم من الخشونة التي تؤثر على الانشاد من مثل جمالات
السماء التي يتقاطعون معها في كل لحظة ، وسحر روائع الغابات
الغامض الذي يعيشون في وسطه ، وسقسقة انصهار مياه المجاري
المتدفقة، ونغمات السنفونيات الطافية التي تسترقها من الشلالات
ومساقط المياه ... "

لقد قلنا ، ولكن من الحسن التكرار أن شعر جيرالدينو هو أكثر حذرا
وعناية من شعر جووان مندى على الرغم من أن كلاهما يحمل
نفس التوق المتسرب من ذاته ، وكلاهما يتفقت ليتخفف من قيود
الحياة اليومية ، وكلاهما تركا لنا وسجلا أحلامهما ، ومعاناتهما ،
ورغباتهما ، ومخاوفهما ، وآمالهما . فبالنسبة للشاعر جيرالدينو
تتصف أولى أبياته الأولى بالتمام في قصيدته :
" الطائر الهزار "
عندما يتأوه:

" طائر عليل

ينوح في غابات البرازيل

كم أتأوه عندما أراه أسيراً ،

في هذا القفص الخشبي الخشن !

وهو يعاني مرارة الأسر الفظيع ! "

فهل يشعر هو أيضا بهذا الشعور كذلك ؟ بالتأكيد هو أيضا سجين هذه التجارة المتواضعة . يحلم بالتحليق في الأجواء المرتفعة ، ويتخيل في بعض الأحيان أنه أسير في قفص من دون أن يكون هناك أي احتمال بالخلاص . وفي ديوان " الدموع والآلام " وهي

الموشحات التي ذكرها صديقه مانويل فيليكس كاردوزو نجد فيها نموذجا فريدا لشاعرية جيرالدينو ، وهو الكتاب الذي صدر عشية وفاته ، والذي أهداه الى الطبيب بوليدورو سانتياغو الذي عالجه في ساعاته الأخيرة قبل الرحيل عن هذا العالم والذي يقول فيه :

" الشمس تبرز صدفه !

والغيوم الرمادية في السماء ،

تحوم ... ترفرق ... ،

الى جانب الطيور الكئيبة الشاحبة ...!

أشعر بالساعات تمر غامضة ، خاوية ،

بطيئة ، رتيبة ، خالية ، مملة !

أسمع خفقان دوي مؤلم

لهذا القلب المريض الملتهب بالقروح ،

لقلبي العاجز والمنهك ،

المليء بالألم ، والحزن ، والكرب !

والمعني عبر هذه الممرات الطويلة !

التي تبعث مشاعر الحنين ، والأحزان ، وتطرق مسامعي !

فأسمع أصوات نواح ، وحسرات ، وآهات !

وأأواه : أواه يا إلهي ،
 سارحا في رحاب التأمل
 التأمل بوجود الانسان الهش والمسكين ،
 غير القادر على تحمّل الألم والحزن ،
 وليس لديه أي سلطان على الابتعاد عن المعاناة ..."

وثمة مثال آخر من شعره عندما يتعرض للموضوع الاجتماعي في
 موشحه الذي صدر تحت عنوان " العامل " حيث يستهل قصيدته
 هكذا :

" إنه هو ، هو الفنان المتواضع ،
 العامل العامل الذي يبني ،
 يبني ويشيد المعبد المهيب .
 الذي يرفع الى السماوات قبة الناقوس الصارم
 بجديته وقوة ذراعيه الجبارين .
 انه هو برغبته الصادقة ،
 بجديته في العمل وبراعته ،
 يقدم الخبز ،
 والسقف ، والسريير ، والمعطف !
 يؤمن الترف ،
 ورغد الحياة ،
 وأهنأ الرفاه لكل ، للجميع ! "

عندما يكثّر هذا الشاعر وينتج ويعطي ، يكاد من المستحيل أن تراه
 متذمراً. فقد اقتصر شعره على الناس الذين عايشوه وعلى ذاكرتهم،
 فكانوا يرددون شعره في ايقاعات غنائية تفيض بالحنين بحيث يستمر
 دائما حاضرا في ذاكرتهم ولقاءاتهم كما في قصيدته " الاستذكار "
 التي يقول فيها :

" لم تعد هذه بيغواسو مرة أخرى
 كما كانت هي ذاتها من قبل ،
 لأن الأخرى كانت أكثر ابتساماً
 مع تفتح طلوع الفجر !
 وأكثر روعة وسحرا
 مع رحيل النهار !
 وكانت أمسياتها ولياليها
 غير ماهي الآن !
 لقد كانت مليئة بالحكايات ، والفرح !
 لكنها الآن صامتة في أجواء الحزن والسكون !
 كان فيها كل تلك الأشياء التي ذهبت ،
 كانت أكثر نعمة ، وأكثر حلاوة ،
 وكانت أكثر شاعرية ،
 وكانت أكثر من ذلك بكثير !
 كانت هوامش النهر وحوافيه
 أكثر ظلالة !
 وحيث توجهت في فترات العصر الهادئة
 كانت نظراتي تقع على طيور مالك الحزين البيضاء ...
 ولكن ... ولكن الآن كل شيء ذهب ،
 ولم يبق لي غير ما أحفظه في القلب
 من ذكريات الماضي الذي كان ... ! "

أما من الناحية السياسية ، فقد كان جبرالدينو حذرا ومتشككا . بدأ
 ميله السياسي كمعظم الداعمين والمتحزبين للتحالف الليبرالي أي
 لجماعة السيد جيتوليو فارغاس ، وخاصة لجماعة دوس راموس
 وأمورينس في بيغواسو . لكن لم يمض وقت طويل حتى أصيب
 بخيبة أمل ، وبدأت انتقاداته الحادة والقاسية مشيرا الى جماعة

راموس ومن يستظل بهم والى عائلة أمورينس على السواء . ومما قاله في هذا الصدد العبارة التالية : " الله ينجينا منهم " وهكذا قطع علاقته بفيديوكا (رئيس البلدية ألفريديو سيلفا) الذي يحمل بطاقة حزب جيتوليو فارغس والمتعصب لعائلة راموس ، والذي قام بمضايقته والاعتداء عليه بدون أي سبب .

كان شيئا طبيعيا بالنسبة له أن يقوم بوزن كلغ من الفاصوليا من ناحية ، ويهتم بنظم الشعر واختيار القافية المناسبة من ناحية أخرى ، وينهي أبياته الشعرية بقافية لاذعة هاتفا : "فيديوكا ولا أنتن" (كلمة فيديوكا من فيدور أي الرائحة الكريهة التي لقب بها رئيس البلدية ألفريديو سيلفا)

لقد كان متجره نقطة لقاء ، وتبادل انطباعات ، ووجهات نظر . يتحدث عن التطلعات التي لم تتحقق ، والمطالب التي أحببت بسبب المؤامرات ، والدعوات الى عالم جديد أفضل وأكثر أمانا ولكنها باءت بالفشل من كثرة المكائد في المدينة . وكل هذه المواضيع كانت هي نفسها التي كانت تطرق في بقالة السيد يوسف .

لقد كتب لأولئك الذين عرفوه أمام المتجر واقفا في الدكان وراء الواجهة أو جالسا الى مكتبه يخرّبش على دفتر المبيعات والديون أو على دفتر الأشعار التي كان يكتبها ويراجع دفاتره غير راض دائما عن النتيجة ، والى أهالي بيغواسو الذين كانوا يجوبون الساحة ذهابا وايابا بالقرب من منزل جيرالدينو الذي امتاز وتفوق بشعره الهجائي ، وبعباراته اللاذعة التي كانت دائما تأتي في حينها وفي الوقت المناسب ، والتي كانت تعني الجميع وتجعلهم يهتمون بها ، والتي اشتهر بها وأصبحت مشهورة وجعلته من ألمع المتحدثين في افتتاح اعمال المبولة العامة والمراحيض في المدينة التي هي أكبر أعمال فيديوكا حين قال :

" وأخيرا تم هذا العمل الكبير ،
وثبتت هذه الرائحة الكريهة في جوارى "
ثم قال :

" بيغواسو أرض التربة الطيبة ،
انها الأرض الخيرة ،
وفيها كل شيء جميل .
أطلب منكم أن توضحوا لي ،
ما الذي قدّم لنا هذا المهرجان
لقد قدّم لنا حكاية
وسوف تشتهر الحكاية
فقد صار عندنا الآن مبولة ."

خلال فترة طويلة من الزمن وهو ثابت على انتقاد والتنديد برئيس
البلدية ومضايقته ، فالعائلتان الرئيسيتان اللتان تهتمان بالسياسة في
هذه البلدة ، تعيشان في انسجام نسبي تارة ، وتارة في خلاف .
والخصومات السياسية بينهما مستمرة وكذلك التوافق والتعايش .
فهما دائما في تحالف سياسي وكذلك في نزاعات سياسية أيضا . أي
ان اللقاء بينهما كان بين بين ، وهذا ما هو معروف في تلك المدينة
وما اعتادت عليه .

اخيرا أي حزب عليه أن يختار وأن يدعم ؟ الاشاعات والشائعات
التي تنتشر بين الناس تقول ان أي حزب يكون ضد جماعة راموس
ويحاربها هو المفضل . دائما في الحزب المعارض لقريبه
جيرالدينو لأن هذا لا يزال وفيا لنهجه ولخطه السياسي . لا مجال
للاختيار ، ومن المستحيل مرافقته والعمل معه .
وقد استمرت الحال لفترة طويلة على هذا المنوال حتى سرت اشاعة
انه بدأ يتعاطف مع حزب جماعة (غالينياس فيرديس) ، فكان هذا

السبب للابتعاد عي السيد يوسف . ألم يكن يوسف معاديا عنيفا لحزب الأصولية الوطنية ؟ كان ميل الأثنين يوسف وجيرالدينو واحدا ، فهما يحبان القراءة والكتابة حبا كبيرا . وكل واحد منهما له جوقته من الأصدقاء الذين يدرش ويتحدث معهم بشكل متكرر وفي كثير من الأحيان ، وكلاهما يكره اي نشاط يرتبط به بشكل استعبادي . كان من المألوف في الصباحات المشمسة ، والأمسيات الباردة ان يكون واقفا أمام باب البقالة أو جالسا في الداخل وفي الجزء الخلفي من المتجر حيث تحيط بهم بضائع المتاجر المتواضعة ورأسه منحني ، ونظراته شاردة ، وبيده قلم وورقة بيضاء يخربش عليها غافلا وغير مكترس لمن ولما هو حوله . كما كان يردد بعض الابيات من قصيدته الجديدة مركزا على البحث وايجاد قافية غنية وجميلة ومضبوطة الوزن . هو لا يستسيغ الشعر الحر بل يعتبره بمثابة نكته للهزل . أثناء حدوث الفيضانات في المدينة حين تجنح المياه وتتجمع في بار البليار القريب من بقالة جيرالدينو يتوجه المغني كارلوس غالاردو ويطلب منه اذا كان يقبل ان ينظم أغنية حول مشهد الفيضان الذي يجعل الساحة والشوارع تفيض بالماء والوحول كان ابن عم يوسف البكر يريد الاستفسار ، ولكن كانت تنقصه الشجاعة ، وتعتريه الخشية أمام ذلك الرجل المسن اللاذع اللسان . لكن يتجراً أخيراً ويسأل : اشرح لي يا سيد جيرالدينو كيف تستطيع أن توفق بين عمل التجارة وكتابة الشعر ؟ ألا يوجد تناقض بحيث لا يمكن التغلب عليه ؟ بأي طريقة تخرج من تأملاتك وصياغاتك الشعرية الخاصة وتلبي طلبات أحد الصبية وهو يدخل الى محلك متأبطاً دفترأ قائلاً : من فضلك يا سيد جيرالدينو أعطني منتي وخمسين غراما من المقائق ، ونصف كيلو من البطاطا ، وعلبة كبريت ، وعلبة من الشمع ، وسجل في هذا الدفتر وسوف يأتي والدي للتحدث معك بخصوص سداد الدين . ويقول ايضا :

لا تقلق بالنسبة للدفع فأبي سيقبض بعض المال وسيدفع لك المبلغ المتوجب كله قريبا .

قل لي كيف تخرج من تأملاتك وتلبي حاجة الصبي ؟
كان نجل السيد يوسف يفكر ويتأمل ويستنتج ان نفس المسألة كانت تحصل مع والده مع اختلافات طفيفة من دون ان يتخيل ان والده سوف يواجه قريبا جدا نفس المعضلة .

4 - السيد تاورينو والسيدة دونا فرنسيسكا .

السيد تاورينو هو صاحب صيدلية ، وفي الوقت نفسه هو صيدلي ، وممرض ، ومركب ومنتج أدوية طبية كما انه يمارس مهنة الطبيب ويعالج بعض المرض في بعض الحالات الطارئة . انه يقوم بالقليل من كل شيء ، يرعى ويعتني بالسكان الفقراء ويرشدهم الى المركز الصحي في المدينة . أما زوجته السيدة فرنسيسكا ، فانها تساعده في الصيدلية وتعمل على صنوق المحاسبة والمقبوضات من الزبائن ، وهي في الوقت نفسه ربة المنزل وأم الأسرة التي تقوم بكل ما يتطلبه المنزل من عناية ورعاية .

كلاهما على استعداد دائم ، وبكل طيبة نفس ، في أي وقت من النهار أو الليل أن يستجيبا لأي طلب أو مساعدة أي مريض واعطاء وصفة طبية . وفي أكثر الأحيان كان الصيدلي السيد

تاورينو يحمل الدواء الى بيوت المرضى ، ويقوم هو بنفسه في تطبيق عملية الحقن . وكما جرت العادة ، وكما هو معروف للجميع فان منزل السيد تاورينو الذي يقع في الجهة المقابلة للصيدلية من الشارع قد تحول ايضا الى صيدلية فصارت الصيدلية والمنزل شيئا واحدا . كان منزل تاورينو منزلا كبيرا وجميلا في المدينة بحسب المقاييس المحلية ، وكان على مقربة من ساحة البلدة ويكفي ان يقطع الشارع الرئيس حتى يتم الوصول اليه . وهل في البلدة شيء أهم من

الشارع الرئيسي ؟ وأي شيء يمكن ايجاده في غير الشارع الرئيسي ؟ فهو يقع على مقربة من مكتبة جوفان مندرس وفي نفس الجانب الذي تقع فيه المكتبة. ويكفي أيضا ان يجتاز الانسان الجسر الصغير فوق مجرى الساقية حتى الوصول الى المنزل .

وهذا البناء الكبير أصبح مشهورا جدا بعد ثورة الثلاثين من يوليو حيث تعرض لقصف مدفعي وأصابه الخراب . الا ان الصيدلي تاورينو حافظ عليه خلال فترة من الزمن وظلت بصمته عليه وخصوصا بعد اصلاحه من الخراب الذي أصابه ،وقد أصر حتى بعد إصلاح الأضرار بكل كبرياء ان يستمر في عمله هناك . كان يصل الى أمام باب المبنى وينظر ويقول لمن حوله : انظروا هنا . هنا بالضبط كانت الإصابة . لقد اصلحته ودهنته لكي يعود صالحا كما كان . لقد أعيد اصلاح المنزل وطرشه بالدهان ويمكنكم ان تلاحظوا انه ما زال يوجد بقايا وأثار خراب من الجهة الخلفية ومن خلال الدهان الجديد . ومع مرور الوقت يمكنكم ان تلاحظوا الفرق والهندسة والاصلاح الذي حصل وكان من شأنه ان يزيد درجة الاستهزاء عند الشاعر الساخر جيرالدينو . فالفجوة التي ظهرت من جراء القصف المدفعي بدت وكأنها أكبر من المنزل نفسه .

ولا بد من التنويه أن السيد تاورينو هو نفسه الذي عالج نجل يوسف من مرض الملاريا . الملاريا التي لا يمكن تفسيرها ولا متى و كيف أصابته وتمكنت منه بشكل فظيع ، وجعلته طريح الفراش لوقت طويل، ولم ينفع العلاج والأدوية المتنوعة ، وجعلته منهكا متراخيا لا يقدر على فعل شيء ، وبدأت النوبات الحارة والباردة تهيمن عليه بشكل كلي ، فلا تفيد زيادة الملابس ولا كثرة البطانيات عندما يتمكن منه البرد ، ولا يجدي الحمام بالماء البارد عندما ترتفع حرارته .

كما ان استعمال الماء الساخن في الغرفة وارتداء القمصان والمعاطف الشتوية لا تنفعه حين كانت تجتاحه موجات البرودة . الحرارة ترتفع في كل جسمه دون فائدة من نزع ملابسه واغتساله

بالماء حتى الجليدي . الحرارة ترتفع وتهبط . البرودة تهبط وترتفع .
 تراه مرتجفا مقشعرا . هبة باردة وهبة حارة ساخنة . ذقنه ترتجف
 وكل ما فيه يهتز . ارتجاف يبرز من داخل أعماق كيانه . وعندما
 يذهب عنه الارتجاف ، يجعله متراخيا ومنعزلا وعاجزا . يضعف
 ويتراخي يوما بعد يوم ثم تعود اليه النوبات الحارة الباردة ،
 والباردة الحارة من جديد .

كان يأتي لمعالجته الصيدلي السيد تاورينو كل يوم ويقول دائما : ان
 هذا المرض هو كذلك وهذه هي ملامحه، ولكنني لم أر في كل حياتي
 مثل هذه الشدة . فأين مرّ حتى أخذ هذا المرض ؟ وكيف حصل له
 هذا المرض اللعين ؟ أنها لعنة .

كان كلما عالجه وأعطاه الدواء يقول : شفاؤه سوف يستغرق وقتا ،
 ولكن هذا هو أحدث دواء للعلاج وللقضاء على الملاريا . يعطيه
 الحقن وحبوب وأقرص الدواء ، ويشرح للوالدة السيدة تمينه ما يجب
 ان تفعله ، ويطمئنها ويقول لها ان لا تستغرب اذا رأت بول ابنها
 أصفرا ، والجميع كانوا يأتون ليشاهوا لون بوله غير المؤلف والذي
 يشكل بحرة من البول . ان هذا الشيء لجنون . وبقي على هذه الحال
 حتى أحس يوما انه شعر بالتحسن وقد تعب من السرير ومن البقاء
 في البيت ، وقرر أن يغامر وينهض . وبدلا من ان ينتظر السيد

تاورينو ليأتي ويعطيه الدواء في المنزل ، فقد قرر ان يتخلص من
 هذا الحصر و يخرج من منزله باتجاه صيدلية تاورينو . هو يريد ان
 يتنشق الهواء النقي ، ويعرض نفسه للشمس والنور ، ويشاهد الناس
 . أخذ يتنقل ببطء وهدوء متلمسا الجدران ومتكئا عليها . متوقفا بين
 لحظة وأخرى ليتنفس ويتنشق الهواء حتى وصل الى الصيدلية امام
 دهشة الحاضرين لأن عليه ان يتناول الدواء اليوم . أليس هذا اليوم هو
 يوم تناول بعض انواع الكبسولات من الدواء وتناول الدواء الى
 جانب الحقنة ؟ وبالفعل ، لقد تناول الدواء وعاد لتوه الى المنزل ،
 ولكنه شعر فجأة بالدوار والغثيان ، وشعر ايضا بدوخة وألم وغمامة،

وفقد كليا مساره ولم يعرف كيف يتجه ولا الى أين ، وأخذ يترنح في الطريق ، ولم يسمع الا ضجيجا قويا وصراخا مفاجأ ، واذا بصوت شخص غريب يسحبه ويشده بعنف . انه شخص سكران ومجنون يريد ان يقتله ، مما دفع بعض سائقي السيارات الذين شاهدوا ذلك المشهد فهبوا الى نجدته ، وكذلك ركضت السيدة دونا فرنسيزا وكذلك أسرع السيد تاورينو اليه وتجمع حشد كبير من الناس حوله لانقاذه . خرج جيوان مندرس من محله مستفهما من البعض عما جرى ؟ ولم يطل الوقت حتى ظهر جيوان ديدينو أيضا وكلهم يريدون مساعدة الصبي المريض . ساعده وخصوصا الصيدلي تاورينو حتى وصل الى امام بقالة والده يوسف وألقوه أمام الباب ، وكان منهكا كما لو كان خرقة بالية . وعندما رأى يوسف ولده على هذه الحال ، ظن ان الصيدلي تاورينو هو الذي أخذه من البيت وألقى اللوم على السيد تاورينو وكذلك تدخلت الوالدة تمينه وظنت ما ظنه زوجها ، فأوضح تاورينو الأمر لهما وقال بان الولد خرج من المنزل من تلقاء نفسه وان شخصا مجنونا التعرض له في الطريق اثناء عودته ، وحاول ايذائه ، ولكن الجميع الذين كانوا حاضرين هبوا لمساعدته .

يذكر من جهة أخرى أن روايات وأساطير كان يتداولها الناس حول تاورينو الذي كان يحب التنقل من فتاة الى أخرى بعد نيل مأربه منها ، وفي احدى المناسبات فقد السيطرة على نفسه وكان الضرر عليه وحده ، وذلك كان نتيجة عدم تحكمه بارادته ووقوعه فريسة للاضطراب وفقدان الوعي في منطقة صغيرة يعرف جميع الناس بعضهم بعضا ولا تخفى على أحد خافية في تلك المنتديات والندوات الصغيرة التي يجتمعون فيها ويدردشون في كل الأمور . ان تاورينو لم يتزوج حتى الآن وكان عنده خطيبة من بيغواسو . ويقال انها من سان ميغال وآخرون يقولون انها من منطقة المضيق استريتو . وقد عين موعد الزواج وذهب الى مدينة فلوريانوبوليس لأجراء التدابير

اللازمة لحفل الزفاف. قال له والده: لا تنس يا تاورينو زيارة الأقارب والأنسباء .

يجب ان توجه لهم الدعوة من اجل حضور حفل الزواج .
أبدى تاورينو بعض التردد بسبب بعض الهواجس لديه . فلديه شعور داخلي يقول له : لا تذهب لزيارة أحد من الاقارب . يجب ان لا تقوم بتلك الزيارة . فكأن شيء خفي يعتمل في داخله أن شيئاً ما سوف يحصل ، ولكن بناء لاصرار والده على الزيارة ودعوة الأقارب الى حفل الزفاف ،فانه لا يستطيع ان يرفض طلب والده ، ولا يقدر على تجاهل توجيه الدعوة لهم ، ولذلك كان لا بد من زيارة عمومته واخواله وابنائهم وتوجيه الدعوة لحضور الحفل . ذهب الى بيت عمه من اجل تسليم الدعوة ، فاستقبلوه بالترحاب وبكل حرارة وأحوا عليه بالدخول الى منزلهم ورفضوا ان يستلموا الدعوة اذا لم يدخل منزلهم ويتناول طعام العشاء معهم باعتبار انه وصل مساء . قالوا له : ادخل وتناول العشاء معنا فقد اشتقنا لكم وانت لا تأتي الا نادرا .
نريد ان نعرف كيف حال الأهل وصحتهم .

والآن موعد وصول ابنة عمك التي تريد ان تراك ايضا وتسلم عليك وبعد اصرار كبير دخل المنزل وقرر ان يتناول طعام العشاء مع ابناء عمه . وفي فترة انتظار العشاء طلب عمه من زوجته تحضير بعض المشروب والمقبلات . وفي الوقت الذي كان فيه ينتظر طعام العشاء بدأ هو وأنسبائه بتناول المشروب الكحولي وكانت البداية بكأس براندي (الكونياك) ، ثم كأس نبيذ البورتو ، وراح يكرر كأسا بعد آخر حتى بدأ يشعر بنشوة عارمة وبرتخاء كبير عندما تمكنت منه الخمرة . أخذ يسترسل في الحديث دون توقف بشيء بسبب المتعة العارمة التي غمرته. ولما كان غير معتاد على الشراب بهذا الشكل المفرط ، فقد سيطر عليه السكر . ومع انه متحفظ في الاكل والشرب ، الا انه لم يعد يتمكن من مقاومة كأس ملآن وآخر فارغ ومن ثم ملآن من جديد . والحقيقة اننا لا نعرف من كان يملأ الكأس

هو ام قريبه . واستمرت الحال على هذا المنوال حتى حان موعد العشاء بوصول ابنة عمه الى المنزل . جلس الجميع الى الطاولة لتناول العشاء الذي لا يمكن لتاورينو أن ينساه . لقد شرب قبل العشاء وأفرط في الشرب ، وتناول بعض المقبلات اللذيذة التي أكل منها قليلا ولكنه كان يشرب أكثر مما يأكل . فبعد تناول الكونياك والنيبيذ بدأت حفلة البيرة . قد كان العشاء ممتعا وعلى ما يرام مع انسابه ، وفي جو لطيف حافل بالأنس والمشروبات والمأكولات الشهية ، فكيف يهرب من ذلك ؟ وكيف يستطيع مقاومة ذلك المشروب ؟ وتلك المأكولات الشهية ؟ وذلك السمر العائلي الودود؟ انتهى من العشاء ، ولكن أحس انه لا يستطيع حتى النهوض من أمام الطاولة . وعندما نهض بدأ بالترنح والتأرجح مما جعل ابن عمه يقول له : " انت الآن لا تستطيع السفر ، ولن أتركك تذهب في هذه الساعة من الليل الى بيتك في بيغواسو وانت بهذه الحالة ، حتى انه في هذا الوقت المتأخر لا يوجد حافلات ذاهبة الى بيغواسو ولا أرى فائدة من ذهابك الآن الى الفندق والمبيت هناك . ابق هنا فمنازلنا كبير وسنعد لك غرفة الضيوف لتقضي ليلتك عندنا ، وغدا في الصباح الباكر يمكنك ان تستقل أول حافلة ركاب (باص) الى بيغواسو ، وسأرسل معك رسالة الى والديك أشرح فيها كل ما حصل وهم سيتفهمون الوضع ، وان لزم فاني مستعد ان أذهب معك الى هناك وأوضح لهم الأمر وأقول كل شيء . "

اقتنع بفكرة ابن عمه وقرر ان يبقى اذ ليس لديه اي عذر لكي لا يبيت عندهم . وهكذا كان . لكن المفاجأة كانت عندما استيقظ صباحاً . فبدلاً من أن يجد نفسه في غرفة الضيوف ، وجد نفسه في سرير ابنة عمه والى جانبها . انها الفضيحة ! ولهذا كان مضطرا الى فك الخطبة والزواج الذي كان مقررا . المسألة مسألة شرف ولا يستطيع ان يفعل غير ذلك ، وقد اكتشف فيما بعد ان ابنة عمه كانت تحبه وتعشقه عشقا كبيرا . وما هو الشيء الذي يخفى

على الناس في البلدات الصغيرة ؟ وأي شيء لا يفضح فيما بعد ؟ .
 انها تحبه ولا تريد العيش بدون تاورينو ، وقد تكون رتبت كل ذلك
 بدون معرفة أسرتها . من يدري ؟ وتجاه ما حدث ، فقد قال والدا
 الفتاة : "ليس لدينا أي خيار آخر لستر هذه الفضيحة . كيف نفعل
 بابنتنا ؟ وأين نتركها ؟ فلا شيء غير الزواج يمكن ان يغطي على
 ابنتنا العذراء فرنسيزا ويصلح الموقف ويزيل هذه الالهانة ."
 وبالفعل ، فقد أصلح زواجهما كل شيء وقد عاش الزوجان سعيدان
 الى نهاية حياتهما . وهذه رواية من الروايات التي وردت عنهما .
 لكن هناك رواية أخرى غير هذه وقد راجت وفيها شيء من
 الاختراع وأكثر خيالية وهي ان تاورينو كان عازفا قديرا على
 الغيتار ، ومغنيا وصاحب صوت معقول لا بأس به لكن لماذا لم
 تجر أية منافسة أو مبارزة بينه وبين المغني روبرتو غالياني ؟
 وكانت خطيبته في مدينة فلوريانوبوليس . فهل يعنى ان ابنة العم تلك
 كانت هي الخطيبة ؟ ربما . لا ندري . لا يمكن التأكيد أو النفي فهو
 موضوع من المحرمات .
 ورواية أخرى تقول انه في ذات يوم من الايام أتى صديق متوسلا
 وقال لتاورينو : " دعنا نخرج هذه الليلة بدون تأخير . انا بحاجة
 اليك . انت وحدك فقط بإمكانك ان تساعدني . اريد أن تساعدني
 وتعزف هذه الليلة لحبيبيتي ، لأنني أريد أن أفوز بحبها مرة واحدة . أنا
 يا صديقي عاشق . أعشق تلك الفتاة ، ولكنها شيطانة صعبة لا أقدر
 عليها . وقد ذهب الاثنان الى بار لتناول بعض المشروبات الكحولية
 باعتبار ان الحفلة لا تكون موفقة وناجحة بدون تناول بعض
 المشروب . كان ذلك قبل ان يلتقيا بها وتبدأ حفلة العزف التي
 سيحببها تاورينو . والواقع ان تاورينو لم يكن من محبي المشروب
 الكحولي ، ولكن أصّر عليه صديقه وألح حتى قبل ان يشاركه
 الشرب . وفي تلك الليلة بعد شرب تاورينو عددا من الكؤوس ، عزف
 وغنى واجاد بشكل لم يعرف من قبل ، وكانت تلك الليلة من أجمل

وأبداع ما عزف وغنى تاورينو . عزف على غيتاره وغنى من أعماق أعماقه ، وبكل أحاسيسه وبكل عواطفه غناء عاشق متيم حتى دخل الى أعماق الفتاة التي يعشقها صديقه . وكانت نظراته لا تفارقها من اللحظة التي التقيا فيها ، كما كانت نظراتها لا تحيد عنه . تشابكت النظرات ، وتلاقت القلوب ، وأحبته حتى الاشتها . أليست هي كما ادعى البعض هي الفتاة التي قالوا عنها انها من فلوريانوبوليس؟ من يعلم ومن يدري ؟ أليست هي الخطيبة من فلوريانوبوليس كما سبق وقيل ؟ ألم تكن هي نفسها ابنة عمه ؟ وهل يمكن ان تنسى ؟ بعد ذلك العزف البديع فر مع معشوقة صديقه الى مكان آخر وتزوجها ، وعاش معها . وهي نفسها دونا فرنسيزا التي عاشت مع زوجها تاورينو كأسعد زوجين . لقد كثرت الروايات عن قصة حب تاورينو . ولكن ما هي الحقيقة ؟

ومن يملك الشجاعة الكافية للسؤال ومعرفة الحقيقة ؟ الاشاعات تنتشر خلسة ، وكذلك الهمسات ، والآراء ، والشائعات ، والاشارات ، ويضاف اليها الكثير من التوابل والاختراعات بتعدد الروايات . هكذا استمرت الحقيقة مجهولة ، وعلى الأقل مجهولة بالنسبة لجو عائلة السيد يوسف . ولا يزال الشك بمعرفة الحقيقة متواصلا وربما كانت كل القصص التي نسجت حول تاورينو هي نتيجة الخيال الخصب في تلك البلدات الصغيرة . فالناس في تلك القرى الصغيرة العاطلين عن العمل يملأون حياتهم بقتل الوقت وباختراع الحكايات والتلهي بالخرافات التي يحولونها الى حقائق يصدقونها .

5 – جوان ديدينيو

جوان ديدينيو هو شخصية رمزية مميزة في احدى مراحل تاريخ بيغواسو . وهي تتفوق على كثير من الشخصيات حتى تلك التي كان لها نفوذ ومزيد من السلطة في المدينة . فهو الذي اعطى الكثير من

القوة لثورة الثلاثين . انه رمز ثورة الثلاثين . ألم يكن أهم شخص في الحركة ؟ أليس هو من كان يقرر؟ ربما كان الأهم. ربما لم يكن . الأمر لايهم كثيرا . ففي شخصية جowan ديدنيو تجسد كل ما كان يحلم به .ومن أجل ذلك الحلم كان صراع الكثيرين وبالاختصار : اذا عدنا الى حالة البلاد الزرية في الماضي ، فليس فقط تغيرت مراكز القرار والقيادة ، ولا مجرد تغيرات بروتوكولية في مواقع السلطة كما جرت العادة فحسب ، بل كان بدون شك الشخصية الشعبية التي مثلت روح المرحلة في جميع انحاء تلك المنطقة .

المطلوب الذي يمثل حاجة ماسة هو طلب الاستشارة والحصول على المعلومات . وكان القول الشائع انه : اذهب وابحث عن الرجل اي جowan ديدنيو وهو المؤهل لاعطائك المعلومات والارشادات التي انت بحاجة اليها . لا داعي ولا لزوم للسؤال عن وظيفته ودوره . الجميع يتوجهون دائما الى محل الخياطة حيث يتواجد أكثر من تواجهه في مركز الشرطة .

كان الشاعر جيرالدينو لامعا ومشهورا واسمه ديدنيو (بمعنى الاصبع الصغير) ويمكن التخيل لو كان ابهاما لأشير اليه بالبنان ، ولكان صار ملكا علينا في كل ايامنا من قبل الذين يقبلون الأيدي ، ويطلبون البركة والنعمة من اجل سماع قافية شاعرية منه أو أي شيء من هذا القبيل . في الواقع ، يريد ان يبقى متخفيا حتى لو كان في مركز الشرطة ويظل صامتا ، لكن من السهل العثور عليه . لقد كان يتمشى دائما في طرقات المدينة . يتوقف احيانا في أحد البيوت ثم يذهب ويتوقف في منزل آخر وآخر ، ثم يذهب الى احد الحوانيت او البارات أو الساحة الرئيسية أمام الكنيسة أو يذهب الى مخبز فيدوكا ، وصيدلية تاورينو ، ومطعم سليم ، ودكان ابراهيم ، وبقالة يوسف . أما جيرالدينو فانه لا يغفر له هذه التوقفات لأنه يرى انه سيأتي يوم يسجن فيه بعض الناس .

حياة الناس هنا دائما في حركة وانشغال دائم .كان رسول اللبراليين ، خلال ثورة الثلاثين يشبه الحمام الزاجل الذي ينقل الرسائل نيابة عن القادة في داخلية الدولة لاجراء الاتصالات مع المتمردين الثوار ، وهؤلاء الرسل يعودون بالاخبار والمعلومات من أعضاء تلك المجموعات ، كما تخبر عن التراجعات الاستراتيجية ، والمفاوضات التي لا تحصى . لقد أجريت عدة اتصالات مع ريجيس نجل السيدة دونا جوانينا في بيغواسو الفوقا . كان ريجيس قويا يعمل بدون كلل ولا يتعب ، كان فطنا وفي حالة تأهب دائم ، كما كان ذكيا ومن القلائل الذين يجيدون الاستماع . وكان من الصعب ان تؤخذ منه اي معلومات أو يفصح بأي شيء باستثناء المعلومات والاشياء التي يريد الكشف عنها ويهمه نشرها وفي وقت لاحق بعد عدة سنوات عندما سئل عن ذلك ، أكد بانه كان على اقتناع تام بالطريقة التي كان يتصرف بها لأن بيغواسو كانت معقلا للبراليين في الدولة مع عدد كبير من المقيمين والذين يشاركون في الحركة . كان هناك استياء عام في تلك المرحلة وهذا ما أثار ورفع مستوى التحالف . كان أحد الأبناء بالتبني لأحد المنظمين والمنضمين للثورة في بيغواسو يحب أن يذكر ويقول: " أحب أن أذكر أن انضمامي ومشاركتي في الثورة لم تكن مجرد صدفة ، كما انها لم تكن بروح المغامرة ، ولكنني أعترف انه كان لدي ضمير اجتماعي وحس بالقضايا العامة ، والافكار المتقدمة التقدمية ، وكنت متمنيا من أجل أن تحقق الانتفاضة كل ما هو مفيد للشعب، وكنا لا نستطيع ان نستمر مع واشنطن لويس " وعندما سئل : " هل أنت راض عن النتائج التي حصلت باعتبار انك استعملت كلمة متمنيا؟" فأجاب بعد ان لوى رأسه وبعد تفكير وعناية : " إن الذي كنت أريده لم يكن كل ما هو مطلوب ، والذي تحقق من تقدم في الميدان الاجتماعي لم يكن كافيا " وصمت بعد ذلك قليلا ثم هز رأسه وقال :

" أعترف أن بعض المشاكل والمعضلات المزمّنة لم تنزل دون حل، ولكن دعنا نعطي مجالا للزمن. ثم ان الأمور تتعلق بصراع الشعب المنظم وليس فقط بمجرد الانتظار اذ ينبغي على الجميع أن يطالبوا بحقوقهم ويصارعوا من أجل تلك الحقوق ."

بمرور الوقت ، بدأ تركيز نظام الدولة الجديد يتراجع ويتلاشى الى حد ما . اما كلمة الجديد ، فانها كانت بالأسم فقط وهو شعار

جيراالدينو للتهييج والازعاج فقط ، لكنه لا يريد أن يوضح الحقيقة لأنه يحتاج الى الحفاظ على ما كان يعتقد به ، وكان يقول دائما :

" اعطوا الوقت الكافي لذلك الرجل القصير القامة لأن جمجمته

جمجمة عبقرية،من الممكن ان يكون وضع شيء في جيب سترته.

انني لا أزال أعتقد في حسن نوايا جيبي . كان لا يحب الخوض

والالاحاح في هذا الموضوع ، ويضعف شكوكه في ذلك ويحاول

تحويل الموضوع الى موضوع آخر بالبحث عن تفسيرات جديدة

ويقول : " ان والدي بالتبني ، وأوليفيو أموري ، كان قريبا جدا من

نيروي راموس ، وأنا باشرت بالعمل معهم ولست نادما ابدا انني

ساهمت في الصراع من أجل تحقيق النصر ، لأن ذلك كان أفضل

من الحالة التي كانت سائدة قبلا ، وهل يشك أحد في ذلك ؟

لا أزال أضحك عندما أذكر كيف هرب رئيس البلدية ليوبولدو

فرايبير عندما كنت جالسا على كرسي من الكراسي القليلة النادرة

في بقالة السيد يوسف . لقد بقي في منصبه لفترة قصيرة وكان امين

سر عمدة البلدية هيرموجينيس برازيريس.ولكن الرجل الذي اختير

لهذا المنصب وعيّن مكانه ،كان فيدوكا (ألفريدو سيلفا) وهو من قبلنا

، ورفيق جيّد ، والأكثر احتراما ، وصاحب المخبز ومعمل الحلويات

الأكثر زبائنا في بيغواسو . هو لا يعرف ولا يوضح لماذا لم يعيّن

بدلا من فيدوكا في تلك الفترة السيد أوليفيو أموري الذي كان أكثر

التصاقا وعلاقة مع الناس وأكثر انسجاما معهم وكان أكثر الناس

يومها من جماعة راموس . واذا سُئل عن هذا كان يجيب ويصر

على رأيه : " حسنا ، انتم تعلمون ان جميع القيادات في التحالف ، كان تحالفها ظرفيا ، وهناك حالة ما يسمى بميزان القوى في كل وقت من الأوقات. لذلك كان الناس يميلون تارة لهذا الجانب وتارة أخرى للجانب الآخر . وعندما عيّن فيدوكا كانت كفة الميزان تميل لصالحه .

يشعر الوالد يوسف بعدم الراحة ، ويغيّر الموضوع ثم يعود الى طرح السؤال مرة أخرى الذي ينبغي على الجميع ان يعلموا الجواب فيقول : " وأنت ؟ كيف أصبحت صاحب محل خياطة بهذا الحجم ، وفي الوقت نفسه مفوضا أمنيا لمدى الحياة ؟ " وبدون ان يرتبك أو يتردد بيتسم جووان ديدينيو قائلا : " لا بأس ، سوف أجيبك. لقد كنت فتى في سن الواحدة والعشرين من عمري تقريبا ، وكنت بحاجة الى عمل ، وكانت لدي مهارات تمكّني من العمل في القصر والخياطة والرماية ، وكنت أريد أن أكسب لقمة العيش بأي طريقة من أجل بناء أسرة والعيش بكرامة ، وكان علي أن أقدم خدمات جيّدة في اي مهنة أمتنها لأن مهنة واحدة لا تكفي لتحقيق حياة سعيدة . " فهل أدرك الخياط مهنة الأمن ؟ وهل توافق رجل الأمن مع مهنة الخياطة ؟ ، وهل تصابحت المهنتان واتفقتا معا ؟ ولماذا باكرا كانت لجووان ديدينيو علامة بارزة في هذا المجال ؟ وهل كان في جووان ديدينيو عيب خلقي بالولادة عندما اصيب بحادث في احد اصابعه ؟ مهما كانت الاجتهادات فمن الصعب او من المستحيل تحديد وتعيين الاسباب . ان جووان ديدينو يحب ويفضل الألباز الغامضة . فان جووان كانددو دا سيلفا يتسلم منصبه ، ويسعى الى الاطلاع على كل المهام التي عليه ان ينجزها ، ويطلب بتعزيز وتحسين وضع ودور الشرطة والتعرف والكشف عن الظروف الحقيقية وحالة مبنى مركز الشرطة الواقع في ساحة المركز الرئيسي للبلدة بما في ذلك السجن (وهل سيكون في مركز المحكمة ؟) وسوف يهتم بتحسين أوضاع السجناء .

فخلال الحرب العظمى ، كان يطلب تجنيد الشباب من أجل المساعدة والقيام بدوريات في الشوارع خوفا من تحركات واعمال الطابور الخامس الذين يحاولون نقل المعلومات الى النازيين والفاشيين، كما كان عليه أن يبقى حذرا ويشدد على مراقبة المحافظين الوطنيين ، وبعض الزملاء السابقين والاصدقاء من التحالف مثل جماعة ريتز وجماعة شيرير.

في أحاديثه ودردشاتة مع السيد يوسف كان يبدي تعاطفا خجولا مع اليسار لكن مع اليسار الرومنسي ، الأدبي الذي هو نتيجة القراءات الضئيلة ، والأحاديث السطحية مع الأصدقاء التي كانت تجري في فلوريانوبوليس عن اليسار وقد تعرف على ألفارو فينتورا وهو أسم برز في مرحلة معينة من مراحل الشيوعية المشوبة بمفاهيم مختلطة وخصوصا مما كان يروجه المحافظون الأصوليون الذين يكرهون اليسار بالولادة .

كان عليه ان يبتلع ، بشيء من سخط والازدراء احتفالات التكريم التي كانت تقام لبلينيو وهتلر وشاربه كما قال أثناء مروره في بيغواسو. لم يكن يتعب من التكرار : ان هذه الحركة هنا هي فرع مزيف من فروع النازية والفاشية ، وأعضاءها من المتعصبين المخيفين . وما نراه منهم كأصدقاء سرعان ما يتحولون الى أعداء لمجرد انتسابهم الى شعار النازية واحتضان السيغما . حتى الذين كانت لي معهم صداقة وكنا زملاء ، فاننا الآن في حالة فتور ولم نعد كما كنا سابقا . وأضاف حتى صاحب الشارب بلينيو لا يمكن الاطمئنان له ولا يمكن أخذه على محمل الجد ولا تتفوق على سلوكه الا سخافة هتلر .

عندما كان يتأخر عن الحضور الى بقالة يوسف ، كان يقال له بسبب هذا التأخر : " لماذا تأخرت عن الحضور ؟ ماذا جرى لك ؟ وماذا حدث ؟ لقد تركت التوقيع على مداومتك عندنا ؟ ودردشاتنا ؟ " المرور الى محل يوسف اصبح شيئا تقليديا روتينيا ، وعادة راسخة وهو أكثر

من ذلك ضرورة تقريبا. قد يكون المرور الى البقالة باكرا وقد يكون عند الظهر أو العصر ، ولكن الأفضل أن يكون مساء . هو يريد الاطلاع على الأخبار الجديدة . وعندما يكون راديو الفيليبس صامتا كان يقلب صفحات الجرائد ، ويتصفح جرائد أمس ، وحتى صحف أول أمس ، ويعلق على آخر التطورات في الولاية ، والبلاد ، والعالم ، وتجدد الحرب التي لا تزال متواصلة وفي تفاقم ، ثم ينتقل من محطة اذاعية الى محطة أخرى بحثا عن أي خبر ، ويلفت انتباه السيد يوسف الى بعض الأنباء التي ترد . لا يتوقف عند محطة معينة بل يقفز الى جميع المحطات ثم يعود الى المحطة الأولى أي الى محطة الاذاعة الوطنية فهي أقوى المحطات وأفضلها تجهيزا وهي التي تقدم أوسع تفاصيل للانباء .

على الرغم من أنه من حزب جيتوليو فارغاس ، فانه لا يمكن ان يفرط بسهولة بلطافة وجاذبية زعيمه بالمحور ، ويسعى دائما لايجاد عذرا له وتبريره بشكل قاطع ويقول : "صدقوني انه ليس كما تتصورون ، ولكن حاشيته والذين حوله مثل غويز ، ودوتر ، ومن غير المفيد التركيز على هذه الذمرة التي لا تتغير وتبقى هي نفسها تقريبا المقربة من الدكتاتور ، وكلمة دكتاتور يقشع لها البدن وتجعل الوجه يتقطب كما تحرك الانسان وتجعله يفتش عن مخرج " . ويضيف على ذلك بالقول أن " الرجل ماكر جدا ، انتظروا وسترون ما سيفعل " . فعندما تراه يتكلم أمام وسائل الاعلام وأمام الجماهير وعن الولايات المتحدة ، فانه يتكلم بكل حماس وينفعل ، وترى ايضا الجماهير تتحمس وتنفعل وهكذا بكل حماس أعلن الحرب على دول المحور . وقد بدأت الاستعدادات لارسال الجنود الى ساحات القتال . ويرفع يده ويبتسم ابتسامة عريضة ثم يصيح : " والآن ؟ ألم أقل أن المسألة ليست كلاما بكلام وهذه هو الدليل الاستراتيجي الصحيح الذي يقدمه جيبي ؟ ان هذا الرجل القصير لديه دماغ شجاع ، ورأسه يتصف بكل صفات الجودة ، وقد انتظر اللحظة المناسبة

لا اعلان ما أعلن . ولو كنت أصغر سنا لكنت تطوعت وانخرطت في جيشه للقتال ، ولولا التزاماتي ومسؤولياتي الكثيرة في المدينة لكنت ..، ولو لم يكن عليّ ان أوجه الشباب وأهتم بأمور البلد لكنت ..، ولولا تورطي والتزامي بأشياء كثيرة ، لكنت التحقت بالمحاربين . لقد كان صادقا مخلصا". ولكن السيد جيرالدينو الذي لم يكن ليرحم أو يسامح قال: " قل مرة واحدة أنك لا تريد أن تلتحق ولا تريد ان تذهب "

ماهي الأسباب ؟ من الصعب التوضيح . فخلافا للأشخاص الذين يشكلون متحد بيغواسو اعتبارا من لحظة معينة ، فان جوان ديدينيو أصبح شخصية اسطورية في المدينة . ويستمر شخصية حقيقية ويمر بطفرات وتغيرات . يبدأ بعملية معقدة في اعادة الصياغة لتكون خيالية التركيب . يحرض الناس دائما ، ولكنه لا يتقدم ولا يفعل كما ينبغي . أم لا ؟ أليس هو مزيج يجمع ما بين الحقيقة والأسطورة ؟ مثل كل شيء يقوله عن بيغواسو؟ بأي طريقة يمكن أن نميز جوان ديدينية عن غيره الخيالي؟ ونعيّن جوان ديدينيو ؟ أي من هو الحقيقي ؟ من الصعب التحديد . ففي أحيان كثيرة يتكون انطباع أن الحقيقة الواقعية هي أقل أهمية ومعنى من المصاغة على انها حقيقة أخرى .

هكذا تتراكم الأحداث وتتداخل ، ويكمل بعضها بعضا بحيث تشكل شبكة لا تنفصم . واذا بقينا على المثال الوحيد ، فهل كان حادث الخلاف الضمني للخلاف اللاحق ليحصل بين جوان مندرس وجوان ديدينيو؟ وهل كان حصل الخلاف على النحو الذي جرى وصفه ؟ ومع طعنة سكين الشاعر الأعمى في ظهر مفوض الشرطة عندما كان يتكلم على الهاتف ؟ أو أن ذلك الحادث لم يكن ليحصل أبدا ؟ والقيام بتلك الدوريات في المدينة في الليل عندما أوقفت العربات المحملة بالبرتقال أو للقبض على اللص الذي يسرق الدجاج ؟ هذه المشاهد المركبة : لقد وجهت الدعوة الى الفتيان ، وحازوا

على الأسلحة (مسدسات ، وبنادق ، وقطع حقيقية من المتحف) ،
وبدأوا يجوبون الشوارع مع الانتباه الكلي لكل شيء وكل حركة
خيوط النور كانت تتسرب من شقوق النافذة ، وعربة تحمل البرتقال
في طريقها الى فلوريانوبوليس ، وضجة مشبوهة تثير الريبة عندما
القي القبض على الجاسوس الخطير، وسجن على الفور . وقد تبين
في صباح اليوم التالي ان الذي قبض عليه كجاسوس لم يكن الا
مجرد لص صغير يسرق الدجاج فقط . وفي هذا المثال تبين ان نص
الرواية التي اصبحت جزءاً من فلكلور البلاد هي أكثر حقيقة من
الواقع الذي تستند اليه . بينما تبقى أهمية جowan ديدينيو من الموقع
الذي احتله والذي لا يرقى اليه الشك .

6 – السيد فيدوكا

تماما كما في حالة جowan ديدينيو . الكثيرون يعرفون الحقيقة ،
ولكن قلة من الناس هي التي تشير الى رئيس البلدية وصاحب
المخبز باسم ألفريدو سيلفا . وفي مستهل هذه البداية ، لا بد من القيام
بالتصحيح المطلوب وهو ضروري للغاية . الخطأ كما يعلم الكثيرون
في الاسم . فما هو الاسم الحقيقي لجowan ديدينيو ؟ فهناك بعض
الفرق الدقيق : فاذا كان مفوض الشرطة - الخياط هو جowan ديدينيو
فلا أحد كان يمكن أن يدعو رئيس البلدية فيدوكا . وفي هذه الحالة ،
كان يمكن ، احتراماً ، ان يدعى السيد فيدوكا . واسم ألفريدو سيلفا
هو فقط الاسم المسجل في الوثائق الرسمية الذي يذكر دائماً حتى في
الصحافة مثل جرائد: (أو استادو " الدولة" ،نويتي اي ديا"الليل
والنهار" ، آ غازيتا " الجريدة" ، دياريو دا تاردي "الجريدة المسائية")
وفي محطات الاذاعة عند ادراج وايراد أي خبر عن بيغواسو ،
وحتى في المسائل الأكثر أهمية مثل الفيضانات والسيول الموسمية
ولا ننسى قصيدة الشاعر جيرانالدينو التي قال فيها :

" هطل المطرُ ، هطلَ المطرُ بيغواسو تنغمرُ "

وفي حفلات عيد ميلاد المدينة ، ومباريات كرة القدم ، وحفلات تدشين التحسينات في المدينة كانت تقوم برعايته ويذكر اسم رئيس البلدية ألفريدو سيلفا وتضع كلمة (فيدوكا) بين قوسين . كم من السنوات مضى عليه كرئيس بلدية ؟ من هو الذي يعرف كم له في رئاسة البلدية على وجه اليقين ؟ أليس من بداية الثلاثينات حتى أواسط الأربعينات ؟ هل هذا صحيح ؟ أم يمكن أن يكون كذلك ؟ ألا توجد وسيلة للتأكد ؟ أم ان هناك ما يؤكد ذلك ؟ بالطبع توجد وسائل تثبت ذلك . يكفي الرجوع الى وثائق أرشيف بلدية بيغواسو والعودة الى سجل الوفيات للوقوف على الحقيقة بين الأوراق القديمة والمئة بالغبار ، وسجلات تاريخ الدخول والخروج ، والتسجيلات الخاصة بالوقائع . وما هو مدى أهمية التأكيد على ذلك ؟ وماذا يضيف تأكيد كل هذه المعلومات على ما سبق؟ ففي هذه الحالة ، من الجيد الاصرار بعض الشيء على معرفة تلك المعلومات من أجل الاستفادة في الوقوف على ما كان يمثله فيدوكا أو لا يمثل . لقد بقي في منصبه مدة حياته . نعم بالنسبة لنا – الراوي والقاريء- الأفضل ان نعرف ان فيدوكا استمر طيلة فترة حياته على رأس بلدية بيغواسو ، ويكفي أن نقول ان شخصية فيدوكا أو (ألفريدو سيلفا) نشأت بسبب الحاجة الى ظهور مثل تلك الشخصية في تلك الفترة من الزمن . ولهذا يجب ان نحافظ على سيرتها الحقيقية تجنباً لأي خلط أو تشويش يمكن أن يحصل لجزء مهم من التاريخ العام لمدينة بيغواسو، والتغيرات التي تركت بصمات بارزة شملت أراضي ولاية سانتا كاتارينا، وبالأخص تاريخ بيغواسو التي نحن بصدد التحدث عنها ، وما سوف يتصل بثورة الثلاثين ، وهروب رئيس البلدية ، وصعود سكريتير البلدية بشكل مؤقت حتى تسلم السيد فيدوكا المؤكد . ألم يستمر في البلدية

حتى عام 1945 ؟ لا توجد أي وسيلة للتأكيد على ذلك الا بالعودة الى الأرشيف والوثائق . فم دعونا نعود الى عام 1943 حيث انتقلت عائلة يوسف الى مدينة فلوريانوبوليس ، وبدأت مع هذا الانتقال مرحلة جديدة من مراحل حياة تلك العائلة. إن ألفريدو سيلفا المنتسب للقوات الثورية كما كان يتمم ، لم يقم بالمشاركة النشيطة كما كان يفعل أوليفيو دي أموريم الذي كان زعيما بالفعل بلا منازع أو جوان ديدينيو (في هذه المرحلة كان بالفعل جوان ديدينيو) وهنا يبقى السؤال هل كان جوان ديدينيو هو الحمام الزاجل الذي كان يزود الحركة بالمعلومات ؟ ولكن هل جاءت رئاسة البلدية بشكل سحري في أيدي ألفريدو سيلفا ؟ وبتوافق الآراء ؟ من الممكن ذلك . وهل كان يتمتع بأعلى أهلية لهذا المنصب ؟ ربما . وفي الحقيقة ان متعة الشاعر جيرالدينو انه لا تفوته الفرصة في ابراز أعماله (أما الأعمال غير الجيدة فكان ينسبها الى عديله الذي كان ثقيل اللسان ويتأنيء في كلامه). كان جيرالدينو سيء النية ، وخصم غير نزيه ، ولا يحترم حتى الامور العائلية . ويقول اصحابه بدون تردد وهم كثيرون انه يعيش دائما في حالة كبت . ويضيفون همسا خوفا من لسانه وهجائه الاذع : " هل رأيتم أحدا يشتم ويهجي عديله الرجل الدؤوب على الاعمال الخيرة والجديّة لصالح المجتمع ؟ " وقد وصف تلك الاعمال الجليلة بالأعمال السيئة والرديئة وهو لا يستطيع أن يكون مرتاحا ابدا بتدشين المبولة والمراحيض بالقرب من محله التجاري .

كان فيدوكا سياسيا ماهرا ، وثاقب العقل ، وداهية يعرف كيف يرتب مفاصل التآمر ، ويذهب بعيدا في صفوف الخصوم والأنصار المؤيدين بحيث يتمكن من التفاهم والمقايضة مع الجميع ، فيجذب بعضهم بالوعود البراقة ، ويبعد البعض الآخر بالتجاهل وعدم الاكتراث .

كان ألفريدو سيلفا قليلا ما يكثرث للكلام السموم الذي يصدر عن جيرالدينو ،ويقول : " المهم بالنسبة لي أن أكون ، على الأقل ، دائما مذكورا " ويدعو جيرالدينو دائما الى حضور الاحتفالات ، وكان يزور دائما الزوجات والشقيقات ، ويخفف من المداهمات التفتيشية . ولكن كان رئيس البلدية له ايضا لسعته التي تصيب جيرالدينو ولذلك قال : " ان الغرض من المبولة هو ان تكون بجوار متجر الشاعر " . ثم يغير الموضوع ويبدأ بالتأتأة التي تقطع كلماته فيعلو صوته ، ويتلاشى ، ويعود ، ويختفي ، ويهبط ، ويتلثم . ثم يعود الى وضعه الطبيعي بعد دقائق من تعذيب نفسه وتعذيب المستمعين بتأتأته دون ان يعلموا ما عليهم فعله لمساعدته . وهنا يتخذ الحجة جيرالدينو ، دون هوادة ، على هجاء فيدوكا وينشر خبر تأتأة فيدوكا ويقول : ان تأتأة أو فأفة فيدوكا هي حيلة يستخدمها ليسلسل أفكاره في اللحظات الصعبة ، ومن أجل أن يضبط أفكاره عندما تنقص كلمة أو يحتاج اليها لأكمال الجملة بدون ان يعرف كيف يمضي في حديثه أو ليتخلص من مناقشة موضوع لا يهضمه ولا يستسيغه .

في المخزن الذي هو من دون منازع أفضل محل في القضاء من حيث البضائع المتنوعة فيه ، كان يساعد زوجته ويساعد الموظف العامل وبعض العاملين في الداخل ، وفي بعض الأوقات يهتم بابنه أولمار الذي تعرض الى نقرة طائر في عينه ففقد البصر وأصبح أعورا لا يرى الا في عين واحدة . (أما كيف حصل ذلك ؟ وبأي طريقة ؟ وفي أي وقت ؟ فلا أحد يعرف) . كان الصبي الصغير قويا ، باسم ، حسن المربع ، وهذا ما جعله لا يبالي ، ولا يزعجه شيء الا حين ينادى بأعور العينين ، فيحمر وجهه ، وترف عيونه ، وترتعش شفاهه ، ويرعد ويهدد من يناديه بالأعور ويقول له :

تعال الى هنا لترى من هو الأعور . سأشكوك الى والدي . تبدو انها مشاجرة من غير معنى . انها مشاجرة أطفال لا يلبث بعدها المتخاصمون من ان يعودوا الى هدوئهم وكان شيئاً لم يحصل بينهم . أما شجار أولمار الجدي ، فقد كان يحدث مع جاره الأقرب الى منزله واسمه سلمون ميري . ونادرا اليوم الذي يمر من دون ان يتعاركا ومن غير سباب . ونادرا اليوم الذي ينقضي من غير حصول استفزاز على الأقل ، بينهما . ويظهر انها نوبات نرفزة وتحدي بين الأثنين لا أكثر ولا أقل . ويمكن ان تكون هذه النوبات الاستفزازية هي فقط لعرض القوى ، وبعدها كل شيء يعود الى مجراه ، وسرعان ما يعودا الى الحياة الودية .

العلاقة بينهما تارة جافة ، وأخرى ودية وفي جو محبب . السيد فيدوكا يكرر زيارته لبقالة السيد يوسف . يمكث بعض الوقت ولا يطيل الزيارة يريد معرفة آخر الأخبار ويياشر دائما بنفس السؤال : " ماهي الأخبار الجديدة يا سيد يوسف ؟ كيف حال الأسرة ؟ هل هي بخير ؟ وكيف حال الأشغال ؟ والتجارة ؟ وبغرابة تختفي التأتأة وتخرج الكلمات من فمه بكل وضوح . ثم يبدأ بتعليقاته على الحوادث التي لها علاقة بالادارة في البلدية، والأعمال التي أنجزها، والأشغال التي يحب أن يحققها ، وما هي الأمور التي قام بها من أجل خدمة المجتمع ، مذكرا ببعض الصعوبات الطفيفة التي تظهر من وقت لآخر ، وكذلك بعض الصعوبات التي تتصل باعمال الولاية والدولة . لكن لحسن الحظ ، فان نيورو يقوم بمساعدة جيدة . فجأة يشرد عن أي موضوع لا يتعلق بالقضاء الذي هو رئيس بلديته . همّه ينحصر فقط بالقضاء والخدمات التي عليه ان يقوم بها ، فلا يريد التحدث بمسائل الولاية ولا بمشاكل الدولة ، ولا بحالة البلاد ، حتى ولا يريد التحدث حول الحرب ولا بأحداث ما يجري في العالم . أو ، أليس يحب أن لا يظهر ما بداخله ؟ ولا يرغب في ان يظهر ميوله أو حزبيته ؟

لقد حظي السيد فيدوكا بتأييد ونال ثقة الشعب بالاجماع ، واستحق ثناء الجميع لطريقته في مواجهة المشاكل في محيطه : فبعد ثورة الثلاثين تحالف مع حلف التحرير القومي ، وتحالف ايضا في العام 1937 مع حزب الاصوليين الوطني . ولم يكتف بهذا ، بل تحالف ايضا مع حكومة جيتوليو فارغس الجديدة ومع الذين اشتركوا في الحرب الكبرى . أهم ما كان يشغل السيد فيدوكا هو أن يحافظ على نظافة المدينة ، وصيانتها لتستمر نظيفة . والى جانب نظافة المدينة اهتم بالتربية والتعليم والصحة وبتحسين الطرق العامة . كان يهتم بتأمين دفع رواتب الموظفين والعمال في الوقت المحدد دون تأخير ، مع العلم ان بعض الخدم كان راتبهم قليلا . وهذا حقيقة لا جدال فيها . كل ما كان يقوم به من انجازات ، كان بالنسبة لخصومه شيئا زهيدا . لذلك كان خصمه الشاعر جيرالدينو دائم الاعتراض ويشك في أي عمل يقوم به فيدوكا ، ولا يتعب أو يمل من القول : " بينوا لي أي عمل كبير قام به . فأكبر أعماله هو المبولة . وهذه المبولة بالتأكيد هي عمل ضعيف انجزه ليقال أنه عمل شيئا .

7 - روبرتو غالياني

من السهل وصفه بأنه كان البوهيمي الرئيسي في المدينة والذي لا ينبغي أن يقلد . يقضي الليالي بتناول المشروب الكحولي ، آخذا بذراع أحد أصدقائه وهو يرندح ويغني بايقاع لطيف وصوت جميل من تأليفه أو تأليف آخرين . يسير خلفه وفي اثره شلة من من الرعاع من رفاقه . أسرته ليست سعيدة لأنها لا تراه يقوم بأي نشاط مفيد . كان روبرتو دائما يردد : " أكثر ما تكون الحياة مفيدة عندما تعاش بشكل جيد ، وتمتص بشكل جرعات كاملة . " وهو بالإضافة الى كونه عازفا جيدا على الغيتار ، فان لديه موهبة في تعيين واختيار الديك الذي يربح في المصارعة . يقول بثقة : " إنني أراهن

على أن ذلك الديك الذي يخص فيرمينو سيربح المصارعة " بينما كان أصحابه يشكون بذلك ويقولون ان الديك الآخر هو مؤهل لكسب المصارعة أكثر من ديك فيرمينو . وبالفعل فان مراهنته هي التي تصيب . هو دائما استفزازي في طروحاته ويحب النقاش والجدل . يقول : " ديكي هو الأفضل وحتى عندما لم يكن لديه ديك ، ويكون الديك لأحد معارفه أو غير معارفه . لا يهم ان كان الديك يخص شخصا معروفا لديه أو غير معروف . يخرج من جيبه المال ويقول : "هيا . هيا . راهنوا على أي مبلغ ، فانا مستعد " . وعلى العكس ، فانه يكره مصارعة الكناري على القرميدة وكان يصيح بصوت عالي حين تتصارع طيور الكنار: " انها بربرية ووحشية مصارعة الكناري . انكم اشرار بدون قلوب . أليس عندكم شفقة نحو الطيور المساكين ؟ "

كان هذا التناقض يبدو مختلفا ، وخير مثال على ذلك عندما كان كارلوس غالاردو تتقطع به السبل أثناء الفيضانات في بار وبليار عائلة بورنس ، ويلح أصحاب روبرتو ويقولون له: "هيا بنا روبرتو لنذهب الى البليار ونطلب منه أن يغني لنا." كان روبرتو يقول لهم: ما هذا الكلام الفارغ ؟ ان كارلوس غالاردو مغني رديء ، ويغني بدون ايقاع . ينبغي أن تسمعوا المغني شيكو ألفس و أورلاندو سيلفا ، وهنا مغنون آخرون يجب الاستماع اليهم مثل فيسنتي سيليس تينو . انه لا يغني كما ينبغي، ولكنه يهمهم ويدندن بعض ابيات والعبارات المخلوطة من تأليفه ومن شعر الآخرين . ويغني من شعر جيرالدينو الذي يبدأ القصيدة كما يلي :

" بعد الظهر ، وفي زاوية الطريق الترابية المليئة بالغبار يظهر حاج عجوز

يحمل علامة على جبينه النحيل المضى !

علامة هي ختم طابع أسود فظيع ،

يدل على الناس الذين يعيشون من غير مصير... "

لكنه كان يرفض وبشكل قاطع بغناء أي مقطع من أشعار جوان مندىس .

انه مداوم دؤوب في مقهى وبليار عائلة بورن وهو المكان المفضل للعاطلين عن العمل من أي نوع . والحقيقة ليس فقط المكان المفضل للذين لا عمل لهم ، بل أيضا للذين يحبون لعبة الدومينو . فهو خبير وماهر في هذه اللعبة ، والكل يخشون مواجهته فيها ، حتى ان الشركاء كانوا يتنافسون من أجل مشاركته . أي لعبة أو تحريك للحجارة يقول : " ما هذه السخافة ؟ انتبه يا هذا للعب . الدومينو ليس فقط لعبة حظ . انها بحاجة الى رأس يعمل ويتوقع ويخطط لما سيأتي من اللعب . " كان يحب أيضا لعبة البليار ، ويحب أن يرى الكرات تتدحرج وتتساقط بهدوء .

هنا بالفعل يدخل الحالة الخيالية على مشهد اللعبة ، وتوضع المخططات ، وتصاغ المكائد مثل ما حصل في المباراة التي انتهت وسببت خلافا بين الشركاء وعدم توافق ، وراحوا يستعملون عصي البليار كما لو كانت سيوفا . ألم تستعمل كالسيوف ؟ ألم يقع الخلاف بين الشركاء ؟ أو بين الفضوليين الذين يريدون اعطاء اقتراحات وتلميحات أدت الى خربطة اللعب وتعطيله ؟

اذا كان روبرتو غاليناني قد ترك في الذين عاشوا معه ورافقوه أثرا بارزا بما يتمتع به من شخصية قوية ومثيرة للجدل وحضور لافت . والذين عايشوه لم يبق عندهم سوى القليل من تلك الصورة التي تلاشت مع مرور الوقت ، ولكن يمكن استعادتها بكلمات سريعة ومقتضبة وهي انه : يحب المشروب ، وعازف غيتار بارع ، وصاحب صوت جميل ، ومقاتل قوي ، ولاعب دومينو خبير ، وكذلك يجيد لعبة البليار ، ومخمن ومراهن لامع في مصارعة الديوك ، ويجيد اعداد وطبخ الدجاج بشكل جيّد وخصوصا اذا كانت

التكاليف تترتب على غيره ، وهو فوق ذلك صديق صارم اذا صادق و عدو شرس فظيع حين يعادي .

أما السيدة تمينه ، فانها تحذو حذو سائر الأمهات الأخريات وتشكو دائما وتطلب من أولادها ما يلي : " تجنبوا مرافقة هذا الروبرتو ، فهو لا يصلح للمرافقة ، ومعاشرته لا تجلب الا الأذى " ويؤكد السيد يوسف على كلام الوالدة تمينه بالقول : " نعم كما تقول الوالدة . انه سيء المعاشرة . وأنا أيضا لا أريد أن أراكم أبدا مع ذلك العنصر السيء . "

الكلام عنه يدل دائما على كثرة مساوئه ، وسلوكه يدل عليه وفي أكثر الأحيان تراه محاطا بالنساء . انه حشري ويتدخل في ما يعنيه وفي ما لا يعنيه . وتراه دائما ذهابا وايابا ، ويمكن ملاحظة الروح الشريرة فيه بسهولة وهذا شيء فطري وطبيعي في المتحدات الصغيرة حيث ينتشر القيل والقال ، والأكاذيب والافتراءات ، أو أن هناك شيء يدعو أكثر وأكثر الى الهمهمات والشائعات والخوف من تصرفاته . من يملك الشجاعة الكافية لمواجهته ؟ ألم يبدو روبرتو بعضلاته المفتولة خشنا وباردا ؟

6 - السيد سيرابيون وابنه تانسو

نقطة مفضلة عند هذا الثنائي وهي أنهما دائما مترافقان ، وممسك أحدهما بالآخر خصوصا عندما يخرجان من الحي ويذهبان الى مركز المدينة في طريقهما الى بقالة السيد يوسف . كان سيرابيون يبدأ كلامه بالقول : " أولا يجب أن نزور السيد يوسف الاجنبي الغريب " (أما أمام يوسف فلا يقول الا السيد يوسف) . ويمشي وراءه ولده تانسو بعد ان يهز رأسه بالموافقة . دائما السيد سيرابيون يمشي في المقدمة وقد أصبح ذلك عادة تمارس يوميا . أما ابنه تانسو فكان يتبعه ويمشيان هرولة . والحقيقة انهما يمشيان معا متكيء واحدتهما على الآخر وشبه متكاتفان . دائما يسيران بخطوات تناغمية

معتدلة ودقيقة الإيقاع . قبل ان ينطلقا الى بقالة يوسف يتوقفان بعض الوقت على المرج القريب من الجسر لرؤية ابنة العم والدة بدرو ماريا . كذلك بدرو ماريا مصاب بنفس مرض تانسو ابن سيرابيون . أن ما يميزهما أن أم بدرو ماريا تبدو أنها لا اسم لها . وهذا ما ينطبق على الولد تانسو ابن سيرابيون . وهذان الولدان بدرو ماريا وابن سيرابيون نادرا ما يظهران معا . فقط يلتقيان أحيانا في منزل الأول أو في منزل الآخر . والى جانب كون ترافقهما شيء من السخافة ، إلا انه كان يعتبر شيء ذو معنى . وقد شاع ان لديهم قدرات يمكن ان تؤدي الى المساعدة في اكتشاف الكنوز المدفونة . لقد وصلا للتو، ودخلا محل البقالة، وألقيا التحية على السيد يوسف، ثم صمتا بانتظار أن يبادر يوسف بالحديث . وهكذا بدأ الحديث . سيرابيون رجل من قدامى المقاتلين . يسأله يوسف : "ما الجيد يا سيرابيون؟ قل ولا تخفي شيئا . ماذا حدث للكنز ؟ وما هي أخباره ؟ " ويجيب سيرابيون كما لو كان يعد المشهد عن عمد ، والجواب على طرف لسانه : " لقد تخليت عن كل شيء ، وكذلك أتخلى أيضا عن البحث عن ذلك الكنز اللعين . وتركت تي آداون . ولن أعود الى جيستنو سيلفا ، ولا الى أراووجو فيغيريدو ، وكوكيروس . من الممكن أن يكون شاعرا مجيدا ، ولكن ليست عنده روح تدفعه على مساعدتنا . لقد تخليت عن طلب الترجي من اجل ولدي، وعن كل التسولات اللعينة وغير المجدية ، وتخليت أيضا عن فكرة الاقتناع ان القراصنة قد دفنوا الكنوز في أراضي بلادي . اتمنى ان يكتشف الكنز غيري ويبقى معه . ان تي آداون لا شيء ، ولا قيمة لكلامه ، وكلامه ثرثرة وهراء . يعد ويعد، ولكن لا سبيل الى الوثوق بكلامه . " يصمت سيرابيون قليلا وينظر حوله ، ثم يطلب كأسا مليئا بالعرق لكي يرمي بضع قطرات منه على الأرض للملاك القديس . من يدري ؟ ربما يؤدي له بعض المساعدة . يرشف رشفة من الكأس ، ويصمت قليلا ثم يرشف رشفة أخرى ، وفي الوقت ذاته منتبها الى

ما يقوم به جوزيف (يوسف) ، وأي شخص آخر في المحل . فالكل يعرفون بمجيئه وقد أتى . وبعد ان يصمت قليلا يعاود متابعة الكلام ويقول : " لم أعد اتحمل أكثر من ذلك ، وسأبحث عن آخرين لمساعدتي في اعمال الحفر بشكل أفضل في أرضي ، وقد شجعتني على معاودة الحفر السيد جاستنو سيلفا . فهل سيعطي ذلك جدوى وفائدة ؟ " بعض الحضور يعرفون القصة ويعرفون ان عمليات الحفر كانت غير ناجحة ولم يعثر على أي كنز وكذلك أراووجو فيغيريدو لم ينجح أيضا . هل كان جوزيف هناك ؟

ويعرف القصة ؟ نعم ؟ كان يوسف هناك يستمع الى الحديث ومعه بعضهم . يقول يوسف : أنا أعرف القليل عن جاسينتو سيلفا يا سيرابيون ، سمعت عنه فقط . يقولون ان الجموع كانت تذهب زرافات زرافات ، ومن كل مكان ، الى حيث كان يقيم طلبا للشفاء والتداوي بالأعشاب والحشائش المفيدة للصحة . هذا كل ما أعرف عنه . وسمعت ان أراووجو هو روحاني ويهتم بالعناية بالنفس ويشفي مرض الجسم ، ويعالج الارتباكات والاضطرابات ، ولم أكن أعتقد انه يحسن اكتشاف الكنوز المفقودة والمدفونة في التراب منذ أكثر من قرن من الزمن ، كما أعتقد انه يجب عليكم أن تركزوا وتصروا على تي آداون في هذه الأمور وتعطوه الوقت الكافي للعمل . نعم أنني أرى أن لا أحد يتمتع بكفاءته ومؤهلاته ."

هنا يشعر سسيرابيون بضيق التنفس وبشيء من اليأس ويرشف جرعة أخرى من الكأس . انه يحس بالجوع ويطلب شيئا من المقلبات ليأكل . يفكر ويتأمل ويهز برأسه . يتوكأ عليه ابنه الواقف بجانبه . يبدأ بتناول بعض المقبلات من البسكوت والأقراص المقلية . ممنوع عليه ان يتناول المشروبات الكحولية ، ولكنه يشرب . يقول ان الطفل الصغير الذي يعالجه سوف يشفى . ابنه تانسو يبتسم . يحرك بعض الأشياء التي أمامه والى جانبيه . يتوسل عبثا رشفة من العرق . يطلب أيضا بعض المشروب ولكن دون جدوى . ينظر الى

داخل المتجر ويحدق بعيون جاحظة متورمة في الباب شبه المفتوح الذي يفصل بين المتجر والمنزل الخلفي . يفتح الباب ويدخل منه الى المحل أحد أبناء يوسف الذي نودي عليه من أجل ان يلعب الكرة على الأرض المجاورة للمحل حيث يخيم الكثير من العجر الذين يلفتون انتباه الكثيرين من الناس ويجذبونهم بكل ما يغيرهم ، وخصوصا الصبية والصبايا الذين يريدون رؤية الفتاة العجربة صوفيا التي هي مثال للاغراء .

ان لمسة تانسو الدقيقة للكرة تجعل الجميع يذهلون ويندهشون وذلك بغض النظر عن مدى المسافة التي تبعد عنها ، فهي تذهب بشكل دقيق وتصيب الكرة الأخرى . (هل كان لتانسو في يوم من الأيام أسم معين ؟ هل كان اسمه تانسو أو ابن السيد سيرابيون ؟) ان تانسو لا يخرج ابدا من منزله الا بعد اشارة بالموافقة من والده الذي لا يحب ان يبعد تانسو عن نظره ، ويخشى ان يختفي عنه لأن في نجله تانسو تكمن آخر آماله الأخيرة .

هناك توافق في الآراء ، والجميع يؤكدون : ان الأوراق والمستندات الموجودة في المنزل تؤكد ان سيرابيون لا يتكلم هراء ولا هو مراوغ ، بل ان السفن الاسبانية الملاحقة من السفن الحربية الانكليزية قد رست على مقربة من أراضيهِ . وكانت الوسيلة الوحيدة للنجاة من السفن الانكليزية هي انزال القوارب التي رست على الشاطئء مليئة بالذهب والمجوهرات حيث دفنت في مكان قريب ووضعت بعض العلامات تحت بعض الأشجار التي يمكن ان تكون بغير تأكيد اشجار جابوتيكا (فاكهة برازيلية) . ويظهر انهم بعد ان انتهت الملاحقة عادوا الى المكان ونبشوا تلك الجواهر وأخذوها معهم أو حصل غير ذلك . لا ندري .

في هذا الأمر تنقسم الآراء وتتعارض . البعض يقول ان الاسبانيين عادوا الى المكان ، ولكن لم يجدوا كل الجواهر بل وجدوا قسما منها والبعض الآخر يقول انهم عادوا لنبش الذهب ولم يجدوا شيئا .

وآخرون يقولون انهم عادوا بعد أن أغرق الإنكليز مراكبهم ونصبوا للزوارق العائدة كمينا في المياه ، ولا أحد يعرف ماذا جرى للزوارق هل سقطت ؟ أم عثر عليها أحد ؟ وكيف عثر عليها ؟ الحقيقة ان قصة الزوارق الخشبية المملوؤة بالذهب والاحجار الكريمة تثير مخيلة جميع الذين يحلمون بالاكشاف . وقد اقترح العديد من الناس على سيرابيون ان يسمح لهم بمساعدته ، ولكن سيرابيون دائما كان يرفض المساعدة من أي شخص . فهناك اجماع من الناس على ان الوحيد الذي يستطيع الوصول الى تلك الزوارق الغرقى والمليئة بالذهب والجواهر هو ذلك الولد الساذج الأبله أي نجل سيرابيون الذي كان يقوم بحركات غريبة ويصاب بقشعريرة كالبرداء . كما انه يظل صامتا هادئا منزويا في زاويته . ومن دون سبب واضح، يبدأ جسمه بالارتجاف والتأرجح والاهتزاز فيقول الناس : لقد حان الوقت ويتزاحم الجميع مهرولين الى الأرض حيث يعتقدون ان الكنز مدفون فيها وينادون تي آداون الذي لا يمكن الاستغناء عن حضوره في هذا الوقت . يصل تي آداون ويضع قضيب رفيع من الصفصاف في يد تانسون نجل سيرابيون ويبدأ باعطائه التوجيهات ليسير من جهة الى أخرى . يقول له : " قف . أخفض رأسك . انحني . انتصب وأرفع رأسك . امش باتجاه ذلك الجانب . سر على مهل . الصبي المنوم مغناطيسيا يطيع الأوامر . يسير متلعبا به كما يريد المنوم . يمشي بايحاء الساحر الكهل بدون اي اعتراض او خلل . يقول له المنوم : توقف قليلا . خذ نفسا وتنفس بعمق . أغمض عينيك . امش الى الجهة اليمنى . لا تفتح عينيك . اجعل عيونك دائما مغمضمة . الآن امش الى الجهة اليسرى . هكذا ، هكذا وضعك جيد . لا تتحرك . " الآن يصل تانسو الى تحت شجرة تين مورقة . قضيب الصفصاف الذي بيد تانسو يصاب بشيء من الجنون ويبدأ بالاهتزاز والارتجاف حتى يصل في الاخير

الى نقطة معينة يصبح فيها القضيب مستقرا وثابتا في يد الصبي ،
وذلك حيث يوجد المكان المقصود والمدفون فيه الكنز .
هنا بيتسم تي آداون مشيرا الى المكان دون حاجة الى الكلام ، فيفهم
سيرابيون من الاشارة ويصيح : " هنا ، هنا سنقوم بالحفر ايها
الرجال . " ويبدأ الحفر في حقل من الارض واسعة التضاريس
وتبدو هذه الارض كلها محفورة تقريبا . ولم يمض وقت طويل على
أعمال الحفر حتى بدأ العمال باقتلاع شجرة الجابوتيكابا الموجودة في
الأرض . لكن حتى هذه اللحظة ، كان كل شيء من الحفريات بدون
جدوى ولم يعثروا على شيء . ولكن هذا غير كافي لقطع الأمل ،
فالأمل دائما يتجدد . تي آداون لم يكن ليفهم ما حدث ، فهو لم يخفق
أبدا في أعماله ودائما اعماله تكلل بالنجاح .
هنا يطلق الشاعر جيرالدينو شعره ويقول :
" لن يصل هذا السيرابيون الى الملك أبداً "

9 - لاورو بربيرو

هو شاب أكبر سنا بقليل من الشبان الذين يتجمعون هناك . كان
بحاجة ان يعمل مبكرا . يعيش حياته بالاعتماد على الآخرين . من
النادر ان يندمج وينسجم مع غيره . فالجميع يحتفلون ويشربون بنهم
ويسهرون حتى الساعات المتأخرة من الليل ويغنون ويسمعون
الموسيقى ، أما هو ، فان اضعته تجده في محل البليار ، وحيث
مصارعة الديوك أو بالقرب من القرميدة حيث يجري عراك الكناري
وأكثر حماسه وسعادته الغامرة هي مع الأوهام والتلفيقات ،
والتخييلات ، والأحلام . ان صالون الحلاقة في المدينة هو المركز
الرئيسي للقاءات والدردشات ، وتبجح الفتيان ومفاخراتهم . ولاورو
يرافق الجميع بحماس من خلال الروايات والقصص الخيالية كما لو
كان الجميع يرون ويشاهدون ، وكما يمكن أن يشاركوا فيها ، أو في

جزء منها . كيف تظهر المشاركة ؟ واحد يبدأ بالحكاية، والآخرون يكملون سردها وتفاصيلها .

بعض الناس يضربون الكرة في الجانب المجاور ، وآخرون من الأوباش في جانب آخر يحملون بعض الرزم . وهناك بعض الناس يسبحون ويستحمون في النهر القريب . والذي يحصل على بعض المال يذهب للمراهنة في مصارعة الديوك ويراهن على ديك جوكا، وكنار أورلاندو هو جيد فقط في معاركة النباتات ، وهذا ليس مسليا أما في لعبة الدومينو، فروبرتو هو سيد اللعبة الذي لم يخسر ولا مرة واحدة . لقد أخذ وانجذب بصدر وحلمة هيلانة ، فما أجمله من صدر . يتردد قليلا ثم يوافق بنعم . أما أدلبيرتو فلم يشفى كليا بعد من حماقة غطسه في النهر ، وهو من جديد يتحدث عن تلك المرأة المتزوجة والمجنونة به والتي لم يتعب ولم يمل من معاشرتها وعلاقته الحميمة بها . أما زوجها فغبي الى حد كبير ويزهو ويفتخر بها وصحبته لعشيقها . اما سليمان مرعي فهو من البارعين في التجول ويشترى افضل ما يصادفه في تجواله . أما ألدو ساغاز ابن الشقيق الأكبر ، فقد جاء من غانشو ومعه أخبار انهم في غانشو ينتظرون مباراة في كرة القدم ، وكذلك حفلة صيد وأكل سمك . فجأة يمر الوقت ويأتي الجميع الى الساحة الرئيسية في المدينة . الفتيات كالزهور الزاهية يتنقلن في الساحة ، يُثرن ويجذبن رغبة الشباب ، وكل شاب يتمنى لو هذه او تلك او اية واحدة من نصيبه . يتنقلن زرافات زرافات وحديث الشباب هو فقط عنهن ، فهن الموضوع الرئيسي للحديث ولا موضوع سواه . لقد نسي الجميع كرة القدم ، ومصارعة الديوك ، والسباحة في النهر ، والذهاب الى سان ميغال والغانشو حيث وصل للتو الزورق الذي حمل فريق كرة القدم للمباراة في تيجوكاس . الجميع يعرفون نتيجة المباراة : اما التعادل واما الخسارة ، وأما الفوز فلا يمكن . تعادل أو خسارة دائما نتيجة اللعب الودي في تلك المدينة لفريقهم . ولا يمكن نسيان حفل

أكل السمك هناك ، كما ان الفوز في اللعب هناك قد يؤدي الى الغضب والشجار والنظرات الغاضبة والتهديد بالسكاكين ...
صالون الحلاقة في المبنى الذي يقع بين مكتبة الضريير جوان مهندس ومركز خياطة مفوض الشرطة جوان ديدينيو . وفي كلا الاتجاهين هناك مدخل الى آفاق جديدة ، والى عالم لم يمس ولم يطأه الانسان بعد . متى يمكن الوصول اليه ؟ وهل يمكن الوصول اليه ؟ الحلاق لاورو هو في المدينة رمز معروف ومشهور ، وشخصيته هي دائما نقطة وصل بين الممكن والمستحيل ، وبين الحلم والواقع .

الفصل التاسع والعشرون

الوفيات

لقد حان الوقت ولم يعد هناك مجال للتسويق ، ومن الضروري مواجهة الموضوع . لا توجد أي وسيلة للتحايل والالتفاف . انها الفكرة نفسها التي تستحوذ على فكر الانسان وتعود كالوسواس الى الظهور بكل قوة . فليس الاموات هم الذين يموتون ، وانما نحن الأحياء الذين يموتون بالنسبة للاموات . لقد تركنا أن نكون أحياء ، والأموات هم الذين يستمرون عائشين في ذاكرتنا وفي معاناتنا . انهم ما زالوا عائشين وحاضرين ، وأكثر من ذلك ، فان جزءاً منا قد ذهب معهم . وبشكل أفضل ، فان جزءاً منهم قد دخل وامتزج في حياتنا .

وإذا كانت الوالدة تمينه تتردد وتحجم عن الكلام عن الموت خشية أن يثير فيها لواعج الأسى ، وتؤثر عليها صدمة وفاة شقيقها ، فان الوالد يوسف أو (جوزيف) يردد دائماً شعر الشاعر العربي فوزي معلوف :

" نحن عبید الحياة ، وعبید الموت أيضا " في محاولة لتسكين حزنها ، ولتعتاد على ذلك . وهو يضيف أيضا عبارة له وربما كان قد صاغها في وقت سابق يقول فيها :

" ليس هناك سوى طريقة واحدة لكي لا نموت ، وهي أن لا نولد "

أو يردد ما اعتاد على تكراره دائماً من شعر شاعره المحبوب عمر الخيام الذي يقول :

" تعال تعال مع الخيام العجوز، واترك الحكماء،
فلا يوجد في الحياة الا حقيقة واحدة فقط :

الحياة تجري وهذا هو الحق ،
وما عدا ذلك لا وجود الا الأكاذيب .
تتفتح الزهرة ، ثم تموت بعد ذلك الى الأبد ."

وبالتأكيد لو كانوا يعرفون بعض مقاطع من قصيدة الشاعر فرناندو
بيسوا ، لأضافوا هذا المقطع :

" اذا كانوا بعد موتي يريدون كتابة سيرتي الذاتية ،
فليس هناك شيء يستحق الذكر
سوى تاريخين فقط : ولادتي ، وموتي .
وبين الولادة والموت كل الأيام كانت أيامي ."

لقد كانت صدمة البداية هي نبأ وفاة حنا (جوان) ، وتلك الصدمة
تركت أثرها الملحوظ على حياة تمينه، وكانت نقطة انهيار لها . فهي
لا تنقطع عن البكاء لرحيله . أما بالنسبة لأولاد شقيقته فموته كان
غير مفهوم ولا يمكن فهمه . لقد استمر بكاؤها ، على نطاق واسع،
لأيام ، وأسابيع ، وربما شهور ولم تفتقر همتها في ابداء حزنها .
تحتفظ بملابسه السوداء وتخبئها في احدى الزويا . الوالد يوسف
لا يتوقف عن محاولة تعزيتها وتهدئة خاطرها ، ولكن كل ذلك يذهب
عبثا وبدون طائل . فالحزن سيطر عليها بشكل كبير وجعل حركة
المنزل العادية تتوقف ، والحياة تتوقف . وجعل الأسئلة وعلامات
الاستفهام بدون أي جواب . دخول الأصدقاء والأقارب الى المنزل
وجلوهم في غرفة الاستقبال صار شيئا ثقيلًا في ذلك الجو الخانق

الذي يسيطر على الجميع . صار تناول فنجان القهوة يبدو وكأنه بدون مذاق ولا شيء يتردد سوى حديث الذكريات مثل : هل تذكر ذلك النسيب ؟ هل تتذكر ذلك الخال الذي رحل ؟ هل تتذكرون زيارته وعناقه ؟ هل تتذكرون حنا ؟ لقد كان لطيفا ويحب الجميع . وتستمر عبارات التعزية وتستمر تنهدات الوالدة تمينه بغير انقطاع كلما ذكر أمامها شقيقها او تذكرته . تحاول ان تظهر بمظهر القوة والحيوية ولكنها لا تستطيع فتعود الى عزلتها في غرفتها هربا من مضايقة أطفالها الذين يطرحون عليها بعض الأسئلة الثقيلة مثل : "ماما ،قولي لنا شيئا عن خالنا . لقد كان فتى صغيرا . اشرحي لنا كيف رحل . كيف مات وهو صغير . أليس الموت هو شيء من أشياء الشيخوخة ؟ لكن خال الأطفال الذي ترك أثرا ساحرا في نفوس اولاد شقيقته خلال تلك الزيارة القصيرة لمدينة بيغواسو ، قد تحول الآن الى شخصية خافتة ، غامضة ،عابرة ، وغير واقعية تقريبا بعد أن ذهبت واختفت هناك في تلك المدينة البعيدة الغامضة بورتو أليغري . ان الحنين هو الشيء الوحيد الذي يحتفظون به ، ولا يزالون يذكرون الحاحه على التجوال معه والقيام بالنزهة بعيدا عن الوالدين : يوسف وتمينه . يتذكرون أيضا ذهابهم الى السيرك لمشاهدة الألعاب البهلوانية ، وشرائه الحلوى والساكر لهم غير مبالي بتنبهات شقيقته واحتجاجاتها عندما كانت تقول : انك ستفسد الأطفال بأفعالك هذه ،فيطلق ضحكته المتواصلة. إن تأثير الموت هو موت بعينه بكل ما يحمله من أنقال . وحضور الموت هو الحضور الذي لا مفر منه حتى ولو داهم الشقيق الأصغر ولا أحد يستطيع الفرار منه . الوالدة تمينه متعلقة جدا الآن بطفلها الأصغر

سمير الذي يتنافسون اخوته للعب معه ويحيطون به من كل جانب والتملق اليه مما يجعل الوالدة المتعلقة بطفلها الصغير تشكو من حركات اطفالها وتردد ما كانت تطلبه من شقيقها حنا وتقول لأطفالها : اتركوا هذه الطفل بسلام . لا تزعجوه . ان أعمالكم هذه ستفسده . اتركوه بسلام وحده . يتدخل الأب يوسف ويقول لها: اتركهم يلعبون يا امرأة . هل أصابتك الغيرة يا تمينه ؟ دعهم يلعبون مع سمير .

- 1

لماذا اختار حنا مدينة بورتو أليغري التي لا يمكن تصورها ؟ وهل كان اختياره لها والذهاب إليها هو مجرد ارتياحه للاسم ؟ وهذا الاسم لايعني شيئاً سوى انه مجرد اسم كأي اسم آخر، وهو مثلاً أقل أهمية من اسم ريو دي جانييرو ، وحتى أقل من اسم سان باولو الذي هو اكبر معقل للجالية العربية حيث للجميع ، على الأقل، فكرة عنهما . أليس كذلك فيهما بعض الأنساب والأقارب الذين كان للعائلة المهاجرة الى البرازيل اتصالات ؟ والذين دعو حنا لزيارتهم والعمل هناك ؟ وحيث ان امكانية العمل هناك أكثر واقعية وأكثر فائدة ؟ وخصوصاً في العمل التجاري بدلاً من ان يبقى مجرد مساعد لزوج شقيقته في بقالته ؟

لو وافق على ذلك لكان نجاح في الحصول على وظيفة ثابتة وتزوج من فتاة هناك ؟ لقد تعب وهو يشتغل كمساعد في البقالة ، وكمساعد في بناء الكنيسة في بلدة سان بيدرو دي الكانتارا بدون أجر حتى ولا شكر ، ولم يكسب سوى المضايقات التي ليس لها أي سبب أو

تفسير سوى خطبة الكاهن في عظة يوم الأحد حيث ابتعد عنه وعن يوسف اكثر الناس ولم يعودوا الى دخول البقالة والشراء من محله واصبح منبوذا من قبل الجميع وحتى الاصدقاء ، وجعلته وأسرتة يتخلون عن البداية الواعدة التي لاحت لهم في بداية عملهم في البلدة . واضطرت يوسف وأسرتة الى مغادرة البلدة . ألم يغادروها وما عادوا اليها ابدا ؟ ألم يصل الخلاف وينقطع خيط اتصال العائلة في راشاديل وبعدها كان الذهاب والانتقال الى بيغواسو الفوقا ؟ ليست تلك الحالة التي وصلت اليها الأسرة في راشاديل هي التي أدت الى تغيير سير حياة العائلة على الأرجح ؟ ولماذا حدث كل ذلك ؟ وعلى أي اساس ؟

مهما حاول الأولاد وجاهدوا لاستيضاح ما حدث ، فان كل ذلك يبقى غامضا ، ولا يزال هذا الغموض قائما الى الآن . ولكن ألم تظل الأسباب بالنسبة للوالدة تمينه ، في بعض اللحظات ، واضحة وصريحة ؟ أما الوالد يوسف فقد بقي بعيدا عمدا عن الموضوع يحاول التخفيف من حدة التوتر . لكن ألم يبقى بعض الشيء من الاستياء ؟ أي استياء؟ مستحيل! أو من المستحيل معرفة السبب؟ وكما تذهب الريح الشديدة بالاوراق اليابسة ، وتنظف الارض بهبوبها ، فقد اختفت من الذاكرة جميع الاسباب التي أدت الى الرحيل حتى وصول حنا المفاجئ الى بيغواسو وبقائه تلك اللحظات ومن ثم عودته غير المتوقعة الى بورتو أليغري . كانت رسائل حنا النادرة تصل باللغة العربية الى شقيقته تمينه، فتقرأها بشوق كبير حيث كان يسرد فيها ما يراه في تلك المدينة الكبيرة ، وما كان يقوم به من أعمال أو يريد القيام به ، ولقائه والاجتماع بمواطنيه الذين كانوا

يساعدونه ، ويوجهونه في عمله ويرشدونه . كانت تمينه تقرأ رسائل شقيقها بتمعن وبطيء وهدوء ، ثم تعود الى قرائتها مرات ، وتسعى وتحاول ان تذهب الى ما هو أبعد مما هو مكتوب في الرسالة ، بينما كان أطفالها يظهرون كل انتباه ، ويطلبون من والدتهم ان تطلب من خالهم العودة فهم بشوق اليه ، في الوقت الذي كانت فيه تشرد بعيدا وتفكر بذلك الشقيق حنا الذي كان يساعدها على الاهتمام بالاطفال والذي كان أصغر منها . تحن لرؤيته كما تحن لرؤية اشقائها الآخرين في لبنان أو في الولايات المتحدة الاميركية . ومع هذه الافكار والخواطر كانت تحب ايضا ان تعاود الاتصال بهم والكتابة اليهم ، وربما كان السفر اليهم عن طريق المكسيك . ان الوصول عن طريق المكسيك هو أكثر صعوبة، ولكن ليس مستحيلا . الآن تأمل تمينه ان تكتشف وتلتقي بوالدها الذي اختفى منذ زمن ولم تعرف اخباره ولا شيء سوى ذكرى غامضة في الذاكرة حيث غادر البلاد وهاجر، من أجل تحسين مستوى حياته الى الأرجنتين في نفس الوقت وفي نفس الرحلة التي هاجرت سعدى شقيقة يوسف برفقة زوجها جوزيف . كان يحلم والد تمينه عندما غادر البلاد ان يجمع في البداية بعض المال وعندما تتحسن أحواله قليلا أن يرسل لعائلته من أجل ان تلحق به . لكن منذ ذلك الحين شحت الرسائل ، وكثرت الاشاعات في تلك القرى الصغيرة ، وراج القيل والقال في أميون عنه . الاخبار عن والد المسكينة تمينه انه تزوج في الأرجنتين وعنده زوجة وأطفال . ويبدو انه بعد أن تزوج وصار عنده زوجة جديدة لا يريد أن يرسل أي خبر أو يتصل بعائلته . ناهيك عن انه لا ينوي تقديم اي مساعدة لاسرته الأولى . انه جاحد ، وقاسي وبدون قلب .

ظلت الأمور على ما هي عليه حتى استلمت تمينه رسالة من أشقائها في الولايات المتحدة الأميركية تحمل عنوان والدها في الأرجنتين ، فابتهجت للخبر واندفعت فوراً الى الكتابة بفرح كبير الى والدها وأرسلت الرسالة الى العنوان الذي استلمته من اخوتها الى ريو كوارتو في الأرجنتين . بعد مدة وجيزة وصل الجواب من الوالد ففرح الاطفال بجواب جدهم وقالوا : الآن يمكن ان نثبت لزملائنا ان لنا جد ونفاخر امامهم ، ويبدأون بالتباهي امام زملائهم ان لهم جد وقيم في الأرجنتين . وترسل تمينه الى والدها ان يرسل لها صورته لأن له أحفاد يريدون ان يتعرفوا على جدهم ، وتكرر طلباتها من دون ان يصلها أي صورة . لا بأس . لقد أصبح معها عنوان والدها وبإمكانها ان تتصل به وتواصل رسائلها اليه فتكتب عن أطفالها كيف يكبرون ، وكيف هم بصحة جيدة ، وكيف ان فرحهم كان عارماً عندما علموا ان لهم جد في الأرجنتين ، وكيف انهم يفاخرون به أمام زملائهم . وتتمنى ان يأتي يوم يأتي هو فيه الى بيغواسو ، أو انها تستطيع ان تسافر في يوم من الأيام الى حيث يقيم والدها في ريو كوارتو . وتقول في رسالتها الى والدها عسى ان يكون يوم لقائنا قريباً ، ومكان اقامتك ليس بعيداً جداً عنا فهو على الأقل أقرب بدون شك من بلدة أميون . لكن الذي لم يكن يعرف ان الوالد يسكن في ريو كوارتو هو شقيقها حنا الذي كان قد مات وكان موته ميتة غريبة .

الوالدان لم يتعبا ولم يملا من الحديث عن الخال حنا : " الخال في بورتو أليغري . الخال لم يرسل أي أخبار عنه . الخال تأخر في رد الجواب . الخال اتى الى بيغواسو . الخال لم يبق الا قليلاً من الوقت في بيغواسو . الخال عنده شغل في بورتو أليغري . للخال مستقبل

واعد في بورتو اليغري . الخال سافر . الخال سيرسل قريبا رسالة عند وصوله الى بورتو أليغري . الخال له خطيبة في بورتو اليغري وسوف يرسل لنا عندما يريد تحديد موعد الزواج . "

فجأة تصل رسالة من بورتو أليغري ، ولكنها ليس من حنا . ولدى فض الرسالة تصاب تمينه بصدمة كبيرة ، فيحاول الوالد يوسف تشجيعها ويقول لها : " اذهبي الى بورتو أليغري وتأكدي من ذلك فالخبر مبالغ فيه " . تشعر تمينة بخوف كبير ، تحضّر نفسها بسرعة وتسافر الى بورتو أليغري . لكنها لا تتأخر في سفرها ، بل تعود الى بيغواسو مرتدية الثياب السوداء، منهوكة القوى ، غائرة العينين ، ناحبة ، متأوهة ، ساخطة وتعانق زوجها قائلة : " كيف حدثت هذه المصيبة يا يوسف ؟ هذه الفاجعة ؟ التعتير ؟ " وتلتفت الى أطفالها باكية وتقول لهم : " خالكم . آه . لقد مات خالكم " وتمد يدها لتأخذ سكينها كانت في يد ابنها البكر كان قد أعطاه اياها خاله كهدية ، ولم يتركها ابدا منذ كسبها من خاله . وكأنها بالنسبة له تعويذة او تميمة . وتبدأ المشادة بينها وبين ابنها . تريد أن تأخذ السكين من يده بأي طريقة ، وتواصل ضغطها على يده وشدها وعلى وجهها امارات اليأس والحزن بدون ان يعرف الولد سببا لذلك . تتذكر كيف كان شقيقها يحرك تلك السكين بأصابعه ويفتلها حول اصبعه . تريد ان تبقي على هذه السكين معها لأنها تحس ان شيئا من شقيقها هو في هذه السكين ولا تريد ان تفقدها يوما . وفي ذات يوم بينما كانت تنظر الى الحائط داخل البيت أحست بشيء سحري يجمعها بشقيقها ، وكأنه بعث وعاد الى الحياة من جديد .

قليلا (أو لا شيء) يجدي في محاولة استخدام العقل وممارسة الترشيد : فهناك وفيتان لا انفصال ولا يمكن التجزئة بينهما وهما وفاة الطفل الأصغر في سن الثانية عشرة ، ووفاة الوالدة التي لم تصل الى السنة الخمسين من عمرها . وأي محاولة تهدف الى الفصل بين هاتين الوفتين هي محاولة عقيمة تذهب هباء . فهما مترابطتان فيما بينهما ومندمجتان ومتفاعلتان لتكون كل وفاة منهما متلازمة بشكل طبيعي مع الأخرى من دون اية شكوك ناتجة عن الوفاة الأخرى .

عيد ميلاد الطفل الأصغر سمير يقترب ، وداء التقيح الخبيث الذي ابتلي به يرفض الشفاء وكذلك داء التورم المؤلم الذي أصيب به . فالأم قد استعملت جميع انواع الأدوية الموصوفة طبيا ، وأدوية الصيدليات المقترحة، ووصفات الجيران ، وآراء الأنسباء والأقارب والمجربين ،حتى وصل الأمر الى ان بعض الأقارب والأصدقاء قالوا لها : لا يوجد يا سيدة تمينة وسيلة سوى الجراحة وهي عملية بسيطة وسريعة يتم بعدها تصريف القيح ، ويشفى من التقيح . وبامكانك استشارة الطبيب في ذلك . لاقى الاقتراح قبولا فذهبت الى الطبيب وشرحت له الحالة ،فعين لها موعدا في الغد الباكر من أجل اجراء عملية جراحية بسيطة في 18 كانون الأول في مستشفى الرحمة الخيري .

في وقت لاحق . ودائما في وقت لاحق متأخر ، يبدأ الناس في التفكير بموضوعية . ويروحون ينتقدون ويؤنبون. والكل يلومون

ويقولون : "انه لم يكن بحاجة الى هذه العملية ، وكان من اللازم التريث قبل اجرائها ، ومن الأفضل لو بقي من غير عملية " وهذا ما كان يزيد الكرب على تمينه ، ويضيف جرعات وجرعات جديدة من الحزن والشعور بالذنب . انها هي التي أصرت على اجراء العملية الجراحية . ولذلك تبدأ الهواجس تعتمل في داخلها مثل : " لماذا الاصرار على تلك العملية ؟ لم يكن لها ضرورة . وحالة الولد كانت حتى أحسن بدونها . كان الألم أخف . وكان التورم أقل .

لماذا لم نترك الأمور على حالها ؟ ولماذا لم ندع الطبيعة تأخذ مجراها ؟ فمهما كان قطع الجرح صغير ، فانه يبقى قطع . وان القطع الجراحي في اعضاء الجسم الانساني هو عنف ضد هذا الجسم . ثم ان الطفل ما زال في سن تساعد على التعافي واستعادة صحته . يكفي ان يعالج بعناية واهتمام واستعمال المراهم . والابن الاكبر كان مشككا ولم يستطع نسيان ذلك الحلم الذي كان يطارده في الليل قبل اجراء العملية الجراحية . الحلم الذي رواه فيما بعد بلامبالاة . الحلم الذي سوف يترك أثرا قويا عليه طيلة حياته المتبقية ، ويعذبه عذابا مريرا . الحلم الذي عاشه وتراءى أمامه أنه كان وشقيقه الأصغر على حافة هاويه يلعبان ويتحادثان وغير منتبهين في عصر يوم اكفهرت فيه السماء ، وتلبدت فيه الغيوم المخيفة، وهاجت عناصر الطبيعة فزلق الطفل الأصغر وسقط في تلك الهاوية وهو يصرخ في حالة من اليأس : امسك بي يا أخي . اعطني يدك مكررا صرخاته وقد صار بعيدا ، ويده أيضا ممدودة . واضاف شقيقه أنه كان يسمع صدى كلام غير مفهوم ، ويتخيل صياحات تتردد ، وصوت يتلاشى ويختفي ، فاستيقظ من الحلم والعرق يتصبب كما لو كان خارجا

من حمام . قال: " لم أعد أستطيع النوم ، فنهضت باكرا في ذلك اليوم الضبابي المشبع بالرذاذ لأرى شقيقي الأصغر يخرج من البيت باتجاه المستشفى في حين كنت اتوجه الى متجر البقالة . "

منذ تلك اللحظة كل شيء تشوش وتخربط . ولم يتأخر الوقت ولم يطل حتى سمعت الوالدة تمينه صدمة سيارة امام المتجر في شارع بادري ميغالينيو (شارع الخوري ميغال) بينما كانت تلبى طلبات احد الزبائن ، فطلبت من ابنها ان يخرج ليرى ما حدث . خرج من باب المحل واقترب من السيارة ليشهد مشهدا فظيعا يفوق التصور ،

ويسمع كلمات لا يمكن ان تنسى . لقد وقع الحادث بالقرب من المحل وفي الجهة الأخرى من الشارع . ولما اجتاز الشارع باتجاه الجانب الآخر ودار حول السيارة من الأمام الى الوري فطرقت مسامعه كلمات لعينة ببرودة خالصة وهي انه حدث حادث مأساوي وان شقيقه مات على الطاولة قبل ان تجرى له العملية الجراحية ، وقيل له أيضا : " اذهب واخبر أمك بحذر وعناية انه توفي اثناء التخدير وقد تدفق الكلوروفورم من انفه من دون التمكن من السيطرة على النزيف " ، واضاف سائق التوكسي انه كان هناك في المستشفى ينتظر أحد الركاب ، وقد طلبوا منه في المستشفى أن يأتي الى هنا على وجه السرعة لنقل الخبر .

حتى يومنا هذا لا يزال كل ما تبقى يظهر أكثر تعقيدا ، ودون أدراك أي شيء من ذلك وكأنه كابوس جماعي يهيمن على الجميع . الجسد مغطى في منزل العائلة في حيّ المزرعة الذي يحمل اسم حيّ مزرعة اسبانيا ، شارع لاسيردا كوتينيو . الأنسباء والأقارب

والأصدقاء يتوافدون لمعرفة ما حدث وكيف حدث؟ . ومن يدري ؟
فقد يكون أتى الى مكان الجثة أصدقاؤه في المدرسة وزملاؤه في
الدراسة ، وجيرانه في الحيّ . لا يزال الجميع غير مصدقين بما
حصل ، ولا أحد يريد أن يصدق ما رأى . الشائعات تنتشر في انحاء
البلدة بين المصدقين للخبر وغير المصدقين . واحد يقول لقد حدثت
الوفاة فعلا . وآخر يقول : ولكن كيف حدثت ؟ وما سبب ؟ آخر
يتساءل: من يمكنه أن يشرح كيف حصلت وفاة الطفل ؟ وأين ؟
وتتكاثر الأسئلة ويتزايد المتحدثون فيقول أحدهم : لقد توفي الطفل
اثناء اجراء عملية جراحية بسيطة له في المستشفى وكانت خلال قيام
الطبيب بعملية الشق الدملة المتورمة . يا له من طبيب غبي وتنبل !
يقول شخص آخر : لقد حصل انهيار ووهن للطفل . فيسأله بعض
الحاضرين : أي انهيار ؟ وكيف حصل ؟ وهل أعطوا للطفل الذي
كان يتمتع بصحة جيدة مخدرا بطريقة خاطئة ؟ لقد كان ذلك الطفل
طفلا مجتهدا ومحبوبا . أي مخدر هذا الذي أعطي للطفل فقتله؟! ان
هذا لا يصدقوهو محير أيضا ويدعو الى الشك والذهول. لقد قيل ان
الطبيب لم يحضر لاجراء العملية ، بل اعتبرها عملية بسيطة واتصل
بشخص آخر ليحل محله ويجري العملية ، فطمأنه هذا وقال ليس ما
يدع الى القلق . هكذا قضى الطفل الأصغر سمير نحبه وهو لم
يتجاوز الثانية عشر من العمر . كانت الابتسامة لا تفارق ثغره كما
يظهر في الصورة التي التقطت له وهو يرتدي زيه المدرسي الذي
حمله معه . لقد سبب موت سمير انهيارا لوالدته تمينه وحزنا كبيرا
دفعها الى القول دائما : " من الكذب ان نقول ان الوقت كفيل بامحاء
كل شيء ، وان الزمن هو أفضل دواء " .

لقد تغيرت تميّنه كلياً بعد موت طفلها الأصغر ولم تتعاف أو ترجع إلى حالتها السابقة بعد فقد طفلها أبداً . كانت تميّنه في الحقيقة أقوى أعضاء الأسرة التي كانت قبلاً تشجع الجميع وتستنهض همه الوالد يوسف ، وتعرف كيف تتصدى للأزمات والمصائب وتتعافى منها وتشجع أيضاً الأطفال بلا كلل وبكل جهد . أما الآن فإن تميّنه تلوم نفسها وتوبخها وتنزوي لوحدها لتبكي وتتوح . وترى نفسها أنها تكافح عبثاً وبلا طائل . أنها محبطة وتريد أن تهرب من الواقع إلى اللامبالاة وإلى اليأس . تعيش بدون قوة تساعد على الحياة .

فجأة تبدو وكأنها تعود إلى تلك الأيام التي سبقت المأساة ، وتتمم أمام نفسها بكلمات قليلة: لا أيّ عملية ؟ لا لتلك العملية الجراحية . انها دملة . كانت يمكن أن تشفى بوسيلة أخرى . بلصقة . بكمادة . بمرهم . بلصقة شاي . بأي شيء آخر .

يقال أن حالتها الخيال والواقعية هما اللتان تميّزان الشرقيين بامتياز في أغلب المرات التي يجدون أنفسهم فيها أمام تعادل ما بين الخيال والواقع . ويمكن إضافة جرعة أو لمحة من القدرية مثل القول : انه مكتوب ، والمكتوب لا مهرب منه . وهذا ينطبق على حالة الأم تميّنه ويمكن تأكيده ، ولكن من الصعب تقرير ما إذا كانت حالة الخيال هي التي كانت تسيطر عليها أو الواقعية . فهي كانت تمر بلحظات تشرد فيها وتهيم ، فتري عيونها حالمة ، ونفسها تسرح بعيدة عن الواقع ، وعقلها شارداً عن الحقيقة . وفي غير لحظات كانت مباشرة ، وموضوعية ، وعملية ، وتشكو من زوجها وأولادها وتقول لهم : اتركوا الأوهام والتخيلات فكلها هراء وكلام فارغ . وتقول أيضاً : أن العالم الذي نعيش فيه هو عالم صعب وقاسي ، ومن الضروري

ان نتعلم كيف نواجهه وليس ان نخاف منه . وينبغي علينا تزويجه وتدجينه ، فالعالم قاسي وعقوق ولا تكافؤ أو مساواة فيه ولا يستسلم الا للأقوياء . ولا يخضع دائما الا للذين هم الأفضل . والآن من غير المجدي ان نطلب من الوالدة تمينه ما كانت تبشّر به وتردده من مواعظ التشجيع . فالقدر هو الذي يهيمن ويسود ويتحكم بالجسد . والصحيح ان الأم تمينه بدأت تموت في اللحظة ذاتها التي مات فيها طفلها الأصغر .

الأيام تمر وتتراكم يوما بعد يوم حيث الأم تمينه دائما مشغولة ، ودائما تعمل وتجاهد يوما في اثر يوم، بدون كلل او ملل . ترعى أولادها بعناية ، وتعني بزوجها الذي لا يفارقه المرض . تترك عملها المنزلي ومهامها في البيت لتساعد في أمور المحل التجاري (في فلوريانوبوليس أصبح المحل أكبر ولم يعد كما كان سابقا لبيع المشروبات) . لقد وجدت نفسها ، بغض النظر عن أي شيء أنها دائما ويوميا في كد وكفاح . وربما كان جسمها قد تعود بطريقة لاواعية ولا ارادية على الكفاح والعمل . لقد كان جهادها جهادا في معركة خاسرة ، فقد شعرت بان كل شيء تقوم به يبقى شيئا احتماليا وبدون جدوى، فلا زوجها، ولا أولادها الذين يأتون لزيارتها أو الأقارب الذين يتوافدون ويأتون للتعزية ، ولا أحفادها كانوا يتمكنون من انقاذها من اللامبالاة .

لم يمض من الوقت الا القليل حتى ساءت صحتها ، وداهمها المرض الفجائي غير المبرر . كانت وحدها في غرفتها حين شعرت بالضعف وبالدواء، وفي حالة من الذهول فتمددت على الأريكة (كنباية) واحست ببداية النزيف ، فاستدعي لها الطبيب . أحالها الى المستشفى فورا بعد

اجراء الفحوص الطبية الضرورية والسريعة. وقد خضعت لسلسلة من الفحوص والاختبارات كاملة ، كما اجتمعت لجنة طبية خاصة املا في التوصل الى معرفة سبب مرضها من دون ان تتمكن اللجنة من الوقوف على السبب . لقد استسلم جسدها للمرض ، وفقدت عزيمتها ، وتوسدت منهكة لا تقوى على شيء .

وفي أقل من اسبوع رحلت تمينه عن هذه الدنيا لتشارك طفلها الأصغر في الرحيل . نعم . كانت ترى انها منقسمة على نفسها . مفتتة . فهنا في هذا العالم اولادها الذين يريدون الاحتفاظ بها لتبقى معهم ، وهنا رغبة زوجها الذي يريد لها ، وهنا أيضا احفادها الأوائل الذين يشدونها اليهم ، وهنا الشمس التي تتسرب خيوطها بهدوء من خلال النافذة ، وهنا ضوضاء الحياة وصوت الحياة وقوة الحياة ، ولكن مجرد قول . وهنا كانت المدينة التي تكيفت معها والتي اصبحت جزءا منها غير بيغواسو وغير أميون وغير كفرساروم . نعم هذا ما يجب قوله ، ولكن هناك شيء أقوى من كل شيء يجرها ويناديها بشكل حتمي ، ويجعل الحياة لا معنى لها ، فكيف تتحمل ذلك ؟

هكذا يصّر الجميع على ان الموت هو قدر لا مفر منه ، والأم تمينه لم ترتكب اي نوع من انواع الذنب مع انها كانت تعتبر نفسها مسؤولة عن موت ابنها . نعم كانت تردد ذلك مرارا وتكرارا كما حصل لها وهي في سكرات الموت . لقد كان ذلك المرض بمثابة سرطان ينخر فيها ويتآكلها مم دفعها الى القول : " نعم . أنا المذنبة . أنا أصريت ولا شيء يفيد في اخفاء الحقيقة ، وانا اردت ان تجري العملية الجراحية لسмир لأنني كنت أريد أن يشفى وأراه صحيحا

معافى وبكامل صحته لاحتفل جميعا بأعياد الميلاد ورأس السنة ، وهذا ما فعلته وساعدت فيه على قتل ولدي . لذلك ليس لدي بعد الآن أي شيء أقوم به في هذا العالم . يمكنكم الآن ان تواصلوا عيشكم من دوني ، ولا حاجة لكم بوجودي . سمير يناديني ، وهو بحاجة لي أكثر مما أنتم بحاجة الي . "

في الثالث من شهر آذار انبثقت الشمس وأرسلت حرارتها وضوءها في جميع الاتجاهات ، وكذلك بعثت الأمل والحياة ، ونضحت ببهجة الحياة وجمالها في تلك اللحظة التي كانت فيها تنطفئ شمعة تمينه وترحل عن هذه الدنيا بهدوء وسلام .

في سيرة يوسف الذاتية التي تحمل عنوان : " حياتي " نجد تسجيلاً لمأساتين . يقول عن الأولى : " ... أحسست بقشعريرة برودة في جسم الصبي ، وكنت متأكداً أن هناك خطراً على حياته . أمسكت بيده فلاحظت أنها كانت باردة ومن غير نبض ، ومسنّي نوع من الجنون فصرخت : كرمى الله ، وحبا لله ساعدوني . الطفل في خطر ، أنه يموت ، وقد يكون قد فارق الحياة ! "

أسرع الطبيب وأمسك بعصم يد الطفل الأخرى، وأخذ يجس نبضه ثم اعترف بالواقع وبدأ بإعطاء الطفل كل أنواع المواد المنشطة والحقن والأوكسجين. لكن كل ذلك لم يعط أي نتيجة وبقي الطفل جسماً هامداً بلا حراك . لقد فقدت مسار الأمور ، ورحت أطم وجهي ، ورأسي ، وأصرخ ، وأخبط على الأبواب ، وأركض من جانب إلى آخر كالمجنون حتى سقطت على الأرض . "

الوالد يوسف يبأس ويجهش بالبكاء ويصيح : " يا الهي ! يا لها من
مأساة تفوق التقدير ! ما هذه المصيبة المؤلمة ! لقد فقدت ولدي ! فقدت
حبيبي ! وحبیب أسرتي بأكملها ! والخوف الأكبر الآن أن أفقد
زوجتي ! ملكة بيتي . ولا أدري ما اذا كنت سأفقدھا بالموت أو
بالجنون ... "

كان يوسف يستشرف المستقبل بكل وضوح ، ويستبق ما سوف
يحدث لأسرته . ويتابع يوسف سرده فيكتب : " رافقوني الى حيث
جسمان ولدي حتى وصلت أمامه ، فوجدت زوجتي مرمية الى
جانب جسمان الطفل كما لو كانت جثة ميتة وبالقرب منها الراهبات
اللواتي كنَّ يبذلن ما باستطاعتهن من الجهود لانعاشها . وكان أشقاؤه
حوله يبكون ويزفون الدموع الحارة . يا لها من ساعة

مرّوة ، ومؤلمة ، ومؤثرة ! لقد انستني تلك الساعة كل آلامي وكل
ما تعرضت له من معاناة . جلست بالقرب من زوجتي ووضعت
رأسها على كتفي ، واحتضنتها الى أن استعادت وعيها ، وفتحت
عينيها ، واخذت بالانتعاش شيئاً فشيئاً ، وراحت تستريح على كتفي
، وتسالني :

فعلت بطفلنا يا يوسف ؟ طفلنا سمير ؟ ابننا الحبيب ؟ ثم راحت تتأوه
وتئن . وهنا لم استطع الجواب على أسئلتها الا عبر التتهيدات
والدموع ، فقلت : وهل الأب كان بإمكانه أن يتنبأ بما سيأتي ؟ "
ويتابع يوسف : " بعد شهر من المصيبة التي حلت علينا أصيبت
تمينه بمرض الوهن العصبي ، ولزمت السرير لأنها لم تعد قادرة
على الوقوف على رجليها أو ان رجليها لم تعودا قادرتين على حملها
وصار من الضروري كلما ارادت ان تمشي او تتحرك من مكان الى

آخر ان ندعو الطبيب الذي هو مدير المستشفى . فهو يعرف ابني الذي هو صديق ابنه وزميله في الدراسة ... " تبدو الأم تمينه انها تتعافى ، وتعاود كفاحها من جديد ، ولكن شيئاً في داخلها يمنعها من ذلك فتنهار . يظهر ان شيئاً في داخلها قد انكسر ولا يمكن اصلاحه. تخضع للمزيد من الفحوصات والاختبارات والتشخيصات تتعدى المشاكل الجسدية الى ما هو أكثر عمقا ويختص بمكونات الطبيعة النفسية التي أصيبت بداء عضال يتعذر علاجه . تحاول تمينه الاستجابة للعلاج بشكل واعي ، الا ان هذا لا يكفي . زوجها يعود ليصبح يوسف . هو يصف ان كل ما صاروا يقومون به أصبح بحثاً عن استقرار هش . ففي الفصل الذي يحمل عنوان

" شراء أرض لبناء منزل " يبدأ كما يلي :

" كنا في أحد الأيام مستلقين على السرير عندما قالت لي تمينه : - لن نسكن أبداً في منزل تعود ملكيته الينا أبداً اذا بقينا على هذه الحالة يا يوسف. فخلال كل هذه السنوات التي مضت كنا ندفع ايجارا ، وما دفعناه بدل الايجارات تجاوز ثمن منزلين او ثلاثة منازل . ولذلك فان علينا ان نشتري قطعة ارض ونقوم ببناء منزل عليها . ألا ترى أن ذلك سيكون أفضل لنا ؟ أجبتها :

- "أن هناك كثير من الناس يعيشون مثلنا ويدفعون ايجارا " . مع ذلك اخذت الفكرة تنمو وتكبر في رأسها ولم تنس ابداً هذا الموضوع وتقول باستمرار :

- "يجب علينا أن نبني منزلاً يكون ملكاً لنا " .

ربما اعتقد الوالد يوسف ان السبيل الوحيد لاستعادة عافية وصحة زوجته تمينه هو في بناء البيت ، ولهذا فقد ضحى بما يستطيع من أجل شراء قطعة من الأرض وبنى منزلا عليها بقرض حصل عليه من البنك الاقتصادي الفدرالي . انتقلت الأسرة الى المنزل الجديد بعد ان فرشته فرشاً لائقاً ووفرت فيه كل اسباب الراحة . وبعد ان استقرت العائلة في المنزل الجديد ، سال يوسف زوجته : - "هل أنت الآن سعيدة في المنزل الجديد يا عزيزتي ؟

" أجابت :-" أطلب من الله وآمل أن نعيش هنا في صحة وسعادة ، ولكن كيف يمكن أن أكون سعيدة تماما بعد تلك المأساة التي حلت بنا وقضت على ابننا الحبيب سمير؟ أو اه لو كنا نعيش في كوخ بسيط مصنوع من القش، وبقي نعيش معنا ذلك الملاك ! الانطباع الذي استمر في الجميع هو أن تمينه ، قبل ان تفارق الحياة ، كان

تريد في الوقت ذاته ان تطأ بيتا ويمكن ان تقول انه لها وتتركه بعد موتها الى أسرتها ومن يخصصها . وفي هذا المنزل الجديد لم يتوفر لها العيش أكثر من سنة . مرضت بعدها ونقلت الى المستشفى حيث كانت تقول فقط وتكرر : " اسمحو لي أن أذهب للقاء ولدي العزيز سمير،فليس لي من آمال في هذه الحياة بعده ". والشيء نفسه هو الذي حصل للزوج الذي هو يوسف أو جوزيف أو جوزي على الرغم من بقاءه على قيد الحياة لسنوات بعد رحيل زوجته . وعلى الرغم من ان هذه السيرة قد دونت في عام 1968 ، فانها كانت قد انتهت في عام 1956 عندما قال : " لقد حزنت عليها وسوف أعيش في حداد ما دمت حيا ،ولن يبتعد طيفها عن ذاكرتي وقلبي .

فأنا يتيم حبها الحب الذي غذيته ورعيته وحملته في قلبي ولا يمكن أن يكون لغيرها أبداً".

3 - الوقت مساء ، وحركة الشارع تزداد وتعج بالناس ، ويوسف الذي اصبح كهلا يجلس في زاويته المعتادة من الصالة ، ويضع على مسمعه مذياعه الصغير (راديو ترنزيستر) ينتظر نشرة الأخبار الخاصة بالبرازيل والعالم .فالعالم بشكل عام يعج بالعنف، والآلام، والصراعات المعيبة، والحروب، والاضطرابات، والخلافات، التي لا يستطيع ان يعتادها . والأخبار الايجابية التي تتحدث عن صالح الكائن الانساني وصالح البشر هي قليلة جدا . الوالد يوسف غير يائس ، ولكن متعب . أمله أن تتحسن الأحوال ، ولكنه مشكك لأنه لا يرى أي احتمالات لتحسنها . هو قانط ايضا من الصراعات في الشرق الأوسط . وفوق ذلك فانه يعاني من الانقلاب العسكري الذي حصل في البرازيل بعد القبض على ابنه . احساسه

بالتشاؤم يزداد ، ولكنه لا يستسلم . يفكر ، لا يجد احتمالات للفرج . قد صار في نهاية حياته ، ويريد أن يرحل للقاء زوجته ، وابنه . يريد عالما أفضل وأكثر ترابطا وتضامنا من أجل الانسانية، فهل يأتي يوم يعود فيه للانسانية رشدها وصوابها ؟ فالانسانية لم تتعلم على مر العصور ، ولا تتعلم الآن من دروس التاريخ ، ولا تتعب من الكم الكبير من حروب الغرائز ، ولا من المشاجرات والخلافات التي تحصل بين الأخوة ، ولا من سوء التفاهم بين الجيران !

فمع تقدم العمر وسيطرة الشيخوخة ، يشعر اكثر فاكثر بالوحدة ، ويفتقر الى رفقة المرأة التي تشاركه الحياة . تراه متدمرا مدمدا يلوم

زوجته تمينه ويقول " ما كان ينبغي ان تتركيني يا تمينه. أنا بحاجة اليك . أنا بدونك لا شيء " .

انه يعيش حالة من التمزق بين ما يسمعه في الراديو من الاخبار ، وما يحمله في ذاكرته من الذكريات والحنين والشوق الى زوجته ، والصدمة فوق الصدمة ، والانقلاب العسكري داخل الانقلاب ، والحكومة الثلاثية التي تسلمت مسؤولية السلطة للتو ، واصدرت المرسوم التشريعي رقم(أل-5) . فماذا سيأتي بعد الآن ؟ الزمن يكر ، والسنوات تمضي . يسافر الى الريو دي جانييرو في أقصى أيام فصل الشتاء الباردة ، وهناك يلزم زاويته الخاصة في الصلاة . سمعه خفيف وبالكاد يسمع . تعنتي به ابنته الكبرى فدوى تعيش معه والتي عاشت معه دائما ولم تفارقه . دائما تراه

صامتا ساكتا وكأنه شبح تقريبا . ينزل من الطبقة الثانية في البيت ويقول دمدمة وهمسا لابنته وبالكاد تفهم ما يقول : " أنا ذاهب الى لشراء الخبز والحليب يا ابنتي " دون ان ينتظر جوابا . يفتح الباب ويخرج ثم يغلقه بهدوء . وبدون ان يتأخر في المحل القريب من المنزل يعود ويدخل البيت بالوضعية نفسها وبكل هدوء ويقول مرة أخرى : سأذهب الى المطبخ وأعطي الخبز والحليب للخادمة . ويذهب من المطبخ الى الصلاة ومن الصلاة الى المطبخ ، ثم يعود الى الصلاة ويكرر للمرة الثالثة : سأصعد الى فوق لأرتاح قليلا يا ابنتي ، وبعد ذلك انزل لنتناول طعام العشاء . وهكذا دائما ، يوما بعد يوم . يقيم في المنزل أربعة أشخاص : الوالد يوسف ، وابنته الكبرى ، والخادمة ، وابن الخادمة . الحياة رتيبة دائما ، والمشهد هو نفسه يتكرر بشكل دائم . وفي أيام معينة يأتي

بعض الأصدقاء وخاصة في ساعة متأخرة من بعد الظهر أو العصر أو في المساء ليتحدثوا معه ، او يلعبون لعبة الطاولة ، ويسترجعون معه الماضي الى حد ما في البرازيل ، واكثر من ذلك عن لبنان . لكن ليس لبنان اليوم ، بل لبنان الماضي البعيد . يحدثهم عن مرحلة الطفولة البعيدة التي تصبح اكثر قربا بالنظر الى حلول الشيخوخة . يستلم بعض الرسائل التي تصل للتو ، وهذه الرسائل هي في الغالب من أبناء الوطن والأقارب وأولاد العمومة او الاخوال (بريموس) الكلمة التي اعتادوا ان يتنادوا بها بين بعضهم البعض . فالوالد هو من يستطيع قراءة الرسائل التي يصعب قراءتها بسبب وجود حروف غير مقروءة او ممحاة (فهل يوجد غيره هنا من يعرف القراءة والكتابة باللغة العربية ؟) ، فهو الذي يقرأ الرسائل التي تصل من الوطن ، وهو الذي يعلق على الأخبار ، ويناقش ويقترح ما يجب ان يجيبون به على تلك الرسائل . يقول مكررا : " يجب تغيير عدسات النظارات وزيادة نسبتها من أجل رؤية أفضل " .

دائما نجد الى جانب يوسف دفترا يسجل عليه ملاحظات ، ومقاطع من احداث من الحياة ، وتأملات ، وأفكار ، وحكم ، ومقتطفات من قراءات قديمة . فهل هذا دفتر أو جهاز محمول ؟ والحق انه الاثنان معا تقريبا . ففيه أولا سيرة حياته الذاتية ، وفيه ثانيا الأفكار ، والحكم ، ومقاطع من القصائد الشعرية ، ومشاكل واحداث يومية ، وفواتير للدفع ، وديون الزبائن التي لن تسدد أبدا . الآن بالكاد يستطيع القراءة ، او أنه لا يقدر ان يقرأ شيئا . وهذا ما يشكل له كربا ومرارة . حينه اذن للراديو الذي يبقى ملتصقا به . يطلب تشغيل التلفزيون للاستماع أكثر من الرؤية . لا يستطيع رؤية سوى أطياف وظلال

متوترة ومهتزة . يريد أن يقرأوا له شيئاً من صحيفة أو مجلة ، وينسى كل شيء من حوله ويضيع في عالمه الخاص . نادراً ما يذهب الى ساحة 15 نوفمبر (براسا كينزي دي نوفمبرو) . وعندما يذهب الى الساحة يجلس تحت شجرة التين المئوية ويستند الى عصاه . يتحدث ويطلق الحديث مع بعض الكهول المتقاعدين الذين لم يلتق بهم منذ مدة طويلة ، ويبقى يحدث حتى يأتي من ينبهه الى ان الوقت اقترب من الليل ، أو ان الهواء الجنوبي المزعج بدأ يهب، أو ان رذاذ المطر الخفيف بدأ يتساقط . عند هذا الحد ينهض بصعوبة كما لو انه أعرج ، ويمسك بعصاه ويبدأ بالمشي متوكأ عليها لتساعده على التثبيت كي لا يقع على الارض ، ويسير ببطء وهدوء على ايقاع العصا ، (بلاك ، بلاك) حتى يصل الى موقف سيارات الأجرة ... الوقت يمر بطيئاً ، لزجاً دون ان يشعر ان الليل قد أظلم جداً ، ولا ينتبه الا عندما تصل الخادمة وتقول له : "هلى سنبقى بدون عشاء اليوم يا سيد زي ؟ لقد مضى وقت طويل وأنت لا تزال هنا " . يدرك الوالد بعد كلام الخادمة ان الوقت صار ليلاً . وصار الليل مظلماً ، وتلاشت الحركة في الشارع ، فيطلب من الخادمة ان تصعد وتنادي ابنته لأن ليس من المجدي الصياح على ابنته التي يمكن ان تكون غير منتبهة أو غافية . يذهب مع الخادمة الى البيت وعندما يصلا تتوجه الخادمة الى المطبخ لتحضر طعام العشاء . بعد الوصول الى المنزل بقليل يصعد ابنه الى الطبقة الثانية وفجأة تنفجر صرخة قوية في كل انحاء المنزل ممزقة السكون ونافذة من الجدران ، فتقفز الهرة التي كانت غافية امام الباب مذعورة ، ويترك الوالد الراديو جانبا . ويتكرر الصياح وينزل حفيده الى الطبقة السفلى من

المنزل ، وتصعد أمه الدرج الى الطبقة العليا ثم تعود راکضة متأوهة باكية قائلة : " يا للمأساة ! ما هذه المصيبة ! يا الهي ! لقد ماتت ابنتك فدوى يا سيد زي ! " بعد لحظة من الصدمة يقول السيد يوسف : " ماتت ؟ كيف ؟ اتركي هذا الهراء والكلام الفارغ يا امرأة . أي موت هذا ؟ كيف ماتت ؟ لقد سعدت منذ قليل لترتاح قليلا ثم تنزل لتناول طعام العشاء " .

لم يمر من الوقت الا القليل حتى بدأت الاتصالات الهاتفية وبدأ توافد الأخوة ، والأقرباء ، والأصدقاء ، واستدعي أيضا الطبيب . ولكن ماذا يستطيع الطبيب ان يفعل اذا كانت فدوى قد فارقت الحياة ؟ لقد حضر الطبيب ، ولكن ليوقع على شهادة الوفاة . كانت الأبنة فدوى قد سعدت الى الغرفة ، ودخلت غرفة الحمام لتستحم . ارتدت سترتها الداخلية واختارت بعض ملابسها التي سترتديها بعد الحمام قبل ان تذهب للعشاء ووضعت الثياب على كرسيين بالقرب من السرير ووضعت منشفة على جسمها ، وقبل ان تستحم تمددت على السرير، ووضعت أرجلها على الكراسي ثم استسلمت للموت هكذا بكل بساطة تماما كما كانت تعيش بالبساطة ، وفي الظل من دون ان تريد أي حضور بارز لشخصها ، ومن دون أن تكلف أحداً اي مسؤولية أو تزعج أحد ، ومن دون أن يكون لها مساحة خاصة معينة اللهم الا عندما كانت تصاب بأزمة (كريمة) من الأزمات التي كانت تنتابها ، فتبدو عندها وكأنها شخصا آخر وغير ما هي عليه في الواقع . الأزمات التي صارت بفعل الأدوية الحديثة أكثر تباعداً وأقل حدة .

مهما كانت الجهود التي يبذلها نجل السيد يوسف وشقيق فدوى الذي كان يعيش في الريو دي جانييرو، والذي علم بخبر الوفاة في اليوم التالي بواسطة الهاتف ، فانه لم يجد تعريفا لحياة تلك الفتاة سوى انها كانت تعيش من دون ان تعيش . فهل كان ذلك حقا ؟ واذا اردنا البحث عن اجابة مرضية ، فما هو في الأخير العيش ؟ وماذا يعني أن نعيش ؟ وهل نعرف لماذا هذا الكفاح الشاق ؟ وبحثا عن ماذا كل هذا الكفاح ؟ عن الشهرة ؟ أم عن الثروة ؟ أو عن تحقيق الذات ؟ أو الرضا ؟ أو... ؟... ؟ أو المكنونات والتحفظات التي لم تجد حلا ؟ أو بحثا عن لا شيء ؟ أو عن السكينة أو السعادة القصوى (النرفانا) ؟ اليست الحياة تمر الا كما لو كانت غيوم بيضاء ؟

القراءات كثيرة لا تنتهي، وهي الأكثر تنوعا منذ مرحلة الطفولة المبكرة ، ويمكن رؤية كل شيء بحسب وجهة النظر التي نجدها في الكتب ، والتي أصبحت جزءاً جوهريا من أجزاء حياة الكائن البشري تقريبا . ومهما صارع وكافح حين يفكر بحياة شقيقته فدوى لا يمكن له الا ان يعود الى الذاكرة والذكريات وبخاصة اثنتين من الذكريات تركتا أثرا عميقا وبقينا حاضرتين دائماً .

انهما حياتان متوازيتان ومشابهتان لحياة فدوى تحت مظاهر مختلفة بحيث ان اعادة القراءة لهما تؤدي في نهاية المطاف الى المزج وعدم التمييز بينها وبين حياة او (لا حياة) شقيقته : نفس غوستاف فلوبير البسيطة ، وعيشة أوتران دورادو. ففي حالة فلوبير ، فان مسار حياته كان مجرد مسحة من السعادة خلقتها له السيدة أوبيان ، وصاغها المؤلف في كلمات وردت في رسالة الى صديقة مثل " رواية حياة غامضة لفتاة ريفية فقيرة ، نذرت نفسها للتقى وبالتالي

تزهدت غير أبهة بتكريم سوى الحصول على رغيف خبز طازج " فمع ان القصة على قدر من البساطة ،وان لم تكن دقيقة ، فانها لا تتركنا بدون أن تشدنا اليها بما حملته من روح انسانية مكثفة ، والمؤلف يريد ان يثير الشفقة والحنان ، ويحمل النفوس الحساسة على الانفعال والبكاء " . أما في حالة أوتران دورادو فعندنا النسبية بريما ببيلا المقتلعة من جذورها ، والتي في الجملة الأولى من النص يريد فيها المؤلف أن يجعلنا ندخل في عالم عرضه الخيالي عندما يقول : " ان الذي أعطى فكرة ان ياتي بابنة العم بريما ببيلا الى المدينة كان كوستانسا " . ومن هذا يفهم ان بريما ببيلا لم يُسمع رأيها .

لقد أتت بمثابة قطعة أو دمية ليكتمل المشهد ليس ألا . وفدوى أتت استجابة لمفهوم ومودة الأسرة ايضا تماما كما حصل مع ببيلا وبنفس الطريقة التي جلبت بها بريما ببيلا . لقد جاءت الى حيث تريد أسرتها بعامل حبها لأسرتها . الحب الصامت . والعطاء التبرعي لأنها كانت ترى العالم بعيون الآخرين . أوليس هذا هو الوهم أن تكون النظرة الخاصة للشخص ان يرى العالم بعيون غيره ؟ الحقيقة في نهاية المطاف اننا أمام الهرة طيرة رقم اثنين التي تستودعها آلامها وأفراحها الصغيرة ، وأحزانها وكأنهما نفسان توأم ورفاق روح . وهكذا وبالمثل " تبدأ بريما ببيلا تتمسك وتتعلق بالكلب الصغير وتبدأ تشعر معه برقة ناعمة ، وبعاطفة شديدة نحوذلك الكلب الريفي الذي يعيش وحيدا ولا أحد يعتني به . انها ترغب ان تحك بيدها رأس ذلك الكلب . فما الذي حدث لأذنه الذابلة ؟ ولمخلبه المنكمش ؟ " من اعماق اعاق الذاكرة ، وبعد مرور أعوام

وأعوام تقف الشقيقة فدوى ، وتنتصب بوجهها الهاديء اللطيف ،
ويديها الغارقتين في جيوب فسطانها تسأل وتستنطق الهواء الساخر
وغير العادي : ماذا تعرف عني ؟ وماذا يعرف الجميع عني ؟ وما
تعلموا من عيشتي ؟ حتى الآن وهم يحاولون تحديدي وفك بعض
الغوامض عندما كنت لا أزال على قيد الحياة ...

أرى أن بعض الكلمات غير متوفرة . غائبة . أريد ولا أريد أن
أمضي قدما ، لماذا ألوم الآخرين ؟ انها تفكر ، وتقول لنفسها : انهم
دائما سعوا لكي يفهموني بدون أن يتمكنوا من فهمي . ولكن لا .
تنتفض وتقول : في هذه الحالة الذنب ذنبي والخطأ خطأي لأنني لم
أكن أعرف كيف أعيش حياتي ، وأتخذ لنفسي مسارا غير مسار
الآخرين ، ومستقلا عن مسار الآخرين ، وأطلب أن أعيش ملء
الحياة وليس العيش الزائف . وما هي الحياة الكاملة ؟ وما هو شكلها
؟ وكيف تكون ؟ ان فدوى لا تعرف . أو ان أشقاءها لا يعرفون ولا
الأصدقاء : الا يعرف هذا شقيقها الذي يسعى الى اعادة بنائها ؟ الذي
يحاول استرداد شخصيتها من أجل أن يفهمها بشكل أفضل ومن
خلالها يفهم الحياة؟! ان صورة فدوى تظهر وتختفي ، تأتي وتذهب
في لعبة الاختباء والظهور كما يقول البعض : هيا امضي ، وامشي .
استخدم معرفتك وعلمك ، واذا كان بإمكانك أن تفك الرموز من
خلالي ، ففك معنى الحياة ومعنى العيش ايضا .

الفصل الثلاثون

البذور

غبت وصمت في الطبقة السفلى من المنزل. تتوسط الغرفة سجادة .
ويظهر ايضا في الغرفة سرير، وخزانة، وطاولة مكتب ، وكرسيين ،
وطاولة صغيرة الى جانب السرير وعليها كوب من الماء ، وزجاجة
دواء . ونور خافت جدا ينبعث من المصباح بجانب السرير . الوالد
يوسف في حالة احتضار ينازع . الطبيب قد حذر بان لا يتعب ولا
يسهب . انه المرض ، وكذلك الشبخوخة أيضا لها تأثيرها . وجهاز
الجسم الفيزيائي منهك ولم يعد يعمل كما ينبغي . في كل زوايا البيت
قلق عارم وانتظار : في الصلاة ، في غرفة الطعام ، على الشرفة ،
في المطبخ ، في غرف الطبقة العليا من المنزل ، في الحديقة
الصغيرة ، في الفناء الخلفي ، تحت كرمة العنب التي كان يوسف قد
زرعها ، والتي كان دائما يهتم ويعتني بها بكل محبة ، ولم ينساها
في اي ظرف أبدا ، وقد كان ينبه الى ان الوقت قد حان لتشيبيها .
انه فصل الشتاء وهذه الفترة الحسنة لتغيرات القمر . كان ينادي كل
من حوله ان تعالوا وانظروا اوائل الأوراق الخضراء وكان يكرر
في كل عام القول: هيا تعالوا ، وشاهدوا ، وتذوقوا طعم هذا العنب
الذي ينادي ابنته والخادمة ويقول لهما هذا هو الأوان الصحيح
لنضوج العنب ، وهذا العنقود من العنب في تمام نضجه . يقطف
أوراق العنب الخضراء الطرية المفعمة بالحيوية ويردد : هيا نعمل
طبخة ملفوف من ورق العنب ، فورق العنب أذ من ورق الملفوف ،

وأفضل ، وصحي أكثر . تراه فخورا ومزدهيا بمنزله وبملكته المتواضعة (اذا كانت تستحق هذه التسمية) . يقول : ان هذا المنزل هو الشيء الوحيد الذي أملكه بعد أكثر من ستين عاما من الكفاح في البرازيل. وزوجتي تمينيه هي التي أرادت ذلك. كيف أقول لها لا وأرفض طلبها في ذلك الوقت ؟ يكرر كلامه ، ولكن بابتسامة حزينة وتتغير ملامح وجهه باعتبار ان المنزل لا يزال مرهونا للمصرف الاقتصادي الفيدرالي : " لا أشكو ولا أندم " . يقع المنزل في شارع أفينيدا ريو برانكو رقم (84) في مدينة فلوريانوبوليس في ولاية سانتا كاتارينا . وقد اعتاد الوالد يوسف ان يردد دائما ان هذا المنزل هو نقطة لقاء يجتمع فيه الأقارب وأبناء بلده والأصدقاء . وهذا ما حصل على مر السنين منذ بنائه والاقامة فيه . الآن يوشوشون بالقرب من الأسرة أوبعيدا عنها (ويفضلون ان يكون ذلك بعيدا عنها) كما لو كان تلمسا وهمسا . انها نهاية المطاف، ولا وجود لمخرج ، وبدون تأخير . من يدري اذا كان ... فبعض الأحيان تكون مقاومة الانسان بدون تفسير، ولا يمكن تفسيرها... ومن غير ان تنتهي الجمل يرددون ما ينبغي عليهم قوله من كلمات التعزية والمواساة ، ويستشهدون بمقاطع من جو حياة السيد يوسف (زي) او كما كانوا ينادونه باسم ميغال ولا ينسون اسم (يوسف غير المتوقع) . يحاولون الترويح عن انفسهم وتذكر اللحظات المماثلة بهدف تشجيع وتقوية عزيمة الأولاد ويأخذون أحد أولاده الى زاوية من زوايا البيت ويسأل أحد الحضور : هل تتذكر ابن العم الياس؟ آخر يسأل : وابراهيم ؟ واسكندر ؟ وال ... الذي خاب أمه باللجان الطبية ولا يزال قويا ومتينا حتى اليوم ؟ ومن يدري ، فقد نموت قبله ويدفننا

بدل ان ندفنه ؟ . لكن كل هذا الكلام هراء وباطل ، فالنتيجة تقترب ، والطبيب قد أوضح كل شيء ، وكلامه كان مستفيضا وهذه اللحظة هي المحطة الأخيرة . ومنعا للشك يضيف الطبيب على مسمع الأولاد : " اذا كنتم تريدون ان تستدعوا أطباء آخرين أو لجنة طبية ، فانا لا أمانع . هذا من حق الأسرة . بإمكانكم ان تطلبوا من ترغبون من الأطباء . انا افهم هذا لأنني ألاحظ ان بعض افراد العائلة غير مرتاحين للنتيجة وغير موافقين . انا اعلم هذه الأمور ولا تخفى عليّ . ثم يعود ويقول لهم : لا أريد أن أخدعكم ، فانا أعتقد أن علينا أن نعزم ونستمر في اعطائه هذه الأدوية فقط، فهي التي تخفف من آلامه . ويتابع حديثه: أنا لن أوافق على إجراء عملية جراحية أبدا كما اقترح البعض . يؤكد لهم ايضا ان والدكم سيعاني من الألم فقط . وأقول أكثر من ذلك ان والدكم قد لا يقدر له ان يخرج من غرفة العملية وهو على قيد الحياة . واذا قدر له ان يخرج حيا ، فليس سوى بمزيد من الوجع والمعاناة فقط . فأني توقع لبقائه على قيد الحياة هو عديم الفائدة . النتيجة المتوقعة المنتظرة سوف تكون بعد أيام وربما ساعات وهذه النتيجة تعتمد فقط على القلب اذا استمر راسخا ونشيطا . وهذه المرة ليست كالمرة السابقة التي تعرض فيها الوالد لذبحه قلبية وخرج معافى منها وكان مريضا بالسكري . "

وجهه يوسف متجدد ضعيف ، وجسمه هزيل متآكل، ويبدو ان جسده تقلص وصار أصغر . انه ينتظر النهاية التي لا هوادة فيها ولا مفر منها . هل لا يزال في وعيه أم انه في غيبوبة وينتظر لحظة الوفاة ؟ انه في غيبوبة الموت وينازع . يعود وعيه ثم يغيب ثم يهدأ . انه في

حالة هذيان تختلط بحالة صفاء . موجة من الهلوسات والهذيان تبدو عليه .

يشير الى سقف الغرفة والى الجدران والنافذة ايضا . يتنهد ويئن .
ينادي بصوت مرتجف : أمز . أمز . يريد ان تكون الأم بقربه . أي امرأة ؟ هل يريد زوجته تمينه أم الأم الأخرى التي لم يتحدث عنها سوى القليل ؟ أم يريد الإثنتين ؟ تخرج من فمه كلمات هي خليط من البرتغالية والعربية يقول : أريد ان أذهب الى البيت . الى مينيا كازا أي بيتي . ارضي في الكورة . بلادي . لماذا هاجرت ؟ الهجرة لا تحسن ... يشرد ويهيم . يسكت قليلا . يتخيل نفسه في بيغواسو يريد ان يتكلم مع ابن عمه ابراهيم ومع حنا الصغير (جوان زينيو) .
يسأل اذا كان الذين حوله قد شاهدوا جوان ديدينيو . وفجأة تكون الكلمة الوحيدة التي يلفظها وكان يرددتها : غريب . غريب ويكررها على مسمع كل من جاء ليزوره في الآونة الأخيرة . كان يقولها لأولاده ، لأصدقائه ، لأقاربه : " مهما حاول المرء وجاهد من أجل أن يتكيف في بلاد غير بلاده ، فانه من دون قصد ومن غير أن يريد ، ومن غير ان يدري فانه أحيانا يشعر أنه غريب" . ويحس بالخرج فورا ، فيتراجع خجلا ويقول : غريب كيف ؟ لا . أليس أحب لو كانت هنا بلدتي العزيزة ؟ (بلدته في الكورة) . الكلمات تخرج من فمه مفردة وتتبعثر وتشكل لوحة غير مألوفة في غرفة المريض وتمتد متجاوزة الصالة حتى تتلاشى في البعيد في ألفاظ عربية وبرتغالية مثل : حبيب . عاش . حياة . موت . سلام عليكم . نور . كيفك . خير . أب . ابن . أحب . أحب نعم . ذكرى . ذكريات . أبي . أم . أمي أريد لبنية من حليب الماعز . مجردة . جرعة من العرق فقط

على الكرسي بجانب الوالد تجلس احدى كناته اللواتي يتناوبن مع بناتهن على البقاء بقرب السيد يوسف . تقول لمن كان قريبا : لقد فهمت ما يريد من كلمة العرق ، ولكن من المستحيل ان نقدم له العرق بل أخذت كوبا من الماء، وقطعة من القطن بللتها بالماء وراحت تبلل شفتيه الجافتين بها ، وترطبهما بكل لطافة وهدوء بينما هو يهز برأسه ، ويطرّي بلسانه شفتيه. في الصالة المجاورة للغرفة التي يتمدد فيها يوسف كان يجتمع فيها أولاده ، وزوجات أولاده ، وصهره ، وأحفاده ، والأقارب الذين يريدون معرفة الأخبار والاطمئنان عن حالته . الأصدقاء ايضا ، منهم من يتصل هاتفيا لمعرفة حالته الصحية ، ومنهم من يأتي ليراه فيصلون حتى باب غرفته فقط للحظة ثم ينسحبون لكي لا يزعجوه. الجميع مندهشون لمقاومة هذا الرجل الكهل للمرض وهو الذي ما زال يعيش مريضا منذ مدة طويلة وقد بلغ ما يقارب الخامسة والثمانين عاما من العمر (85 عاما) ، والكل يقولون انه سيعيش فترة أطول وسيعاود العمل . لا أحد يحب ان يبقى طويلا الى جانب المرضى وخصوصا الميؤوس من شفائهم . فالأفضل ان تكون زيارتهم قصيرة لغرفة المريض . البعض يحب ان يزور المرضى ويهتم بهم . لكن زيارة المريض ، في الحقيقة ، هي واجب ، وقد اعتاد الناس الالتزام بواجب زيارة المريض . الآن يطل شخص من باب غرفة النوم التي يتمدد فيها يوسف . يتوقف قليلا . يتردد قبل ان يدخل الغرفة . يبدأ بالدخول ثم يتراجع . يريد ان يمر مرور الكرام من دون ان يلاحظه أحد . ينظر فقط من غير احداث أي ضجيج . يتقدم خطوة الى الأمام ثم يكمل حتى يصل الى جانب سرير يوسف ويتوقف . انه متوتر .

عاطفي ومتأثر لا يستطيع التفوه بكلمة واحدة . هو لا يريد ان يسترعي انتباه الوالد يوسف . يريد ان يراه فقط . ولكن يوسف يحس بوجود شخص الى جانبه ، فيسأل بصوت ضعيف بالكاد يُسمع : " من أنت؟ " انا كنتك . بعد ان تجيبه الكنة يقوم باشارة بأصبعه التي بالكاد يستطيع تحريكها ويعني بها ان تنهض وتأتي وتجلس الى جانبه . الكنة أي زوجة ابنه تجلس الى جانبه وتستريح قليلا ثم تخرج . يمد يوسف يده بحركة بطيئة . يده الباردة . الباردة كالجليد . يلتقطها ابنه بكتا يديه الاثنتين معا . يقوم بحركة أخرى تعني ان يقرب ابنه رأسه من ابيه . ينحني ولده أكثر ، فأكثر ، فأكثر حتى يتلامس الرأسان . ابنه فهم مقصوده ، فقرب أذنه من فم ابيه . بدأت الكلمات تخرج من فمه مع لهاث الموت، ورائحة الوفاة . تخرج الألفاظ نتفة نتفة كأنها مقاطع حروف . تفصل ما بينها فواصل صمت حتى اكتملت وتشكلت الجملة التي من شأنها ان تثبت الى الأبد بشكل لا يمحي في عقل ابنه . وهي الكلمات النهائية الأخيرة التي تلفظ بها الوالد يوسف بشكل متماسك : " ابني . حبيبي . انها دورة الحياة . الحياة التي تريد . والله سأبقى كبذرة وأذهب . لقد دنت الساعة ، وحان الرحيل . لقد تأخرت كثيرا قبل ان أغادر وأذهب للقاء تمينه وسمير وهدوى... " السكون يطبق ويخيم . يعزل الجميع . السكون الثقيل يسحق ، وابن يوسف لا يستطيع الكلام ، وليس عنده ما ينطق به ، وماذا بإمكانه أن يقول ؟ فمع مرور الزمن لم يبق شيء ، ولن يكلم والده بعد اليوم أبدا . ولم يجد تفسيراً لما بدا وكيف جاءت الجملة بالفعل كاملة ، نهائية . جملة هي كثيرا ما تكررت على لسان الوالد يوسف طوال أشهر المرض . والابن لا

يستطيع ان يعرف حقيقة اذا ما كان والده قد اضافها عند سكرات الموت في جهد نهائي . وهذا ما يتناسب مع ما قيل وفي لحظة الاندماج الكامل ليستوعب الابن ما حاول الأب ان يتمكن بصوته الخافت ان ينقله ، والذي كان : نعم . ابني . نعم . ابني . بذور . أترك . ابنائي . أحفادي . أجيال جديدة سوف تواصل استمرارى...

وترتخي يد الوالد لتحرر يد ابنه ، وتسقط دون حراك ، وينهض الابن ويخرج من الغرفة على غير هدى غير مالك السيطرة على عاطفته ، ولا على دموعه ، ويهرب من الآخرين ، ويدخل غرفة الطعام ، فالمطبخ ، فالفناء الخلفي . لا يريد التحدث مع أحد ، ولا يجيب على ما يسألونه . ثم يصعد الى الطبة الثانية من المنزل ، ويمشي من غرفة الى أخرى ، ومن جانب الى جانب . ويغلب عليه الشعور الأناني فلا يفكر أو يهتم بالآخرين كما لو كان الألم أصابه وحده فقط .

لقد أطبق الليل ، وخيم السكون والحزن على كل شيء وكان ذلك في شهر حزيران موعد عيد القديس سان جوان . الحركة نادرة في نقطة لا تبعد كثيرا عن النار المشتعلة ، والدخان ، والشرار المتطاير من مكان الى آخر مع هبوب النسيم في ليل تناثرت نجومه في السماء . الجو خائق ، والتنفس صعب ، والوالد متمدد على السرير يحتضر ، ويده الباردة تلتقط كتابا وتريد ان تتصفحه من غير ان يرى . يريد ان يلتقط كلمة من هنا وأخرى من هناك، ولكن بدون جدوى مثل أحرف : (اس ، سي) وتختلط الخطوط ، والكتاب يسقط على الأرض . هل هو غافي ؟ الأصوات تزداد وترتفع. هناك حركة

غير مألوفة . ينادون ابن يوسف . ينزل الى الطبقة السفلى من البيت
متنهدا ، منتحبا ، باكيا . وعندما يصل الى الدرجة الأخيرة من
الدرج يسمع الخبر الحزين على الرغم من ان الخبر صار معروفا
ولم يعد يسبب مفاجأة أكبر : لقد مات للتو الوالد يوسف .

الفهرس

الاهداء

نبذة عن حياة الكاتب	
001 - الفصل الاول	نور
021 - الفصل الثاني	مأوى
027 - الفصل الثالث	الحظ
031 - الفصل الرابع	التعارف
041 - الفصل الخامس	الناس
047 - الفصل السادس	المحبة
051 - الفصل السابع	الاسم
057 - الفصل الثامن	المجهول
065 - الفصل التاسع	الرحيل
071 - الفصل العاشر	الخيار
085 - الفصل الحادي عشر	المعكرونة
093 - الفصل الثاني عشر	الخوف
099 - الفصل الثالث عشر	البائع المتجول
113 - الفصل الرابع عشر	الإنتباه
118 - الفصل الخامس عشر	سوء التفاهم
123 - الفصل السادس عشر	غرينغو(الغريب)
131 - الفصل السابع عشر	طيرة
145 - الفصل الثامن عشر	بيغواسو
151 - الفصل التاسع عشر	الحظ
159 - الفصل العشرون	الجدّ
165 - الفصل الواحد والعشرون	الرعب
179 - الفصل الثاني والعشرون	فلورينوبوليس
189 - الفصل الثالث والعشرون	الإغراء
209 - الفصل الرابع والعشرون	الطقوس
215 - الفصل الخامس والعشرون	النرد
225 - الفصل السادس والعشرون	الإعتزاز
241 - الفصل السابع والعشرون	الخيوط
301 - الفصل الثامن والعشرون	الملامح
365 - الفصل التاسع والعشرون	الوفيات
393 - الفصل الثلاثون النهاية	البذور

صدر للمترجم

- مجموعة شعرية
 - انتصار الحياة : مسرحية شعرية
 - دراسة في الفلسفة القومية الاجتماعية
 - دراسة في النظام القومي الاجتماعي
 - لهب النهضة : شعر
 - ترجمة محاضرات في العقيدة القومية الاجتماعية الى اللغة البرتغالية للمعلم أنطون سعاد
 - القاموس البرتغالي - العربي
 - القاموس العربي - البرتغالي
 - أوراق للحياة : مجموعة مقالات
 - قصائد للنهضة : شعر
 - قصائد مضيئة : شعر
 - قطرات من نور : شعر
 - اعداد نوافذ على الفلسفة المدرجية
 - القاموس الجامع : برتغالي - عربي و عربي - برتغالي
 - مفاهيم قومية اجتماعية : مجموعة مقالات
 - على مشارف النور : شعر
 - ترجمة كتاب "نشوء الأمم" من العربية الى اللغة البرتغالية للمعلم وعالم الاجتماع أنطون سعاد
 - ترجمة قصة "نور في الظلام" من البرتغالية الى العربية للكاتب سليم ميغال بطلب من دار الكتب الوطنية العامة في البرازيل بهدف نشر الثقافة البرازيلية وقد غيرت لجنة النشر في بيروت العنوان وأعطت القصة عنوانا آخر هو : الكورة البرازيل ذهابا وايابا
 - نوافير نور : شعر
 - أضواء سورية قومية اجتماعية : مقالات ورسائل
 - أنطون سعاد العالم الاجتماعي والفيلسوف باللغتين : العربية والبرتغالية
 - كلام للأجيال : مقالات ورسائل
 - التاريخ لا يرحم الجبناء : مقالات
 - أقوال مأثورة للشاعر المنسي بوبليو السوري
- للطباعة :**

- مجموعة شعرية
- مجموعة محاضرات ودراسات
- مختارات مترجمة من العربية الى البرتغالية
- مختارات مترجمة من البرتغالية الى العربية

Youssef Mousmar

Rua Emiliano Pernetá, 195 Apt. 132

CEP : 89910 – 050

Curitiba – Paraná – Brasil

Fone : 0055 – 41 – 3322 8573

e-mail :youssefmousmar@hotmail.com

Site :www.arabeportugues.com.br